

شبهات ومطاعن الاستشراق الديني

في مواجهة الإسلام

ونبوة محمد ﷺ ؟

محمد ﷺ
صلى الله
عليه
وسلم

د. راجح إبراهيم السباتين

الألوكة

www.alukah.net

شبهات ومطاعن الاستشراق الديني
في مواجهة

الإسلام ونبوة محمد ﷺ

(الحكاية الوافية والردود الشافية)

الدكتور

راجح إبراهيم السباتين

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠١٠/٨/٣١٣٠)

٢٤٥

السبائين، راجح إبراهيم محمد
شبهات ومطاعن الاستشراق الديني في مواجهة الإسلام ونبوة محمد ﷺ
/ راجح إبراهيم محمد السبائين - عمان: المؤلف، ٢٠١٠

(ص)

ر.إ: ٢٠١٠/٨/٣١٣٠

الواصفات: الاستشراق والمستشرقون // الإسلام // الوعظ والارشاد

١. هذا الكتاب مجهود فردي خالص، لا يهدف لتحقيق ربح أو منفعة مادية وهو بحاجة إلى حمة أو مؤسسة علمية تقوم بدعمه ونشره وترجمته دون اعتبار للربح أو المنفعة المادية. للراغبين في ذلك يرجى الاتصال على رقم الجوال ٠٠٩٦٢٢٧٩٥٦٦٩٠٩٣.
٢. جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو نقله بأي شكل من أشكال أو وسائط نقل المعلومات إلكترونياً أو ميكانيكياً بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع بهدف تحقيق الربح والمنفعة المادية دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

الإهداء

- لأُمِّي وأبي الكريمين الحبيبين، ففي رضاها كلُّ البركة، وفي دعائها كلُّ التوفيق والبهجة معترفاً ومُبتجهاً ومُقرّاً بفضلها وحرصها وسهرها وقلقها الدائم علينا.

- لشريكتي ورفيقة دربي ومفتاح النَّجاح في كلِّ ما كتبتُ، زوجتي الغالية التي قهرت كلَّ الظروف بصدق توكلُّها على الله، فصبرت واحتسبت وطوّعت العوائق والصَّعوبات، وقبلت أن تكون الجنديَّ المجهول الذي يصنع وبراءة كلِّ مفاتيح النَّصر والنجاح بعيداً عن الأضواء وحُبِّ الظَّهور. مستذكراً أياماً جميلةً قضيناها في مرحلة الدراسة والبحث ومجهوداً طيباً مباركاً قد أقضي العمر كلُّه ولا أقدر على ردِّ معشارٍ منه أو يزيد. فكان حالها معي كما قال الشاعر:

قامت تظللني من الشمس نفسٌ أعزَّ عليّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجبٍ شمسٌ تظللني من الشمس!!!

- لأولادي الأحباء عمر وعلاء وعبد الرحمن، شاكرًا لهم التزامهم الخلق الحسن والمواظبة على الصلّاة في وقتها والجدّية في الدراسة والتحصيل العلمي.

- للعزیز الغالي أمين، الصّابر، القدوة، المثابر، الرّجل الذي أنفق سنوات عمره يسعى على عباد الله ينقّس كرباتهم ويهوّن عليهم، فجزاه الله عنهم وعني خير الجزاء وبارك فيه.

- للعزیز الغالي أيسر، الذي كان كبيراً بكلِّ ما تحمله الكلمة من مدلولاتٍ، فتشجيعه وعطاؤه كان سبباً لاستمراره في الدراسة والبحث. سائلين المولى تعالى أن يكتب لنا يوماً نرى فيه مالكا وسارة ومشتقاتها يطلبون العلم على مقاعد الدراسة الجامعية. وأن يكتب لأيسر أن يأكل من خيرهم وثمرهم، إنّه على ذلك لتقدير.

- للعزیز الغالي فراس في بداية سيره على درب الحياة الزوجية مع تمنّياتنا له بكلِّ الخير والتوفيق واليمن والبركة.

- للشاهدين على هذا العصر، المحاصرين في عزة وقد أثختهم الجراح وأعياهم الجوع والعطش
وظلم ذوي القربى، مستحضرين حصار المسلمين الأوائل في شغب أبي طالب في
سيناريو "التاريخ يعيد نفسه". ما وددت أن أكون إلا معهم وبينهم، لأشارك في شرف
رفع الحصار يحدوني الأمل بفرح قريب يعيد البسمة لوجوه أبنائهم وبناتهم ولو بعد
حين...

شكر وتقدير

لا يسعني في هذه الصّفحة المخصّصة لشكر المساهمين في إنجاح هذا البحث إلا أن أتقدّم بالشكر الجزيل والامتنان الوافر للسادة الأفاضل:

١. البروفسور عبد المقصود حامد عبد المقصود، جبل العلم الراسخ ونور وجهه الشامخ.

٢. الأستاذ عبد المحسن أبو شخيدم وابنه العزيز المشعل الوضّاء.

٣. الأساتذة والزملاء الأفاضل محمد توفيق البستنجي وناصر الهندي وفارس أسعد الحواري، مصايح المعرفة في عصرٍ غلبت عليه العقول الظلمة.

٤. الأستاذة إلهام محفوظ صالح خبيرة اللغة العربيّة التي كان خيرَ ناقدٍ ومُحصِّصٍ للمادة العلميّة التي احتواها هذا الكتاب وأجهدت نفسها كثيراً في سبيل خروجه إلى النور خالياً من المثالب والأخطاء.

فهرس المحتويات

الصفحة	
٣	الإهداء
٥	شكر وتقدير
٧	فهرس المحتويات
١٣	المقدمة
١٥ - ١٠٢	الفصل الأول: الاستشراق الّديني (نشأته وتطوره)
١٧	المبحث الأول: الاستشراق الّديني (جذوره، غايته، دور الكنيسة فيه) ...
٢٧	خلاصة شبهات الاستشراق الّديني
٣٣ - ٦٦	المبحث الثاني: نماذج من الرهبان المستشرقين في العصور الوسطى
٣٣	أولاً: بطرس المبجل وأول ترجمة للقرآن الكريم
٤٣	ثانياً: القديس توما الأكويني
٤٩	ثالثاً: ركلدس دي موتي كروتشي
٥٣	رابعاً: ريموند لول
٥٩	خامساً: يوحنا السيغوفي
٦٣	سادساً: نيكولاس الكويسي
٦٧ - ٧٢	المبحث الثالث: هل انتهى الاستشراق الّديني ؟
٦٧	مسألة نهاية الاستشراق بين القائلين بها والرافضين لها وترجيح القول باستمراره
٧٣ - ٨٠	المبحث الرابع: مُسمّيات الاستشراق الّديني وقنواته الجديدة
٧٣	قناتا الاستشراق الّديني: الأكاديمية الجامعية وقناة وسائل الأّصال والإعلام
٧٤	أهمية وسائل الإعلام في تكوين الصّور الذهنية
٧٥	إدراك الكنيسة الغربية لأهمية دور الإعلام
٧٧	أبرز مضامين رسالة البابا (لا تخافوا من وسائل الإعلام)
٨١ - ١٠٢	المبحث الخامس: الكنيسة الغربية والإنترنت
٨١	تحليل نشرة المجلس الحبري لوسائل الإعلام والاتصال الاجتماعي في الفايكان عام ٢٠٠٢ (الكنيسة والإنترنت) ونتائجها
٨٥	أبرز إساءات المواقع الإلكترونية الدينية المسيحية للإسلام:
٨٥	١. أيها أعظم محمد أم المسيح ؟ مع ردود إجمالية هامة

الصفحة	
٩٥	٢. مجموعة كتب إلكترونية مُتخصّصة في مهاجمة الإسلام والظعن في رسول ﷺ، والردّ على المستدلين بوثيقة (الأخلاق والإترنت)
٩٧	٣. تصريحات الكاردينال جان لوي توران، والمقال التكميلي الذي تبعه على موقع الفاتيكان
١٠٠	٤. موقع "نور الحياة" أكبر المتخصّصين في الإساءة للإسلام ورسول الله ﷺ
١٠٣	الفصل الثاني: دور علماء الأمة في مواجهة الشبهات والمطاعن قديماً وحديثاً تمهيداً فيه حديث عن نهوض علماء الأمة للردّ على شبهات وأباطيل رهبان الكنيسة الغربية ضدّ الإسلام ونبوّة محمد ﷺ. وبيان فضل وأسبقيّة علماء الأندلس في ذلك
١٠٥	المبحث الأول: أبرز جهود العلماء المبذولة قديماً في ردّ الشّهات عن الإسلام ونبوّة محمد ﷺ والتصديّ للمطاعن فيها
١٠٩ - ١٤٥	أبو الوليد الباجيّ وتصديّه للردّ على رسالة راهب فرنسا الكبير القدّيس "هيو". وإيراد أبرز ما اشتملت عليه رسالة الباجيّ الجوابيّة
١٠٩	أحمد بن عبد الصمد الخزرجيّ. التعريف به وكتابه (مقام الصلبان) وأبرز الشّهات التي تصدّى فيه للردّ عليها، وبيان أنّ أصل هذا الكتاب هو رسالته الجوابيّة للقس الطليطلي
١١١	أحمد بن ادريس القرافيّ. التعريف به وكتابه (الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة) وأبرز ما ورد فيه من الردود على مطاعن النصارى
١١٥	الإمام ابن تيمية. التعريف به وكتابه (الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح) وبكونه في أصله ردّاً تفصيلياً مُفصّلاً على الرسالة المُسمّاة (الكتاب المنطقيّ الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم)
١١٧	الشيخ عبد العزيز بن حمد آل معمر. التعريف به وكتابه (منحة القريب الجيب في الردّ على عبّاد الصليب) وأبرز الشبهات التي تصدّى للردّ عليها فيه. وبيان أنّ الكتاب في أصله إنّما هو ردٌّ على كتاب المندوب الإنجليزي المُسمّى (مفتاح الخزان ومصباح الدفائن) المليء بالظعن في الإسلام ونبوّة محمد ﷺ
١٢١	محمد ﷺ

الصفحة	
١٢٣	الشيخ رحمت الله الهندي. التعريف به وبالظروف الخطيرة التي دفعته لمناظرة القس فنذر، وأبرز الموضوعات التي تمت مناقشتها في تلك المناظرة
١٢٥	السبب الذي دفعه لتأليف كتاب (إظهار الحق) وكونه ردّاً على كتاب (ميزان الحق)
١٢٦	مميزات كتاب (إظهار الحق) كما يراها أبو الحسن الندوي
١٢٧	استعراض الكتاب وأبرز الشبهات التي تصدّى للردّ عليها
١٢٩	نعمان بن محمود الألوسي. التعريف به وبكتابة (الجواب الفسيح لما لفقّه عبد المسيح) وكونه ردّاً تفصيلاً على مضامين (الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها)
١٣٣	الشيخ عبد الرحمن الجزيري. التعريف به وبكتابه (أدلة اليقين في الردّ في كتاب ميزان الحق) وبيان أنّ سبب وضعه كان للردّ على كتاب القس فنذر المسمى (ميزان الحق)
١٣٤	بيان أقسام كتاب أدلة اليقين وأبرز الشبهات التي ردّ عليها
١٣٧	الشيخ أحمد ديدات. التعريف به، وبالظروف التي دفعته لمحاورة ومناقشة أهل الكتاب في جنوب أفريقيا، وبيان مدى تأثير كتاب (إظهار الحق) في حياته
١٣٩	أبرز مناظراته
١٤٢	أبرز مؤلفاته
١٤٧-١٧٤	المبحث الثاني: أبرز جهود العلماء المعاصرين في ردّ الشبهات عن الإسلام ونبوة محمد ﷺ والتصدي للمطاعن فيها
١٤٧	الأستاذ الدكتور محمد عمارة
١٤٩	الأستاذة الدكتورة زينب عبد العزيز. التعريف بها وبجهودها العلمية ومؤلفاتها وبكونها صاحبة أحدث ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية
١٥٠	استعراض أهمّ دراساتها وبحوثها ومقالاتها المنشورة على الموقع الإلكتروني الخاص بها
١٥٥	الدكتور إبراهيم عوض. التعريف به وبأبرز مؤلفاته التي تصدّى فيها للردّ على الشبهات والمطاعن في الإسلام ونبوة محمد ﷺ وهي (مصدر القرآن، دراسة

- لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي) وبحث (ماذا تقول الموسوعة الكاثوليكية عن الإسلام ورسوله؟) وكتاب (عصمة القرآن وجهالات المبشرين)
- ١٥٩ الأستاذ الدكتور صلاح الخالدي. التعريف به ومؤلفاته وجهود العلمية
- ١٥٩ التعريف بكتابة (القرآن ونقض مطاعن الزهبان) والذي يُعتبر رداً تفصيلياً على كتاب (هل القرآن معصوم) المليء بالمطاعن في القرآن وفي شخص الرسول الكريم ﷺ. واستعراض أبرز هذه المطاعن
- ١٦٣ الدكتور منقذ السقار. التعريف به وبجهوده في مناظرة النصارى ومؤلفاته في نقد المسيحية، وبأبرز محاضراته
- ١٦٥ التعريف ببحثه المطول (شبهات النصارى حول الإسلام) والوقوف على أبرز الشبهات والمطاعن التي تصدى للردّ عليها
- ١٦٧ الشيخ أكرم حسن مُرسي. التعريف به، وبسبب إقدامه على وضعه كتاب (ردّ الشَّهَام عن خير الأنام، محمد عليه الصلاة والسلام)
- ١٦٨ استعراض أقسام الكتاب وأبرز الشبهات الواردة فيه على الإسلام ونبوّة محمد ﷺ وردوده الشافية عليها
- ١٧٣ الدكتور سليمان بن عبد الله الرومي. التعريف به وبكتابه (دعوة المسلمين للنجارى في عصر الحروب الصليبيّة) واستعراض أبرز الشبهات والمطاعن التي تصدى للرد عليها
- ١٧٥ - ٢٠٢ المبحث الثالث: أبرز الجهود الجماعيّة المؤسسيّة المعاصرة في ردّ الشبهات عن الإسلام ونبوّة محمد ﷺ والتصدي للمطاعن فيها
- ١٧٥ المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بمصر. التعريف بهذا المجلس والخدمات التي يقدّمها للمسلمين من خلال موقعه الإلكتروني، وحرصه على تعريف الناس بالإسلام بأبرز لغات أهل الأرض
- ١٧٦ التعريف بالكتاب الهامّ الذي ألفه أعضاء المجلس والذي حمل عنوان (حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكّكين) وسبب تأليفه
- ١٧٧ استعراض أبرز المطاعن والشبهات التي تصدى مؤلفوه للردّ عليها، وكانت هذه المطاعن قد تناولت كلاً من القرآن الكريم ﷺ والسنة النبويّة

- الإسلام والأنبياء والرسول الكرام عليهم السلام
 المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "الإيسيسكو". التعريف بها
 ١٨٠ والكتاب (الإسلام بين الحقيقة والادعاء) الذي وضعه بعض الأساتذة
 والعلماء من أعضائها وفنّدوا فيه العديد من الشبهات المفرضة المثارة حول
 الإسلام
 ١٨١ مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي، التعريف بها وموقع (كلمة
 سواء) الإلكتروني وبسبب إطلاقه وتسميته
 ١٨٢ النصّ الكامل لمبادرة (كلمة سواء) التي صيغت للردّ على محاضرة البابا
 بنديكتيوس السادس عشر في جامعة ريجنسبورغ الألمانية
 ١٩١ رأينا في هذه الرسالة
 ١٩٢ جمع فقهاء الشريعة بأمريكا. التعريف به وإيراد نصّ ردّهم على محاضرة بابا
 الفاتيكان السابقة، وتعقيب عليها
 ٢٠٣ المبحث الرابع: الردود الشافية الكافية على ما تقدّم من شبهاتٍ ومطاعنٍ
 وتقضها تفصيلاً
 ٢٠٣ تقديم في وجوب النهوض للردّ على المطاعن والشبهات الأباطيل
 ٢٠٤ الردّ على شبهة صرع النبيّ ومحاولته الانتحار ﷺ
 ٢٠٧ الردّ على شبهة ذنوب النبيّ وإنّه كاذبٌ أن يفنن
 ٢١٠ الردّ على شبهة سحر النبيّ ﷺ
 ٢١٢ الردّ على شبهة أنّ محمداً سُمّي نفسه أول المسلمين، بالرغم من أنّ إبراهيم
 كان مسلماً قبله
 ٢١٣ الردّ على شبهة أنّ محمداً لم يأت بمعجزات
 ٢١٦ الردّ على شبهة "لو كان محمدٌ رسولاً لما مات مسموماً ولما تحلّل جسده حتى
 تعفن"
 ٢٢٠ الردّ على شبهة "كان محمدٌ ضالاً"
 ٢٢٢ الردّ على شبهة وثنية بعض عبادات المسلمين وتقبيل الحجر الأسود
 ٢٢٦ الردّ على شبهة تأليف محمد ﷺ للقرآن من جمع ومزج أساطير السابقين
 ٢٢٩ الردّ على شبهة أخذ النبيّ ﷺ القرآن من ورقة بن نوفل وبجيرا سرجيوس ..

٢٣٦	الردّ على شبهة امتلاء القرآن بقصص التوراة والإنجيل
٢٤٢	الردّ على شبهة انتشار الإسلام بقوة السيف والسلاح وإجبار الآخرين على اعتناقه، وارتباطه اليوم بالعنف والتهديد والإرهاب
٢٥٨	الردّ على شبهة أمر الله لمحمدٍ بقتال الناس حتى يدخلوا في الإسلام
٢٦٣	الردّ على شبهة "جنة المسلمين مليئة بالشهوات والملذات الحسية والمادية"
٢٦٥	الردّ على شبهة شهوانية النبي ﷺ وكثرة زوجاته
٢٧١	الردّ على شبهة اشتهاه النبي ﷺ لزوجة مولاه زيد بن الحارثة وأمره بتطليقها حتى يتَّخذها زوجة له
٢٧٥	الردّ على شبهة ممارسة محمدٍ للشذوذ بدليل زواجه من عائشة الطفلة ذات السنوات التسع
٢٨٧	الردّ على شبهة أنّ الشيطان يوحى إلى محمدٍ وينطق على لسانه (الغرائق)
٢٩٤	الردّ على شبهة "لو كان محمدٌ نبياً لورد ذكره في الكتاب المقدس"
٣٠٦	الردّ على شبهة "وقوع النسخ في القرآن يُثبت بشرية مصدره"
٣١٢	الردّ على شبهة وقوع التناقض والتعارض بين آيات القرآن
٣١٧	الردّ على شبهة جبرية المسلمين وإغائهم لحرية الإرادة البشرية
٣٢٢	الردّ على شبهة تشريع محمدٍ الجزية عقاباً لغير المسلمين
٣٢٦	الردّ على شبهة عدم اتفاق القرآن مع العقل
٣٣٨	الردّ على شبهة "كيف يصلي الله على محمد؟؟"
٣٣٩	الردّ على شبهة أنّ الرسول كان يُغيّر خطه حسب الظروف وأنه مصلحيّ يفترق إلى المبدأ
٣٤٣	الخاتمة
٣٤٧	قائمة المراجع

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تمَّ الصّالحات. وبعد؛ فقد حُطَّت أولى حروف هذه الدراسة في ساحة المسجد الحرام بمكة المكرمة، في يوم الأربعاء الذي وافق السادس عشر من نيسان لعام ألفين وثمانية للميلاد، وهو العام الذي تراكت فيه وفي العام الذي سبقه حصيلة كبيرة من الاساءات المدروسة المقصودة لرسول الله ﷺ، واتخذت شكل الحملات المتوالية والموجات المتتابة، فلا تكاد إحداها تنتهي إلا وتبدأ بعدها الأخرى، مُدكِّرةً إيانا بالحملات الصليبية التي شهدتها العصور الوسطى...

أطلت علينا في هذين العامين الكثير من رؤوس الفتنة، فمنها من هاجم النبي ﷺ في سلسلة من الرسوم المسيئة البشعة التي تُظهره، عليه السلام، بمظهر الإرهابي القبيح، ومنها من هاجم القرآن الكريم واصفاً إياه بـ"مصدر تشريع الإرهاب ومرجعية المسلمين الأولى التي تدعو للقتل وسفك الدماء!!!"، ومنهم من عاود الهجوم على الحبيب المصطفى واصفاً إياه بـ"الشاذ، مُغتصب الأطفال!!!" ومنهم من وصفه بأنه "لم يأت إلا بكل ما هو شير ولا إنساني!!!"

لقد كان هذان العامين، عامي الهجوم على الإسلام ورسوله الكريم، ففيهما شهدنا أسوأ حملات على الإسلام في واقعنا المعاصر. ولا تزال الحملات الإعلامية التي تشنّها آلات الإعلام الغربي ضدّ الإسلام العظيم ورسول الله المصطفى الأمين ﷺ مُستمرةً حتى الساعة. تضحُّ الأباطيل وتلقق الأكاذيب وتطلق الإشاعات آناء الليل وأطراف النهار، فما أن تنتهي من صناعة كذبة حتى تشرع في صياغة الأخرى مُستخدمةً كل وسائل التلفزة الأرضية والفضائية، رافضةً الاعتراف بنبوة الحبيب المصطفى ﷺ وساوية هذا الإسلام العظيم.... ومن هنا كان العزم على إصدار هذا الكتاب إيراداً للردود الشافية الكافية على هذه الشبهات والأباطيل وتوضيحاً لأصولها الفكرية وأنها لم تكن حملاتٍ مرتجلةً أو عشوائيةً متخبطةً لا صلة بينها أو أنها كانت وليدة اللحظة أو الساعة التي وقعت فيها، فعكس ذلك هو الصحيح، لأنها كانت حملاتٍ مدروسةً مُنظمةً وبينها من الوشائج والصّلات ما قد يخفى على الكثير من الناس.

كما جاء هذا الكتاب، إضافة لما سبق ذكره، إسكاتاً لألسن الباطل التي تروج لها. وتبياناً لفضل وحمود علماء الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً في النهوض للردّ على الشبهات والأباطيل المتعلقة بالإسلام ونبوة محمد ﷺ....

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا إنما هو جزءٌ مختصرٌ ومُعدّلٌ من رسالة دكتوراه أعدّها المؤلّف وأشرف عليها البروفسور العلامة عبد المقصود حامد عبد المقصود، وناقشتها في العلن مجموعةٌ من العلماء الباحثين والمؤلّفين في موضوع مقارنة الأديان على رأسهم البروفسور بكر زكي عوض والبروفسور محمد أحمد الخطيب، كما أنها نالت استحسان وموافقة الأستاذين العَلَمين بهجت الحباشنة وعامر الحافي، جزاهم الله خيراً أجمعين....

وختاماً، فإننا نسأل الله تعالى الأجر والثواب على هذا العمل المتواضع، وأن يفيد منه طلبة العلم. كما نسأله تعالى البركة في الوقت وحسن الخاتمة.

المؤلّف

الفصل الأول
الاستشراق الديني
(نشأته وتطوره)

المبحث الأول

الاستشراق الديني

جدوره، غايته، دور الكنيسة فيه

كان للربان الكاثوليك في العصور الوسطى دورٌ كبيرٌ ومباشرٌ في إعلان سلسلة من الحروب على الإسلام والمسلمين وهي الحروب التي حملت مُسمى (الحروب الصليبية).

ولمّا أخفقت هذه الحروب في تحقيق أهدافها وآلت إلى ما آلت إليه من فشلٍ ذريعٍ وهزائمٍ نكراء، نهض الربان من جديد للإعلان عن مواجهةٍ أخرى مع الإسلام، استهدفت تشويه صورته والتخويف منه وصدّ الناس عن الدخول فيه...

وقد كانت المواجهةُ مواجهةً عقديّةً وفكريّةً بالدرجة الأولى، كما أنّها كانت نوعاً من المواجهات التي اتّسمت بالفردية حيناً وبالْمؤسسية والرسميّة حيناً آخر ... وهذه المواجهة التي نحن بصدد الحديث عنها هي الاستشراق⁽¹⁾. والنوع الذي يعيننا هنا هو الاستشراق الديني بالذات، دون غيره من أنواع الاستشراق، ونقصدُ على وجه الخصوص المحاولات الاستشراقية التي ظهرت إلى الوجود بدعمٍ رسميٍّ ومباشرٍ من الكنيسة أو من كبار الربان ورؤساء الأديرة الشهيرة آنذاك. "وقد اختلف المؤرخون في تحديد البداية الحقيقية للاستشراق زمنياً ومكانياً، فمنهم من يرى أنّها كانت على أيدي طلاب العلم الأوروبيين الذين توافدوا إلى الأندلس العربية وتهلوا من منابع المعرفة فيها ونقلوها إلى أوروبا منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، ومنهم من يرى أنّ البداية جاءت من بزنطة التي قهرها العرب المسلمون، وانتزعوا منها أراضي واسعةً في بلاد الشام ومصر والمغرب العربي، والتي توقفت لاستكناه طبيعة هذا الفتح العظيم، ومنهم من يرى أنّ بداية الاستشراق كانت وليدة الحروب الصليبية والاحتكاك المباشر بين شعوب غرب أوروبا والعرب. ويرى البعض أنّ بداية الاهتمام الفعليّ الغربيّ بالإسلام والمسلمين كانت عند مجابهة الخطر العثماني الذي جاس خلال الأراضي الأوربية وأسقط ممالك وأزاح عروشاً، وأصبح حقيقةً من حقائق السياسة

(1) كلمة الاستشراق مأخوذة ومشتقة من كلمة الشرق، والشرق والمشرق بكسر الراء وهو الأكبر، وبالفتح وهو القياس ولكنه قليل الاستعمال - اسم الموضوع، أي جهة شروق الشمس، فكلمة استشرق مشتقة من كلمة (شرق)، وهي تعني ناحية شروق الشمس. والسين في الكلمة للطلب، أي طلب ما في الشرق. والاستشراق في الإصطلاح يطلق على تلك المحاولة التي قام بها ويقوم بها بعض مفكرتي الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامي وحضارته وثقافة الشرق وعلومه. فالاستشراق: هو علم يدرس لغات الشرق ودينه وتراثه وحضارته ومجتمعاته وماضيه وحاضره.

الأوروبية"^(١). ولعلّ القاسم المشترك الذي يجمع بين الآراء السابقة كلها هو انطلاق هذا النمط من الدراسة لثراث الشرق ودينه الإسلامي وحضارته من بلاد الغرب، والتأكيد على أنّ الدين الإسلامي وحركة الفتوحات الإسلامية آنذاك هي السبب الأبرز والدافع المحرّك لاتجاه الغربيين نحو دراسة الإسلام، ديناً وحضارةً وتاريخاً... ومما لا شكّ فيه أنّ الدافع الدينيّ كان أقوى الدوافع لقيام الاستشراق، حيث يربط كثيرٌ من الباحثين المهتمّين بالدراسات الاستشراقية بين نشأة الاستشراق وبداية ظهوره وبين الفشل الذريع الذي مُنيث به أوروبا في الحروب الصليبية؛ ذلك أنّ الحملات الصليبية لم تحقق للغرب طموحاته، ولم تسعفه بالسيطرة على الشعوب العربية واستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين. "ولقد تغيّر أسلوبُ المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب بعد الحروب الصليبية، فاحتلت الكلمة والحوار واستخدام المنهج العلمي المكانة الأولى في دراسةٍ نفسيةٍ للشرق لمعرفة الأسلوب الأمثل للمواجهة، وكان ذلك بديلاً عن المواجهة بالسلح والقتوة العسكرية"^(٢). ولقد فرض هذا الأسلوب الجديد في المواجهة العكوف على دراسة أحوال الشرق؛ لغته ودينه، حضارته وتاريخه، فلسفته وعلومه، عقيدته وأصولها، وأن توضع المناهج الدراسية المناسبة لاستكشاف عوامل هذه القوة الصلبة التي تكسّرت عليها تلك الحملات الصليبية المتكررة، ومحاولة فهمها وتحليلها نفسياً لمواجهتها بأسلوبٍ يختلف تماماً عن المواجهة العسكرية. "ولمّا كان القائمون على أمر الحروب الصليبية والمحركون لها هم رجال الكنيسة وسدنتها، فإن ذلك جعل رجال الكنيسة في طليعة المهتمّين بأمر الشرق ودراسة أحواله، ومن هنا، فإنّ طليعة المستشرقين كانوا في معظمهم من القساوسة ورجال الدين المسيحي"^(٣).

إذاً فقد كان الاستشراقُ الديني هو الحل الأمثل، والبديل الأنسب للمواجهة مع الإسلام. وهذه حقيقةٌ أكّدها أكثر من مرّة المؤرخ ريتشارد سودرن؛ "وقد أدرك اللّد أعداء الإسلام بين الأوروبيين أنّ الصّراع العسكريّ معه لا يكفي لإسقاطه، وأنه لا بدّ من اشتغالٍ أعمقّ بفهم مضامينه ومحاولة نقضها. وكانت حجّتهم في إقبالهم على دراسة الإسلام ضرب إرادة المقاومة عند الخصم عن طريق تشكيكه بصحة عقيدته، ودفع الجنود الأوروبيين لمزيد من الضراوة والانتظام عن طريق التركيز على قوّة الإسلام العسكرية. ومن نافلة القول هنا

(١) انظر:

أ. الملا جاسم، ناصر عبد الرزاق، الإسلام والغرب، دراسات في قد الاستشراق، ص ١٤، ط ١، ٢٠٠٤، دار المناهج، عمّان، بصرى.

ب. رزوق، محمود حمدي، الاستشراق والحلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ١٨، بلا تاريخ نشر ولا رقم طبعة، دار المعارف، القاهرة.

(٢) الجليلند، محمد السيد، الاستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة، ص ١٢، ١٣، ط ١، ١٩٩١، دار قباء، القاهرة.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

الاستنتاج أنّ الفريق الذي كان يُعارضُ العمل العسكري ضد الإسلام كان أكثر إقبالاً على التصدي للإسلام فكرياً بعد أن فقد إيمانه بالعمل المسلح"^(١).

ومن أجل تحقيق الهدف العقدي من الاستشراق فقد سلك المستشرقون الأوائل من الرهبان الكاثوليك المسالك الأربعة التالية:

المسلك الأول: الحرص الكامل على حجب حقيقة الإسلام وأهدافه النبيلة عن جمهور العوام المسيحيين في أوروبا، وذلك من خلال قلب الحقائق وتشويهها وإبراز ما كانوا يرون أنّه نقاط ضعفٍ وتناقضٍ في الإسلام، وقد تحقّق ذلك من خلال إشاعتهم ونشرهم لمؤلفاتٍ جدليّةٍ باطلّةٍ وضعها الرهبان لهذه الغاية، وبالذات الترجمات الزائفة المغلوطة للقرآن الكريم، وتزوير وقائع وأحداث السيرة النبوية الشريفة.

المسلك الثاني: حرصُ الكنيسة ورهبانها الدائم على تشويه صورة المسلمين، وذلك من خلال التأكيد على وصفهم بالعديد من الأوصاف المنقّرة القبيحة المُخيفة، كوصفهم بالمقاتلين المحمّدين الأشداء الذين لا يعرفون الرحمة، والساسنة المتخلفين الذين لا يفقهون سوى القتال وحمل السيف وقتل الآخرين، وكذلك وصفهم بأنهم غير متحضّرين يسكنون الصحراء ويقتتلون فيما بينهم.

المسلك الثالث: أفنى هؤلاء المستشرقون الرهبان أعمارهم، وضيّعوا أوقاتهم في دراسة الإسلام للبحث عمّا يطعنون في الإسلام من خلاله؛ ومثال ذلك، إجماد أنفسهم في البحث عن تناقضاته، أو البحث في إثبات كون الإسلام ديناً منحولاً من اليهودية والمسيحية والمصادر الأخرى المليئة بالهرطقات والبدع.

المسلك الرابع: التخطيط لبدء حملاتٍ خبيثةٍ تستهدف تبشير المسلمين (أو بالأصحّ تنصيرهم)، وهو الأمر الذي تقرّر بشكلٍ رسميٍّ وواضحٍ من خلال مؤتمراتٍ ومجامع كنسيّةٍ خُصّصت لهذا الأمر.

(١) سوفرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة رضوان السيد، ص ٨٦، ط١، ١٩٨٤، منشورات معهد الإنماء العربي، لبنان.

وما من شك في أن هذه المسالك السابقة كلها كانت تتحرك بدافع الكراهية للإسلام، وبدافع الخوف من انتشاره السريع في كل أرض كان يطؤها المسلمون، وكان من أبرز أهداف هؤلاء المستشرقين الرهبان "منع انتشار الإسلام في أوروبا وغيرها، حفاظاً على سلطة الكنيسة ومفاهيمها ... فقد كان أعداء الإسلام يروون غليلهم بمنع الناس وصدّهم عنه، حيث كان الإسلام، من غير شك، يشكل استفزازاً مقلقاً بطرقٍ عديدة، فقد كان قريباً من المسيحية قراباً مقلقاً جغرافياً وثقافياً، فمنذ نهاية القرن السابع عشر كان الإسلام في شكله العربي العثماني، أو في الشمال الإفريقي الإسباني، قد هدّد المسيحية الأوروبية تهديداً فعّالاً، ولم يكن ممكناً أن يغيب عن ذهن أيّ أوروبيٍّ ماضياً أو حاضراً كون الإسلام قد فاق روما إشعاعاً وسما عليها"^(١).

تبين لنا كما سبق أن نشأة الاستشراق كانت دينية الدافع، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ورهبانها المحرك والداعم له، وذلك في واحدٍ من فصول حريها المعلنة ضد الإسلام والمسلمين؛ تلكم هي الحرب الإعلامية التضليلية التي اختارتها الكنيسة ولجأ إليها رجالها بعد العجز المبين لهم ولجيشهم الصليبية أمام الآلة العسكرية الإسلامية في العصور الوسطى.

إنّ القول بدينية الدافع وصليبية المحرك للاستشراق ليس إلقاءً للكلام على عوامله، ولا هو من باب الجُزاف، إنما هو قولٌ يتبعه الدليل الذي يدعمه ويشهد لصحته؛ والذي يشهد لصحة هذا الكلام جغرافية المكان الذي انطلقت منه الدعوة الاستشراقية، وتشهد له الحقائق التاريخية التالية:

أولاً: إنّ البداية الحقيقية للاستشراق على المستوى الفردي كانت على يد الراهب الكاثوليكي الفرنسي جرير دي أوليك^(٢) الذي اشخَب لاحقاً حبراً أعظم لكنيسة روما، وحمل لقب سلفستر الثاني في العام ٩٩٩م. كان هذا الراهب أول المشتغلين بعلوم الشرق، وارتبطت باسمه بداية حركة الاستشراق؛ حيث رحل من فرنسا إلى

(١) سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، ص ١٠١، ط ١، ١٩٨١م، من منشورات مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.

(٢) انظر:

أ. عربي، محمد ياسين، الاستشراق وتدريب العقل التاريخي العربي، ص ١٣٧، ط ١، ١٩٩١م، من منشورات المجلس القومي للثقافة العربية.

ب. الجليند، [م. س.]، ص ١١.

ج. زقزوق، [م. س.]، ص ٢٠.

د. العقيقي، نجيب، المستشرقون، الجزء ١٢ الصفحة ١ فما بعدها، ط ٣، ١٩٦٤م، دار المعارف، القاهرة.

إسبانيا، مهد الحضارة الإسلامية في حينه، فتعلّم اللغة العربية، ووقف على علوم المسلمين في الرياضيات والطب والفلك والكيمياء والفلسفة، كما قرأ بعض العلوم الدينية، حتّى قيلَ عنه إنّه كانَ أوسع علماء عصره معرفةً بعلوم المسلمين، وبخاصّة في الرياضيات والفلك. ثم ارتحل إلى روما مقرّ البابويّة، حيث اشتهر هناك بين أقرانه بمعرفته الواسعة باللغة العربيّة وعلوم المسلمين، فانشجِبَ حبراً أعظم تحت لقب سلفستر الثاني (٩٩٩م - ١٠٠٣م) فكان بذلك أول بابا فرنسيّ يعتلي كرسى البابوية.

واستطاع من خلال منصبه الجديد أن يُنشِئ مدرستين لتدريس اللغة العربيّة وعلومها، وكانت الأولى منها في روما مقرّ البابوية، والثانية في موطنه الأصلي (دايمس)، ثم أنشأ مدرسةً ثالثةً باسم (شارتر). وقد قام هذا الراهب بترجمة بعض الكتب العربيّة في الرياضيات والفلك، وإليه يرجع الفضل في انتشار الأعداد العربيّة في أوروبا التي كان ينقصها الرقم صفر، ولم تكن أوروبا تعرفه حتى نقله إليها (جرير) من العربية إلى اللاتينية، هذا الرقم الذي تمّ به حلُّ كثيرٍ من المشاكل الحسابية هناك بعد نقله.

ثانياً: انتقل الاستشراق من الفردية إلى العمل الجماعيّ والمؤسسي على يد الراهب الفرنسي بطرس المجلّ الذي كان رئيساً لدير كلوني الشهير في جنوب فرنسا، حيث أمر هذا الراهبُ بتنفيذ أوّل ترجمةٍ لاتينيةٍ للقرآن الكريم، وأشرف على العاملين عليها بنفسه وكان يدفع لهم أجورهم منه، وكان هدفه من هذه الترجمة دراسة القرآن للطعن فيه، وبيان نقاط ضعفه وتناقضاته!! وكان يؤمن بحتميّة الصراع والصدام مع الإسلام، ولكن ليس بالسيف، وإتّما بالكلمة والإقناع والحجّة "وفي نظرته للمسلمين كهراطقة، اعتقد بطرس المجلّ بإمكان إعادتهم إلى فلك الكنيسة، وذلك إذا تمكّن اللاهوتيون والمبشّرون المسيحيون من أن يُظهروا لهم بشكلٍ مقنع، أين تكمن انحرافاتهم وضلالاتهم. وحول نوايا بطرس المجلّ هذا تشهد رسالته التي وجهها إلى العرب، ويقول فيها: "من بطرس الفرنسي الجنسية، المسيحي العقيدة، الآبائي في الخدمة الكنسية، من أولئك الناس الذين يُطلق عليهم الرهبان ... إلى العرب، أبناء إسماعيل، الذين يتبعون قانون الرجل، الذي يدعى محمداً ..."^(١).

(١) جورافسكي، إيكسي، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة خلف محمد الجراد، ص ٧٩، ط١، ٢٠٠٥، دار الفكر، بيروت.

ويصف "جورافسكي" بطرس المجلد هذا بقوله: "فيمكن من دون أيّ مبالغة تسميته مؤسس الدراسات الإسلامية لدى مسيحي القرون الوسطى"^(١).

ثالثاً: انتقل الاستشراق إلى المرحلة الرسمية بعد صدور قرار مجمع فيثا الكنسي عام ١٣١٢م. "وُلِدَ الاستشراق بقرار كنسي، ونشأ وترعرع في أحضان الكنائس الأوروبية، واستمدَّ منها قوته ومقومات بقاءه. وفي الغرب المسيحي يُؤرَّخ لبدء وجود الاستشراق الرسمي بصدور قرار مجمع فيثا الكنسي عام ١٣١٢م، بتأسيس عددٍ من كراسي الأستاذية في (اللغات) العربية واليونانية والعبرية والسريانية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونا وأفينيون وسلامانكا، وتأسس كرسي اللغة العربية في روما على نفقة الفاتيكان، وفي باريس على نفقة ملك فرنسا، وفي أكسفورد على نفقة ملك إنجلترا، ويعتبرُ كثيرٌ من المؤرخين لحركة الاستشراق أنَّ هذا المؤتمر هو البداية المنظمة وشبه الرسمية للاستشراق، وما كان قبل ذلك إنما كان بمثابة الإرهاص لميلاد هذه الحركة، وتبع ذلك انتشار المدارس والمعاهد الاستشراقية المعنوية بدراسة الشرق وعلومه الإسلامية بصفة خاصة"^(٢).

ولم تردّد الكنيسة الكاثوليكية يوماً في الإفصاح عن أهدافها من إنشاء المؤسسة الاستشراقية وكونها تمهيداً لارتداد العرب إلى المسيحية؛ ولذلك فقد نصّ قرار إنشاء كرسي اللغة العربية في جامعة كامبردج عام ١٦٣٦م على أنَّ الكرسيَّ أُنشئ بهدف توسيع حدود الكنيسة ونشر المسيحية بين المسلمين الذين يعيشون في الظلمات. ولم تقتصر جوانب التنصير في المؤسسة الاستشراقية على الهدف وسلطة الإنشاء، بل تعدّتها إلى الممارسة والتنظيم، فقد كان الرهبان في طليعة المستشرقين"^(٣).

ومّا سبق يتوضّح لدينا مدى التداخل الكبير في حمّة كلِّ من المُستشرق والمُبتدّر، ولعلَّ هذا التداخل يدعم صحّة ما ذهبنا إليه من القول بالطبيعة الدينية والدافع

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٧٩.

(٢) انظر:

أ. سعيد، [م. س.]، ص ٨٠.

ب. زقزوق، [م. س.]، ص ١٨.

ج. عبد المحسن، عبد الراضي محمد، الغارة النصيرية على أصالة القرآن الكريم، ص ٤١، بحث منشور في موقع المفكرة الدعوية الإلكترونية.

(٣) عبد المحسن، [م. س.]، ص ٤١.

العقدي للاستشراق. ولعلّ هذا التداخل في الوقت ذاته أكبر دليل على عدم موضوعية وحيادية الاستشراق الديني، خصوصاً إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ البابوات كانوا يرصدون انتشار العقيدة والفكر الإسلامي في أوروبا، وينظرون إليها بكلّ الخوف والقلق والترقب، ولعلّ هذه الأسباب ذاتها هي التي كانت على الدوام تدفع المستشرقين للتحيّر والغضب والتعصب عندما يتعلق الأمر بالإسلام والمسلمين!! وإلا فإماذا نعللُ عدم غضب المستشرقين وتعصبهم عندما تتعلق الدراسة بموضوع دين آخر غير الإسلام كالبودية أو الشنتوية أو الهندوسية مثلاً؟؟ نعم، لقد أنشأت الكنيسة المؤسسات الاستشراقية وقدمت لها الدعم الكامل، وما ذلك إلا لتحارب الإسلام من خلالها وتطعن فيه على لسانها. "لئن الدّراسات الاستشراقية الإسلامية ما قامت أول ما قامت إلا بوحى من الكنيسة الكاثوليكية خاصّة للانقراض من تعاليم الإسلام، وإهدار قيمه حرصاً على مذهب (الكثلكة) من جانب، وتعويضاً عن الهزائم الصليبية المتلاحقة في تحرير بيت المقدس من جانب آخر، ثم تبّنى الاستعمار الغربي هذه الدراسات في الجامعات الغربية نفسها"⁽¹⁾.

ولعلّ هذا الكلام لا يقع بعيداً عن رأي "بنت الشاطي" التي أجابت عن الأسئلة حول نشأة الاستشراق بقولها: "فحين نسالُ التاريخ عن حركة الاستشراق وكيف نشأت؟ يلقانا جوابه الصّريح بأنّها أول ما قامت في رعاية الكنيسة الكاثوليكية، وخضعت لإشراف مباشرٍ من كبار أجبّارها"⁽²⁾.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو إن كان المستشرقون من الرهبان الكاثوليك الأوائل قد تعمّدوا مهاجمة الإسلام والطعن فيه والبحث عن (عيوبه) و(نقائصه) و(تناقضاته)، فعلى أيّ شيء في أسس الإسلام وأركانه تمّ الهجوم؟؟؟ والجواب على هذا السؤال طويلٌ ومعقّدٌ، وهذا يتناسب تماماً مع طول وكثرة التفريعات والتعقيدات التي تفرّعت عنه، ولكنها في العموم تنضوي تحت الكلمات التالية: لقد تركّز هجوم الاستشراق الديني الكاثوليكي في الإسلام على مصدريه المتمثّلة في القرآن الكريم وستة رسول الله ﷺ وشخصه الكريم. ولم يكن تركيزُ الهجوم على هذه النواحي عبثاً بل لقد جاء عن دراسة وعناية ودقّة اختيارٍ:

(1) البهي محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٩، ١٠، ط ٣، مكتبة وهبة.
(2) انظر: تراثا بين ماضي وحاضر ص ٥٢، طبعة عام ١٩٦٨، من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية.

١. فالهجوم على رسول الله ﷺ كان يهدف هدم الصورة المثالية لشخصه وأفعاله في نفس وقلب كل مُسلمٍ وزعزعة الثقة به، كيف لا وهو القدوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر؟ وسنأتي على بعض الشبهات المتعلقة بهذا الصدد عند الحديث عن المقارنة بين محمدٍ وعيسى، عليهما الصلاة والسلام.

٢. أمّا الهجومُ على القرآن الكريم، فقد كان يهدف نزع مصدرِيته الإلهية وذلك من خلال الزعم (السخيف) بأنه ذو مصادرٍ بشريةٍ متنوّعةٍ ومتضاربةٍ، وأنّ عقائده وتشريعاته كلّها إنما هي منخولةٌ من الأديان والمذاهب والملل التي كانت متواجدةً في شبه جزيرة العرب وبالذات المذاهب المسيحية المنشرة كالأبيوتية^(١) المهرطقة التي كانت تنكّر ألوهية المسيح ولا تعترفُ بها. ويصُرُّ هؤلاء المستشرقون الرهبان على أنّ واسطة الاتصال بين محمدٍ والأبيوتيين كان الراهب الأبيوتيّ المعتقدُ ورقة بن نوفل!! كما يذهب هؤلاء المستشرقون الرهبانُ إلى القول بأنّ إنكار محمدٍ لصلب المسيح إنما أخذه محمدٌ عن بعض أتباع الفرق الدوسيتية الغنوصية^(٢) الذين كانوا يتواجدون في بعض بقاع شبه الجزيرة العربية.

ومن الجدير ذكره في نهاية الحديث عن استهداف المستشرقين الرهبان للقرآن الكريم العبارة الشهيرة للمبتدئ (جون تاكلي)، وهي: "يجب أن نستخدم كتابهم وهو أمضى سلاح في الإسلام ضدّ الإسلام نفسه، لتقضي عليه تماماً. يجب أن ترى الناس أنّ الصحيح في القرآن ليس جديداً وأنّ الجديد فيه ليس صحيحاً"^(٣).

(١) الأبيوتيون: طائفة مسيحية قريبة الشبه باليهودية من حيث استمساكها بدرجات متفاوتة بالتعاليم الموسوية، تميز عقيدتهم بتسليمهم بالتحديد الجزئ، وإنكارهم دعوى تأليه المسيح، واعتباره مجرد إنسان، والتزامهم بكتب موسى والأنبياء وما تقتضي به من شعائر وفروض. يتحدثون الآرامية وبالرغم من أن معظم أتباعها من اليهود اتخذوا لهم لقب الناصريين فقد اتبعا عدد من الأمم (أي من غير اليهود). ظهرت الأبيوتية في أيام المسيحية الأولى، لكنها لم تصبح مذهباً له أتباعه ومريدوه إلا في أيام الإمبراطور تراجان (٥٢ - ١١٧ م). انكروا أن يكون يولس رسولاً وكان لهم إنجيلهم الخاص وهو إنجيل متى (بصورة مختلفة عما هو معروف الآن). وكان رأسهم أن المسيح رجل عادي حوّل به بالشكل العادي ولم تميز سوى بره وعطية الروح القدس السامية.

(٢) الدوسيتية Docetism: مشتقة من فعل يوناني يعني (يظهر أو يبدو)، فهي تعني "الظاهرة" أي المذهب القائل أن يسوع كان له جسد ظاهري (وهي) وليس جسداً حقيقياً، وأنّ الذين قتلوه وصلبوه لم يقتلوه ولم يصلبوه لأنهم كانوا وهمين (شبه لهم) وأنهم لم يقتلوه حقيقةً. والدوسيتيون الغنوصيون هم أول من قالوا أن المسيح لم يقتل أو يصلب، وإنما شُبّه لأعدائه من اليهود والرومان أنهم صلّبوه = وقتلوه، وذلك لأنهم أنكروا مجيء الله في الجسد، أي أنكروا أن يكون يسوع هو الله أو ابن الله. وهذه الفكرة ترجع إلى القرن الأول المسيحي، وبالرغم من أن العهد الجديد قد أشار إلى فرقة الدوسيتية، فإن عقائدهم لم تتبلور وتكتمل حتى القرنين الثاني والثالث. ولقد واجهت معارضة قوية من الكتاب المسيحيين الأوائل بدءاً من أغناطيوس الإطليكي وبيرونيوس في القرن الثاني. ولقد أدانت الدوسيتية رسمياً في مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م.

(٣) عبد المحسن، [م. س.]، ص ١٨

ويمكننا في ختام الحديث عن هجوم المستشرقين الرهبان على مصدرية الإسلام أن نستنتج أن المستشرقين إما كانوا يستهدفون فكَّ التلازم الضروري في الإسلام بين القرآن والرسول الكريم والوحي في محاولة منهم "للإضعاف التدريجي للاعتقاد بالفكرة الإسلامية، وما يتبع هذا الإضعاف من الانتقاص والاضمحلال الملزم له، وأنه سوف يُفضي بعد انتشاره في كلِّ الجهات إلى انحلال الروح الدينية من أساسها"^(١).

كانت تلك الجذور الأولى للاستشراق. وقد رأينا كم لعبَ الدينُ دوراً محورياً فيها، بدأ الاستشراق بمحاولة صدِّ المسيحيين عن الدخول في الإسلام والحدِّ من انتشاره في القارة الأوروبية، ثم تطوّر ودخل مرحلة تشكيك المسلمين بدينهم ومصدرية قرآنهم الكريم والسنّة الشريفة ورسم علامات الاستفهام حول شخصيّة وأخلاق وأعمال الحبيب المصطفى، وتشويه صورته في عيون العالمين.

ثمّ تولّدت عن الاستشراق الدعوة إلى تبشير (أو تنصير) المسلمين وتلازمت الدعوات (الاستشراقية والتبشيرية) حتى غدا الفصلُ بينها صعباً جداً في كثيرٍ من الأحيان؛ إذ أنّ هدفها واحدٌ وسياساتها متشابهةٌ ...

ويمكننا في نهاية هذا البحث تلخيص موقف المستشرقين الرهبان من رسالة محمد ﷺ فيما يلي: إنّ الصورة المتولّدة في التصوّر الغربي عن الإسلام والمسلمين وكتابهم ونبئهم هي نفسها الصورة التي لم تزدها الدّراساتُ المقيّلةُ إلا رسوخاً وتأكيداً، والتي يحمّدُ المُستشرقون من المبشّرين في تعميقتها، وذلك عن طريق إعادة الأباطيل في صيغ تبدو عليها مسحةٌ كاذبةٌ من ادّعاء العلم والموضوعية، كما تشهد بذلك دراسات أكبر المُستشرقين من المبشّرين الذين حصروا همهم في ما يأتي:

١. إثبات القول ببشرية القرآن، وأنه من صنْع محمد ﷺ، وامتلاء القرآن بالتناقض والاختلاف.
٢. إنّ القرآن كتابٌ مُلَفَّقٌ، مُجْمَعٌ وَرَكَّبٌ من موادٍّ مستقاةٍ من اليهودية والمسيحية، وقد وقعت فيه الزيادة والنقصان والتحريف والتشويه.

(١) المرجع السابق، ص ١٨

أما عن محمد ﷺ، فهو عند بعضهم أحدُ العباقرة وعند بعضٍ آخر أحدُ الأبطال
العظام، وعند آخرين منهم أنه ناقلٌ ذكيٌّ من الكتب القديمة، أو متعلِّمٌ من رهبان النصارى،
وقد أجاد في تعلُّمه منهم.

خلاصة شبهات الاستشراق الديني

إنّ من المفيد حصر وتلخيص أبرز النقاط المشتركة والشبهات التي خرج بها الرهبان المستشرقون في العصور الوسطى، لأنها في مجموعها وتراكبها ساهمت في ترسيخ صورة سلبية مرعبة عن الإسلام، وقد استمرت هذه الصورة حتى يومنا هذا ولكن مع تعديل طفيف وتغيّرات شكلية لم تمس جوهرها.

ولعلّ أبرز ما استقرّ لديهم عن الإسلام ونبوة محمد ﷺ ما يلي:

أولاً: الإسلام هرطقة مسيحية شديدة الخطورة يجب التصدي لها ومواجهتها بكلّ ما هو ممكن ومتاح.

ثانياً: المسلمون هرطقة تجب محاربتهم، أو على الأقلّ إعادتهم إلى المسيحية الصحيحة.

ثالثاً: تاريخ المسلمين مضحك، وهو مليءٌ بالكاذب والقصص المعيبة.

رابعاً: يعبد المسلمون إلهاً غير حقيقي، وهو الإله الذي دعاهم محمدٌ إلى عبادته.

خامساً: المسلمون جبريون، يقولون بعدم حرية الإرادة البشرية.

سادساً: محمدٌ شريكٌ وقدرٌ، وقد قام بتعليم أتباعه إنكار الدين المسيحي.

سابعاً: مارس محمدٌ السلب والنهب، وكان دائم الاعتداء على جيرانه من القبائل العربية واليهودية تحت مُسعى الغزو والجهاد.

ثامناً: اتسع مُلكُ محمدٍ وتوسعت رقعة إمبراطوريته وانتشر دينه عن طريق السيف وقوة السلاح والإكراه والإجبار.

تاسعاً: أخذ محمدٌ تعليمات الإسلام عن طريق بعض الرهبان المهرطقين، مثل بجيرا النسطوري وورقة بن نوفل.

عاشراً: ادعى محمدٌ النبوة وسط مجموعاتٍ من البدو الذين لم يفهموا شروط النبوة ولم يعرفوا علاماتها، فلما عرفوا كذبه طردوه من مكة.

حادي عشر: عرف محمدٌ اسم (جبريل) من الكتاب المقدس.

ثاني عشر: قدم محمدٌ الجنة في القرآن الذي جاء به لأتباعه في صورة حسنة مليئة بالشهوات.

ثالث عشر: اتخذ محمدٌ لنفسه العديد من الزوجات الصغيرات السن والكبيرات، وكان مُفراطاً في الزنى.

رابع عشر: مارس محمدٌ عمليات القتل الجماعي وخطط للعديد من الاغتيالات لأبرز أعدائه وخصومه.

خامس عشر: ضيق محمدٌ على القبائل اليهودية وسلب أموالها وقسمها بين أصحابه بعد أن أخذ الخمس منها.

سادس عشر: تميز محمدٌ بشهوانية مفردة منافية للأخلاق، ورغبة شديدة في النساء حتى أنه لم يتردد في أمر خادمه زيد بن حارثة بأن يطلق زوجته الجميلة ليقوم بالزواج منها بعد ذلك.

سابع عشر: كانت صنعة محمدٍ التي أبدع فيها تدبير الحروب وتوجيه الطلائع لشن الغارات.

ثامن عشر: سرق محمدٌ قصص الأنبياء من التوراة والإنجيل بعد اطلاعه عليها، فحكاها لأصحابه وأتباعه زاعماً أن وحيًا من السماء نزل بها عليه.

تاسع عشر: حرصاً منه على إيجاد أتباع يتسمون بضيق الأفق ولا يسعون لاكتشاف زيف شريعته، منع محمد أتباعه من قراءة التوراة والإنجيل.

عشرون: لو كان محمد رسولاً لما مات بسبب الأكل من شاةٍ مسمومة.

الحادي والعشرون: لم يأت محمد بالمعجزات، وكل ما جاء به إنما هو كتاب مليء بالمتناقضات المنافية للعقل سماه القرآن.

الثاني والعشرون: كل ما وافق الكتاب المقدس من كتاب محمد (القرآن) إنما هو صحيح، سرقه محمد ونحله من الكتاب المقدس، وكل ما خالف الكتاب المقدس والعقائد المسيحية من آيات كتاب محمد فهو مكذوب وباطل من افتراءات محمد واختلاقه.

الثالث والعشرون: محمد رجلٌ فاقت سيئاته كل حدٍ معقول، عاش حياة غير حميدة وكان غارقاً في حماة الدنيا وشهواتها.

الرابع والعشرون: كان محمد واسع الحيلة، وكان يمارس السحر، وعن طريق ذلك ثبت دينه وأغرى الناس باتباعه.

الخامس والعشرون: يُنكر المسلمون ألوهية المسيح وينكرون واقعة صلبه ويرون أنه رسولٌ فقط.

السادس والعشرون: محمد محرطقٌ مسيحيٌّ تزوج أرملة ثرية استغل أموالها، وكان مصاباً بنوباتٍ متتاليةٍ من الصرع.

نعم، هذه هي خلاصته ما ترسخ في عقول هؤلاء عن الإسلام وعن الرسول الكريم ﷺ، وهذا لم يكن ناتجاً عن قلة المصادر المنصفة المعروفة بالإسلام بين أيديهم، لا ولكنه كان ناتجاً وبالدرجة الأولى عن كراهيتهم لهذا الدين وأهله ورفضهم له، بغض النظر عن كل الذي فيه من سعادة للبشرية وخير للخلق أجمعين. (قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا

تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ^(١). ولئن كانت الكراهية الناجمة عن الجهل بالشيء مؤلِّمة فإن الكراهية الناجمة عن العلم بالشيء لهي أشدُّ إيلاماً وأمرُّ وأدهى. يقول الأب الكاثوليكي "روبير كاسبلر": "لإنَّ الغرب لم يفهم الإسلام على حقيقته أبداً، ولم يحاول ذلك مُطلقاً. وحتى خيرة المسيحيين القلائل الذين كانوا يعيشون على مقربةٍ من الإسلام ... لم يمتكّنوا من إدراك جوهر الإسلام وعظمتها، وهي: التصعيد إلى الله الواحد الأحد. ولعلَّ ذلك يرجع أساساً إلى أنَّ الغرب المسيحي اكتفى قروناً طويلةً بتلطّيح الإسلام ونبئته بأسخف الأقوال، من دون أن يكلّف نفسه عناء دراسة هذه العقيدة"^(٢).

ومّا يُلاحظُ في ختام إيرادنا لأبرز شبهات الرهبان المستشرقين في العصور الوسطى، أنَّ معظم الذين عملوا في الاستشراق الديني من الرهبان الكاثوليك قديماً وحديثاً قد عملوا على ترجمة القرآن الكريم أو بالأصحِّ قاموا بمحاولاتٍ خبيثةٍ فاشلةٍ لترجمة القرآن الكريم، وأنَّهم قد استندوا في مؤلفاتهم ضدَّ الإسلام على ترجمات أسلافهم مثل: بطرس المبجل وروبرت ألكيتوني وهيرمان دلماتا ويوحنا السيغوفي ونيكولاس الكويسي لكتاب الله العزيز، وقد تقدّم ذكر أبرز سلبيات هذه الترجمات ومدى انحرافها عن جادة الحقِّ والصواب. والغريب في الأمر أنَّ المستشرقين المتأخرين في القرنين الماضيين إنَّما تأثروا بهذه الترجمات المغلوطة المشوّهة السابقة، واتخذوها قواعد ينطلقون منها في فهمهم للإسلام والتعريف به. ومسألة تشويهه هؤلاء لتفسير القرآن الكريم وترجماته مسألة ينبغي التوقّف عندها مطوّلاً؛ ذلك أنّها لم تكن مسألة عشوائية أو محض صدفة، لا، وإنما كانت تلك مسألة ناتجة عن دراساتٍ مُعمّقة وتخطيطٍ مسبقٍ يستهدف ضرب القرآن الكريم بوصفه أبرز مصادر التشريع الإسلامي، ولقد قامت هذه المسألة على منهجيةٍ محسوبة، وتمّ تنفيذها وفق آلياتٍ نستطيع أن نلتبس أبرز معالمها فيما يلي^(٣):

- إخضاع النصوص للفكرة التي يفرضونها حسب أهوائهم.
- التحكُّم فيما يفرضونه أو يقبلونه من النصوص.

(١) سورة آل عمران: الآية ١١٨.

(٢) عبد العزيز زينب، محاصرة وإيادة، موقف الغرب من الإسلام، ص ٤٠، ط ١، ١٩٩٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.

(٣) التمساني، محمد حمادي الفقيه، تاريخ حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من قِبل المستشرقين ودوافعها وخطورها، ص ١٤ - ١٨ بتصرف واختصار. دراسة مطوّلة منشورة على شبكة الانترنت، في موقع شبكة التفسير والدراسات القرآنية www.tafsir.org.

- تحريف النص تحريفاً مقصوداً.
- حرصهم على تجاوز كل ما من شأنه أن يُثبت أنّ القرآن كلام الله.
- تصيّدُ النصوص الملائمة والموافقة لهواهم.
- الخلط بين شيءٍ قليلٍ مما هو مبثوث في المصادر وبين ما كانت تملّيه تخيلاتُ وتكهّناتُ المستشرقين.
- اندفاعهم نحو الترجمة الكيفيّة لا الصحيحة والعلمية، أو حتى النسبية إلى حدّ ما، إمعاناً منهم في التحريف والتضليل.
- اتهامهم بنشر الترجمات التي تنطوي على الأضاليل والأخطاء الفنيّة والشطحات بدافع الحقد والتعصب.

وعلاوةً على ما سبق فقد اتّسموا جميعاً، ولكن بتفاوتٍ، في الجهل بأسرار اللغة العربية، والفهم المقتصر على جانبٍ واحدٍ من المعنى، والخلط بين معاني الكلمات العربية المختلفة، والجهل بالتورية القرآنية، والانحراف بالنص عن قصده الحقيقي، والجهل بالمعاني الدقيقة للكلمات العربية. "كما أنهم كانوا يمهّدون لعملهم هذا بكتابة دراساتٍ ومقدماتٍ لا تُخصى عن القرآن [توضّع في بداية الترجمة]، وهي غالباً ما تتضمن التشهير بالإسلام والنبّي ﷺ، لكي يترسّخ في ذهن القارئ الغربي بالدرجة الأولى زيف الإسلام وكرهيته"⁽¹⁾.

(1) المرجع السابق، فلاّ عن محمد صالح البنباقي في كتابه "المستشرقون وترجمة القرآن الكريم" ص ١٠٨، ط ٢، ١٩٨٣، دار الآفاق الجديدة، بيروت.

المبحث الثاني

نماذج من الرهبان المستشرقين في العصور الوسطى أولاً: بطرس المبجل ... وأول ترجمة للقرآن الكريم

تقدّم فيما سبق الحديث عن نشأة الاستشراق، وعن الطبيعة الدينية التي انصفت بها. كما تقدّم الحديث على أنّ الكنيسة إنما أنشأت المؤسسة الاستشراقية، وقامت بتقديم الدعم الكامل لها، لتكون واحدة من أدواتها في محاربة الإسلام عقدياً وفكرياً، بهدف الصدّ عنه والحدّ من انتشاره في القارة الأوروبية. وقد تسوّى للكنيسة تحقيق هذا الهدف، من خلال رجالها ورهبانها الذين عكفوا على دراسة الإسلام ومصادره، وعلى رأسها القرآن الكريم وذلك في محاولة منهم للبحث عن تناقضات وعيوب ونقاط ضعف بشريّة وضعه وتبطل القول بالهيمّة مصدره. وقد كان أبرز من تصدّى لذلك الراهب بيمومويس دي مونتيسير، الذي اشتهر في التاريخ باسم بطرس المبجل (أو المحترم / المكرم)؛ حيث قدّم للعالم المسيحي الغربي آنذاك مشروعين هامّين جدّاً، كان لهما كبير الأثر في خلق الجدل العدواني العنيف ضد الإسلام، وتشويه صورة القرآن الكريم والمعتقدات الإسلامية في عيون الدارسين لها من الأجيال اللاحقة. وهذان المشروعان هما:

١. الترجمة الأولى للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية.

٢. ترجمة الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها.

وقد شرع بطرس المبجل في تنفيذ هذين المشروعين (أو بالأصحّ الإشراف عليها بنفسه) بعد تولّيه رئاسة دير كلوني^(١) الذي كان واحداً من أشهر الأديرة وأكثرها نفوذاً على الإطلاق

^(١) كلوني: أطلق الدير البندكتي في كلوني، من مقاطعة بورغونديا في جنوب فرنسا، حركة إصلاحية هدفت إلى "تصير" أوروبا، وتلقين الناس فيها القيم المسيحية الحقيقية. وفي نهاية القرن العاشر، وعلى امتداد القرن الحادي عشر، شكّلت كلوني والأديرة البندكتية الأخرى، التي انضوت تحت لواء تلك الحركة الإصلاحية، أقوى مؤسسة وأوسعها نفوذاً في طول أوروبا وعرضها. وقد نال دير كلوني منزلة الحصانة تحت الحماية المباشرة للبابا في روما، والحقّ المطلق في أن ينشئ أديرة أخرى تابعة له، وخلال القرنين التاليين من تأسيسه، نال دير كلوني تأثيراً كبيراً وحرّةً ضخمةً، وأصبح في الواقع عاصمةً للإمبراطورية الثرية حيث كان يتبعه أكثر من ستائة دير، والألوف من الرهبان في أوروبا. وأصبح رهبان دير كلوني يابوت وكراتنة، وكثير من رؤسائه كانوا مستشارين للباطرة والملوك. ومن أشهر رهبان دير كلوني الذين وصلوا إلى منصب البابوية، البابا جريجوري السابع، وتلميذه البابا أوربان الثاني الذي أطلق الحروب الصليبية ضد المسلمين.

كانت فكرة عقد مناقشة فكرية مع الإسلام تتردد في عقل بطرس المبجل بين الفينة والأخرى، ولكنها اختمت واكتملت عندما كان في إحدى جولاته التفقدية للأديرة البندكتية التابعة لدير كلوني في إسبانيا عام ١١٤٢م. والذي شجعه على المضي قدماً في هذه الفكرة أنه التقى ببعض الرهبان الكاثوليك الذي يعرفون اللغة العربية (لغة القرآن ومحمد ﷺ) "مما يُسهلُ عملية محاكاة الإسلام والمسلمين في حال تمت ترجمة قرآنهم وتشريعاتهم إلى اللغة التي يجيدها الرهبان ويتكلمون بها.

إنّ الرسالة التي بعث بها هذا البطرس المبجل للمسلمين، والتي سبق إيرادها في الفصل الأول من هذه الدراسة، تدلُّ وبشكل واضح على مدى الكراهية التي كان يحملها هذا البطرس للإسلام والمسلمين، وما كانت رغبته في ترجمة القرآن مُندرجةً إلاّ تحت هذه المشاعر التي تعتملُ في قلبه تجاه المسلمين. ولكنه، وعلى خلاف الكثيرين من الرهبان آنذاك، كان يدعو للمواجهة الفكرية العقديّة السلميّة القائمة على الحوار في مواجهة الإسلام وبعيداً عن المواجهات العسكرية الحربية المُسلّحة (بعد أن أثبتت التجربة فشلها طبعاً)، وقد كان يدعو على الدوام لمواجهة الإسلام بوصفه هرطقةً يجب دحضها، ولكنّ الذي يختلف عنده عن غيره هو الشكل الذي اختاره لهذه المواجهة؛ فقد نادى بأن تكون غير عسكرية. ولكنّ هذه الفكرة (ترجمة القرآن لبيان كذبه وتناقضاته) لم ترقُ للكنيسة الكاثوليكية، ولم ترقُ للرهبان الفرنسيين والإسبان آنذاك، ممّا اضطرَّ بطرس المبجل لتقديم المبررات والدوافع التي أدت به إلى الإقدام على مثل هذا النوع من الأعمال فقال: "إذا بدا أنّ العمل الذي أدعو له غير ضروري الآن، لأنّ العدو لن يتأثر بهذا السلاح، أجيّب أنّ بعض الأعمال التي تجري في مجال سلطة الملك الأنجم إنما تتم من أجل ضرورات الدفاع، أمّا بعضها الآخر فليس له غير مهمة تزيينية، والباقي يجري للمستقبل لا للحاضر. فسلیمانُ المحبُّ للسلام كان يصنع سلاحاً لم يُستغلّ في أيامه، وداودُ أمرَ بصنع زخارف للهيكَل رغم عدم تبيّن معاصريه فائدة مثل هذا العمل. وهذا هو الشأن في العمل الذي أقوم به هنا، فإذا لم يمكن بهذه الطريقة إعادة المسلمين إلى المسيحية الصحيحة، فلا أقلّ من أن يستفيد العلماء المسيحيون من عملنا في مجال دعم إيمان المسيحيين الشُدج الذين يمكن أن تضيّر هذه الصغائر عقيدتهم"^(١).

(١) سوزنر، [م. س.]، ص ٨١، ٨٢.

لقد كان بطرس يرى في الإسلام "هرطقة مسيحية" هي آخر الهرطقات وأشدّها ضرراً. ويعتقد أنّ التحديّ الإسلامي لم يجد إجابةً مسيحيةً مناسبةً حتى أيامه، ولهذا رأى أنه من الضروري مواجهة هذه الهرطقة التي شكّلت، بزعمه، الأصل والمنبع لكل الهرطقات التي كانت تغزو المسيحية الأوروبية التقليدية آنذاك، فإذا كان الإسلام لا يشكلُ خطراً عسكرياً مباشراً، فلا شك أنه شديد الخطورة فكرياً، لذا لا بد من التعرّف عليه ليُتمكّن مكافئته. وواضحٌ من كلامه السابق أنّه إنما كان يطمعُ في إعادة المسلمين (الهرطقة) إلى المسيحية الصحيحة، كما كان يرى في هذه الترجمة دفاعاً عن المسيحية ضدّ العقائد الإسلامية المضرة التي لها تأثيرٌ على معتقدات بعض المسيحيين السذج غير المتمكّنين من دينهم كما ينبغي. وعلى كلّ فقد مضى هذا الراهب بطرس في تنفيذ فكرته وإخراجها إلى حيّز الوجود، متجاهلاً كلّ اعتراضات الرهبان على وجود مثل هذا النوع من الترجمة، فالتقى في إسبانيا "براهبين زاعرين هما: روبرت ألكيتوني الإنكليزي، وهرمان دلماتا. وكان الرهبان المذكوران يتّقان عن نصوص في الرياضيات وعلم الفلك، لكنّ بطرس أقنعهما بالتعاون معه في مشروع لترجمة أهمّ المخطوطات الإسلامية. وهكذا عمل روبرت وهرمان سويةً مع مسيحيّ إسبانيّ يدعى بطرس الطليطلي، وشخص مسلم يدعى محمد السراساني، وأنتج هؤلاء مجتمعين سلسلةً من الوثائق التي ظلّت على درجةٍ كبيرةٍ من الأهمية على صعيد فهم الغرب للإسلام حتى القرن السادس عشر. فكانت هناك ترجمةٌ للقرآن، وتاريخٌ للعالم من وجهة النظر الإسلامية، وعرضٌ لتعاليم محمد، ومجموعةٌ من الحكايا الشعبية والخرافية الإسلامية، وعملٌ مبكّرٌ من أعمال اللاهوت الجدلي ضد الإسلام بعنوان "اعتذار الكندي"^(١). والذي يهّمنا ويعيننا في هذه الأعمال هو ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينية، وترجمة الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها والتي سمّتها آرمسترونج (اعتذار الكندي) في النّصّ السابق. "وقد علّم روبرت ألكيتوني من بطرس المبجل أنّ هدفه تعريف الغرب النصرانيّ بالإسلام الذي يعتبره هرطقةً من الهرطقات الكبرى التي هدّدت النصرانية، وأنّ بطرس ينوي الردّ على الإسلام، لذلك قام روبرت ألكيتوني

(١) انظر:

- أ. آرمسترونج، كارين، الحرب المقدّسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ترجمة سامي الكمي، ص ٢٨٣، ط١، ٢٠٠٤، دار الكتاب العربي، القاهرة.
- ب. فوك، يوهان، تاريخ حركة الاستشراق الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم، ص ١٥، ط١، ١٩٩٦، دار قتيبة، دمشق.
- ج. جورافسكي، [م. س.]، ص ٨٠، ٨١.
- د. عربي، [م. س.]، ص ١٤٤، ١٤٥.

بترجمة خاطئة مُفرضة لمعاني القرآن الكريم، كان لها تأثيرٌ سيءٌ في صياغة تلك العقيدة الغربية الحاقدة تجاه الإسلام ونبِيِّه محمدٌ^(١).

ومن الأمانة القول: لقد أثارت ترجمة روبرت ألكيتوني للقرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية بأمرٍ من بطرس المبجل استياء معظم المؤرّخين المسيحيين المعاصرين الذين كتبوا عن أوروبا وتاريخها في العصور الوسطى، فأفردوا صفحاتٍ من كتبهم للحديث عنها وعن مساوئها ولما أخذ عليها، وتكاد المعلومات والملاحظات التي ذكروها تتطابق، بالرغم من تعدّد المصادر القديمة التي أخذوا منها ونقلوا عنها، ممّا يؤكّد صحّة القول بتعمّد بطرس المبجل وروبرت ألكيتوني لإخراج ترجمة مشوهة مقصودة للقرآن الكريم. وممّا يؤكّد كذلك على أنّ هؤلاء المتأخرين كانوا مُحقّين في توجيههم الانتقادات لتلك الترجمة ولتشويهات روبرت ألكيتوني فيها، ومن ذلك^(٢):

١. أنّ المترجم روبرت الكيتوني قد غير ترتيب السور القرآنية، وجاء بترتيبٍ جديدٍ لها، وقام بتقسيم بعض السور القرآنية الطويلة إلى مجموعةٍ من السور القصيرة، وبذلك وصل عدد السور القرآنية في ترجمته إلى مائةٍ وثلاثٍ وعشرين سورةً بدلاً من مائةٍ وأربع عشرة سورة؟!.

٢. لم يدخل سورة الفاتحة في إحصائه للسور القرآنية، حيث اعتبرها مجرد دعاءٍ تمهيدٍ يتلى قبل الشروع في تلاوة القرآن، وهو بذلك قد قاسها على الدعاء المسيحي (أبانا الذي في السموات...).

٣. الترجمة الخاطئة لكلمة (وجيهاً) التي وردت في الآية ٤٥ من سورة آل عمران (إذا قالت الملائكةُ يا مريمُ إنّ الله يبشرك بكلمةً منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وجيهاً في

(١) عودة، علي بن محمد، العنوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد، ص ٦، بحث منشور في موقع نصرة رسول الله، النسخة الإلكترونية. (٢) أنظر:

أ. هاغان، لودفيغ، المسيحية ضد الإسلام حوار انتهى إلى الإخفاق، ترجمة محمد جديد، ص ٦٤ - ٦٩ بتصرف، ط ٢٠٠٥، دار قلمس، سوريا.

ب. آرمسترونغ، [م. س.]، ص ٢٨٥ - ٢٨٦.

ج. عودة، [م. س.]، ص ٦، ٧.

د. جورافسكي، [م. س.]، ص ٨١، ٨٢.

هـ. عبد المحسن، [م. س.]، ص ٤٨ - ٥٠.

و. فوك، [م. س.]، ص ١٧، ١٨.

الدنيا والآخرة ومن المَقْرَبِينَ) فقد قرأ الكيتوني كلمة وجيهاً على أنها وجهٌ، وبناءً على ذلك عبّر عنها بكلمة (Facies).

٤. في ترجمته لبعض الآيات تعبيرٌ عن مدى الانحطاط والتّونية، وغيابٌ لأدنى درجات الأمانة العلمية؛ ويشهدُ على ذلك ترجمته للآية ١٤ من سورة آل عمران (زَيْنٌ للناسِ حُبُّ الشهوات من النساءِ والبنين ... الآية) فقد ترجمها بمعنى مجامعة الأبناء ومعاشقتهم!!!. ٥. في ترجمته لسورة الهَمزة، ترجم قوله تعالى (يَحْسَبُ أَنَّ ماله أخله) بمعنى إنّ الذي يخلِّده هو ماله!!! والسبب في ذلك أنّه في ترجمته قد حذف كلمة (يحسب) فأعطت الترجمة عكس المعنى المراد من الآية الكريمة!!!.

٦. حين ترجم روبرت ألكتوني كلمات سورة الفاشية: "فذكرٌ إنما أنت مُذكرٌ. لستَ عليهم بمسيطر)، انتقل الشارح هنا على حين غرةً إلى الهجوم على النبيّ محمدٍ على نحوٍ يدعو للاستغراب، فقال: فلم تُعلمُ إذن أنّ هدي الناس إلى دينك يجب أن يتم بحمد السيف؟ إذا كنتَ مُذكرًا ولستَ بمسيطرٍ، فلم تُخضعُ الناس بالقوة لكانها الحيوانات أو الوحوش الضارية، وليس بالحجّة مثل الآدميين؟ إنك مثل الكذاب، تناقض الحقيقة بنفسك في كل شي!!!.

٧. أعطى معنى غامضاً لخطاب (يا أهل الكتاب)، وجعله يبدو في معظم الأحيان وكأنه موجّه إلى المسلمين.

٨. أضفى على كل الآيات المتعلقة بأحكام الزواج والطلاق معاني جنسيةً داعرةً بحيث تبدو للقارى الغربيّ، لا سيما الرهبان، مثيرةً للاشمئزاز والنفور، مثل:

أ. الآية ٢٣٠ من سورة البقرة (فإن طلقها فلا تحلّ له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) ترجمها "فلا تحلّ له حتى يطأها رجلٌ غيره!!!".

ب. الآية ٢٢٠ من سورة البقرة (.... ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خيرٌ، وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين) ترجم تخالطوهم بمعنى تمارسوا معهم اللواط!!!.

ج. الآية ٢٢٣ من سورة البقرة (نساؤكم حرثٌ لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ترجمها بمعنى "فأتوهم في أدبارهن!!!".

د. الآية ٥٠ من سورة الأحزاب (يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك ... الآية) ترجمها هكذا "نحن نبيزُ لك أزواجك اللاتي آتيتهنّ مهورهنّ، وجميع إمائك اللاتي أعطاكهنّ الله، وبنات عمك، وبنات عماتك، وبنات خالك وبنات خالاتك، اللاتي اتبعنك، وكل امرأة

مؤمنة إذا هي ترغب أن تقدّم جسدها أو نفسها للرسول، وإذا الرسول يرغب أن يضطجع معها فيفعل، وهذا خاص لك وليس للمؤمنين الآخرين!!!.

إذا، لم يكن روبرت الكيتوني يتمتع ولو بأدنى درجات الإحساس أو الأمانة العلميتين؛ حيث أغفل ترجمة العديد من المفردات ولم يتقيد بأصل السياق ولم يقيم وزناً لخصوصيات الأسلوب القرآني، بل بذل مجهوده (المنثور هباءً) على استشفاف مضمون مقصود أو فكرة كل آية من كل سورة ثم ترجمها حسبما يلائم فهمه وهواه!!! وقد كان قدوته في ذلك الراهب بطرس المبجل، الذي دفع له أجراً مجزياً ليقوم بمثل هذا النوع من الترجمة، فقد كان بطرس المبجل عند مهاجمته للقرآن الكريم أمام الرهبان والعوام من المسيحيين يقوم باتزاع آيات من بعض السور القرآنية ويعزلها عن سياقها ويفسرها على هواه؛ ومن ذلك تعليقه على قوله تعالى في الآية العشرين من سورة آل عمران (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن) بقوله: "ثم ما هذا؟ إذا شاء أحدكم أن يحاجبك، تقول إنك تسلم وجهك ووجوه التابعين لك إلى رب العالمين. أيا محمد ... إذا أبيت الردّ فيما خلا أنك توجه وجهك ووجوه أتباعك لله، فهل أصدّق أنّ ما تقوله صحيح؟ هل أصدّق أنك نبي الله حقاً؟ وهل أصدّق أنّ الدين الذي نقلته إلى قومك سلّم إليك من رب السماء؟ ساكون بالحقيقة أكثر من حارٍ لو وافقكك؛ وساكون حتماً أكثر من سائمة لو سلّمك معك"⁽¹⁾.

ولعلّ ما نراه فاجعةً وطامةً كبرى فيما يتعلّق بهذه الترجمة، إضافةً لمضمونها وأهدافها، هو أنّها ظلّت طوال خمسة قرونٍ الأكثر استعمالاً، وعليها تقوم أقدم ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات الإيطالية والألمانية والهولندية. "ولم تجر إزاحة ترجمة القرآن اللاتينية لروبرت الكيتوني بسبب ترجمة الإيطالي لودفيكو مراثشي إزاحةً نهائيةً إلا في عام ١٦٩٨م، إذ كانت هذه أفضل وأكثر دقّة بما لا يقاس"⁽²⁾ والعجيب المضحك في موضوع هذه الترجمة المشوهة المليئة بالأغلاط، أنّ الكنيسة الكاثوليكية رأّت أنّ هذا النوع من الترجمات "قد أدّى إلى التعرّف على بعض حقائق الإسلام، بما دفع البابا الإسكندر السابع لأن يصدر قراراً بتحريم ترجمة القرآن ونشره بل وإحراق نسخته"⁽³⁾. وبناءً على تحريمات الكنيسة السابقة

(1) آرستروخ، [م.س.]، ص ٢٨٧.

(2) هاغان، [م.س.]، ص ٦٩.

(3) عربي، [م.س.]، ص ١٤٥.

"بقيت ترجمة بطرس المجل حبيسةً محفوظات دير كلوني ولم يُفرج عنها إلا بعد أربعة قرون"^(١).

وبالعودة للحديث عن هذه الترجمة المشوهة التي خرجت بأمرٍ ودعمٍ من بطرس المجل قول: إنَّ دور المترجم الآخر المساعد لروبرت ألكيتوني وهو الراهب هرمان دلماتا اقتصر على ترجمة بعض المقالات المناهضة للإسلام وضمَّها إلى كتاب الترجمة ألكيتوني، هذا إضافةً لقيام دلماتا بكتابة ما يزيدُ عن خميس وأربعين صفحةً "تطعنُ كُلَّها في مبادئ الإسلام وحياة النبي محمد ﷺ وتاريخ الإسلام، وتصفه بِـ "التاريخ المُضحك". وكان مرجعه في ذلك كله القصص والمحاورات المدسوسة الملققة المزعومة بين أحبار اليهود والنبي ﷺ، والمنشورة في الغرب تحت عنوان (Doctrina Mahumet). وهي ذاتها الإسرائيلية المشهورة عند المسلمين باسم "مسائل عبد الله بن سلام". وكانت خلاصة ما كتبه هذا الراهب هرمان دلماتا عن الإسلام ما يلي:

١. مبادئ محمد (أو "تعاليم محمد" حسب بعض الترجمات).
٢. التاريخ الوهمي والمضحك للمسلمين.
٣. أمةٌ محمدٍ ونشوزها"^(٢).

وعلى أساس هذه الأعمال والترجمات، إضافةً للرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها، والتي سيأتي ذكرها تفصيلاً فيما سيأتي، صنَّف بطرس المجل الأعمال الجدلية التي هاجم فيها الإسلام، وأبرزها كتاب دحض العقيدة الإسلامية (Liber Contra Sectam Sive Haeresim Saracenorum). وقد انبرى الأستاذ علي بن محمد عودة لتحليل هذا الكتاب، ولعرض أبرز ما ورد في فصوله، وعرض مقتطفاتٍ مختصرةً منه، وقبل عرض هذه المقتطفات نذكُر بأنَّ الكتاب المذكور كان يتكون من ستة فصولٍ هي:

(١) فوك، [م. س.]، ص ٩٨.

(٢) انظر:

أ. جورافسكي، [م. س.]، ص ٨١.

ب. عربي، [م. س.]، ص ١٤٥.

ج. عبد الحسن، [م. س.]، ص ٥٢.

- أ. الرب، المسيح، ويوم الحساب.
 ج. القرآن ومصادره.
 هـ. انتشار الإسلام.
- ب. النبي محمد.
 د. الجنة والنار، والتعاليم الأخلاقية.
 و. الإسلام بوصفه هرطقة مسيحية.

وكان ممّا جاء في عرض الأستاذ عودة للكتاب ما يلي: "بعد أن عرض بتهمكم مشاهد يوم القيامة التي انفرد بها القرآن ولا توجد عندهم في كتبهم المقدسة قال [بطرس المبجل]: "إلى هذا الحدّ الفعليّ **Mahumet** (محمد) القدر الشرير علم أتباعه إنكار جميع أسرار الدين المسيحي، وحكم تقريباً على ثلث الجنس البشري بعدم معرفة يوم الدينونة للرب، بواسطة حكايات مجنونة يهذي بما لم يُسمع بمثلاها استجابةً لإبليس والهلاك السرمدى"^(١).

ثمّ يقدّم في جملة مختصراً مشوّهاً لسيرة النبي (ﷺ) إلى أن يقول [بطرس المبجل]: "هكذا كان **Mahumet** (محمد) ناشطاً جداً في الشؤون العالمية، وذكياً إلى أبعد حدّ، هو انبثق من الأصل الوضع، والفقر إلى الغنى والشهرة، ونهض بنفسه إلى أعلى شيئاً فشيئاً، وتكراراً هاجم كل أولئك الذين كانوا بجواره، وكان بشكلي بارز يضمّ إليه الأقرباء بالخداع والسلب، والغزوات، قاتلاً أيّ شخص غيلةً إن استطاع. هو ازداد رعباً بواسطة اسمه، وفي الوقت المناسب وصل إلى القمة بالنزاعات. ثم بدأ يطمح إلى منصب الملك على شعبه، ولمّا كان يدرك أنه لا يستطيع أن يحقق هذا الرغبة بسبب أصله الوضع. قرّر أن يصبح ملكاً عن طريق السيف، وتحت قناع الدين وبواسطة الاسم [رسول الله]"^(٢). ثم يتناول في جملة القرآن ويرفض بشدّة نبوة محمد (ﷺ) ويزعم أنّ القرآن له مصادر هي: إبليس، وسرجيوس (نسطوريوس) وبحيرا... إلى أن يقول [بطرس المبجل] ما نصه: "هكذا علم محمد من جانب أحسن علماء اللاهوت البارزين، والمتهرطقين، فأتجوا قرآنه، ونسجوا معاً، في ذلك الشكل غير الفصيح، له كتاباً مقدساً شيطانياً، صنّف على حدّ سواء من الخرافات اليهودية والأغاني العابثة للهرطقة، [مدّعياً] كاذباً أن هذه المجموعة جلبت إليه سورة وراء سورة بواسطة جبريل، الذي عرّف اسمه من الكتاب المقدس في ذلك الوقت، هو محمد (ﷺ) [أفسد بسّم

(١) انظر: عودة، [م.س.]. ص ١٠ فما فوق.

(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٠ فما فوق.

مُهَلِكِ ذلك الشعب الذي لم يعرف الرب. وفي سلوك هذا المُفسدِ أن جعل في حوافِّ القدر المملوء بالعسل السَّمَّ المهلِك الذي يتسرب معه، هو (محمد) حطَّم، واحسرتاه، الأرواح والأجساد لذلك الشعب البائس، ذلك الرجل، أتى على الشريعة المسيحية واليهودية، والشرير مع ذلك يقتبس منها ويرفضها في الوقت نفسه"^(١).

وبعد ذلك يتناول بطرس المكرم، الجنة والنار، والتعاليم الأخلاقية، ويهاجم التصوير القرآني للجنة والنار فيقول: "محمدٌ يصفُ عذاب جهنم كأنها تسرُّه حتى يصفها، وكأنه كان ملائماً لرسولٍ زانفٍ كبيرٍ أن يخترع تلك الأوصاف. وهو يصور جنةً ليست من مجتمع ملائكيٍّ، ولا من تجلِّي الرب، ولا من ذلك الخير الأعلى، الذي لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر... بل في هذه الطريقة هو وصَفَهَا مثلاً هو رغِبَهَا أن تكون مُعدَّةً لنفسه، هو يَعدُّ أتباعه هناك بالأكل من اللحم، وكل أنواع الثمرات، هناك أنهار من اللبن والعسل والمياه المتدفقة. هناك العناق والإشباع الشهواني من النساء العذارى الأجل، فيها أشياء كثيرة، جنتُهُ كلها حسِّيَّةٌ. ثم يتناول بطرس المكرم تعدد الزوجات في الإسلام باعتباره عملاً من أعمال الزنى وفق المنظور الرهباني"^(٢).

ثم يعود بطرس المبجل للهجوم البذيء على النبي (ﷺ) فيقول: "وبالإضافة إلى كل هذه الأشياء، هو استطاع أن يجتذب إليه الرغبات الشهوانية للرجال، حيث أطلق لهم الأعتة للنهم والتلوث. هو نفسه كان له في ذات الوقت ستة عشر زوجةً ... مقترفاً الزنى كأنه شرطٌ بواسطة الأمر الإلهي، وبذلك أضاف إلى نفسه عدداً ضخماً من الناس المحكوم عليهم بالهلاك السرمدى"^(٣).

ونرى في نهاية ذكرنا لكلمات هذا الراهب الحاقد بطرس المبجل أن هذا البطرس لم يكن مُبجلاً البتة، بل على العكس من ذلك، فمن الواضح أن مجموعته من الرهبان المترجمين كانوا يعانون من أزماتٍ أخلاقيةٍ ونفسيةٍ نجمت عن الضغط والقلق والرعب الذي كان الإسلام يسببه لهم وللكنيسة الكاثوليكية التي كانت ترعاهم، فما كان منهم إلا أن قاموا بتجميع تلفيقاتهم وتزويراتهم وترجماتهم المغلوطة المشوهة المكذوبة فيما سُمِّيَ بـ (المجموعة الطليطلية) أو

(١) عودة، [م. س.] ص ١٢.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١٣.

(٣) المرجع السابق نفسه، ص ١٤.

(فيلق كلوني) وهي المجموعة، لعظيم الأسف التي صارت المصدر الرئيسي للأوروبيين في استقائهم المعلومات والمعطيات عن الدين الإسلامي على مدى خمسمئة عام تقريباً!!!.

وحتى تكتمل الصورة عن العمل الجماعي المنظم في تشويه هذه المجموعة الاستشراقية الرهبانية لصورة الإسلام وعقيدته وتشريعاته، فلا بد لنا من الوقوف عند عملٍ خطيرٍ آخر من الأعمال التي قاموا بترجمتها ألا وهي الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها.

ثانياً: القديس توما الأكويني^(١)

انتهت حقبة بطرس المبتجل ومجموعته الطليطلية وفيلق كولوني وما رافقتها من مؤلفات جدليّة كبرى ضدّ الإسلام والرسول محمد ﷺ، وبرز بعدها نجم راهبٍ جديد حمل رسالةً سابقة، وتصدّى بكلّ عزمه لمحاربة الإسلام وللدّفاع عن العقائد المسيحيّة في وجه كلّ المخالفين لها، وبالذات المسلمين الذين كان الأكويني يعتبرهم وثنيين وليس مجرد هراطقة مُجدّفين.

كان هذا الراهب كثير القراءة والتأليف وقد اشتهر بموسوعته اللاهوتية الكبيرة التي قسّم فيها أبحاثه إلى أقسام ثلاثة، خصّص قسمها الأول للإنبياء، وقسمها الثاني للبحث حول الإنسان، أمّا القسم الثالث فكان موضوعه شخص السيد المسيح كإنسانٍ وإلهٍ معاً.

ففي الجزء الأول فصلّ القول في وجود الله فالله عنده هو المحركُ الأعظم أو العلة الأولى لجميع الأشياء، فهو البداية والنهاية والمنتهى لكلّ شيء في الوجود.

وفي الجزء الثاني، تحدّث عن الإنسان كمنطوقٍ ساقطٍ (حسب تعبيره)، لكنّه رغم ذلك في وسعه أن يتمتّع بالفداء^(٢)، ثمّ تطرق لبحث السلوك الإنساني بفضائله ووزائله، ثمّ توسّع في موضوع التاموس والنعمة.

^(١) ولد توما الأكويني في حوالي العام ١٢٢٥م قرب قلعة الكونت لاندولف من روكاسكا في مملكة صقلية (لاتسيو اليوم). ويرتبط بسلاطة هوهنستوفن إحدى سلالات إمبراطور روما المقدس عن طريق والده ثيودورا كوثيسية تيات. كان سينيالد شقيق لاندولف رئيس دير الرهبان البندكتيين الأصلي في مونت كاسينو، وبينما كان جميع إخوة توما في من عسكريّة، قررت العائلة أن يسلك توما طريق عمّه في الرهبانية، بدأ توما الأكويني تعليمه المبكر في سن الخامسة في دير مونت كاسينو، غير أنه بعد اندلاع الصراع العسكري بين الإمبراطور فريديريك الثاني والبابا غريغوري التاسع ووصوله إلى السر في بداية ١٢٣٩م، قرر لاندولف وثيودورا إرسال ابنيهما إلى الجامعة التي أنشأها فريديريك حديثاً في نابولي. وعلى الأرجح، فإن توما قد تعرف هناك على أعمال أرسطو وابن رشد وموسى بن ميمون، وأثر هؤلاء الفلاسفة على فلسفته اللاهوتية. وخلال سني دراسته في نابولي تأثر توما بالمبشر النومينيكاني يوحنا من سانت جوليان الذي كان جزءاً من المجهودات المستمرة للرهبانية النومينيكانية من أجل تجنيد أتباع مخلصين. يُعدّ من الشخصيات المؤثرة في مذهب اللاهوت الطبيعي، وهو أبو المدارس التوماوية في الفلسفة واللاهوت، تأثيره واسع على الفلسفة الغربية، وكثيرٌ من أفكار الفلسفة الغربية الحديثة إما ثورة ضد أفكاره أو اتفاق معها، خصوصاً في مسائل الأخلاق والقانون الطبيعي ونظرية السياسة. ويعتبر الأكويني المدرس المثالي لمن يدرسون ليكونوا قسيسين في الكنيسة الكاثوليكية، ويُعرف بعملية خلاصة اللاهوت والحلق والحلق، ويعتبره العديد من المسيحيين فيلسوف الكنيسة الأعظم لذلك تُسمّى باسمه العديد من المؤسسات التعليمية.

^(٢) سبق التعريف به.

بينما تحدّث في الجزء الثالث عن المسيح الفادي الذي فتح للإنسان طريق العودة إلى الله. وقد استخدم الأكويني اتّساع معرفته بالكُتب المقدّسة في إثبات صحّة العقائد الكنسية، كما كتب شرحاً لبشائر الإنجيل ورسائل بولس الرسول استند فيه إلى أقوال آباء الكنيسة.

والذي يعنينا الوقوف عنده من مؤلفات هذا الراهب هو كتاب (منطق الإيمان) الذي خصّصه للإجابة على اعتراضات المسلمين الواردة على العقائد المسيحيّة، وكان الشاعر الذي يرفعه دوماً في عرض العقائد المسيحية والدّفاع عنها قول بطرس (وكونوا أبدأً مستعدّين لأن تردّوا على من يطلب منكم دليل ما أتم عليه من الرّجاء)⁽¹⁾. وواضح من خلال هذا الشاعر الخلفية العقديّة التي كان هذا الراهب ينطلق منها في محاجته ودفاعه عن المسيحية. وتجدر الإشارة قبل البدء في الحديث عن مضمون كتاب (منطق الإيمان) إلى أنّ هذا الكتاب جاء بعد فروغ الأكويني من تأليف كتاب (الخلاصة ضدّ الأُميين) أو (خلاصة الرّدّ على الأُم الخارجة عن المسيحيّة).

"وما من شك في أن توما الأكويني ألّف كتاب (الخلاصة ضد الأُميين) بإيعازٍ من رُمند دي بينافور، وهو من كبار الشخصيات في نظام رهبانية الدُمنيكان الذي كان يعمل في تبشير المسلمين في إسبانيا، وإلى مبادرته أيضاً ندين بإدخال دراسة اللغة العربية في إسبانيا. وتشير كل المظاهر إلى أنّ كتاب (الخلاصة ضد الأُميين) كان يُقصدُ به أن يكون كتاباً تعليمياً للكليات التي أنشأها نظام رهبانية الدُمنيكان لتدريب مبشّري المستقبل"⁽²⁾.

وقد جاء كتاب (منطق الإيمان) بمثابة رسالةٍ جوابيّةٍ عن العديد من تساؤلات واعتراضات المسلمين أوردها شخصٌ يُسمّى كَنُتْر الإيطالي، وتوجّه بها إلى توماس الأكويني راجياً منه الإجابة عليها، فما كان من الأكويني إلّا أن قام بوضع هذا المؤلّف، وذلك في شعورٍ منه بوجوب تلبية نداء الواجب الذي ينصّ على وجوب أن يكون على استعدادٍ دائمٍ لتحلُّل المسؤولية الدينية العقديّة "تجاه الاعتراضات والصعوبات والمشكلات الموجودة في المواقف التاريخية الاجتماعية المحسوسة"⁽³⁾.

(1) رسالة القديس بطرس الأولى: ٣: ١٥

(2) هاغان، [م. س.]، ص ٧٨.

(3) هاغان، [م. س.]، ص ٨٠.

وفي بداية الفصل الثاني من هذا الكتاب يوجّه الأكويني السائلَ كثر الإيطالي إلى مسألة هامة في حاجة غير المسيحيين، وهي تتمثل في أنه لا يجوز للدفاع عن العقيدة المسيحية أن يتوجّه للبرهنة على صحة هذه العقيدة، بل يجب عليه التوجّه للدفاع عنها فقط، وحجته في ذلك أن هذه العقيدة المسيحية إنما هي مكفولة بكفالة إلهية، ولا يمكن بحال أن تتناقض مع الحقائق العقلية؛ لأنّ ما ليس بخاطئ لا يمكن أن يكون خاطئاً!!.

"أريد بادئ ذي بدء أن أذكر أنه لا يجوز لك أن تهدف في الخلافات مع الكفار حول أركان الإيمان إلى البرهنة على صحة العقيدة عن طريق الأسباب القاهرة، إذ أنّ هذا خليقٌ أن يُنال من جلال العقيدة وتسامياها، وهي التي لا تتجاوز صحتها مجال الفكر البشري فقط، بل تتجاوز حتى مجال فكر الملائكة؛ بل نحن نعدُّ (مضامين العقيدة) كأنما هي أمورٌ موحى بها من الرب نفسه. ولكن لما كان ما يصدر عن الحقيقة العليا لا يمكن أن يكون خاطئاً، ولا يمكن البرهنة عليها بالأسباب القاهرة أيضاً، مثل تلك المضامين (المذكورة آنفاً) لأنها تتجاوز مجال العقل البشري. غير أنها لا يمكن دحضها أيضاً بالأسباب القاهرة بسبب صحتها"⁽¹⁾.

وقد نبّه الأكويني إلى أنه عند مواجهة ومحاجة المسلمين، فليس من الصواب اللجوء إلى الكتاب المقدس أو الاستشهاد بآياته وكلماته، والسبب في ذلك أنّ المسلمين لا يعترفون بالكتاب المقدس ولا يؤمنون به، حسب قوله، ولا يرون أنّه كلمة لها حقيقتها، وبالتالي، فإنّ العقل وحده هو السبيل والأساس المشترك للنقاش مع المسلمين.

ويلفت هاغمان⁽²⁾ النظر إلى معلومة هامة تتعلق بمقدار كفاية معرفة الأكويني بالإسلام وبمصدر هذه المعرفة فيقول: "وذلك أن توماس نفسه يعترف صراحة بعدم كفاية معرفته [عن الإسلام]، وليس ثمة سبب يحمل على افتراض أنه قرأ القرآن في أيّ يوم من الأيام مع توافر ترجّحات لاتينية له بلا ريب. ومن المعروف أنّ الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن ترجع إلى مبادرة بطرس المبجل، أمّا ما يوجد حول محمدٍ وتعاليمه لدى توما، فهو الروايات

(1) المرجع السابق، ص ٨٠.

(2) انظر المرجع السابق، ص ٨٢، ٨٣.

المعروفة في تلك الأيام في الأوساط الفكرية في كل مكان من الغرب. ولا تتجاوز معلومات
توما عن الإسلام مقدار معرفة مَتَخَلِّفَة، كما يثبت ذلك كتاب (منطق الإيمان)^(١).

إذاً فقد كانت معرفة الأكويني بالإسلام معرفةً محدودةً وفقيرةً. وكلُّ ما كتبه عن نبوة
محمد ﷺ كان مصدره الترجمات المشوهة المغلوطة التي تقدّم الحديث عنها في المبحث
السابق!!.

وبالرغم من هذا الفقر المعرفي المتعلّق بالإسلام، والذي كان يعاني منه الأكويني،
نراه في كتابه (منطق الإيمان) يتصدى للفهم الإسلامي لموضوع التوحيد، فيثبت بطلانه، كما
رأى، وصحة الاعتقاد المسيحي بـ (الله الواحد مثلث الأقانيم)، كما يتهم المسلمين بالتهكّم على
المسيحيين في موضوع صلب المسيح عليه السلام، "وهم يتكلمون على أننا ندعي أن المسيح
ابن الله، قد صُلب من أجل تخليص الجنس البشري، لأنه إذا كان الله قادراً على كل شيء
فهو يستطيع أن يخلص الجنس البشري من دون أن يعاني ولده الآلام، وقد كان في وسعه
أيضاً أن يخلق البشر في الأصل حيث لا يمكن أن يرتكبوا الخطيئة"^(٢). ويقوم بالردّ على هذا
التهكّم الإسلامي!!.

كما يخلّص في النهاية إلى اتهام المسلمين بالجبرية والاعتقاد بعدم حرية الإرادة
البشرية!!! "ثم تروي لي بعد ذلك أنه فيما يتعلّق بالثواب الذي يتوقف على حرية الإرادة،
يفرض المسلمون، مثلما تفعل شعوبٌ أخرى، قسراً على التصرفات البشرية بسبب المعرفة
الإلهية المسبقة، وبسبب النظام الإلهي، إذ يقولون: إنّ الإنسان لا يمكن أن يموت ولا أن
يخطئ أيضاً إذا لم يكن ذلك قد رسمه الله للإنسان فيما يشبه التدبير: ولكل أمرئ قدره
المكتوب على جبينه"^(٣).

ثمّ يُعقّب على مسألة الجبر والاختيار بترجيحه للقول بأنّها لم تُحسّن في الإسلام، لا
على لسان محمد ﷺ، ولا في نصوص القرآن الكريم نفسه، "بل يبدو أنّ محمداً نفسه كان غير
حاسم في الإجابة عن سؤال هل يُعدّ الإنسان حراً في تصرفه أم مجبراً، وعلى كل حال فهذا هو

(١) المرجع السابق، ص ٨٢، ٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٤.

(٣) المرجع السابق، ص ٨٦.

حال القرآن، فتمه سلسلة من آيات القرآن تتحدث عن الجبر. وفي مقابل ذلك يرد الحديث في آياتٍ أخرى عن حرية إرادة البشر، وحتى علماء اللاهوت المسلمون لا يتفقون على هذا الرأي، فتفسيرهم يراوح بين الجبر من ناحية، ونظرية حرية الإرادة البشرية من ناحية أخرى^(١).

وواضحٌ من هذه الكلمات ضحالة معرفة هذا الأكويني بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومع ذلك فقد سمح لنفسه بكتابة المؤلفات التي يتحدث فيها عن الإسلام وبهاجمه، نعم، لقد كان القديس توما الأكويني من أهم الشخصيات المسيحية الكاثوليكية التي هاجمت الإسلام في العصور الوسطى، وعلى الرغم من اطلاعه على أعمال الفلاسفة المسلمين، وبخاصة كتابات ابن سينا والغزالي وابن رشد، إلا أنه عدَّ المسلمين وثنيين، "ولهذا قرر الأكويني حتمية عقد المناظرات والمحاورات الجدلية مع الوثنيين بناءً على البراهين العقلية، وليس وفق مفاهيم الكتاب المقدس وشهرته فقط. إضافةً إلى ذلك، فإن توما الأكويني يرى أنه لا يجوز تحويل الوثنيين هؤلاء إلى المسيحية بالقوة نظراً إلى أن الإنسان لا يمكن إجباره على الاعتراف بوجود شيءٍ أسمى من الخير والسعادة، ولهذا، فإنه يتوجب على الحكام المسيحيين - كما يقول الأكويني - الذين يقع المسلمون تحت سلطتهم أن يتصرفوا بصبرٍ إزاء مفهومهم لعبادة الرب"^(٢).

لم يستطع الأكويني، على ألمعيته وطاقته الذهنية الفذة الكبيرة، أن يُحرر نفسه من القوالب الذهنية السلبية والصورة المشوهة السيئة التي رسمها سابقوه للإسلام، فبقي أسيراً لمضامين الرسالة الإسلامية والردّ المسيحي عليها، ولترجمات بطرس المجل المشوهة للقرآن الكريم وما شابهها من الكتابات المفرضة اللاموضوعية؛ ومن ذلك أنه وضع الانتشار السلمي للمسيحية في مقابل ما أسماه (بالانتشار الإكراهي) للإسلام. وقام تفسيره لظاهرة انتشار الإسلام على نظريته تنصّ على أنّ محمداً آمن بدعوته في بادئ الأمر الناس الجهلة البدائيون فقط، أولئك الذين يعيشون في الصحراء، ولم يسبق لهم أن عرفوا أيّ تعليمٍ أو عقيدةٍ إلهية. وعن طريق هؤلاء [البدو الصعاليك كما يصفهم]، أجب محمدٌ بقوة السيف بقيّة الناس في المنطقة على الامتثال إلى شريعته. "ويؤكد توما الأكويني المزام القائلة: إنّ محمداً أغوى كثيراً من الشعوب للدخول في عقيدته، من خلال تشجيعه إياها على الحصول على المملّات والشهوات

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٨٧.

(٢) جورافسكي، [م. س.]، ص ٨٣، بصرف.

الحسنية، وعن طريق الوعود التي قطعها لها ضمن هذا التوجيه الغريزي. ويتابع الأكويني السير في هذا المنحى المتحيز مؤكداً أن محمداً أسس ((قواعده)) و((أحكامه)) التشريعية، التي تناسب مع قدرات وإمكانات العقل المتوسط وحسب. ثمَّ يصل من كل هذه الأطروحات المتسعة إلى القول: إنه لكي لا يكشف أتباعه زيفَ شريعته، فإنَّ محمداً منعهم من قراءة كتب العهدين القديم والجديد^(١).

ونشيرُ هنا إلى أن توما الأكويني لا يستخدم كلمة (القرآن)، وإنما يُجِلُّ محلَّها عبارة (قوانين محمد). وفي مؤلفه الصَّغير: "براهين الإيمان ضدَّ المسلمين (السايرانيين كما يُسمَّيهم)، والإغريق والأرمن، يقدم توما الأكويني النصائح اللازمة لأخيه في الرهبانيات الدومينيكانية، وللهيئة الكنسية في أنطاكية، حول كيفية الرد على أسئلة المسلمين وتفنيد حججهم"^(٢).

(١) جورافسكي، [م. س.]، ص ٨٣، ٨٤ بصرف.

(٢) المرجع السابق، ص ٨٤.

ثالثاً: ركلدس دي موتي كروتشي

في استمرارية لاستعراضنا للرهبان الكاثوليك الذين مارسوا الاستشراق الديني وكتبوا ضد الإسلام وشرائعه، وفي امتدادٍ للعقيدة المسيحية المضادة للإسلام في العصور الوسطى، نتحدث في هذا المبحث عن راهبٍ وافقَ توما الأكويني في الكثير من كتاباته وتصوّراته عن الإسلام؛ ألا وهو الراهب الدومينيكاني ركلدس دي موتي كروتشي أو (ريكالدو أوف مونت كروس) الذي عاش في الفترة ما بين (١٢٤٣ - ١٣٢٠) للميلاد، وترجع أصوله إلى مدينة فلورنسا الإيطالية. ومن خلال نظرة سريعة على ميلاده ومماته، ندرك أنه عاصر القديس توما الأكويني. وإن كان الأكويني قد هاجم الإسلام ونبؤ محمد دون أن يدرس اللغة العربية أو يلتقي ولو بمسلم واحد، فإن ركلدس كروتشي هذا قد سافر إلى بلاد العرب والمسلمين، وقضى فيها فترةً من الزمان تعلّم فيها اللغة العربية ودرس الإسلام في ديار الإسلام، "وفي مقدّمة كتابه المُسمّى "كتاب الغرباء" نجدُ ملاحظةً تفيدُ أنه قام برحلاتٍ طويلةٍ شاقّةٍ، ليكونَ لنفسه ثقافةً شاملةً. فطاف في أرجاء إسبانيا وفلسطين وأرمينيا وبلاد الرافدين، وعاش زمناً طويلاً في بغداد، وهناك درس الإسلام وأطلع على تاريخه. ويتحدث ركلدس مراراً في كتبه عن أنشطته التبشيرية، وفي كتابه "يوميات عن الأمم الشرقية" وضع الخطوات التوجيهية لسلوك المبشرين تجاه المسلمين والمسيحيين الهراطقة"^(١).

والغريب في أمر هذا الراهب ركلدس، أنه لما أقام بين المسلمين وسكن في بلادهم، أعرب عن انبهاره بمستوى التقوى والورع الذي صادفه، فكتب يقول: "إنّ على المسيحيين أن يخطلوا من ورع المسلمين"^(٢). ولكنّه عندما عاد إلى وطنه كتب عن "إقامة الحجّة على المسلمين والقرآن"! فكان أول ما وضعه من مؤلفاته المتعلقة بالإسلام كتابه المُسمّى "جدلٌ ضدّ السراسنة والقرآن!!" كَرر فيه كلَّ الخرافات والسّخافات القديمة المنتشرة في الغرب، والتي ما وُضعت إلاّ لتشوّه صورة الإسلام في عيون أهل الغرب المسيحي، ويبدو أنّ هذه الصورة كانت قويّةً ومرتبّعةً الجذور بحيث "كانت تتغلّب بسهولةً على أيّ اتصالٍ موضوعيّ بالمسلمين الحقيقيين، ورواية ريكولودو هذه، المتحاملة، على نحوٍ سخيف، وغير الدقيقة عن الإسلام، بقيت تُستخدم وتُعتنق ضمنياً من قبل الدارسين والباحثين الغربيين حتى أواخر القرن

(١) هاغان، [م.س.]، ص ٩٨.

(٢) آرمسترونج، [م.س.]، ص ٥١٠.

السابع عشر^(١). ولعلّ ما حَطَّه هذا الراهب شاهدٌ آخر من شواهد انخباس الرهبان والمستشرقين داخل سجن الصّورة النمطية السلبية السائدة عن الإسلام، بالرغم من أنّه عاش بين المسلمين وتعامل معهم مباشرةً، وذلك في تجربة فريدة يُندُرُ أن تتوفّر لمثله من الرهبان الذين كانوا يتحدثون عن الإسلام والمسلمين وهم لم يدرسوا كتبهم ولم يخالطوهم البتّة!!

ولكنّه، وكما هو مُستنتج من مؤلفاته بعد العودة لدياره، ما عاش تلك التجربة بتجرّد وحياديّة ليحكم على الإسلام بعدها، لا ولكنّه عاشها وفي ذهنه قراراتٌ وقناعاتٌ خاطئةٌ مُسبّقةٌ عن الإسلام عزّ عليه فراقها أو التنازل عنها!! "ومن هنا فلا يُستبعدُ بالتاكيد أنّه كان يمتح من مصادرٍ ترجع إلى التراث الغربيّ المعادي للإسلام إلى درجةٍ بعيدة"^(٢). وقد صاغ ركلدس كلّ ما كان يعملُ في صدره وعقله عن الإسلام والقرآن ونبوّة محمد ﷺ في كتابه السابق ذكره "جدلٌ ضدّ السراسنة والقرآن" والذي اشتهرَ بأسماءٍ متعدّدة، كان أبرزها "ضدّ شريعة المسلمين". ويتكوّنُ هذا الكتاب من ستة عشر فصلاً، وكان الهدف الأول والرئيس من كتابته، حسبما جاء في مقدّمته، دحض الأخطاء الرئيسيّة للإسلام، وذلك بهدف إتاحة الفرصة أمام الرهبان والمبشرين ليحملوا المسلمين على التحوّل إلى التّين المسيحي، وذلك من خلال الإيمان بالربّ الحقيقي. ومن المفيد هنا تسجيل الملاحظات التالية:

١. إنّ ركلدس كان يرى أنّ المسلمين يعبدون إلهاً غير حقيقيّ، وهو الإله الذي دعاهم محمدٌ إلى عبادته.

٢. لم يكن الكتاب موجّهاً إلى المسلمين، بل إلى الرهبان المسيحيين المشتغلين في التبشير (التنصير) ومحاجة المسلمين من خلال الكتب والمؤلّفات.

٣. اتفقت آراء ركلدس كثيراً مع آراء توما الأكويني فيما يتعلّق بالدعوة إلى مناظرة المسلمين، واتفقت كذلك في أنّ موضوع المناظرات يجب أن يتعلّق بالدفاع عن العقائد المسيحية وليس بإثبات صحّتها، ويشهدُ على ذلك قوله عندما تحدّث عن التثليث والتجسّد: "ولمّا كان كلا السّرين يتعاليان على العقل البشري، ولا نستطيع أن نسوق أسباباً عقلانيّة للبرهنة عليهما، بل نسوق مجرد أسبابٍ إيمانيّة، فإنه لا يبقى لنا سوى اللجوء إلى مرجعية

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٥١٠.

(٢) هاغان، [م. س.]، ص ٩٢، بصرف.

رسالة الإنجيل التي يأتي القرآن على ذكرها أيضاً، وإلى معجزات مشهود لها في الكتاب المقدس^(١).

وقبل الشروع في ذكر أبرز اعتراضات هذا الراهب ركلدس على القرآن الكريم، فن المفيد الإشارة إلى أن العنوان الأبرز والأكثر وروداً في هذا الكتاب إنما كان يتعلّق بِمَنْ هو الصواب والصحيح والحقّ؟ أهو الكتاب المقدس أم القرآن؟؟ ومن الواضح أنّ ركلدس لم ينتظر الوصول إلى الفصل السادس عشر ليقرّر النتيجة بناءً على المقدمات والأسباب؛ فقد قرّر هذه النتيجة مسبقاً في الفصل الأول عندما اجتهد فيه على إثبات أنّ القرآن خليطٌ متناظرٌ من الهرطقات المسيحية القديمة المدحوضة منذ عهد بعيد، وأنه مزيجٌ من آراء تعليمية ذات أصولٍ هي في منتهى التباين والاختلاف!! وهذا الكلام لا يقع بعيداً عن خلاصة رأي هذا الراهب في الإسلام؛ حيث كان يرى "أنّ الإسلام مجردٌ خدعةٍ شيطانيةٍ ابتدعها الشيطان كي يمهّد الطريق لحيء المسيح الدجال، وذلك حين شعر الشيطان بعدم قدرته على إيقاف انتشار المسيحية، وأنّ الوثنيات بدأت تنهار أمام المسيحية، وأنه ليس في مقدوره دحضُ شريعة موسى وإنجيل عيسى، فابتدع الشيطان ذلك الدين ليكون وسطاً بين المسيحية واليهودية ... والقرآن ليس قانون الله، نظراً لأنّ أسلوبه لا يطابق الأسلوب الإلهي، الذي لا يوجد فيه سجعٌ ولا عباراتٌ موزونةٌ كتلك التي جاءت في الكتب المقدسة"^(٢).

ويمكننا تلخيصُ وحصرُ ماخذ ركلدس دي موتي كروتشي على القرآن الكريم فيما يلي:

١. خلوّ القرآن من ذِكر المعجزات المعقولة؛ حيث كان ركلدس يعتقد أنّ محمداً لم يأتِ بمعجزاتٍ، وذلك خلافاً للمسيح الذي جاء بالعديد منها.
٢. إمتلاء القرآن بالمتناقضات الكثيرة، إضافةً لتناقض القرآن نفسه مع العقل. وقد ذكر ركلدس أنّ هذه التناقضات القرآنية تتوضّح في النقاط الأربع التالية^(٣):

(١) هاغان، [م.س.]، ص ٩٩.

(٢) عودة [م.س.]، ص ١٣.

(٣) هاغان، [م.س.]، ص ١٠٠، ١٠١.

أ. في مؤلفه محمد، وذلك في الحقيقة على أساس أطوار حياته المنافية للأخلاق. وهذا مأخذٌ يظلُّ يرد المرة بعد الأخرى في الجدل المذهبي المعادي للإسلام.
ب. في القرآن ذاته، على قدر ما يتضمن من أقوالٍ لا تفيد شيئاً، لأنها أقوالٌ مُسهبَةٌ مكررة، وليس هذا فقط، بل توجد فيه أيضاً صياغاتٌ بذيمته فاحشةٌ.
ج. في الممارسة العقديّة للمسلمين، كما في عمليات الوضوء الطقسيّة قبل الصلاة اليومية، وكذلك في فهمهم الزواج وممارستهم الطلاق.
د. في التصورات القرآنيّة الخاصّة بالجنتة، وهي التصورات التي كانت تمثّل منذ العصور الأولى مساحةً هجوم الكُتّاب المسيحيين على الإسلام.

٣. أمّا ثالث مأخذ ركلدس على القرآن فيتجلى في مقارنته برسالة الإنجيل؛ حيث يرى ركلدس أنّ القرآن المقدّس لدى المسلمين إنّما هو تجسيدٌ لشرعية الموت، بعكس رسالة الإنجيل الرحيمّة الموافقة للعقل والتقاليد الفلسفيّة، كما أنها مُكمّلةٌ للكذب السهاويّة السابقة ومحقّقةٌ لرسالتها، ومؤدّى ذلك كلّهُ هو أنّ الإنجيل وحده هو شرع الله الحقّ.

ولئن كان هذا الراهب قد سجّل العديد من المآخذ على القرآن الكريم، وهي كلّها مأخذ متهافئةٌ مثله تماماً، فإن من المفيد بالمقابل أن نسجّل بعض المآخذ عليه هو الآخر، ومن ذلك:

١. لما سُئل هذا الراهب عن سرّ الإقبال المُدهش والسّريع للمغول على الإسلام قال: إنّ السّبب في ذلك هو "أنّ الإسلام أسهلُّ في التصديق والتطبيق"^(١). فكيف يصحُّ أن تُهمُّ إجابته هذه مع ما سبق من مأخذه على القرآن الكريم؟؟ إنها تُهمُّ على وجهٍ واحدٍ ألا وهو تناقضُ هذا الراهب في فهمه لطبيعة القرآن والإسلام.
٢. إنّ المقياس الوحيد للعثور على الحقيقة عند ركلدس كان اعتقاده الخاص وقناعته الخاصّة ولاهوته الخاص!! ولذلك لم يكن من المُستغرب أن يصرّح بامتلاء القرآن بالمتناقضات ومواطن الضعف والأخطاء الجليّة الظاهرة للعيان بحيث يدركها كلُّ إنسان، ومن هذه الأخطاء، حسب زعمه، ادّعاءُ محمدٍ بأنّه خاتم الأنبياء، وفي كون عيسى ابناً لله، وفي موته على الصّليب واتهامه لليهود والمسيحيين بأنهم يجعلون لله أنداداً!!!

(١) سوزن، [م. س.]، ص ١١٧.

رابعاً: ريموند لول

ذكرنا فيما سبق أن الاستشراق الديني امتزج في بعض مراحلهِ بالتبشير لدرجة أصبح الفصل بينهما من الصعوبة بمكان. ولئن كان هذا الكلام ينطبق على مَنْ سبق ذكرهم من المستشرقين الرهبان (كبطرس المبجل وتوما الأكويني وركلدس دي موتي كروتشي)، فإنه يَتَّضِحُ في أبرز صورهِ في الراهب المستشرق المبشر "ريموند لول (ريمون لولوس)"^(١)؛ ففي هذا الراهب كانت تتوفر كلُّ مقومات الاستشراق الديني؛ فهو قد درس اللغة العربية وتمكَّن منها، ودرس القرآن الكريم وترجمته ودرس أبحاث الفيلسوفين ابن رشد وابن سينا، وسخَّر كلَّ إمكانياته واتصالاتهِ وعلاقاتهِ مع الشخصيات الهامة في محيطهِ، حتَّى أنشأ مدرسةً لتعليم اللغة العربية من أجل التدريب على التبشير باللغة العربية بين المسلمين، إضافةً لتمكين الدارسين فيها من الاطلاع على أساليب الحوار و المناظرة والنقاش، كلُّ ذلك جنباً إلى جنبٍ مع دراسة اللاهوت المسيحي. "وقد كان هذا الراهب أعظم المبشرين بين المسلمين في القرون الوسطى، سواءً من الوجهة العملية، أم من الوجهة النظرية، ومما يشهدُ على جهوده التبشيرية المتعددة الجوانب أيضاً كتاباته الهائلة"^(٢). كان ريموند من كبار الداعين إلى دراسة الإسلام واللغة العربية، وذلك لمناظرة المسلمين وتبيين الأخطاء في دينهم ودعوتهم بالتالي لاعتناق العقيدة المسيحية. وكان على الدوام يدعو إلى وحدة بين البشر، ولكن في ظل العقيدة المسيحية، وقد كان هذا منطلقهُ في دعوة المسلمين. "لما كنا نحن جميعاً، مهما يبلغ من كثرتنا، لا نؤمن إلا بربٍّ وإلهٍ واحدٍ... فمن الواجب أن يكون لنا نحن جميعاً أيضاً، معتقداً واحداً فقط، وديانةً واحدةً هي العقيدة المسيحية المقدسة"^(٣).

كسابقهِ من الرهبان المستشرقين الأكويني وركلدس كروتشي، كان هذا الراهب يدعو إلى مناقشة المسلمين ومناظرتهم استناداً إلى أساسٍ واحدٍ فقط هو العقل؛ لأنه كان يرى أنَّ العقل وحده هو المبدأ المقبول لدى كلِّ من الجانبين الإسلامي والمسيحي للحوار. ومن هنا يمكننا أن نفهم سبب تخليهِ عن الإحالات للكتاب المقدس أو القرآن، وعدم الاعتماد على الاستشهاد بهما (بشكلٍ عام). وفي تعليهِ لعدم الاعتماد على شواهد وأدلة الكتاب

(١) ريموند لول: وُلِدَ في جزيرة مالاقا سنة ١٢٢٢م قبل أن يحكمها الموخسون بست سنين، كان والده نبيلاً شارك مع يعقوب الأول الأراجوني في حربه ضد المسلمين المغاربة، وكوِّف بإقطاعية في مالاقا بعد احتلال الباليار، وهكذا فقد نشأ الصبي في محيط كانت فيه روح القتال الإسبانية ضد المسلمين على أشدها، توفي في ١٢٩٩/١٣١٦م.

(٢) هاغان، م. س. ص ١٠٢.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٣.

المقدّس في مناظرة المسلمين نراه يقول: "الكفار [المسلمون طبعاً] لا يحفلون بأقوال المؤمنين، بل يتمنون، على سبيل الحصر، بالأسباب العقلية"^(١). وكان ريموند يعتقد أنه وبالعقل وحده يمكنه أن يحصل الحجج الأفضل الدالة على صحة العقيدة المسيحية وبطلان غيرها من العقائد، ويرى "أنّ هذه الأدلة والحجج العقلية، والتي كان يسميها (العقلانيات الضرورية القاهرة)، يجب أن تلقى الاعتراف والاحترام من قبل شركاء حوار المسلمين"^(٢). وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الريموند كان من المطلعين على القرآن الكريم النارسين له، وذلك بعد أن تعلّم اللغة العربية على يد أحد الرقيق من المسلمين المغاربة الذين كانوا يعيشون في إسبانيا آنذاك، وقد استمرّ ذلك ما يقارب التسع سنوات.

كان ريموند لول يعرف من تجربته الشخصية بشكل خاص، أن المسلمين لن يقدموا له أيّ تنازل يتناول معتقداتهم، فقد كان لزاماً على من يريد إقناعهم بصواب العقيدة المسيحية أن يدخل معهم في حوار ومناقشات حامية. ومن أجل ذلك كان لابد من إتقان لغتهم إتقاناً كاملاً. إنّ مثل هذه الموازات حملت لول على تعلّم اللغة العربية. "وقد قضى تسع سنوات وهو عاكف على الدرس والتلقّي، فكانت محصلة ذلك كتابه (**Ars major**) (الفن الكبير)، الذي احتوى على أسس فنّ الحوار وسوق الأدلة في صورة تصنيف لأضراب المعاني وطرق الاستدلال المنطقي. ثم أقع يعقوب الأول بإنشاء مؤسسة لتثقيف مبشّرين للعمل في مجال التبشير ضد الإسلام [كلية الثالث المقدّس] وافتتحها لول بوصفه عضواً من الدرجة الثالثة، وبثلاثة عشر تلميذاً من طائفة الفرنسييسكان في سنة ١٢٧٦ في بلدة ميرمار. فإلى جانب الثقافة اللاهوتية، كان نزلاء الدير يتلقون بشكل خاص دروساً في العربية بكل مستلزماتها"^(٣). وكان من الوسائل المُتَّبَعَة في هذه المدرسة وما شابهها من المدارس التبشيرية - بإشراف ريموند لول - التدريب على الخطابة وأساليب الإقناع في الحوار والسيطرة على الخصم في المناظرة، "وقام في هذا الإتجاه بمحاولاتٍ متعددة لإقناع البابا نيكولاس الثالث بروما (سنة ١٢٧٧م) بتعليم اللغات الشرقية وخاصة العربية من أجل إنجاح حركة التبشير

(١) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٢) المرجع السابق، ص ١٠٤.

(٣) انظر:

أ. فوك، [م. س.]، ص ٢٧، بصرف.

ب. عربي، [م. س.]، ص ١٥٢.

ج. جورافسكي، [م. س.]، ص ٨٧.

بين المسلمين. وكان في كل لقاءاته مع السلطات الكنسية والرسمية العليا يشدد على تعليم اللغة العربية، مع ضرورة الاستفادة من مسيحي الشرق وخاصة الموارنة في هذا الميدان^(١).

كان طموح هذا الراهب لا يعرف الحدود فيما يتعلق بضرورة تعلّم وتعليم اللغة العربية، لغة القرآن، لتوظيفها في مجادلة المسلمين ومحاجتهم، للبرهنة على الحقائق المسيحية، ودحض ما جاء به القرآن، وكان يرى في الإسلام العدو اللدود والأكبر للكنيسة الكاثوليكية.

ما من شك أن سنة (١٣١١م) كانت أسعد سنة في حياة هذا الراهب ريموند، "ففيها استطاع أن يفتح المجمع الكنسي العام بإصدار القانون رقم (١١)، والذي يقضي بتدريس اللغات الشرقية في خمس جامعات أوروبية هي: جامعات باريس بفرنسا وأكسفورد بإنجلترا وبولونيا بإيطاليا وسمنكا بإسبانيا وجامعة كوريا، وقد صدر هذا القانون المشهور متضمناً بتخصيص مدرّسين كاثوليكين لكل جامعة من هذه الجامعات الخمس يقومون بتدريس اللغة العربية والكلدانية والعربية واليونانية، وبسبب هذا المنطلق ظهرت مدارس الاستشراق المتعددة، واستمرّت إلى يومنا هذا تغذي الحضارة الغربية بمظاهرها الفكرية والاستعمارية والتبشيرية"^(٢).

وبالعودة للحديث عن رغبة ريموند لول في محاجة المسلمين ومناقشتهم ومناظرتهم بهدف إثبات زيف دينهم وإطلانه وإثبات صحّة العقيدة المسيحية ودعوتهم لاعتناقها، فإنّ أحاديثه ونظرياته عن محاوره المسلمين قد مرّت بمرحلتين هامّتين:

المرحلة الأولى: وهي مرحلة المحاورات، والدعوة لها على أساس العقل، واستخدام أساليب المنطق في الجدل والحوار. وقد عاش ريموند هذه المرحلة بتجارها وزار فيها بعض البلاد العربية مثل تونس والمغرب والجزائر، وخلال هذه المرحلة كان يؤمنُ بفشل أيّة محاولة لإكراه الإنسان على ترك دينه وتغييره بالقوة.

(١) جورافسكي، [م. س.]، ص ٨٧.

(٢) انظر:

أ. جورافسكي [م. س.]، ص ٨٨، بتصرف.

ب. عربي [م. س.]، ص ١٥٤.

ج. عبد المحسن، [م. س.]، ص ٣٦.

د. فوك، [م. س.]، ص ٣١.

هـ. هاغان، [م. س.]، ص ١٠٦.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي أعاد فيها ريموند التفكير، وراجع أفكاره حول الكيفية التي تجب مواجهة الإسلام والمسلمين بها، حيث انتقل فيها إلى المناذرة بالمواجهة المسلحة والعمل العسكري ضد المسلمين. وقد كان سقوط مدينة عكا بوصفها آخر نقطة لارتكاز المسيحية في ساحل فلسطين عام ١٢٩١م سبباً مباشراً في تحول آراء ريموند حول كيفية التعامل مع الإسلام والمسلمين؛ فأخذ ينادي بالحرب والقتال، وبحملة صليبية جديدة لاستعادة الأرض المقدسة. ولعلّه بذلك كان قد وقع أسير روح العصر الصليبية التي سادت أوروبا آنذاك، "وبدءاً من عام (١٢٩٢م) تمحور تفكيره على نحوٍ مُطرد الزيادة حول فكرة الحملة الصليبية، فيبدو ريموند وقد استحوذت عليه فكرة استعادة الأرض المقدسة، وفي سبيل ذلك يكتب على نحوٍ لا ينقطع، مُذكراتٍ والتاساتٍ وخططاً لحملة صليبية، في محاولةٍ يائسةٍ لتعبئة المسيحية من أجل الرسالة الكبيرة، ولئن كان نذر نفسه من قبل، بكل طاقته، لفكرة التبشير، وحاول أن يحقق الشروط الأولية لانتشارها في أوروبا"^(١).

إذاً فقد استجدت في ذهنه فكرة الحرب والحملة الصليبية كوسيلة جديدة لنشر المسيحية بين المسلمين، إضافةً لفكرة التبشير عن طريق الدعوة وإقامة الحجج والأدلة والبراهين العقلية، تلك الدعوة العقيمة التي كانت سبباً في مقتله في التاسع والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٣١٦ للميلاد، حيث عاد بالرغم من كبر سنّه لتونس، وراح ينادي علناً بدعوة الناس المسلمين لاعتناق المسيحية، فهاجمه جمهورٌ من الذين أصابهم الذهول والغضب من وقاحته، وضربوه ضرباً مبرحاً، فمات متأثراً بجراحه إثر تلك الحادثة؛ أي أنه دفع حياته ثمناً لحماقته وسوء تقديره للأمر ... كان ريموند قد كتب في عام ١٣١١م كلاماً يصف فيه مآل حاله وما انتهى إليه أمره: "لقد كنت متزوجاً، ولي أطفال، وكنتُ موسراً، ولقد استمتعتُ بالحياة، وتخليتُ عن كل شيءٍ لكي أعمل في سبيل مجد الرب والصالح العام، وأزيد في انتشار العقيدة المقدسة. تعلمتُ العربية، وافتحنتُ من وجوهٍ عديدةٍ على المسلمين لكي أعظمهم بالإنجيل. وبسبب عقيدتي أُسرتُ وُرُجَّ بي في السجن وجرحتُ، ولبثتُ أعمل خمسةً وأربعين عاماً لكي أحتُ الكنيسة المسيحية والحكام المسيحيين على خدمة الصالح العام، وقد صرتُ الآن طاعناً في السن، وفوق ذلك أيضاً فقيراً، وبقي لدي اهتمامي ودأبي، وسأظل على هذا إلى أن أفضي نحبي، هذه مشيئة الرب"^(٢).

(١) هاغان، [م.س.]، ص ١٠٦.

(٢) هاغان، [م.س.]، ص ١٠٧.

لقد طُوِّبَتْ صفحة ريموند هذا، وتحققت رؤياه وصدقت توقّعاته فيما كان يتعلّق
بنهايته؛ حيث ظلّ على دأبه ذلك حتّى قضى نحبه. ولكنّه ما كان ليحلم بنهاية على هذه الدرجة
من المساوئية؛ نهاية على يد جموع الذين حاول تسفيه دينهم وإبداهم إياه بدينه، كانت نهايته
على يد جموع من البُسطاء الذين وصّف لغتهم يوماً بأنها تُشبه أصوات ولغات الحيوانات ...
"لقد كان ريموند لول الصورة الثابتة للاستشراق قديماً وحديثاً، على الرغم من وجود أفراد
متباعدين زماناً ومكاناً أمكن لهم النجاة من هذه الجمالية المرعبة المُستخرّة لخدمة الحقد
والكراهية والاستغلال والاحتلال وكلّ ما يتعلّق بذلك من مويقات"⁽¹⁾.

(1) العجلوني، إبراهيم، صورة ثابتة ووسائل متجدّدة، مقالة منشورة في جريدة الرأي الأردنية بتاريخ ٢٢/٩/٢٠٠٨م.

خامساً: يوحنا السّيغوفي

تحدّثنا سابقاً عن الراهب يوحنا السّيغوفي ودعوته الشهيرة لعقد مؤتمر عام لمحاورة المسلمين ومواجهتهم فكرياً وعقدياً، واستبداله لفكرة المواجهة المسلّحة مع المسلمين بالمواجهة الفكرية العقلية، وذلك كمساهمة منه في حلّ (المشكلة الإسلامية) التي كانت تؤزّق الغرب المسيحيّ كلّهُ آنذاك. وقد راودته هذه الفكرة "بعد اعتزاله لمنصب الكاردينال الذي ناله في عام ١٤٤٠ للميلاد، واعتزاله في دير أيتون في سافويا بفرنسا، حيث ثبت له بالدليل العمليّ عدم قدرة أوروبا على مقاومة الإسلام بالسلاح، لأنّ الدولة العثمانية كانت في أوج قوّتها وتهدّد أوروبا كلّها"^(١).

وقد شرع السّيغوفي في التنفيذ العمليّ الواقعي لفكرته تلك بأن دعا إلى ترجمة جديدة للقرآن الكريم أملاً منه في إثبات تضمّن القرآن لتناقضات وأخطاء وآثار مؤلّفين مختلفين، ليثبت بالتالي أنّه ليس كتاباً موحى به من عند الله.

ونستطيع أن نرصد عدّة اتفاقات واختلافات بين الترجمة السّيغوفية للقرآن الكريم إلى اللاتينية وبين الترجمة الأولى التي كانت بإشراف بطرس المبجل من حيث الظروف والأهداف، ومن ذلك:

١. كان المطلوب من هذه الترجمة أن تُصّف بالأمانة والدقّة، بعكس الترجمة الأولى التي أُخبر فيها بطرس المبجل المترجم روبرت الكيتوني برغبته في تشويه صورة الإسلام والقرآن من خلالها، فكان ذلك برنامج عمله ومنطلقه فيه!!!.
٢. كان هدفه من الترجمة واضحاً منذ البداية وهو منحصرّ في الإجابة على سؤال واحد هو "هل القرآن كلمة الله أم لا؟ بعكس الترجمة السابقة التي تشدّت للإجابة عن أسئلة كان السّيغوفي يراها جانبيّة مثل، أخلاقيات محمد، والرّد المنطقيّ على دعوته..."^(٢).
٣. تصميمه على إيصال نسخة من هذه الترجمة بعد الانتهاء منها إلى المسلمين لأنّه كان يرى أنّ هذه الترجمة ستبقى بلا فائدة إن لم تصل للطرف الآخر المعنيّ بها وهو أهل الإسلام، بعكس الترجمة الأولى التي هدف بطرس المبجل من خلالها إلى تشويه الإسلام والقرآن

(١) بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ص ٢٦، ط١، ١٩٨٤، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) سوزن، [م.س]، ص ١٣٤.

- عن قصدٍ وعمدٍ، وكذلك سعى إلى نشر هذه الترجمة في الوسط المسيحي لا الإسلامي وذلك، كما أسلفنا، بهدف تنفير الناس منه وصدِّهم عنه.
٤. كانت إمكانيات السيغوفي الماديّة محدودةً، وقد كتب إلى رفاقه وبعض ذوي النفوذ محاولاً إقناعهم والحصول على دعمهم في التنفيذ، بعكس بطرس المبجل الذي كان رئيساً لأقوى ديرٍ مسيحيٍّ وأكثرها نفوذاً وغنىً في أوروبا كلّها.
٥. عاش السيغوفي في دير أيتون البعيد المعزول، بعكس بطرس المبجل الذي كان يتجول في أوروبا ويتفقّد أديرتها البندبكتية على الدوام، وكان مشروعه بعد انتهائه بمثابة الأساس لكل الترجمات الأوروبية للقرآن الكريم حتى بعد مرور خمسمائة سنةٍ على إنجازه.
٦. التقت الترجمتان على عدم الإيمان بـساوية القرآن الكريم وعدم صدق نبوة محمد، ولكنها اختلفتا في كيفية التعبير عن ذلك.
٧. لئن كان الشخصان اللذان قاما بتنفيذ ترجمة بطرس المبجل معروفين؛ وهما الراهبان روبرت ألكيتوني وهيرمان دلماتا اللذان كان مُتقنين للغة العربية، فإنّ هنالك العديد من علامات الاستفهام حول هوية المترجم الحقيقي، الذي استعان به يوحنا السيغوفي لإنجاز هذه الترجمة الثانية للقرآن الكريم، ويدعمُ صحّة هذا الكلام خلوّ المصادر التاريخية التي تحدّثت عن تاريخ أوروبا في تلك الفترة من ذكر اسم هذا المترجم؛ حيث أكتشف بوصفه بأنه "فقيهٌ مُسلمٌ وعالمٌ عربيٌّ من سلمنكا الإسبانية"^(١). ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أنّ هذا الشخص قد وُصفَ زعماً بأنه فقيهٌ مُسلمٌ يعرف اللغة العربية والإسبانية؛ "لذلك رأى ترجمة القرآن إلى اللاتينية؛ ولما كان لا يعرف العربية فقد استقدم من إسبانيا "فقيهاً" مسلماً يعرف الإسبانية والعربية طبعاً، وكان هذا "الفقيه" المسلم - المزعوم في رأينا - يتولى ترجمة الآيات القرآنية فيصوغها يوحنا الأشقوبي باللغة اللاتينية!"^(٢).

وعلاوةً على ما سبق من جمالة اسم وحال هذا المترجم العربيّ، فقد ذكر سودرن أنّه قرّر العودة إلى زوجته الشابّة التي خلفها وراءه بعد أن عمل مع يوحنا السيغوفي عدّة أشهرٍ طويلةٍ وقاسيةٍ في إنجاز الترجمة، وحينها "كان العمل الأساسي قد أُنجِز؛ لكنّ يوحنا أمِلَ أن يجد مَنْ يُعيّنه في تدقيق بعض المواطنين، والقيام بمراجعةٍ شاملةٍ وأخيرةٍ. لهذا طلب من

(١) انظر:

أ. آرمسترونغ، سيرة النبي محمد، [م. س.]، ص ٥٤.

ب. سودرن، [م. س.]، ص ١٣٤.

(٢) بدوي، [م. س.]، ص ٢٦.

رئيسه مقدّم الآباء الفرنسيين أن يساعده في العثور على عالم عربيّ أو أوروبيّ يُحسّن العربية. وبحثّ هو بنفسه في أوروبا طويلاً وعرضاً؛ لكنه لم يعثر على أحدٍ يعرف لغة القرآن وهكذا بقيت الترجمة دون مراجعةٍ أخيرة" (١).

إذاً فقد بقيت الترجمة دون تدقيقٍ ودون مراجعةٍ شاملةٍ أخيرة، وهذا مأخوذٌ عليها يُضَافُ إلى مأخذٍ جماليةٍ شخصٍ وحال المترجم. ومما يزيدُ في عدد علامات الاستفهام المضروبة حولها هو ضياع هذه الترجمة وعدم استنهاد المصادر التاريخية بها!!.

كان الإسلام، في رأي يوحنا السيفوني يتضمّن روحاً مقاتلةً فاتحةً، بعكس المسيحية التي لا تُقرّ ذلك، وكان يرى أنّ المسيحية إن أرادت الحفاظ على جوهرها فإنّها ستجدُ نفسها دائماً في الجانب الخاسر إن هي لجأت للحرب، كما كان يرى "أنّ المسيحية الغربية لن تكسب في الصراع [ضد الإسلام طبعاً] إلا إذا لجأت للوسائل السلمية؛ لأنّها بالتّسليم تكونُ قد بقيت أمانةً لروحها هي" (٢). وكان يرى خطأ القول بإمكان هداية المسلمين بالقوة، وبإمكان فرض الحجج المسيحية عليهم، ولعلّ رؤيته هذه هي التي دفعت بسوزنر لأن يصفه بأنّه "داعية السلام الأوروبي الأول مع الإسلام الذي اقتنع بأنّ المسيحية لن تنتصر عن طريق التبشير، وقد كانت القضية الملحة بالنسبة له التفكير بطرائق جديدةٍ للاتصال بالمسلمين" (٣).

ولكننا لا نوافق سوزنر على ما ذهب إليه من وصف هذا الراهب السيفوني بأنّه داعية سلام؛ وذلك لأنّ هذا السيفوني بعد ترجمته للقرآن "قد شرع في تأليف كتاب "طعن المسلمين بروح السيف"، وهو بمثابة أبرز ما كتبه في الردّ على الإسلام" (٤). لقد علمتنا المواقف السابقة لهؤلاء الرهبان المستشرقين أنهم، في موقفهم من الإسلام ونبوة محمد، دائماً يكونون خلف آلة من اثنتين؛ أمّا الأولى فهي آلة الحرب الفكرية والعقدية وأمّا الثانية فهي الآلة العسكرية الحربية، وقد دأبوا على جعل الأولى مقدّمةً للثانية ومفتاحاً لها، فإن فشلت هذه وانهمزمت عادوا إلى آلة الحرب الفكرية، وتمتسوا خلفها يشتمون على الإسلام ونبوته المصطفى حرب اللسان والكلام، ويُديرين عليه دوائر الطعن والشبهات والتشكيك والهمز

(١) سوزنر، [م. س.]، ص ١٣٤.

(٢) سوزنر، [م. س.]، ص ١٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٣٦، ١٣٧.

(٤) بدوي، [م. س.]، ص ٢٦.

واللمز .. ولذلك، نرى أنّ كلّ دعوات الرهبان المستشرقين للجدل ضد الإسلام إنّما جاءت في عهدٍ وزمنٍ ومناسباتٍ كانت القوة العسكرية للإسلام تتمتع فيها بتمام الصحة والعافية، ومن هنا جاءت دعوة يوحنا السيفوفي لحماية المسيحية وعدم احتكاكها عسكرياً مع الإسلام بعد أن سقطت قلاع القسطنطينية تحت رايات الإسلام ووطئت أقدام الفاتحين ترابها في عام ١٤٥٣ للميلاد، فهي مهادنة الضعيف الذي يخشى على تراثه ودينه، للقوي الفاتح المنتصر، ولا نرى دعوة السيفوفي وغيره من الرهبان المستشرقين إلا ضمن هذا الإطار.

سادساً: نيكولاس الكويسي

يُعتبرُ الكاردينال الألماني نيكولاس الكويسي (أو نيقولاس فون كيس) الصديق الأفضل ليوحنا السيغوفي بالرغم من تباعد المسافات بينهما، وهو الوحيد من بين الذين كان السيغوفي يرأسهم، للدعوة لمؤتمرٍ لمحاورة المسلمين الذي ردّ عليه ردّاً إيجابياً، وشجّعهُ على المضيّ قُدماً في فكرة المؤتمر وكتابة المؤلفات الجدلية التي تناقش الإسلام والقرآن. وكان ممّا جاء في رسالته الجوابية التي بعثها للسيغوفي في شهر كانون الأول من عام ١٤٥٤ للميلاد: "يجبُ علينا أن نحاول دائماً أن نجعل ذلك الكتاب الذي يتمتّع بالمرجعية عندهم [يقصد القرآن الكريم]. معتدداً عندنا، ذلك لأننا نجدُ فيه مواضع تُعدُّ مُفيدةً، والمواضع الأخرى التي تناقضنا نستطيعُ تأويلها عن طريق تلك المواضع"^(١). ويُعتبرُ كتابه "نظرة في القرآن" أشهر الكتب التي ألفها على الإطلاق. ثم يليه في الشهرة كتابه "تقد الإسلام وتقنيده" وهو الكتاب الذي "قام بتأليفه بتوجيه من البابا بيوس الثاني"^(٢).

وكسابقيه من الرهبان المستشرقين، لم يكتب الكويسي كتاب "نظرة في القرآن" ليصل في النهاية إلى نتيجةً مبنيةً على مقدّماتٍ سبق ذكرها في بداية الكتاب، بل إنّه كان على قناعاتٍ مسبقةٍ فيما يتعلّق بالقرآن، ثمّ خطّ هذا الكتاب ليدافع عن قناعاته تلك ويثبتها. وتتلخّص أبرز قناعاته تلك في أنّ القرآن إنما هو خليطٌ من عناصرٍ شديدة التباين ذات أصولٍ يهوديةٍ ومسيحيةٍ هرطقيةٍ!!! لقد وضع الكويسي مؤلفه هذا بين عامي ١٤٦٠ و١٤٦١ للميلاد، وجاء في ثلاثة أقسام، وقام بحشوه بالمناقشات اللاهوتية الجدلية مع الإسلام، ويُعتبرُ الكتابُ بحدّ ذاته تأويلاً للقرآن من وجهة نظرٍ إنجيليةٍ، ودفاعاً مُستميماً عن العقيدة المسيحية في وجه الإسلام. ولعلّ عنوان هذا الكتاب واضحٌ تماماً في الدلالة على مقصوده والمراد منه؛ فهو يريدُ أن ينظر في القرآن ويغيره! فيأخذ الثمين الذي فيه وهو، برأيه، كلّ ما يوافق مضمون الكتاب المقدس، وي طرح الغث الزائد وهو، برأيه، الذي لا يوافق مضمون الكتاب المقدس! فتكون النتيجة أنّ القرآن منحولٌ عن الكتاب المقدس، بدلالة هذه الموافقات التي فيه للكتاب المقدس!!! وفي تحليله لمضمون هذا الكتاب، يذكر هاغان أنّ هنالك ثلاثة شواهد فيه تدلُّ بوضوح على ما سمّاه (اللاهوت الكويسي)، وهي التأويل الصحيح للقرآن، ومن ثمّ توجيه المسلمين، وأخيراً إثبات عقلانية ما ورد في العقيدة المسيحية.

(١) هاغان، [م. س.]، ص ١١٠، بصرف.

(٢) عبد المحسن، [م. س.]، ص ٣٧.

أما عن التأويل الصحيح للقرآن، فلم يُردُّ به الكويسي التفسيرَ الصحيحَ المبني على الضمير والوجدان، بل يقصدُ به تأويل القرآن من زاوية النظر المسيحية تأويلاً حسنَ المقاصد طيبَ السريرة، واسع الصدر!! كما أنه يقصدُ بالتوجيه الأخذ بيد المسلمين ليقودهم إلى فهم العقيدة المسيحية، ويوجههم نحو فهم التثليث المسيحي!! أما العقلانية، فأراد بها أن يُثبتَ للذين يستخدمون عقولهم أن الإيمان بالتثليث إنما كان لموافق عقلائية!!!.

ولعلَّ المحاولة السابقة التي قام بها الكويسي هذا لغرابة القرآن وتمحيص النظر فيه لأخذ الثمين وطرح الغثِّ إنما كانت نابعةً، وبالدرجة الأولى، من اعتقاده بأنَّ الإسلام في أصله إنما هو هرطقةٌ مسيحيةٌ مُشتقةٌ من الهرطقة النسطورية. وهو في قوله هذا لم يأتِ بجديد وإنما يكرِّر ما كان سائداً في محيطه العام، ويردّد هذه الفرية التي سبقه إليها عشرات الرهبان الذين كانوا يبحثون عن أكاذيب يلصقونها بالإسلام لصدِّ الناس عنه؛ حتى إنَّه في محاولته لإثبات صحّة قوله هذا (الإسلام هرطقة نسطورية)، إنما كان يرِدُّ بالحرف مزاعم أسلافه وسابقه من الرهبان في هذا الصدد، فزاه يجتُرُّ حكاية تتلمذ محمد ﷺ على يد بحيرا الراهب النسطوري، "ولا يستبعدُ إمكانية التأثير النسطوري على محمدٍ ومحيطه الفكري ما دامت النسطورية في ذلك الوقت واسعة الانتشار في مجال الشرق الأدنى"^(١).

والذي نسجَه موقفاً في صالح نيكولاس الكويسي هذا، صراحته وصدقه في الإخبار عن المصادر التي أخذ منها معلوماته عن الإسلام ورسول الله محمد ﷺ، وتوثيقه لها في بداية كتابه "نظرة في القرآن"، وهي كتبٌ كما قد عرضنا لمعظمها ووقفنا عليها بالنقد والتحليل وهي^(٢):

١. ترجمة القرآن إلى اللاتينية بتكليف من بطرس المبعجل، التي أنجزها روبرت ألكيتوني.
٢. الرسالة التي يشار إليها بالعربية باسم "رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن اسحق الكندي، ورسالة الكندي إلى الهاشمي"، وهي من أشهر الدفاعات المسيحية باللغة العربية.

(١) هاغان، [م. س.]، ص ١١٣.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ١١٤، ١١٥ بصرف.

٣. "كتاب السيرة الحمدية **Liber generationis Mahumet**"، الذي يتضمن عدداً من حكايات الخلق اليهودية الإسلامية، وكذلك عرضاً لنسب محمد ﷺ، وقد يكون الأصل العربي كتاب "نسب رسول الله" لسعيد بن عمر.
٤. "الحكايات الإسلامية / **Fabulae Saracenororum**"، وهو أحاديث إسلامية ذات تلاوين دينية، وفيه تاريخ محمد، ولحات من سير الخلفاء السبعة الأوائل.
٥. "مذهب محمد / **Doctrina Mahumet**" باللاتينية، وهو خليط من الحكايات الإسلامية واليهودية في صورة تمثيلية من سؤالي وجواب بأسلوب تعليم أصول الدين، أما الأصل العربي فهو: "مسائل عبد الله بن سلام".
٦. "الخلاصة الجامعة لهرطقات المسلمين / **Summa totius haeresis Saracenororum**" بقلم بطرس المجل. رسالة بطرس المجل إلى برنارد فون كليرفو.

وإضافة لهذه المراجع السبعة الهامة يخض نيكولاس الكويسي أربعة من الكتب بالذكر، مشيراً إلى مدى أهميتها وخصوصيتها بالنسبة له، وهي:

- أ. كتاب ركلدس دي موتتي كروتشي "ضد شريعة المسلمين".
- ب. الرسالة المستفيضة، ورسالة "ضد إلحاد محمد"، وهما من تأليف ديونيسيوس كارتو سيانوس.
- ج. "المقالة الوجيزة حول عقلانية الإيمان العائدة لكنتر الإيطالي"، وهي من تأليف توما الأكويني.
- د. رسالة "ضد المبادئ الخاطئة في عقيدة محمد"، وهي من تأليف خوان دي توركمادا.

لم يكن مستغرباً إذاً أن يتشابه موقف نيكولاس الكويسي من الإسلام ونبوة محمد ﷺ مع مواقف سابقه من الرهبان المستشرقين، ولم يكن مستغرباً كذلك أن تتطابق مواقف هؤلاء الرهبان مع بعضها البعض فيما يتعلق بالإسلام ونبوة محمد ﷺ؛ وذلك لأنهم كانوا ينهلون من معين واحد، ويستقون من المصادر الملوثة ذاتها؛ وهي المصادر التي سبق وأن وضعنا على مصداقيتها عشرات من علامات الاستفهام والتعجب. والمؤلم في الأمر أن كتب ومصادر

التراث الإسلامي ومخطوطاته كانت في متناولهم ومتوافرة بكثرة، بالذات في الأندلس، لكنهم أبوا
إلا أن ينهلوا من المصادر التي توافق رأيهم وتدعم موقفهم، يجمعهم في ذلك هم واحد هو الدفاع
عن العقائد المسيحية في وجه الإسلام، حتى ولو أدى بهم الأمر إلى تشويه حقائق الإسلام
وقلبها وتزويرها، فالغاية عندهم تبرُّر الوسيلة!!

المبحث الثالث

هل انتهى الاستشراق الديني؟

ها نحن نحيا في صدر القرن الحادي والعشرين للميلاد. وقد مرّت أزمانٌ بعيدةٌ وسنون طويلةٌ، على ما سبق ذكره من الاستشراق الديني ومؤلفات رهبان العصور الوسطى التي كرسوها لمحاربة الإسلام وتشويه صورة رسول الله ﷺ. وقد زاد التقارب ما بين الشرق والغرب بشكل ملحوظ في السنوات القليلة السابقة، وظهرت مجموعاتٌ سكانيةٌ ودينيةٌ مسلمةٌ كثيرةٌ في الغرب في القرن الماضي، فهل انتهى الاستشراق الديني وطويت صفحاته السوداء المؤلمة بكلّ ما احتملته واجترحته من سوءٍ وحروبٍ ثقافيةٍ وعقديةٍ ضدّ الإسلام؟ وهل بقيت المؤلفات الجدلّية اللاهوتية السابقة حبيسة رفوف المكتبات القديمة في أوروبا ولم ترّ الثور في عصرنا هذا، عصر الحوار والتقارب مع الآخر والدّعوات المتكررة للتعايش معه وفهمه واحتوائه دون مزيدٍ من الحروب؟ وبعبارةٍ أخرى، هل بات الاستشراق الديني مسألةً تاريخيةً من تراث العصور السالفات، وفقدت مضامينه تأثيرها في عقول وأنفس الغرب المسيحي؟؟

لقد أجاب بعضٌ دعاة التقارب مع الغرب والمستميتين في سبيل التودّد إليه ومحاكاته ومحاورته، دون أدنى قيدٍ أو شرطٍ أو حتّى مطلبٍ عادلٍ، أجابوا عن هذا السؤال بقولهم: إنّ الاستشراق (وبالذات الديني منه) قد انتهى وولّى إلى غير رجعة. وإنّ كلمة الاستشراق آخذةٌ في الاندثار بعد أن خبا بريقها وفقدت تأثيرها وحساسيتها. ويستشهد هؤلاء بقول المستشرق الشهير برنارد لويس "لقد أصبحت كلمة "مستشرق" منذ الآن فصاعداً ملوثةً هي الأخرى أيضاً، وليس هناك أملٌ في الخلاص، ولكنّ الضّر هنا أقلُّ لأنّ الكلمات قد فقدت قيمتها، وحتّى أولئك الذين تدلّ عليهم [يقصد المستشرقين] تخلّوا عنها"⁽¹⁾. كما يستشهد هؤلاء القائلون بانتهاء الاستشراق بالدّعوات التي صدرت في مؤتمر المستشرقين العالمي، الذي عُقد في العاصمة الفرنسية باريس عام 1973م، حيث كان هناك إلحاحٌ عامٌّ، من المستشرقين المشاركين في المؤتمر على إعادة النظر في طبيعة هذا المؤتمر ووظائفه وضرورة التخلّي عن

(1) مطبقاني مازن، حقيقة نهاية الاستشراق، ص 1، دراسة منشورة في الموقع الإلكتروني لمركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق. وقد أورد المطبقاني عبارة برنارد لويس السابقة هُلاً عن كتاب الاستشراق بين دعواته ومعارضيه لمؤلفه هاشم صالح، والتي أخذ هذه العبارة من مقالة لويس المنشورة في New York Review of Books.

تسمية الاستشراق^(١). وما من شك في أنّ الراحل إدوارد سعيد^(٢)، كان له فضلٌ عظيمٌ وأسبقيّةٌ واضحةٌ في الكشف عن مساوئ الاستشراق والنوايا والأهداف الخبيثة للعاملين في حقله، وكان كتابه "الاستشراق" بمثابة كشفٍ لزيوف الدراسات الاستشراقية ومواجهةٍ صريحةٍ معها، لا بل كان بمثابة إعلانٍ لإطلاق النار على التراث الاستشراقي الحاقداً، الذي كان يستهدف أكثر ما يستهدف عقيدة المسلمين وتراثهم وبلدانهم. مع أنّ الرجل كان مسيحياً ومات على مسيحيّته. لقد عاش إدوارد سعيد في بلادهم وحمل جنسيّتهم وكان يتحدّث بلقّتهم ويعلم كيف يفكّرون تماماً، فأجبرهم على مراجعة حساباتهم والوقوف مطوّلاً لمراجعة أنفسهم ولمراجعة الطريقة والأسلوب الذي كانوا يُعاملون به تراثنا وديننا وحضارتنا وقيمنا، ويكفي لإثبات صدقيّة ذلك أن تقول: إنّ عبارات المستشرق الشهير برنارد لويس في كتابه الشهير "مسألة الاستشراق"^(٣) إنّما جاءت بعد إصدار الراحل إدوارد سعيد لكتابه السابق بأريّة أعوامٍ فقط. والذي نراه وثمّيلٌ إليه أنّ وصفه لكلمة "مُستشرق" بأنها (ملوثة) إنّما جاء نتيجةً لتأثره بما خطّه إدوارد سعيد في كتابه السابق. لم يأت وصف برنارد لويس واستعماله لكلمة (ملوثة) من فراغٍ لا، وإنّما جاء ليُشخّص الحالة الحقيقية التي عاشها الاستشراق منذ ولادته في حضن الكنيسة والأديرة الغربية حتى يومنا هذا. كان الاستشراق وبكل مدلولاته ومضامينه مهنّة ملوثة، لأنها قامت من بدايتها على قلب الحقائق وتشويه الوقائع واستخدام كلّ وسيلةٍ ممكنةٍ لمحاربة القرآن الكريم والحبيب المصطفى ﷺ وللقضاء على كلّ ما جاء به هذا الإسلام العظيم. كان الاستشراق صنعةً ملوثةً وصفها بذلك كبير المؤلّفين الطاعنين في الإسلام برنارد لويس.

(١) تعود قضية نهاية الاستشراق إلى آخر مؤتمرٍ للمستشرقين عقدت تحت رعاية المنظمة الدولية للمستشرقين في مدينة باريس بفرنسا عام ١٩٧٣م، وكان هذا المؤتمر الاستشراقي بمناسبة مرور مائة عام على بداية عقد المستشرقين. وفي هذا المؤتمر دار نقاشٌ وتصويتٌ بين المستشرقين على تغيير الاسم وتسمية الجمعية باسم جديد هو "المؤتمر العالمي للدراسات الإنسانية حول آسيا وشمال أفريقيا" وعقدت تحت هذا الاسم مؤتمرات ثمّ تغير الاسم إلى "المؤتمر العالمي للدراسات الآسيوية والشمال أفريقية" وقد عقد المؤتمر مؤخراً في مدينة بودابست بالمجر، وحضره أكثر من ألف باحثٍ معظمهم من أوروبا وأمريكا وروسيا في ١٧ - ١٢ تموز ١٩٩٨م وحدد موعد المؤتمر القادم في مونتريال بكندا عام ٢٠٠٠م.

(٢) ولد إدوارد سعيد في القدس ١٩٣٥/١١/١ لعائلةٍ مسيحيةٍ. بدأ دراسته في كلية فيكتوريا في الاسكندرية في مصر، ثمّ سافر سعيد إلى الولايات المتحدة كطالب، وحصل على درجة البكالوريوس من جامعة برنستون عام ١٩٥٧م ثمّ الماجستير عام ١٩٦٠م والدكتوراه من جامعة هارفارد عام ١٩٦٤م. قضى سعيد معظم حياته الأكاديمية في جامعة كولومبيا في نيويورك، لكنه كان يتجول كاستاذ زائرٍ في عددٍ من كبريات المؤسسات الأكاديمية مثل جامعة ياييل وهارفرد وجون هوبنز. تحدّث سعيد العربية والإنجليزية والفرنسية بطلاقة، وأمّ بالإسبانية والألمانية والاطالنية واللاتينية. إدوارد سعيد هو من اتباع الكنيسة البروتستانتية الإنجيلية. توفي في إحدى مستشفيات نيويورك ٢٥/٩/٢٠٠٣ عن ٦٧ عاماً نتيجة إصابته بمرض اللوكيميا (سرطان الدم).

(٣) انظر:

أ. لويس، برنارد، مسألة الاستشراق، ص ١٥٩ - ١٨٢ بصرفٍ واختصار.

ب. لويس، برنارد، الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، ترجمة هاشم صالح، ص ٢٦١، ط ٢، ٢٠٠٠، دار الشاقي، بيروت.

والذي نَمِيلُ إليه بوصفه إجابةً مُعمّدةً ثابتةً على عنوان هذا المبحث أنّ الاستشراق لم ينته، وأنّ شمسهُ لم تغرب بعد؛ والسببُ في ذلك راجعٌ لكون الاستشراق صنعةً ونتاج الحاقدين على الإسلام الكارهين لرسوله، ولكون الاستشراق المثنَّفَس الذي يُعبرُ هؤلاء من خلاله عمّا يعتمَلُ في صدورهم تجاه الإسلام ورسوله الكريم محمد ﷺ، ولطالما بقي هؤلاء فإنّ الاستشراق باقٍ لا يغيب حتّى يأذن الله أن تُغلَقَ نوافذ الباطل التي يُطلون منها برؤوسهم، رؤوس الفتنة ليُساهموا في المزيد من تأجيج الفتن والشحن ضد الإسلام وأهله. "وقد يقول بنهاية الاستشراق من ليس له إطلاّعٌ على أقسام الدراسات العربية، وأقسام دراسات الشرق الأدنى، والشرق الأوسط أو مراكز البحوث والمعاهد المتخصصة، أو معاهد البحوث الاستراتيجية أو معاهد البحوث حول الشؤون الدولية. ذلك أنّ النشاط الاستشراقي في هذه المراكز والأقسام مستمرٌّ ومتواصلٌ". وأنّ القوم لم تنقطع صلتهم بالحركة الاستشراقية بل هناك من الدلائل على أنهم ينطلقون في دراساتهم للعالم الإسلامي عقيدةً وشرعيةً وأخلاقاً واجتماعاً وغير ذلك من المجالات، مستندين إلى الجهود الاستشراقية لسابقيهم"⁽¹⁾.

فإِصْلُ القولِ إذاً، إنّ الاستشراق الدِّيني لم ينته البتّة، ولكنّه اتخذ لنفسه ثياباً جديدةً وقولبَ أخرى، اضطرته إليها العلاقاتُ الجديدة التي فرضت نفسها في موضوع علاقة الإسلام بالغرب أحياناً، وضيوفُ الواقع المعاصر وزيوفُ حوار الحضارات أحياناً أخرى ... فأخذ ينتشر انتشار السرطان الخبيث القاتل الذي يزحف ويعمل بصمتٍ مطبق حتى يؤدي بجسد الأمة إلى مصيرٍ هو بسئ المصير، واتَّخَذَ لنفسه قنواتٍ جديدةً أوسع من أروقة الكنيسة الغربيّة ودهايز أديرتها وربانها؛ حيث دخل القنوات الأكاديمية الجامعية وقنوات الاتصال والإعلام بشتى أدواته ووسائله. "فما زال الباحثون الغربيون ينهلون من الكتابات الاستشراقية وما زالت بعض كتاباتهم تحتوي على التشوّهات نفسها التي ظهرت حتّى في كتاباتهم في القرون الوسطى الأوروبية. وقد أصبحت كتابات المستشرقين مصادر لكثيرٍ من الإعلاميين فانتقلت التشوّهات والأخطاء والمفتريات الاستشراقية من المجال الأكاديمي إلى المجال الإعلامي فازدادت انتشاراً، وذلك لسيطرة وسائل الإعلام في مجال نشر الفكر والثقافة في العصر الحاضر. ويؤخذ على الإعلاميين أنهم يأخذون أبحاث المستشرقين الغربيين على أنها مُسلّماتٌ ثابتةٌ وليست أفكاراً قابلةً للخطأ والصواب، وقابلةً للتحيز والإنصاف"⁽²⁾. ويدعمُ صحّة هذا الكلام ما ذكره الباحث بريان تيزنر صاحب كتاب الإسلام والاستشراق "إنّ الاستشراق

(1) مطبقتاني [م.س.]، ص ١.

(2) مطبقتاني [م.س.]، ص ٢، بصرف.

ما زال يحتفظ بدعم فكريٍّ ومؤسّساتي؛ فالاستشراق يملك مقوماتٍ ذاتيةً تدعم وجوده" (١).
وعبارة تبرز هذه واضحةً وصريحةً في الدلالة على استمرار الوجود الاستشراقي، ولكنها لم تكن
واضحةً ولا صريحةً في الدلالة (أو حتى الإشارة) على طبيعة أو أوصاف أو مُسمّيات هذه
المؤسّسات التي تقدم الدّم الفكري (والمالي طبعاً) للاستشراق، والتي كان على رأسها
الكنيسة الغربية وكل ما يتبع لها من جامعاتٍ كاثوليكية وكنائسٍ لاهوتية ومؤسّساتٍ دينية
وجمعيّاتٍ حملت مُسعى "خيرية"!!

(١) المرجع السابق نقلاً عن كتاب *Islam and orientalism* لمؤلفه الباحث Bryan S. Turner.

www.alukah.net



المبحث الرابع

مُسَمَّيات الاستشراق الدّيني الجديدة وقنواته الأكاديمية والإعلامية

تقدّم القول في استمرارية الاستشراق وبقائه، كما تقدّمت الإشارة إلى أنّ الاستشراق الدّيني اتّخذ لنفسه ثياباً وقنواتٍ جديدةً يصل من خلالها إلى العقليّة الغربيّة ليكرّس من خلالها الصورة المؤلّفة السابقة التي رسمها عن الإسلام والرسول الكريم ﷺ. وقد تطلب الواقع المعاصر وجود هذه القنوات الجديدة بعد أن ضَعُف سلطانُ الكنيسة في النفوس، وبعد أن تحزّر الغربُ من مركزيّتها وسلطتها واتخذ العلانية درياً وحيداً للنهضة والتقدّم. وهذه القنوات كثيرةٌ متعدّدة أبرزها قناتان؛ أولاهما القناة الأكاديميّة الجامعيّة وثانيها قناة وسائل الاتصال والإعلام.

أما عن القناة الأكاديمية الجامعيّة فقد توضّحت معالمها في المجمع الكنسي المنعقد بين عامي ١٣١١ و ١٣١٢ للميلاد والذي نصّ قانونه رقم (١١) على تدريس اللغات الشرقية في أكبر خمس جامعاتٍ أوروبيةٍ آنذاك، كما نصّ على تخصيص مدرّسين كاثوليكين لكلّ واحدةٍ من هذه الجامعات الكبرى ليقوما بتدريس اللغة العربيّة^(١). ونشيرُ هنا إلى أنّ الكنيسة الغربيّة حرصتُ تمام الحرص على وجود بعض المستشرقين، أو على الأقل حَمَلَةَ الفكر الاستشراقي الدّيني كدّرّسين في كبريات الجامعات في القارّتين الأوروبيّة والأمريكية الشماليّة. كما حرصت على بقاء روابط وعلاقاتٍ طيّبةٍ تربطها بهؤلاء، حتّى ولو كانوا يهوداً أو مسيحيين غير كاثوليك. كيف لا، وقد كانت معاداتهم للإسلام ومحاربتهم لرسوله والتحرّض عليه أكبر الروابط التي تجمع بينها وبينهم؟ ومن الأمثلة المشهورة لهؤلاء في القرن الماضي والحاضر برنارد لويس، وصموئيل هنتنغتون ودانيال بايبس؛ فمنهم من كان يعمل مدرّساً في الجامعة ومنهم من يمتلك بعض مراكز الدراسات ومعاهد البحث والكتيّات العليا، ومنهم من يعمل في الإعلام الجامعي والأكاديمي^(٢).

لقد حمل الكثيرون من الأكاديميين الغربيين على الإسلام ورسوله الكريم، وحاربوا قيمه وتشريعاته وعقيدته، ولكنهم لم يبلغوا الحدّ الذي بلغه هؤلاء الثلاثة، ولم ينالوا الشهرة التي

(١) سبق ذكر تفاصيله في الفصل السابق.

(٢) سيأتي تفصيل القول في كلّ منهم في مباحث لاحقة.

نالها هؤلاء الثلاثة؛ ولعلّ شهرتهم هذه راجعةً إلى ما دونه من كتاباتٍ وما قدّمه من مساهماتٍ فكريةٍ في صناعة الكراهية بين ثقافة الإسلام والثقافات الغربية، وتركيزهم على أنّ صداماً حتمياً ووشيكاً لا بدّ أن يتمّ بين حضارة الإسلام وحضارة الغرب، وأنّ الإسلام، بعد انهيار الشيوعية، هو الخصمُ الألدُّ والأوحد للغرب، وهو الخطر الأكبر الذي يهدّد منظومة القيم الغربية ودينها المسيحي. وفوق كلّ ما سبق، فقد ساهم هؤلاء في صناعة ظاهرة الخوف من الإسلام في الغرب (الإسلام فوبيا) كما ساهموا في خلق ظاهرة الاستشراق الإعلامي المعاصر والاستشراق المعولم، الذي حمل رسالة الكنيسة قديماً وحديثاً في حجب المعلومة الصحيحة عن الإسلام ورسول الله ﷺ.

وبالعودة للحديث عن القنوات الجديدة التي سلكتها الكنيسة الغربية لنشر الاستشراق فقد كانت قناة وسائل الاتصال والإعلام ثاني أبرز هذه القنوات. ولوسائل الاتصال والإعلام دور هامّ وخطيرٌ في حياة الإنسان. وهي خيرٌ وسيلةٍ يستعملها من يريد أن يجتّل أو يشوّه صورة دينٍ أو حضارةٍ أو ثقافةٍ أو شخصٍ وتقصدُ هنا شخصاً بمكانة الأنبياء أو الرسل أو من دونهم من الرعماة أو القادة أو دعاة الإصلاح ...

لقد ركّزت الكنيسة الغربية اهتمامها على وسائل الإعلام، واتخذت منها وسيلةً لنشر معتقداتها وثقافتها ولبّثت الصورة المشوّهة المرعبة للإسلام التي رسمها رهبانها المستشرقون عبر العصور، إدراكاً منها لأهمية وخطورة هذه الوسائل الإعلامية في تكوين صورة سلبية عن الإسلام والمسلمين، وأخرى إيجابية عن المسيحية وأتباعها في العالم كلّ.

ولوسائل الإعلام أهميةٌ كبرى في تكوين الصور الذهنية تتوضّع في نقاطٍ كثيرة من أبرزها ما يلي⁽¹⁾:

أولاً: إنّ نطاق تجربة معظم الناس محدودٌ بطبيعته، ولذلك فإنّ الإنسان يستقي معلوماته مما تنشره وتذيعه وتعرضه وسائل الإعلام واسعة الانتشار. واتضح أنّ (٧٠%) من الصور التي يبينها الفرد لعالمه مستمدةٌ من وسائل الإعلام المختلفة. وتختلف هذه

(1) الرعي، سلافة فاروق، صورة العرب في الإعلام الأمريكي، ص ٥٤، ٥٥، بصرف، ط ١، ٢٠٠٦، دار ورد للنشر والتوزيع، الأردن.

النسبة باختلاف تقدّم البول تكنولوجياً، فإن ما يقرب من (٩٥%) من الأمريكيين مثلاً يحصلون على معلوماتهم من وسائل الاعلام.

ثانياً: الانتشار الواسع لوسائل الإعلام، وامتداده الأفقي والعمودي، فهي تحاصر الإنسان في كلّ مكان، وبسبب هذا الانتشار الكبير لا يمكن للفرد الهرب من رسالتها.

ثالثاً: قدرة وسائل الإعلام على تفسير الأحداث والحقائق التي تجري في العالم يومياً، وبلورتها في صورة مُعَيّنة، وهذا ما يوفر على الفرد جهداً في التحليل والتفكير، فيلجأ إلى الاعتماد على هذه الوسائل في معرفته للعالم المحيط به. لا سيّما ما يخص أولئك الذين ليس لديهم المقدرة على اختبار تحليلي واضح لكل الأمور.

نعم، لقد أدركت الكنيسة الغربية هذا الكلام مبكراً وأسست العديد من الوسائط الإعلامية وشبكات البث المتلفّز والإذاعي والإلكتروني، وهذا أمرٌ يجبُ على المسلمين اليوم عدم تجاهله؛ حيث يُعتمَد على المعرفة بأحوال الناس وثقافتهم ودينهم في البلدان المختلفة على الصورة الإعلامية.

وما من شكّ في أنّ "المستشرقين الإعلاميين" أو الأكاديميين الجامعيين قد لعبوا، ومن خلال استغلالهم لوسائل الإعلام، دوراً كبيراً في تميّط صورة المسلمين في الذهنية الغربية، وهو الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تشكيل رأيٍ عامٍ ضاغطٍ في الغرب يتخذُ مواقف معاديةٍ للمسلمين في كلّ الأحداث والمناسبات. ولزيدٍ من التفصيل في الحديث عن إدراك الكنيسة الغربية المبكرٍ لأهمية دور الإعلام الواسع تقول: إنّ اهتمام الكنيسة بوسائل الإعلام "بدأ منذ سنة ١٧٦٦م بنصّ للبابا كليمنص الثالث عشر حول طباعة الكتب ودور الكنيسة في التوعية. وفي سنة ١٨٤٩م صدر للبابا بيوس التاسع وثيقة **Nostis et Nobiscum**. وتنازل الوثائق حتى سنة ١٨٨٢م مروراً بسنة ١٩١٨م حتى كان إصدار رسالة البابا بيوس الحادي عشر **Vigilanti Cura** سنة ١٩٣٦م إلى أساقفة نيويورك، وتبلور هذا الاهتمام في منتصف الستينات"^(١). وقد عبّر البيان **Inter**

(١) خضرة، طوني، الكنيسة والإعلام، أيّ علاقة؟ أيّ دور؟ دراسة مطوّلة منشورة في الموقع الإلكتروني للإتحاد الكاثوليكي العالمي للصحافة www.ucipliban.org

Mirifica، الصادر عن المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني عام ١٩٦٣، عن أهمية ما أسماه "وسائل الإعلام الاجتماعي"، أي الصحافة والسينما والراديو والتلفاز وما شابهها، فاعتبرها من "الاكتشافات ... التي استلّتها عبقرية الإنسان ... بعضه من الله، ومن الوسائل التي تؤدي للجنس البشريّ خدمات جلّيّ، ... وتسهم في الترويج عن النفس وتثقيفها، وفي امتداد ملكوت الله وترسيخه"^(١). وألزم البيان المجمع السلطات العامة بواجب الدفاع عن الحرية الإعلامية الحقيقية والصحيحة وحمايتها، "وأمر بأعداد كهنة ورهبان وعلمانيين لاكتساب مهارة حقيقية في استعمال هذه الوسائل لغايات رسولية، ونشر المعاهد والمؤسسات لتنشئة الصحافيين وصانعي الأفلام ومعدّي البرامج الإذاعية المتلفزة تنشئة مناسبة مُشبعة بالروح المسيحية، وبتأسيس مراكز وطنية كاثوليكية لوسائل الإعلام الاجتماعي وأخيراً أوصى المجمع جميع أبرشيات العالم بتكريس يوم سنويّ عالميّ لدعم الإعلام الاجتماعي"^(٢).

"وعلى الصعيد التنظيمي، أعلن البابا بيوس الثاني عشر، قبيل المجمع الفاتيكاني الثاني، إنشاء لجنة بابوية خاصة بالسينما والراديو والتلفزيون، ثمّ تبنتها البابا يوحنا الثالث والعشرون عام ١٩٥٩م ك لجنة دائمة، وحوّلها البابا بولس السادس عام ١٩٦٤م إلى لجنة حبرية للإعلام الاجتماعي، مضيفاً إلى دائرة صلاحياتها الإعلام المكتوب، وأخيراً رفعها البابا بولس الثاني إلى مصافّ مجلس حبريّ للإعلام الاجتماعي عام ١٩٨٩م"^(٣). ومنذ العام ١٩٦٧م درج البابوات على إصدار رسائل حبرية سنوية في مناسبة اليوم العالمي للإعلام الاجتماعي. والجدير بالذكر هو "أن الكنيسة قد أعلنت القديسة كلارا، عذراء أسيزي، شفيعاً لأهل الإعلام التلفزيوني، والقديس فرنسيس الساليزياني شفيعاً لأهل الصحافة، والمللك جبرائيل شفيعاً لأهل الإعلام الإذاعي"^(٤).

وأصدرت الكنيسة سلسلة من الوثائق التوجيهية في كيفية التعامل مع وسائل الإعلام الاجتماعي، أولها وأهمها وثيقة التعليمات الراعوية "اتحاد وتقدم"، التي صدرت عام ١٩٧١م استجابةً لتفويض خاصّ من المجمع الفاتيكاني الثاني "ومن أهمّ ما جاء في الوثيقة أن الكنيسة تعدّ وسائل الإعلام الاجتماعي عطايا من الله. وقد أهابت بكل مسيحية ومسيحيّ

(١) المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني، البيان المجمع Inter Mirifica العدد (١).

(٢) المرجع السابق نفسه الأعداد ١٥، ٢١، ١٨.

(٣) الإرادة الرسولية Infructibus multis، للبابا بولس السادس، بتاريخ ١٩٦٤/٤/٢، راجع موقع الفاتيكاني الرسمي.

(٤) الدستور الرسولي، Pastor Bonus، للبابا يوحنا الثاني بتاريخ ١٩٨٨/٦/٢٨.

الآ يحسب نفسه وفيأ لوصية المسيح إن هو أهمل الاستعانة بهذه الوسائل لإيصال العقيدة والتعاليم الإنجيلية إلى أكبر عدد ممكن من الناس، مشددة على أن جودة البرامج الدينية وإتقانها يجب أن يعادلا مثلها في البرامج الزمنية"^(١). وأصدر المجلس الحبري للإعلام الإجتماعي وثائق عديدة في أخلاقيات وسائل الإعلام، وآداب الإعلان، وأخلاقيات الإنترنت.

ومن المفيد ذكره هنا أن البابا يوحنا بولس السادس قد لاحظ أن الكنيسة "تشعر بالذنب أمام سيدها إذا هي لم تستعمل هذه الوسائل [الإعلامية] الفعالة"^(٢). وأكد على أن الكنيسة مدعوة لاستعمال وسائل الإعلام، لا لنشر البشارة فحسب، بل لإدخال رسالة الخلاص في "الثقافة الحديثة" التي تخلقها وتوسعها وسائل الاتصال القوية، وأكد على أن الكنيسة تفر بأن استعمال تقنيات الاتصال المعاصرة هي جزء لا يتجزأ من رسالتها المميزة في الألفية الثالثة، وأشار إلى أن الجماعة المسيحية، وقد نبهها هذا الوعي، قامت بمخطوات مرموقة في سبيل استعمال وسائل الاتصال في حقل الإعلام الديني والتبشير والكراسة.

تجد الكنيسة في وسائل الاتصال عوناً قوياً لها لنشر الإنجيل والقيم الدينية المسيحية ولتوسيع وسائل التبشير (التنصير) وهي تعتقد أن في ذلك استجابة لوصية المسيح "اذهبوا إلى العالم أجمع، وكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها"^(٣).

ومن الممكن تلخيص جل اهتمامات الكنيسة الغربية بالإعلام واستخلاصها من رسالة البابا يوحنا بولس الثاني بمناسبة اليوم العالمي لوسائل الإعلام للعام ٢٠٠٥م، وقد حملت هذه الرسالة عنوان "لا تخافوا من وسائل الإعلام"، وكان أبرز ما فيها ما يلي^(٤):

١. إن تحديات التبشير الجديد كبيرة في عالم كالمنا، غني بوسائل الإعلام. وقد قلت [البابا يوحنا بولس الثاني] مشيراً إلى ذلك في رسالتي "رسالة المخلص" إن مكان التبشير في عالم اليوم هو عالم وسائل الإعلام الذي وحد العالم وجعل منه "قرية كونية". وقد بلغت

^(١) وثيقة التعليمات الراعية اتحاد وتقدم بتاريخ ١٩٧١/٥/٢٣م، المنشورة بتفويض خاص من البيان الجمعي Inter mirifica عدد ٢٣ موقع الفاتيكان الرسمي.

^(٢) راجع أعمال الكرسي الرسولي ٦٨ (١٩٧٦) ٣٥، إرشاد رسولي، واجب التبشير بالإنجيل المنشور بتاريخ ١٩٧٥/١٢/٨.

^(٣) إنجيل مرقس، ١٦: ١٥.

^(٤) انظر النص الكامل لهذه الرسالة المنشورة بتاريخ ٢٠٠٥/١/٢٤م، في موقع كنيسة القديسة تيريزا www.terezia.org، قسم الملفات الوثائقية، المنشورات الفاتيكانيّة.

أهميته وسائل الإعلام حدّاً أصبحت فيه، بالنسبة للكثيرين الوسيلة الأساسية التي تلهمهم في تصرفاتهم الشخصية والعائلية والاجتماعية. وهذا أمرٌ معقّد لأنّ ثقافةً جديدةً وُلدت بفضل وجود وسائل اتّصالٍ تستخدم تقنياتٍ ولغةً لم تكن معروفةً. عالمنا هو عالم الاتّصال الكوني، عالم تَمَرَّ فيه الكثير من لحظات حياتنا عبر وسائل الإعلام، أو على الأقل تواجه هذه الوسائل.

٢. يحتاج عالم وسائل الإعلام إلى خلاص المسيح. وكي نُحَلِّلَ بعيون الإيمان مسيرة وسائل الإعلام وقيمتها، لابدّ من الرجوع إلى نظرة متعمّقة للكتاب المقدس، لأنّه يشكّل "الشفرة" في إيصال رسالة أساسية بسبب مضمونها الخلاصي، لا رسالةً سطحيةً وعابرةً، فتاريخ الخلاص يسرد كيف اتّصلَ الله بالبشر، اتصالاً استعمل في سبيله جميع الطرق المناسبة وقد حُلِقَ الإنسان على صورة الله ومثاله كي يستقبل الوحي الإلهي ويشارك مع الله حوار محبة.

٣. إنّ الإِتِّصالَ عنصرٌ جوهريٌّ في الكنيسة المدعوة إلى التبشير برسالة الخلاص لنا تعتبرُ الكنيسة أنّ وسائل الاتّصال الحديثة نعمةٌ من الله في أيامنا، لتعميق الشراكة وجعل البشارة أكثر فعاليةً. فوسائل الإعلام تسمح بإظهار البعد الشامل لشعب الله، وتسمح بالاتّصال المباشر والكثيف بين مختلف الكنائس المحليّة، كما أنّها تغدّي المعرفة المتبادلة. لنشكر الله إذن على هذه الوسائل القوية التي، متى استعملها المؤمنون في نور الإيمان والطاعة لهداية الروح القدس، استطاعت أن تساهم مساهمةً كبيرةً في نشر الإنجيل، وأن توحدَ الكنائس فيما بينها بشكلٍ فعالٍ.

٤. توجد في وسائل الاتّصال الحديثة إمكانيّةٌ كبيرةٌ جداً لنشر الإنجيل والقيم المسيحية وللحوار والتعاون المسكوني بين مختلف الكنائس، ولبناء مجتمعٍ سليمٍ يحترم كرامة الشخص البشري وينتبه إلى الخير العام. وتستعمل الكنيسة هذه الوسائل بطيبة خاطرٍ لتنشر معلوماتٍ عن نفسها ولتوسيع وسائل التبشير والتربية الدينية، لا بل تعتبر أنّ استعمالها لهذه الوسائل هو طاعةٌ لأمر يسوع المسيح: "اذهبوا إلى العالم أجمع، وأكرزوا بالإنجيل للخليفة كلّها" (مرقس ١٦، ١٥).

٥. الأمر ليس سهلاً في عالم اليوم الذي غالباً ما يعتبر أنّ وقت الحقائق الثابتة ولى. فالإنسان اليوم ينبغي أن يتعلّم كيف يعيش في آفاقٍ تميّزُ بانعدام المعنى، وبطابع النسبية والتغيّر الدائم. من هنا يمكن أن يكون استعمال هذه الوسائل بهدف نشر الإنجيل أو إسكانه في قلوب البشر. وهذا أمرٌ يُشكّلُ تحدياً كبيراً للمؤمنين، وبالخصوص للوالدين والعائلات والمسؤولين عن تربية الأطفال والشباب. لذا يجب تشجيع جميع من يشعر بميلٍ إلى

- العمل في مجال وسائل الاتصال الحديثة أن يتخصَّص فيه، ليصبح قادراً على الحوار والتعامل مع هذا العالم الواسع.
٦. إعطاء الأهمية لوسائل الإعلام أمرٌ مطلوب ليس فقط من المتخصصين بل من الجماعة الكنسيَّة بأسرها. فإذا كان موضوع وسائل الإعلام يهمُّ أكثر من مجالٍ من مجالات العمل الكنسيّ، فينبغي على المسيحيين أن يكونوا واعين لثقافة وسائل الإعلام التي يعيشون في وسطها.
٧. من الضروري أن نعطي لتبشيرنا بالمسيح طابعاً فعالاً يسمح بسماع البشارة وقبولها. وهنا تقع المسؤولية بنوعٍ خاصٍّ على الجمعيات الرهبانية التي تأسست لهذا الغرض والتي تحمل هذه الروح.
٨. الكنيسة قويَّة برسالة الخلاص التي تسلمتها من المعلم الإلهي، وهي خيرةٌ في البشرية. وتشعر أن واجبها يدعوها إلى تدلو دلوها في عالم المسؤوليات بخصوص تطوُّر وسائل الإعلام الحديثة.
٩. التفكير في دور "الرأي العام في الكنيسة" و"الكنيسة في الرأي العام" أمرٌ مثير للاهتمام. التقى سلفي البابا بيوس الثاني عشر صحفيين فقال لهم: "لو لم يكن هناك رأيٌ عامٌ لنقص أمرٌ ما للكنيسة". وقد تكرَّر هذا القول أكثر من مرة.

وبعد حديثه عن ضرورة مساهمة الكنيسة في الرأي العام، اختتم البابا المذكور رسالته بعباراتٍ توافق عنوانها (لا تخافوا من وسائل الإعلام) فقال^(١):

لا تخافوا من التكنولوجيات الحديثة فهي جزء من العظام التي وضعها الله في تصرُّقنا لكي نكشف الحقيقة ونستعملها وننشرها وبخاصة حقيقة كرامتنا ومصيرنا كأبناء لله وورثة ملكوته الأبدي. لا تخافوا من معارضة العالم لكم! فالمسيح قد طمأننا: "قد غلبتُ العالم!" (يو ٣١/١٦). لا تخافوا أيضاً من ضعفكم وعدم مقدرتكم! فالمعلم الإلهي قال: "أنا معكم كلّ الأيام حتَّى انتهاء الدهر" (متى ٢٨/٢٠).

(١) المرجع السابق نفسه، ص ٢٠.

المبحث الخامس الكنيسة الغربية والآنترنت

لم يفوت البابا الراحل يوحنا بولس الثاني في رسالته السالفة الذكر (لا تخافوا من وسائل الإعلام) ذكر وسيلة هامة وخطيرة، إن لم تكن الأهم والأخطر، من وسائل الإعلام وهي "الآنترنت"، فقال⁽¹⁾: "منذ خمسة عشر عاماً، اقترح الأيترنك موضوع التعامل مع وسائل الإعلام بين أيدي أفراد مستقلين، بل طلبت أن يصبح جزءاً من التخطيط الرعوي. فالوسائل الحديثة مناسبة لتقديم العمل الرعوي المتعدد الأشكال على أنه خدمة. يكفي أن نفكر كيف يسمح "الآنترنت" بتبادل المعلومات، وبسرعة الاتصال. وقد دخل الكثير من المؤمنين هذا المجال وأخذوا يستعملونه في التبشير والتعليم والإدارة. ومع الآنترنت يجب المحافظة أيضاً على وسائل الاتصال الأخرى مثل الجرائد والمجلات والنشر والتلفزيون والراديو ... كلها وسائل إيجابية وفعالة". وقد أصدر المجلس الحبري لوسائل الإعلام والاتصال الاجتماعية في الفاتيكان في عام ٢٠٠٢م نشرة مطوّلة حملت عنوان "الكنيسة والآنترنت" عبّر فيها عن موقف الفاتيكان المشجّع والداعم لاستخدام الآنترنت، وتحدّث عن كون الآنترنت أصبح واقعاً ملموساً في بعض الأبرشيات ودور العبادة، وأنه سبب في اعتناق الكثيرين من أبناء الديانات الأخرى للمسيحية. ويمكننا من خلال دراسة وتحليل هذه النشرة أن نحصر تصورات الفاتيكان لاستعمال الآنترنت في خدمة المسيحية فيما يلي⁽²⁾:

١. إنّ وسائل الإعلام توفّر فوائد جمّة من الناحية الدينيّة بما تنقله من أنباء بشأن الأحداث والأفكار والشخصيات الدينيّة. إنّها محاور للبشارة والكراسة، تقدّم كلّ يوم موضوع استلهاً وتشجيعاً ومناسبات صلاةً للأشخاص المرغمين على ملازمة أماكنهم.
٢. وإلى هذه الفوائد هناك فوائد أخرى لا تقل خاصيتها ارتباطاً بالآنترنت. فالآنترنت يقدّم للأشخاص وسيلة اتصال مباشرٍ وحيٍّ بمصادر دينيّةٍ وروحيةٍ ذات شأن، منها المكتبات والمتاحف وأماكن العبادة ووثائق الكنيسة التعليميّة وكتابات الآباء والحكمة الدينيّة في مختلف العصور.

(1) رسالة لا تخافوا من وسائل الإعلام [م. س.].

(2) انظر النص الكامل لهذه النشرة المكوّنة من ٣٢ صفحة على موقع الفاتيكان، وهي منشورة بتاريخ ٢٠٠٢/٢/٢٢م في عيد كرسى مار بطرس الرسول وقد حملت توقيع رئيس المجلس الحبري المطران جون ب. فولبي وأمين سر المجلس بيرفرانكو باستوري.

٣. يمتلك الانترنت قدرةً مميّزةً على تجاوز المسافات والعزلة، وذلك بإتاحة الاتصال للأشخاص بآخرين من ذوي الإرادة الحسنة، ومن تحركهم المشاعر ذاتها، وينتمون إلى جماعاتٍ إيمانيةٍ افتراضيةٍ.

٤. يتلاءم الانترنت وأعمال وبرامج كنسيةٍ عديدةٍ، منها البشارة وإعادة البشارة، والبشارة الجديدة والعمل الرسالي التقليدي "إلى الأمم"، والكراسة وسواها من أنماط التربية والإعلام والدفاع عن العقيدة والإدارة وبعض أشكال التوجيه الراعوي والروحي.

٥. هناك عددٌ لا يُستهان به من الرعايا والأبرشيات والجمعيات الرهبانية والمؤسسات والمنظمات والبرامج الكنسية المتنوعة يُقبلُ اليوم على استعمال الإنترنت استعمالاً فاعلاً لهذه الغايات وغيرها.

٦. من الأهمية بمكان أن يُستعمل الانترنت، على جميع مستويات الكنيسة، استعمالاً خلاّقاً تلبيةً للمسؤوليات الخاصة، وانجازاً لعمل الكنيسة، فالتخلّف عن المواكبة، حياءً وخشيةً من التكنولوجيا أو لأسبابٍ أخرى، ليس بالأمر المقبول، نظراً للإمكانيات الإيجابية العديدة التي يعرضها الإنترنت. كما أنّ السبل التي تسهّل الاتصال والحوار بين أعضاء الجماعة الواحدة من شأنه أن يعزّز روابط الوحدة في ما بينهم. إنّ الوصول المباشر إلى الإعلام يتيح للكنيسة تعميق حوارها مع العالم المعاصر.

٧. يجب على المسؤولين الكنسيين والمنشطين الراعويين في جميع قطاعات الكنيسة أن يتعلّموا كيفية التعرف على وسائل الإعلام وتطبيق هذه المعرفة في خططٍ راعويةٍ إعلاميةٍ، وبرامجٍ حسيةٍ في هذا المجال، والاستعمال الملائم لهذه الوسائل الإعلامية. وعليهم هم أنفسهم، إذ دعت الضرورة، أن يتلقّوا التنشئة الخاصة بمادة الإعلام.

٨. تمتلك الكنيسة إمكانيةً إعلام العالم إعلماً مباشراً حول معتقداتها وشرح مواقفها وأسبابها حول أيّ موضوعٍ أو حدثٍ. وبوسعها أن تسمع بصورةٍ أوضحٍ صوت الرأي العام، وأن تخاطب العالم الذي يحيط بها مخاطبةً متواصلةً، وأن تخوض بصورةٍ أكثرٍ مباشرةً في البحث المشترك، إيجاداً لحل العديد من معضلات البشرية الملحة.

٩. إنّ المسيح هو "الإعلامي الكامل"، أي القاعدة والمثال للمقارنة التي تقوم بها الكنيسة بشأن الإعلام، فضلاً عن المضمون الذي ينبغي على الكنيسة أن تبثّه للعالم.

لم تترك الكنيسة الغربية الرسائل والمنشورات السابقة المتعلقة بأهمية الانترنت لتكون مسائل نظريّةً مجرّدةً أو لتظلّ حبراً على ورقٍ، بل أخذت بتنفيذها فعلياً على أرض

الواقع؛ ومن ذلك أنّ الكرسي الرسولي^(١) دعا إلى لقاء في الفاتيكان يشترك فيه اثنان وثمانون أسقفًا وكاهناً لدراسة التحدّيات وفرص التبشير على شبكات التواصل على الإنترنت، وقد درس المشاركون في هذا المؤتمر، الذي انعقد في الثالث الثاني من شهر آذار لعام ٢٠٠٩م للميلاد، وجوب حضور الكنيسة الحيّ والمباشر على الإنترنت "وطبّق ذلك عملياً عبر حضور الكرسي الرسولي على ألد (Youtube)^(٢) بشكلٍ رسمي من خلال تدشين موقع (<http://www.youtube.com/vatican>)، كما تمّ خلال هذا المؤتمر تدارسُ احتمالية حضور الكنيسة والبابا على ألد (Face book)^(٣) وغيره من شبكات الاتصال الأخرى على الإنترنت^(٤). لقد أثارت هذه الخطوة التي قام بها الفاتيكان تساؤلاتٍ كثيرةً في الوسط الإعلامي مما حدا بأحد الصحفيين ليسأل الكاردينال كلاوديو ماريا تشللي^(٥): كيف يستطيع البابا أن يتنازل لكي يكونَ حاضراً في واقع مثل هذا، يضمُّ كل أنواع الفيديو؟ فأجابه الكاردينال تشللي بقوله: "إنّ المسيح تنازل آخذاً طبيعتنا البشريّة، وأنّ البابا يجبُ أن يكون حيث يلتقي الناس"^(٦).

ومن الواضح أنّ خطوة الفاتيكان هذه، والمتعلّقة بتدشين مواقع لها على ألد (Youtube) وألد (Facebook) إنما تأتي تطبيقاً لما عبّر عنه البابا في رسالته

(١) الكرسي الرسولي أو الكرسي البابوي هو كيان سياسي قانوني مُعترف به دولياً يرأسه "أسقف روما" أو رأس الكنيسة الكاثوليكية، المعروف عموماً باسم بابا الفاتيكان. وتُشكّل الإدارة البابوية الرومانية الحكومية المركزية في الكرسي الرسولي وهي تمثل مجموعة من الإدارات والهيئات الكنسية والتي يرأسها البابا. ويعتبر الكرسي الرسولي المتحدث باسم الكنيسة الكاثوليكية كما يخضع الكرسي الرسولي لكافة القوانين والاتفاقيات الدولية المعمول بها.

(٢) Youtube أكبر موقع على شبكة الإنترنت يسمح للمستخدمين برفع ومشاهدة ومشاركة مقاطع الفيديو بشكلٍ مجاني. خلال صيف ٢٠٠٦ كان موقع يوتيوب واحداً من أسرع المواقع تنظراً على شبكة الإنترنت وخلال سنةٍ واحدةٍ تقريباً كان ترتيبه العالمي في اليكسا (٥) وفي فترة (صيف ٢٠٠٦) كان الموقع يحصل على ١٠٠ مليون مشاهدة يومياً وكان يُضاف إليه ٦٥ ألف مقطع فيديو كل ٢٤ ساعة. وعدد زواره كان ٢٠ مليون زائر في الشهر، وحوالي ٧٠٠ ألف زائر يومياً.

(٣) Facebook هو موقع اجتماعي أُطلق في الرابع من شباط ٢٠٠٤. والموقع يتبع نفس شركة فيس بوك الخاصة وسمح هذا الموقع للمستخدمين بالانضمام إلى عدة شبكات فرعية من نفس الموقع تصبُّ في فئةٍ معينةٍ مثل منطقةٍ جغرافيةٍ معينة - مدرسة معينة وغيرها من الأماكن التي تساعد على اكتشاف المزيد من الأشخاص الذين يتواجدون في نفس فئة الشبكة.

الاسم فيس بوك (Facebook) يشير إلى دفتر ووري يحمل صوراً ومعلومات لأفراد في جامعةٍ معينةٍ أو مجموعةٍ ومن هنا جاءت تسمية الموقع. وتعتبر هذه الطريقة شائعة لتعريف الأشخاص خصوصاً في الجامعات الأجنبية بعضهم حيث يتصفح المنتسبون في الجامعة هذه الدفاتر لمعرفة المزيد عن الطلبة المتواجدين في نفس الكلية. الموقع يحوي ٦٤ مليون مشترك من أيلول ٢٠٠٦ إلى أيلول ٢٠٠٧، وارتفع ترتيب الموقع من حيث الحركة من الترتيب رقم ٦٠ إلى المركز السابع حسب موقع اليكسا، ويعتبر موقعاً كبيراً أيضاً في تحميل الصور الشخصية حيث يتم تحميل أكثر من ٤١ مليون صورة يومياً.

(٤) انظر تفاصيل الخبر على موقع وكالة زينت الإعلامية التابعة للفاتيكان على موقعه الإلكتروني www.zenit.org بتاريخ ٢٠٠٩/٣/١١.

(٥) هو رئيس الأساقفة ورئيس المجلس الجبري لوسائل الإعلام والاتصالات الاجتماعية.

(٦) المرجع السابق نفسه.

السابقة والذي أطلق عليه مُسمى (الثقافة الحديثة) أو (الثقافة الجديدة) والتي كان يقصدُ بها الثقافة الإلكترونية. وفي إشارة منها لنجاح فكرة موقع الفاتيكان الإلكتروني على أُل (Youtube) فقد "ذُكرت إذاعةُ الفاتيكان الرسميةُ أنّ عدد الزيارات لهذه القناة والموقع قد بلغ ستمائة وثلاثين ألفاً بعد أربعة أيام فقط من افتتاحها، أي بمعدل ستّ آلاف وثلاثمائة زيارة في الساعة"^(١).

وانطلاقاً من توجهات البابا في الرسالة ذاتها نشطت الكنائس والأبرشيات والجمعيات والجماعات المسيحية في العالم كلّ في تأسيس مواقع إلكترونية دينية خاصة بها على الإنترنت "حتى بلغ عدد هذه المواقع المسيحية (٢٩٥٠٦) مواقع في الإحصائية أُجريت عام ٢٠٠٤م"^(٢). لقد تنوّعت هذه المواقع الإلكترونية في مسميات كائناتها فمنها الأرثوذكسية ومنها الكاثوليكية منها القبطية ومنها المارونية وما إلى ذلك من مسميات الطوائف المسيحية وكائناتها. ودون أية مبالغة نقول: لقد رصدت هذه الدراسة وتبعت عشرين من هذه المواقع الإلكترونية على مدار ثمانية أشهرٍ فقط ابتدأت من شهر شباط وانتهت في شهر تشرين الأول من عام ٢٠٠٩م، وقفنا من خلالها على مئات الإساءات التي حملتها هذه المواقع تجاه الإسلام والرسول الكريم ﷺ^(٣).

(١) موقع إذاعة الفاتيكان www.radiovatican.org بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢٨

(٢) ماير، جان فرانسوا، الإنترنت والّئين، ط١، ٢٠٠٨، دار أفوليو للنشر، سويسرا. عرض الحسن السّرات على موقع www.aljazeera.net.

(٣) ومن هذه المواقع على سبيل المثال وليس الحصر:

١. موقع مجلة صوت الكرازة بالإنجيل www.vopg.org.

٢. موقع الخدمة العربية للكرازة بالإنجيل arabicbible.com.

٣. موقع كلام الحق في الرّدّ على الإسلام www.geocities.com.

٤. موقع الحقيقة لصاحبه (المرعوم) الشيخ أحمد www.shikh-ahmad.com.

٥. موقع زلزال مكة لفضح العقيدة الإسلامية.

٦. موقع الكلمة www.alkalema.net.

٧. موقع www.thequran.com.

٨. موقع www.answersaboutfaith.com.

٩. موقع www.islamexplained.com.

١٠. موقع www.islam-christianity.net.

١١. موقع www.muhammadanism.org.

١٢. موقع www.answering-islam.org.

١٣. موقع www.house-of-god.org.

١٤. موقع www.public.netc/search-thescrituresarabic.com.

١٥. موقع www.Light-of-Life.com وهو من أخطر هذه المواقع المسيئة.

لا نقول إنّ الكنيسة الغربية هي التي أمرت القائمين على هذه المواقع وأوحت إليهم بمحاربة الإسلام وتشويه صورة محمد ﷺ، لا، ولكننا نقول إنّ العاملين في هذه المواقع الإلكترونية والمشاركين فيها والداعمين لها، إنّما أقدموا على هذه الأعمال القبيحة والإساءات المُستهجنة بحق الإسلام والمسلمين والحبیب المصطفى (ﷺ) اعتقاداً منهم بأنّ ذلك يساهم في خدمة المسيحية والدّود عن عقائدها وحمایتها من "خطر الإسلام" بوصفه الخصم والعدو الذي كان ولا زال يتهدّد المسيحية وينافسها في ريادة العالم. ولعلّ هذه الأسباب والتصورات الخاطئة عن الإسلام التي يحملها هؤلاء هي عينها الأسباب التي أدّت إلى انطلاق الاستشراق الدينيّ ومن قبله الحروب الصليبيّة. كل ذلك يجري تحت مرأى ومسمع الكنيسة الغربية، التي نراها لا تحرك ساكناً للجم هؤلاء أو إسكاتهم أو حتّى لتوجيههم إلى أخلاقيات التعامل مع الآخر (المسلم)!! ولا عجب فقد كانت هي، ومُنذ نعمة أظفار الإسلام، السبّاقَة إلى ذلك.

وحتى لا يكون الكلام اتهاماتٍ مجرّدة عن الدليل فإننا نرى من الضروري أن نسوق بعض الأمثلة على إساءات هذه المواقع الإلكترونية الدينية إلى الإسلام.

الإساءة الأولى: وقد كانت هذه الإساءة قاسماً مُشترَكاً موجوداً في كلّ المواقع الإلكترونية التي رصّدتها هذه الدراسة. وهذه الإساءة حملت عنوان (من الأعظم محمد أم المسيح؟) أو (أيهما أعظم المسيح أم محمد؟)، وهي في ظاهرها قد تبدو مقارنةً مقبولةً في طرحها، بريئةً في هدفها ولكنّها في واقع الحال ليست كذلك. وستقتصر في عرضنا هذا على أبرز النقاط الواردة فيها، مع إيرادنا لردودٍ إجابيّةٍ عليها، مع تذكيرنا للقارئ الكريم بأنّ هذه المقارنات كلّها ستردّ عليها ردودٌ تفصيليّةٌ شافيةٌ في الفصل الأخير من هذه الدراسة، ومن أبرز هذه الإساءات ما يلي:

١. المسيح هو الحياة وأتباعه أيضاً سيجيون "أنا هو القيامة والحياة مَنْ آمَن بي ولو مات فسيحيا" (يوحنا ١١: ٢٥) وقال أيضاً لأتباعه "إني أنا حيّ فأتم ستحيون" (يوحنا ١٤: ١٩) أمّا محمّد فهو ميتٌ وأتباعه ميّتون "إنك ميّتٌ وإتّهم ميّتون" (سورة الزمر ٣٩: ٣٠).

- يعتقد المسيحيون بهذا لأتهم لا يعترفون ببشرية المسيح فهو في نظرهم ربّ وإله، وهم في الوقت نفسه يعتقدون بموته على الصليب وبأنّ ذلك كان لتكفير خطايا البشر!! أما عن رسول الله ﷺ فهو لم يدعّ الخلود لأحدٍ في هذه الحياة الدنيا التي سيفنى كلٌّ من فيها على نحو ما ذكر القرآن الكريم، ولكنّ الخلود إنّما هو في الحياة الآخرة فلا موت لأهل الجنة ولا موت لأهل النار.

٢. المسيح منع أتباعه من استعمال السيف "ردّ سيفك إلى مكانه كلّ الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون" (متى ٢٦: ٥٢) بينما محمّدٌ حتّ أتباعه على استعمال السيف "يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال" (سورة الأنفال ٨: ٦٥).

- إن لم يسمح المسيح، عليه السلام، لتلاميذه وأتباعه باستعمال السيف فلماذا إذاً سمح لهم بحمله؟؟ وهذا الكلام ليس من عندنا، فذكر السياق كاملاً هو الذي يثبت صحّة ذلك؛ حيث أنّ الكهنة اليهود لما جاؤوا للقبض على المسيح، عليه السلام، وأمسكوه "وإذا واحدٌ من الذين مع يسوع مدّ يده واستلّ سيفه وضرب عبدَ رئيس الكهنة فقطع أذنه"^(١). أمّا عن استعمال أتباع محمّدٍ ﷺ للسيف فما كان يوماً إلا للدّفاع عن الحق ولردّ الظلم والعدوان، وهو ما سيأتي تفصيل القول فيه في الفصل الأخير من هذه الدراسة بعونه تعالى.

٣. المسيح نادى بالفرقان "سمعت أنّه قيلَ عينٌ بعينٍ وسنٌّ بسنٍّ، وأمّا أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً". (متى ٥: ٣٨ - ٣٩) بينما محمّدٌ نادى بالانتقام "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم" (سورة البقرة ٢: ١٩٤).

- ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قطّ. والآية الكريمة المذكورة إنّما تقرّر مبدأ القصاص الذي يقوم على معاقبة الجاني والمعتدي بمثل ما فعل، وهذه قوّة العدل والانصاف في ردع الجناة والمعتدين على الناس. ولا ينسّ النصرارى قبل ذلك أنّ العهد القديم قد كان السبّاق في إقرار مبدأ القصاص، والدليل على ذلك هو "وإن حصلت أذنيّ تُعطي نفساً بنفساً بتفسس وعيناً بعينٍ وسنّاً بسنٍّ ويداً بيدٍ ورجلاً بـرجلٍ وكيّاً بكياً وجرحاً بجرحٍ ورضاً برضٍ"^(٢).

٤. المسيح كان بلا خطيئة "لم يفعل خطيئة ولا وجد في فمه مكر" (١ بطرس ٢: ٢٢) "من منكم يبيّئني على خطيئة: (يوحنا ٨: ٤٦) "وتعلمون أنّ ذلك أظهر لكي يرفع خطايانا

(١) متى: ٢٦: ٥١

(٢) الخروج: ٢١: ٢٣ - ٢٥.

وليس فيه خطية" (رسالة يوحنا الرسول الأولى ٣: ٥) - وكذلك فإنّ القرآن لم يذكر أيّ خطية ليعسى - بينما محمد كان خاطئاً "واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات" (سورة محمد ٤٧: ١٩).

- لقد أجرى النصارى هذه الآية الكريمة على ظاهرها وفهموها فهماً خاطئاً. والمعنى الظاهر هنا يعارض عصمة الله تعالى لأتباعه ورسله عن الوقوع في المعاصي والآثام والذنوب. إذ لا يصلح مذنبٌ وآثمٌ وعاصٍ لأن يكون قدوةً للناس يأخذ بيدهم إلى الخير والفلاح ويقودهم لتطبيق تعاليم شرع الله تعالى "فذنّب الرسول ﷺ ليس ذنباً حقيقياً، قائماً على فعل المعصية، وإنما هو ذنبٌ معنويٌّ يقوم على نوعٍ من تركِ الأولى، والسهو والغفلة والنسيان، الذي لا يؤدي إلى ترك واجبٍ أو فعلٍ محرّمٍ. وقد يفعل الرسول ﷺ خلاف الأولى، فيعاتبه الله، وقد يمرّ بجالةٍ من السهو اليسير أو الغفلة البسيطة، فيتداركه الله، وهذا نوعٌ من التصير، يستدعي أن يستغفر الله منه، ليعتق ﷺ في كامل تألّفه وارتقائه. وقد يما قيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المرّيين. إنّ استغفار الرسول ﷺ وتوبته نوعٌ من أنواع ذكره الله، وعلى هذا قوله ﷺ: "إنه ليغانّ على قلبي فأتوبُ إلى الله واستغفره في اليوم مئة مرة" فاستغفاره لله صورةٌ من صور ذكره وشكره له" (١).

وعلى ذلك يكون الأمر بالاستغفار أن يستغفر النبي ﷺ من الأمور التي اجتهد فيها، من غير وحي إليه فيها، فترك الأولى (الأحسن) وأخذ بالتحسن.

٥. كلام السيد المسيح لم يتبدّل "السماء والأرض تزولان ولكنّ كلامي لا يزول" (متى ٢٤: ٣٥) بينما كلام القرآن ومحمد قد تبدّل "وإذا بدلنا آيةً مكان آيةٍ والله أعلم بما ينزل" (سورة النحل ١٦: ١٠١).

- لقد تبدّل قول المسيح، عليه السلام، وزال في الإنجيل والدليل على ذلك ما يلي: "أجاب يسوع: وإن كنتُ أشهدُ لِنَفْسِي فَشَهِادَتِي حَقٌّ" (٢). فقد تبدّل قوله هذا إلى ما يلي: "إن كنتُ أشهدُ لِنَفْسِي فَشَهِادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا" (٣). أما عن قوله تعالى "بدلنا آيةً مكان آيةٍ" ففيه اقرارٌ لمبدأ النسخ والمسنوخ و"إنّ نسخَ الله تعالى لحكمٍ من أحكامه، أساسه حكمةٌ

(1) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، القرآن وقض مطاعن الرهبان، ص ٦٩٠، ط ١، ٢٠٠٧، دار القلم، دمشق.

(2) يوحنا: ٨: ١٤

(3) يوحنا: ٥: ٣١.

ظاهرة، ومعلومةً لله تعالى، ويستحيلُ أن نخفى عليه. وغايةُ الأمر أن الله تعالى عندما ينسخُ حكماً بحكمٍ آخر، فإنَّ الحكمَ الناسخَ يأتي بحكمةٍ غير الحكمة التي أتى بها الحكمُ الأولُ المنسوخ. وعلى اعتبار أن هناك مصلحةً جديدةً للعباد اقتضتها عمليةُ النسخ، وجاء بها الحكمُ الناسخ. فصالحُ العباد تتجددُ بتجددِ الأزمان، وتختلفُ باختلاف الأشخاص، والأحوال. ولذا فإنَّ النسخَ يعني أن هناك مصلحةً جديدةً فيأتي الله بحكمٍ جديدٍ يتضمَّنُها، وينسخُ به الحكمَ السابق الذي يتضمن المصلحةَ السابقة. والله تعالى أحاطَ بكلِّ شيءٍ علماً، فلا يستلزم النسخُ إذن الجهلَ، أو العبثَ على الله تعالى^(١). ونُشيرُ هنا إلى أن النسخَ لا يكون إلا في الأحكام، أما العقائدُ فلا تأبها حقائقٌ صحيحةٌ لا تقبلُ التغييرَ والتبديلَ فدهيُّ الآ يتعلَّقُ بها نسخ.

٦. المسيح طرد الشيطان بعيداً "قال له يسوع اذهب يا شيطان" (متى ٤: ١٠) بينما محمد كان يجالسُ الجن "وإذ صرفنا إليك نقرأ من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قُضي ولّوا إلى قومهم منذرين" (سورة الأحقاف ٤٦: ٢٩).

- إن كان المسيح، عليه السلام، قد طرد الشيطان وقال له اذهب يا شيطان، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كاد أن يخنق الشيطان حتى وجدَ بردَ لعابه بين أصابعه الشريفة ﷺ. فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري أن رسولَ الله ﷺ قام فصلّى صلاةَ الصبح وهو خلفه، فقرأ فالتبسَتْ عليه القراءةُ فلما فرغ من صلاته قال: "لو رأيتُموني وإبليسَ فأهويثُ بيدي فما زلتُ أخنقه حتى وجدتُ بردَ لعابه بين أصبعيَّ هاتين الإبهامِ والتي تليها ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مريوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيانُ المدينة فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحدٌ فليفعل"^(٢).

أما عن مجالسة رسول الله ﷺ للجنِّ فقد كانت امتثالاً لأمر الله تعالى، لأنَّ رسالة الإسلام جاءت عالميةً وعمامةً للإنس والجن على السواء. وهنا نذكّرُ النصارى بأنَّ أنجيلهم يذكر أن المسيح، عليه السلام، كان قد أخرج الشياطين من رجلٍ فدخلت في قطيع من الخنازير. ويرجع من شاء إلى القصة كاملةً في إنجيل مرقس في الإصحاح الخامس في الآيات ١ - ١١.

(١) عناية، غازي، هدى الفرقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١٨٧، ط ١، ١٩٩٦، عالم الكتب للنشر والتوزيع، بيروت.

(٢) انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل، الحديث رقم ١١٣٥٤، وسلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني، الحديث رقم ٣٢٥١.

٧. الشيطان لم يكن له سلطانٌ على يسوع "رئيس هذا العالم (الشيطان) يأتي وليس له شيءٌ" (يوحنا ١٤ : ٣٠) بينما الشيطان كان له سلطانٌ على محمد "وَمَا يَزْعَمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (سورة الأعراف ٧ : ٢٠٠).

- يقرّر القرآن الكريم أنّ الشيطان ليس له سلطان على المؤمنين، قال تعالى: "إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ

سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا

سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ" (١) فكيف

يكون له سلطان على سيد الخلق ﷺ؟ وأما المقصود بنزع الشيطان في الآية السابقة فهو الغضب. وعلى هذا يكون معنى الآية وإمَا يُغْضِبُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ غَضَبٌ يَصَدِّكَ عَنِ الْإِعْرَاضِ عَنِ الْجَاهِلِ وَيَحْمِلُكَ عَلَى مَجَازَاتِهِ فَاسْتَجِرْ بِاللَّهِ مِنْ نَزْعِهِ، إِنَّهُ سَمِيعٌ لَجْهَلِ الْجَاهِلِ عَلَيْكَ.

٨. المسيح شفى الأعمى "كان أعمى جالساً على الطريق يستعطي ... فأخبروه أنّ يسوع الناصري مجتازٌ، فصرخ قائلاً يا يسوع ابن داود ارحمني ... فوقف يسوع وأمر أن يُقدّم إليه ولما اقترب سأله قائلاً: ماذا تريد أن أفعل بك؟ فقال يا سيد أن أُبصرَ. فقال له يسوع: أبصر. إيمانك قد شفاك. وفي الحال أبصر وتبعه وهو يُمجّدُ الله. وجميع الشعب إذ رأوا سَبَّحُوا الله" (لوقا ١٨ : ٣٥ - ٤٣) بينما محمد حوّل وجهه عن الأعمى "عبس وتولى أن جاءه الأعمى. وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنتفعه الذكرى، أما من استغنى. فأنت له تصدى. وما عليك ألا يزكى. وأما من جاءك يسعى. وهو يخشى. فأنت عنه تلهى" (سورة عبس ٨٠ : ١ - ١٠).

- حاشا لرسول الله ﷺ وهو الذي بعثه الله تعالى لتتيم مكارم الأخلاق، أن يشيح بوجهه عن صاحبه وحببيه عبد الله بن أم مكتوم، فما كان بينهما من محبة وأخوة أكبر من أن يفهمه هؤلاء الطاعنون في الإسلام. ولكنّ الذي حدث وكما هو واضح من خلال الجمع بين الروايات التي ذكرت سبب نزول الآية الكريمة السابقة أنّ النبي ﷺ كان عنده بعض صناديد قريش، وكان النبي ﷺ حريصاً على هدايتهم، فبينما هو يدعوهم إلى الله، لأنهم لو أسلموا لأسلم بإسلامهم خلق كثيرٌ؛ فإذا بعبد الله بن أم مكتوم يأتي إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: "أقرتني وعلمني بما علمك الله تعالى". وكرر ذلك وهو لا يعلم بانشغال

(١) سورة النحل: الأيتان ٩٩، ١٠٠.

النبي ﷺ بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطعه لكلامه، وأعرض عنه عابساً، مع العلم أنّ عبد الله بن أم مكتوم كان أعمى ولم يرَ عبوس النبي ﷺ. فنزلت الآيات: "عبسى وتوتى... " وعليه فليس في القصة ما يفيد احتقاره ﷺ للأعمى، فإنه لم يعرض عن ابن أم مكتوم قاصداً احتقاره وإنما فعل ذلك حرصاً منه على أن يتفرَّغَ لما هو فيه من دعوة أولئك الصناديد الذين يقفون ضد دعوته.

وبهذه المناسبة لا يفوتنا أن نذكرُ النصارى بأنَّ انجيلهم المقدس ينسب إلى المسيح، عليه السلام، أنه احتقر المرأة الكنعانية التي جاءت تطلب إليه شفاء ابنتها، واخبرها أنها من الكلاب!! وللتأكد من ذلك فليرجع من شاء إلى إنجيل متى في إصحاحه الخامس عشر في الآيات ٢١ - ٢٨.

٩. المسيح نادي بشريعة الزوجة الواحدة "من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً.... فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان" (مت ١٩: ٥ و٦) بينما محمد نادى بتعدد الزوجات "وإن ختمت ألاً تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع. فإن ختمت ألاً تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم" (سورة النساء ٤: ٣).

- لتعدّد الزوجات حجّم وفوائد يدركها كلُّ عاقلٍ ذي فهم سليم مستقيم. كما أنّ للتعدد في الوقت ذاته شروطاً إذا لم تتوفر لدى الراغب في التعدّد فإنه لا يجوز له الإقدام عليه. وسيأتي تفصيل القول في تعدّد زوجات الرسول ﷺ في الفصل الأخير من هذه الدراسة. ثمّ إنّ الآية التي استشهدوا بها من إنجيل متى إنما تدلّ على عدم جواز الطلاق في المسيحية ولا تدلّ على عدم جواز تعدّد الزوجات.

١٠. جاء المسيح حتى يخلص الناس "لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص" (لوقا ٩: ٥٦) بينما محمد دعا لقتل الناس "قل للمخلفين من الأعراب ستعدون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن طيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً" (سورة الفتح ٤٨: ١٦).

- بعث الله محمداً رحمةً للعالمين، وليخرج الناس من الظلمات إلى النور من جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة. والمقصود بـ (يسلمون) في الآية السابقة يستسلمون وينقادون، لأنّ الروم نصارى والفرس مجوس يقبلُ منهم إعطاء الجزية. وقيل:

هم بنو حنيفة قومٌ مُسيلمة وأهل الردّة، فالمرتدون لا يُقبلُ منهم إلا الإسلام أو السيف. وقيل: يسلمون: يدخلون الإسلام بلا قتالٍ بل بكامل إرادتهم واختيارهم.

١١. المسيح هو ابن الله "فالذي قدّسه الأب وأرسله إلى العالم أقولون له إنك تجدّف لأني قلت إني ابن الله" (يوحنا ١٠: ٣٦) بينما محمد كان بشراً من الناس "إنما أنا بشرٌ مثلكم" (سورة الكهف ١٨: ١١٠).

- لم يُقل رسول الله ﷺ يوماً إنّه من غير البشر. فبشريته ﷺ هي التي مكنتنا من الاقتداء به واتباعه واتباع هديه وسنّته لنفوز بجنةٍ عرضها السماوات والأرض. أمّا النصراني فقد زعموا الوهية المسيح، عليه السلام، وما زالت عبارات الإنجيل مضطربةً في ذلك، فتارةً تصفه بابن الله وتارةً تصفه بابن الإنسان.

١٢. المسيح أجرى المعجزات "... عمل كل شيءٍ حسناً. جعل الصمّ يسمعون والخرس يتكلمون" (مرقس ٧: ٣٧) بينما محمدٌ لم يُجرِ معجزاتٍ "وما متّعنا أن تُرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون" (سورة الإسراء ١٧: ٥٩).

- يبدو أنّ هؤلاء الطاعنين لا يدركون حقيقةً مفادها أنّ الله تعالى هو الذي يؤيّد الرسل بالمعجزات، وأنّ الرسل عليهم السلام لا يقدرّون على الإتيان بالمعجزات من تلقاء

أنفسهم، ويشهد لهذه الحقيقة قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا

بِإِذْنٍ" (١). واستشهدهم بالآية السابقة من سورة الاسراء "وَمَا مَتَعْنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلُونَ" باطلٌ تماماً، فهذه الآية الكريمة لا تلغى الآيات المعجزات ولا تنفي فائدتها على الإطلاق "وإنما تنفي استجابة الله لطلب المشركين إنزال الآيات. فلم يستجب الله لهم، ولم يُنزل الآيات التي طلبوها؛ لأنه يعلم أنه لو أنزلها كما طلبوا فإنهم لن يؤمنوا بها، وبعد ذلك سيعذبهم ويهلكهم، ولذلك لم يستجب الله لهم رحمةً بهم، لئلا يُعذبهم ... وليس معنى هذا أنّ الله لم يُنزل الآيات على النبي ﷺ ولا على غيره من الأنبياء السابقين" (٢). وسيأتي لاحقاً تفصيل وتعداد عشرات المعجزات التي أجزاها الله على يد رسوله ﷺ.

١٣. عرف المسيح ما بداخل قلوب الناس "فستعرف جميع الكنائس أنّي أنا الفاحص الكلّي والقلوب وسأعطي كل واحدٍ منكم بحسب أعماله" (رؤيا ٢: ٢٣) بينما محمد لم يعرف ما

(١) سورة الرعد: الآية ٣٨.

(٢) الخالدي، [م.س.]، ص ٦٩٧.

بداخل قلوب الناس " ولا أقول لكم عندي خزان الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك" (سورة هود ١١ : ٣١).

- لم يدع رسول الله ﷺ يوماً أنه يعلم الغيب أو ما في قلوب الناس. وهذه الآية الكريمة جاءت على لسان نوح، عليه السلام، في دعوته لقومه ولم تجر على لسان محمد ﷺ.
١٤. المسيح أعطى الناس الحرية أن يقبلوا رسالته أو يرفضوها " وأية مدينة دخلتموها ولم يقبلوكم فاخرجوا إلى شوارعها وقولوا حتى الغبار الذي لصق بنا من مدينتكم نفضه لكم، ولكن اعلموا هذا إنه قد اقترب منكم ملكوت الله" (لوقا ١٠ : ١١) بينما محمد أجبر الناس على قبول رسالته "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون" (سورة التوبة ٩ : ٢٩).

- ليس في الإسلام إجبارٌ أو إكراهٌ على الدخول فيه، وهذا واضحٌ تماماً في قوله تعالى: " لَا

إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" (١). أما عن الجزية وفرضها وسببه فسيأتي تفصيل القول فيه لاحقاً

في آخر فصول هذه الدراسة بعونه تعالى.

١٥. المسيح يعلمُ العطاء "أعطوا ثبطوا. كيلاً جيداً ملبداً ممزوزاً فائضاً يعطون في أحضانكم. لأنه بنفس الكيل الذي به تكيلون يكالُ لكم" (لوقا ٦ : ٣٨) بينما محمد يُعلمُ الأخذ "خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكهم بها" (التوبة: ١٠٣).

- كان رسول الله ﷺ يأخذ من أموالهم صدقةً لا لنفسه ﷺ وإنما ليعطيها لفقراءهم وللمساكين منهم وفي ذلك تطهيرٌ لأنفسهم وتزكيةٌ وزيادةٌ لأموالهم. فهذه الآية الكريمة شاهدٌ لمحمد ﷺ وليست شاهداً عليه كما فهم هؤلاء الذين استشهدوا بها.

١٦. رسالة السيد المسيح الرحمة "روحُ الربِّ عليّ لأنه مسحني لأبشّرَ المساكين أرسلني لأشفي منكسري القلوب لأنادي للمأسورين بالاطلاق، وللعمي بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة" (لوقا ٤ : ١٨ - ١٩) بينما رسالة محمد رسول الإسلام الدموية يقول محمد: "أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله ويتيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله" "قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم

(١) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

الأخر ولا يجرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق، من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون" (سورة التوبة ٩: ٢٩).

- بل رسالة محمدٍ عنوانها "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (١). أمّا عن فرض

الإسلام بقوة السيف والسلاح وفرض الجزية بعد ذلك فردّ عليه إجمالاً بقوله تعالى: "

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" (٢). وسنرد عليه تفصيلاً في الفصل الأخير من هذه الدراسة بعونه تعالى.

١٧. قال السيد المسيح "السارق لا يأتي إلاّ لیسرق ويذبح ويهلك وأمّا أنا فقد أتيت لتكون لهم حياةً وليكون لهم أفضل" (يوحنا ١٠: ١٠) بينما محمد رسول الإسلام قال: "بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يُعبّد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظلّ رمحي وجعل الذلّة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبّه بقوم فهو منهم".

- هذه الفرية تكراراً لسابقتها ولكن بتعبيرٍ آخر. وسيأتي الرد عليها وعلى سابقتها من شبهات سيف الإسلام والإكراه والإجبار بالتفصيل لاحقاً بعونه تعالى.

١٨. قال السيد المسيح "إن أخطأ أحد فلنا شفيع عند الآب يسوع البار، وهو كفارة لخطايانا ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً" رسالة يوحنا الرسول الأولى (٢: ١ - ٢) بينما دعا محمد رسول الإسلام إلى "استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم" (سورة التوبة ٩: ٨٠).

تحدّث هذه الآية الكريمة عن المنافقين، وفيها يخبر الله تعالى نبيّه محمداً أنّ هؤلاء المنافقين ليسوا أهلاً للاستغفار. وقد قيل: إنّ السبعين إنّما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأنّ العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون مازاد عليها بخلافها.

١٩. السيد المسيح ينهاه عن الحلفان "أيضاً سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنّث، بل أوفِ للرب إقسامك. وأمّا أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة لا بالسما لأنّها كرسي الله. ولا بالأرض لأنها موطئ قدميه ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدّر أن

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم، لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير" (متى ٥: ٣٣ - ٣٧) بينما محمد رسول الإسلام يحلف "وهذا البلد الأمين" (سورة التين ٣/٩٥).

- يبدو أنّ هؤلاء الطاعنين لا يميّزون بين كلام الله تعالى وبين كلام رسوله الكريم ﷺ، فهذه الآية الكريمة في مطلع سورة التين قَسَمَ من الله تعالى لا من رسوله الكريم ﷺ.

٢٠. السيد المسيح ورسالة السلام "طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون" (متى ٥: ٩) محمد رسول الإسلام ورسالة القتال "يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال" (سورة الانفال ٨: ٦٥).

- حثّت رسالة الإسلام على السلام، وخير دليل على ذلك أنّ تحيّة الإسلام هي السلام

عليكم. ومّا يدلُّ على كراهية القتال في الإسلام قوله تعالى "كُتِبَ عَلَيْكُمُ

الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ" (١). وقوله تعالى "وَلِإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا

وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" (٢).

أمّا بالنسبة لقوله تعالى في الآية السابقة "حرّض المؤمنين على القتال" فمن واجبات القائد في المعركة أن يحدث جنده ويشجّعهم على قتال العدو وأن يبتّ فيهم الروح المعنوية العالية عند صفّهم لمواجهةهم بالتصرّ أو الجنة.

مّا لا شكّ فيه أنّ هذه الإساءات الواردة في المقارنة السخيفة السابقة إنما هي لبُّ ماتضمّنته كتب الاستشراق الديني التي خطّها رهبانُ العصور الوسطى والتي تعرّضت للبعث وإعادة الإحياء ولروية الثور من جديد على صفحات هذه المواقع الإلكترونية!!! فهل كان مجرد صدفة أن تتطابق هذه الإساءات مع إساءات وشبهات واقترأت زهبان الكنيسة الغربية في العصور الوسطى؟؟ وهل كان صدفة نشرها حصرياً على المواقع الدينية المسيحية؟؟ وهل كان صدفة أن تتكرر بعينها في المواقع العشرين التي رصدناها؟؟ لا، لم يكن مجرد

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦

(٢) سورة الأفال: الآية ٦١

صدفةً ولكنّ ملّة الكُفْرِ واحدةٌ. وهنا نعيد تذكير القارى الكريم بأنّ ردوداً شافيةً كافيةً ستردّ على هذه الإساءات والمقارنات كلّها في الفصل الأخير من هذه الدراسة.

الإساءة الثانية: نشط الكثير من المواقع الإلكترونية في نشر كتبٍ على الإنترنت تهاجم الإسلام وتشوّه صورة الحبيب المصطفى ﷺ، وتدعم ما سبق ذكره من مضمون المقارنات (السخيفة) بين الحبيب المصطفى ﷺ وأخيه عيسى ابن مريم عليه السلام وهذه الكتب موجودةٌ في معظم المواقع الإلكترونية التي رصدتها هذه الدراسة، ولكنها موجودةٌ دون ذكر الاسم الحقيقيّ للكاتب؛ حيث اكتفت بذكر أسماءٍ مستعارةٍ لهم. ونخصّ بالذكر من هذه المواقع موقع مجلّة صوت الكرازة بالإنجيل الإلكتروني (The Voice of Preaching the Gospel) ورابطه الإلكتروني هو (www.vopg.org)، وفي عجالةٍ هامةٍ نذكر بعض عناوين ومضامين هذه الكتب، والتي منها:

١. كتاب (قسّ ونبيّ) لكتابه (المزعوم) أبي موسى الحريريّ، وهو يقع في ٢٥٦ صفحةً ويهدف لإثبات أنّ محمداً تلقى كلّ تعاليم دينه من القسّ بجزيرة الراهب.
٢. كتاب (رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي يدعو فيه إلى الإسلام، ورسالة الكندي إلى الهاشمي يردّها عليه ويدعوه إلى النصرانية). وقد سبق لنا ذكره وتفصيل القول فيه.
٣. كتاب (من هو الأعظم) لكتابه (المزعوم) دانيال فراس كمال، وهو يهدف لإثبات تفوق المسيح على محمد في كل شيء.
٤. كتاب (سؤالٌ لا بدّ من جوابه) لكتابه (المزعوم) عبد المسيح، وهو يهدف للإجابة عن السؤال: من هو أعظم، المسيح أم محمد؟ ويقارن بين حياة المسيح ومحمد، من قبل الولادة حتى الموت والقيامة والبعث.
٥. كتاب (صلاة الضالّين) لكتابه (المزعوم) عبد المسيح، وهو يقوم على المقارنة بين صلاة المسيحيين (الصلاة الربّانية) وصلاة المسلمين (الفاتحة).

هذا عدا عن مئات الأشرطة السمعية والأقراص المدججة (C.D) التي يُقدّمها هذا الموقع وما شابهه من المواقع التي تعرّف على نفسها بأنها مواقع تهديفٌ إلى تقديم رسالة المسيح إلى كلّ ناطقٍ بالضاد، وأنّ نققاتها تُغطّي بواسطة تبرّعات المؤمنين لكي توزّع مجاناً.

ولربّما يحاول أتباع الكنيسة الغربية أن يدفعوا عنها شبهة الضلوع في إثارة الكراهية ضدّ الإسلام والضلوع في تشويه صورة الحبيب المصطفى ﷺ بالقول: إنّ الكنيسة تنأى بنفسها عن ذلك، بدليل إصدارها في عام ٢٠٠٢م لوثيقتين متتابعتين حملت الأولى عنوان "الكنيسة والإنترنت" وحملت الثانية عنوان "الأخلاق والإنترنت" وإنّ الهدف من إصدارهما كان رغبة الكنيسة في تشجيع أتباعها على الإفادة من الإنترنت ولكن ضمن ضوابط أخلاقية أشارت إليها في الوثيقتين، وإنّ الوثيقتين تضمّنتا توجيه انتقادات لمن يُسيئون استخدام الإنترنت.

وتقول في ردّها على هؤلاء: إنّ الظاهر بل والواضح أنهم لم يقرؤا الوثيقتين المذكورتين جيداً بل إنهم لم يقرؤهما كاملتين؛ وتوضيح ذلك أنّ الانتقادات التي ذكرتها الوثيقتان إنّما كانت موجهة على وجه الخصوص للمواقع الإلكترونية المسيحية الكاثوليكية التي تقدّم تفسيرات جديدة لبعض العقائد المسيحية، وهي تفسيرات لا تعجبُ الكنيسة ولا ترضى عنها ولا عن نشرها على عامة الناس في مثل هذه المواقع. كما كانت الانتقادات موجهة لبعض المواقع المسيحية الأرثوذكسية والقبطية التي توجّه النقد العلنيّ للفاتيكان وكنيسة روما بسبب الكثير من مواقفها أو تصريحاتها أو تصريحات البابا بنديكيتوس السادس عشر التي كان يصفها دوماً بالكنايس الخاطئة. وللتدليل على صحّة هذا الكلام نسوق المقتطفات التالية من إحدى رسالتيّ المجلس الحبري للإعلام المذكورتين آفاً، ومنها^(١):

أولاً: من بين المسائل الخاصة التي يثيرها الإنترنت وجود مواقع تشحن النفوس بالبغضاء وتمعنُ في تشويه صورة المجموعات الدينيّة والإثنية، والتهجّم عليها. ومن بين تلك المواقع ما يستهدف الكنيسة الكاثوليكية ... فإنّ المواقع التي تحثّ على البغضاء تعبّر عن "البعد القاتم جداً للطبيعة البشريّة التي شوّهتها الخطيئة".

ثانياً: وجهٌ خاصّ من وجوه الإنترنت، يتعلق بالانتشار المضلّ أحياناً في بعض المواقع غير الرسمية التي تحمل عنواناً "كاثوليكياً" قد يكون من المفيد، في ما يختصّ بالمواد ذات الطابع العقائديّ أو الكرازيّ الخاص، أن يُوضَع نظامٌ لتأكيد هوية الموقع تأكيداً إرادياً على المستوى المحلي والوطني، وتحت مراقبة ممثّلين عن السلطة التعليميّة الكنسيّة. لا

(١) انظر رسالة المجلس الحبري للإعلام، الكنيسة والإنترنت [م. س.].

ترمي الفكرة إلى فرض رقابة، بل تقديم توجيهات موثوقة إلى رواد الإنترنت حول موقف الكنيسة الحقيقي.

ثالثاً: إنَّ انتشار مواقع الإنترنت التي تنسب لنفسها (الهوية) الكاثوليكية تثير مسألة ذات طابع مختلف. وكما قلنا، على المجموعات الكنسية أن تكون حاضرة بصورة خلاقة على الإنترنت، ويحقُّ لأشخاص ذوي نوايا حسنة ومتنهيئين، ولجموعات غير رسمية تعمل بمبادرة ذاتية، أن تكون حاضرة أيضاً. وأقلُّ ما يقال أنه من باب التضييل عدم إمكانية التمييز بين التفسيرات العقائدية النابذة والممارسات التقوية الخاصة والمدافعات الأيديولوجية التي تحمل عنواناً "كاثوليكياً"، (من جهة) والمواقف الكنسية الأصيلة، (من جهة أخرى).

ولعلَّ هذه النصوص الثلاثة السابق ذكرها من وثائق المجلس الحبري واضحة تمام الوضوح، وليس فيها أدنى إشارة لما يتعلَّق بموضوع مواقع الإنترنت المسيحية التي لا تكفُّ عن الإساءة للإسلام وللرسول ﷺ، ولو كانت الكنيسة جادة في هذا الموضوع ولا تُعجِّبها إساءات المواقع المسيحية للإسلام لكن من السهل على البابا أو على المجلس الحبري للإعلام إصدار ولو وثيقة واحدة فقط تخاطب فيها أصحاب هذه المواقع والقائمين عليها وتدعوهم فيها إلى التزام الأدب والموضوعية والتحلّي بالأخلاق عند الحديث عن (الآخر غير المسيحي) والكفُّ عن نشر الافتراءات والأباطيل والافتراءات للإسلام ولرسوله الكريم ﷺ.

إنَّ التزام الكنيسة الغربية الصمت تجاه هذه المواقع ليؤكد رضاها عنها وقبولها بما يُنشر فيها من أذى وإساءة للإسلام. ولو افترضنا حسن نية الكنيسة وعدم رضاها عن الإساءات السابقة للإسلام الموجودة على هذه المواقع فماذا نعلل وجود إساءات مماثلة ضد الإسلام موجودة على الموقع الرسمي للفاثيكان؟! وبين ذلك يبرز في إيرادنا للإساءة الثالثة.

الإساءة الثالثة: أعلن الموقع الرسمي للفاثيكان⁽¹⁾ بتاريخ ٢٤/١/٢٠٠٨ وعلى لسان الكاردينال جان لوي توران عن الاستعدادات التي كانت تجري لعقد منتدى إسلامي

(1) موقع الفاتيكان الرسمي، www.vatican.va

كاثوليكيّ يلتقي فيه البابا مع مجموعة صغيرة من المفكرين المسلمين^(١) الذين سبق لهم التوقيع على وثيقة (كلمة سواء) في اليومين الرابع والخامس من شهر آذار لعام ٢٠٠٩. ولم ينته هذا الإعلان المنشور باسم الكاردينال توران عند هذا الحد، ولكنه كان مُدليلاً مباشرةً بعبارة (مقال تكميلي)، وهذا المقال التكميلي هو عبارة عن استشهادين من مقالين مختلفين، ويعيننا هنا الوقوف على الاستشهاد الأول منها، وهو بمثابة ردّ على سؤال هو: لماذا سمح الله بوجود الدّين الإسلاميّ؟؟ ويقول الردّ الموجود على هذا (الموقع الرسميّ للفاثيكان) في الإجابة عن السؤال ما يلي^(٢):

لنقرأ ونقارن الآيات القرآنية من الفترة المكيّة وآيات من الفترة المدنيّة، وعندئذٍ ربما يمكننا فهم العقليتين المتناقضتين عند النبيّ محمد، وربما يمكنُ لخلاصة ما أن تفرض نفسها هنا، وهي كالآتي: إنّ الله قد اختار محمداً فعلاً لكي يُعلّم العقيدة الإنجيلية إلى الفريسيين. وقد استجاب محمدٌ إلى هذا النداء. لكن، ابتداءً من معركة بدر، التي لم يطلب منه الله أن يقوم بها، قام محمدٌ بفرض رأيه الشخصي محلّ كلمة الله، فكان فكره هو، فكر قائمٍ حرّبيّ، منظمٍ، ومشروعٍ، لكنه لم يعد نبي الله! ... "إلا أنّ مثل هذه الخلاصة يرفضها إخواننا المسلمون، إذ أنّ القرآن، بالنسبة لهم واحدٌ، ولا يمكن لشخص أن يدعي إمتلاك حقّ تقرير إن كانت هذه الآيات تنزيلاً إلهياً وآياتٌ أخرى ليست منزلة!..." وهناك خلاصةٌ أخرى وهي التي أفضّلها؛ إنها مقولةٌ لأحد المتصوّفة الكاثوليك المستشرقين، هو "لويس ماسينيون"، القائلة بأنّ التنزيل القرآنيّ بكامله يمكن أن يكون قريباً من التنزيل الإنجيلي إذا ما تمّ تفسيره بصورة رمزيّة وليس بصورة أصوليّة.. وهناك حلٌّ ثالثٌ أكثر قريباً من النّبوات (من قبيل السلالتين اللتين اعطاها الله لإبراهيم في سفر التكوين ١٦ وما بعده) ومما يمكن لمسيحي أن يؤمن به، هو:

أولاً: الإسلام (كما نراه من تقديم مولد إسماعيل، الإبن البكر لإبراهيم)، لا يمكن أن يكون مبادرة من الله وإنما هو مبادرة إنسانيةً تماماً.

(١) كان الوفد "المسلم" يتكون من سموّ الأمير غازي بن محمد بن طلال وعبد الحكيم مراد ويختر من المملكة المتحدة؛ وعارف على الناض، الليبي الذي يشغل منصب "عميد المعهد الباباوي للدراسات العربية والإسلامية"، وفقاً لما هو وارد في هذا الخبر المعلن من الفاتيكان؛ وسيرجيو يحيى بللافتشيني، نائب رئيس "جمعية مسلمي إيطاليا"؛ وإبراهيم كالين، وهو تركي ويشغل منصب أستاذ مساعد للدراسات الإسلامية في "كلية الصليب المقدس" إضافة إلى إدارة مؤسسة سيتا Seta Foundation؛ وسهيل نخودة مديّة "الجملة الإسلامية" Islamica، وهو هندي الأصل ويقم في الأردن.

(٢) عبد العزيز، زينب، مقالة (افيقوا أيها المسلمون) المنشورة على موقعها الإلكتروني، بصرف واختصار.

ثانياً: لكنَّ الله باركه وأعطاه ذُرِّيَّةً كَبِيرَةً، لإيمان إبراهيم وأنه بتقسيم العالم إلى عدَّة ديانات، وبالتالي فإنَّ الغرورَ الإنسانيَّ وَجَدَهُ قد انْحَطَّ. وها هو أحد النصوص: "التكوين ١٢: ٢١ لكنَّ الله قال لإبراهيم: "لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك، في كل ما تقول لك سارة، اسمع لقولها لأنه بإسحاق يُدعى لك نسل. وابن الجارية أيضاً سأجعله أُمَّةً لأنه من نسلك". "أما عن كون الإسلام ديانةً حُرِّيَّةً، فالله قد قالها لإبراهيم في سفر التكوين ٢١: ٢٠، "وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية وكان يثمو راعي قويس".

إنَّ هذه الكلمات الموجودة على الموقع الرسمي للفايتكان بتاريخ ٢٤/١/٢٠٠٨ إنما هي تجسيدٌ واضحٌ وصريحٌ لطبيعة التصوُّر الفاتيكاني عن الإسلام، وهي تكررٌ ممجَّجٌ لما سبق ذكره في مباحث سابقة عن تصوُّر الكنيسة الكاثوليكية للإسلام في القرون الوسطى دون تغيير يُذكر. وإلَّا فبماذا نعللُ وجودها ونشرها على هذا الموقع؟ وبماذا نعللُ التصاقها بتصريحات الكاردينال توران السابقة؟؟

لم يكتفِ الموقع الرسمي للفايتكان بذكر هذه الحماقات المكررة، بل إنَّه وجَّه انتقاداتٍ حادَّةً (لوثيقة كلمة سواء)، وهذه الانتقادات ذكرها "ساندرو ماجيستر"^(١) نقلاً عن الأب "ترول الجزويتي" بقوله: "هناك فارقٌ سحيقٌ بين الله الواحد بالنسبة للمسلمين والله الثالث للمسيحيين، فيما يتعلق بالابن الذي جعل نفسه بشراً. إنَّ "الكلمة سواء" الحقيقية يجب أن نبحت عنها في مكانٍ آخر هو: أن تقومَ بتطبيق هذه الوصايا في الواقع الفعلي للمجتمعات المتعدِّدة العقائد، الآن وفوراً. يجب البحثُ عنها في حماية حقوق الإنسان، وفي الحرِّية الدينية، وفي المساواة بين الرجل والمرأة، وفي الفصل بين السلطة الدينية والسلطة السياسية. ثم يتساءل كاتبُ هذا الاستشهاد قائلاً: هل هناك فرصةٌ لنرى حرية العقيدة مطبَّقةً ومُحترمةً في جمل المناطق ذات الأغلبية المسلمة؟! "في رأيي إنَّ الوقت مُبَكَّرٌ جداً. إذ أنَّ الإسلام حالياً (من خلال أتباعه المتحمسين) يقوم بعملية جمودٍ حيالِ قِيَمِ الغرب، على الرغم من أنَّ أغلبيةً من المسلمين في علاقةٍ معتدلةٍ مع القيم الغربية، ويتطلَّعون إلى العيش في سلامٍ "لكنَّ ذلك سوف يحدثُ ذات يوم، خاصَّةً عندما يتمُّ خفض الغرور القوميِّ الحاليِّ للحضارة الإسلامية (كحرب تخمسها أو عملية ارتدادٍ جماعية؟)!!"^(٢).

(١) ساندرو ماجيستر: خير شؤون الفاتيكاني في جريدة "الاسبريسو" الأسبوعية الإيطالية.

(٢) عبد العزيز، زينب [م. س.].

الإساءة الرابعة: تخصّص موقع نور الحياة المسيحي (light of life) في الإساءة إلى الإسلام ورسول الله محمد ﷺ. والصفحة الرئيسية لهذا الموقع عنوانها نور الحياة، افض الإسلام من وجهة نظرٍ مسيحيّة! ويستطيع المرء بمجرد دخوله المجاني لهذا الموقع الإلكتروني - الذي يتخذ من النمسا مقراً لبيته - أن يلحظ في الصفحة الرئيسية وجود تسع نوافذ وعناوين خطيرة صُمّمت للطعن في الإسلام وحملت العناوين والمسميات التالية:

١. النافذة الأولى: الإسلام والإنجيل. وهي تحتوي على النصّ الكامل لكتاب "هل صُلب المسيح حقاً".
٢. النافذة الثانية: القرآن والكتاب المقدّس.
٣. النافذة الثالثة: المصادر الإسلامية. وهي تحتوي على كتاب "مصادر الإسلام" لمؤلفه الدكتور سنكلير تسدل، وفي هذا الكتاب يتناول المؤلّف تأثيرات كلٍّ من عرب الجاهليّة والصّابئين واليهود والفرق النصرانيّة الضالّة على القرآن والحديث النبوي كما يتناول تأثيرات الزرادشتيّة والحنفاء على الإسلام!!
٤. النافذة الرابعة: التاريخ والجغرافيا.
٥. النافذة الخامسة: كشف خفايا الإسلام. وهي تشتمل على النصّ الكامل لكتاب "مكانة المرأة في الإسلام" لمؤلفه حمدون داغر، وفي هذا الكتاب من الطعن في تشريعات الإسلام الخاصّة بالمرأة ما فيه.
٦. النافذة السادسة: الشريعة الإسلامية.
٧. النافذة السابعة: الإسلام اليوم.
٨. النافذة الثامنة: الردّ على الإسلام. وهي تحتوي على النصّ الكامل لكتاب "من هو الأعظم" لمؤلفه دانيال فراس كمال، وهو مليءٌ بالمقارنات بين محمدٍ والمسيح عليهما السلام، وفيه من التسفيه لرسول الله محمد ﷺ والخطّ من قدره الشيء الكثير.
٩. النافذة التاسعة: استنطاق الإسلام. وهي تشتمل على كتاب "دوافع للإيمان الإنجيلي، صراعٌ أدّى إلى الاهتداء" لمؤلفه أمين ريشاوي، وهو كتابٌ يقوم في أصله على إنكار إمكانيّة تطبيق الشريعة الإسلامية اليوم والقول بأنّها لم تُطبّق من قبل، ناهيك عن القول القبيح المكرّر بتحريف القرآن الكريم.

إنَّ معظم الكتب المنشورة في هذا الموقع قصيرة نسبياً، وذلك بالطبع راجعٌ إلى تهايتها وافتقارها إلى مادةٍ دسمةٍ حقيقيةٍ تستحقُّ العرض والمناقشة، إلا كُتاباً واحداً يُعتَبَرُ غايةً في التزليل والكذب المبرمج المدرس على القرآن الكريم ورسول الله ﷺ ألا وهو كتاب "هل القرآن معصوم؟" لمؤلفه "عبد الله الفادي" أو "عبد الفادي"، وهو كتاب طويلٌ يقع في ٢٥٩ صفحةً ويتكوّن من أجزاءٍ عشرة، جاءت على النحو التالي:

١. الجزء الأول: أسئلةٌ جغرافية، قال فيه المؤلف بوجود اثني عشر خطأً جغرافياً في القرآن.
٢. الجزء الثاني: أسئلةٌ تاريخية، قال فيه بوجود خمسةٍ وخمسين خطأً تاريخياً في القرآن.
٣. الجزء الثالث: أسئلةٌ أخلاقية، قال فيه بوجود تسعةٍ وأخطاءٍ أخلاقية في القرآن.
٤. الجزء الرابع: أسئلةٌ لاهوتية، قال فيه بوجود تسعةٍ وعشرين خطأً لاهوتياً في القرآن.
٥. الجزء الخامس: أسئلةٌ لغوية، قال فيه بوجود خمسةٍ وعشرين خطأً لغوياً في القرآن.
٦. الجزء السادس: أسئلةٌ تشريعية، قال فيه بوجود ستةٍ وعشرين خطأً تشريعياً في القرآن.
٧. الجزء السابع: أسئلةٌ اجتماعية، قال فيه بوجود واحدٍ وعشرين خطأً اجتماعياً في القرآن.
٨. الجزء الثامن: أسئلةٌ علمية، قال فيه بوجود اثنين وعشرين خطأً علمياً في القرآن.
٩. الجزء التاسع: أسئلةٌ فنية، قال فيه بوجود أحد عشر خطأً فنياً في القرآن.
١٠. الجزء العاشر: أسئلةٌ خاصةٌ عن محمد ﷺ، قال فيه بوجود ثلاثةٍ وثلاثين خطأً يتعلق بحياة الرسول ﷺ في القرآن.

وخلاصة ما يذهب إليه المؤلف في هذا الكتاب أن في القرآن ٢٤٣ خطأً، وذلك كافٍ لإثبات أنه ليس من كلام الله، لأنه لو كان كلام الله لما وُجد فيه خطأً واحداً!! وبالتالي فإن محمداً ليس رسولاً من عند الله، وإنما هو مُدَّعٍ للنبوّة وكذّابٌ والإسلام ليس ديناً من عند الله، بل هو من صنع محمدٍ واختلاقه!!

ومّا هو واضحٌ أن كلَّ ما سلف ذكره من هذه الاقتراءات إنما هو تكرارٌ ممجوجٍ لشبهاتٍ ومطاعنٍ رهبان العصور الوسطى ولكن في قولبةٍ جديدةٍ، وسيأتي الكلام على هذا الكتاب تفصيلاً في المبحث الخاص بالردود على الشبهات والمطاعن لاحقاً إن شاء الله.

ومن المثير للسخرية والضحك في موضوع هذا الكتاب والموقع الإلكتروني المسيحي "نور الحياة" الذي نشره، أنّ القائمين على الموقع وضعوا في نهاية كلّ من الكتب الطاعنة في الإسلام التي نشرها مسابقةً تتمثل في مجموعة من الأسئلة التي يحصل أصحابُ الإجابات الصحيحة عليها على جوائز قيمة، وطلبوا إلى زوّار الموقع وقراء الكتب المنشورة إرسال أجوبتهم على العنوان التالي:

Light of life

P. O. Box 13

9503 villach

Austria

أو مراسلتهم على العنوان الإلكتروني التالي:

Webmaster2@light-of-life.com

كانت هذه أربعةً من ألوف النماذج التي تخصصت في الإساءة إلى الإسلام والرسول المصطفى ﷺ والطلعن فيها. ولعلّها شواهد حيّة على طبيعة الدور الذي تلعبه المواقع الإلكترونية المسيحيّة - الكاثوليكيّة وغيرها - في الحرب المعلنة على الإسلام. ولعلّه من نافلة القول التذكير بأنّ مضامين هذه الإساءات السابقة وما شابهها لا يقع بعيداً، البتّة، عمّا كان رهبان العصور الوسطى الكاثوليك قد خطّوه بيمينهم من كتابات تجسّد عملياً وواقعياً حقيقة موقف كنيستهم من الإسلام ونبوّة محمد ﷺ.

الفصل الثاني
دور علماء الأمة في مواجهة الشبهات
والمطاعن قديماً وحديثاً

تمهيد

تقدّم الحديث سابقاً عن عددٍ كبيرٍ من المؤلفات الجدليّة اللاهوتيّة التي خطّها رهبان وقساوسة العصور الوسطى، والتي طعنت في الإسلام ونبوّه محمد ﷺ، وأثارت حولها العديد من الشبهات. وما من شك في أنّ الجهود المسيحية المتعلقة بالتأليف الجدليّ اللاهوتيّ الطاعن في الإسلام ونبوّه ﷺ، التي بدأت في تلك العصور توالى واستمرت حتى وصلت يومنا هذا مع زياداتٍ عليها تتعلق بالمضمون والشكل ووسائل الاتصال. فإذا كان موقف علماء الأمة المسلمة من هذه المطاعن والحملات الموصولة من التشكيك في الإسلام وإثارة الشبهات حول نبوّته ﷺ؟؟

في الواقع لقد نهض علماء الأمة للرد على هذه الشبهات والأباطيل وتصدّوا لكل ما وقعت عليه أيديهم من كتاباتٍ ومخطوطاتٍ بهذا الشأن... وقد قامت هذه الدراسة برصد وتحليل أبرز الكتابات التي خطّها علماؤنا وأساتذتنا فيما يتعلق بهذا الموضوع قديماً وحديثاً، نعم، لقد سخر الله تعالى لهذا الدين رجالاً نهضوا لنصرته والدّود عن حياضه، رجالاً كانوا من أهل الاختصاص والاستعداد الخاص الذي لا يُوهب إلاّ لخاصّةٍ من الخلق أصحاب العقول العاملة الفاعلة المؤثّرة التي حملت همّ الدعوة إلى هذا الدّين قديماً وحديثاً، فبقيت كلماتهم ومؤلفاتهم مناراتٍ تبيّر الطرق المظلمة على امتداد العصور. ولقد حظيت الأندلس بنصيب الأسد من كتابات هؤلاء العلماء الذين جادلوا النصارى وأخموهم وردّوا على تساؤلاتهم أو شبهاتهم وأباطيلهم. وهذا لا يعني انحصار الجهود في الأرض الأندلسية وحدها، فقد نهضت الشام هي الأخرى لتأخذ نصيبها من هذه الجهود، كذلك نهض علماء أرض الحجاز وأرض الكنانة ليقوموا بواجبهم في هذا الموضوع. ولكنّ الأندلس تبقى صاحبة الأسبقية والألمية في هذا الشأن، وذلك راجعٌ لوقوعها على الحدود المباشرة مع القارة الأوروبية المسيحية، كما أنّه راجعٌ إلى ترؤس الكنيسة الإسبانية ورهبانها للحرب العقديّة والفكرية ضدّ الإسلام وذلك بعد وقوع إسبانيا في ظلّ الفتح الإسلاميّ آنذاك.

ولعلّ من المفيد في التمهيد لهذا الفصل الإشارة إلى أنّ هذه الدراسة ليست بصدد رصد جهود العلماء في موضوع مقارنة الأديان، بل إنها بصدد رصد جهودهم في الردّ على مطاعن الكنيسة الغريبة ورهبانها في الإسلام ونبوّه محمد ﷺ. ومع أنّ هذين الموضوعين متقاربان إلى

حدّ بعيدٍ إلا أننا نرى أنها ليسا موضوعاً واحداً، فنحن على سبيل المثال، لسنا في معرض الردّ على زعم النصارى بالوهية المسيح، ولسنا في معرض الردّ على عقيدة التثليث ونقضها، وكذلك، فلّسنا في معرض إثبات تحريف نصوص الكتاب المقدّس، فهذه المسائل مجالها مقارنة الأديان وليس مجالها حديثنا المتعلّق برّد الشبّهات والمطاعن المتعلقة بالإسلام ونبوّه محمدٍ ﷺ والتزييفات التي طرأت على صورتها الحقيقية بما كسبته أيدي الرهبان والقساوسة. ومن المفيد هنا أن نشير إلى وجود قدرٍ، ولو كان يسيراً، من القواسم المشتركة مع علم مقارنة الأديان وجهود بعض العلماء الذين برزوا فيه وكتبوا في نقض عقائد النصارى وردّوا في الوقت ذاته على الشبّهات والمطاعن في الإسلام ونبوّه محمدٍ ﷺ.

ولذلك فإننا سنرى في ثنايا هذا المبحث حديثاً عن الباجيّ و القرافيّ وابن تيمية مثلاً بينما لن نرى حديثاً عن أعلام آخرين برزوا في الكتابة عن الأديان والفِرَق، كالشهرستاني وابن حزم الأندلسي، ومردّد ذلك إلى أنّ هذين العلمين رحمهما الله، مثلاً، قد كتبوا في الأديان السماوية والوضعيّة وبينما أكنفى الشهرستاني بعرض عقائد أهل الأديان والفِرَق كما هي عند أصحابها ولم يتصدّ لنقد أو ردّ أو مناقشة أيّ منها، نرى ابن حزم قد تصدّى لها بالعرض والتفنيد والنقد وبيان أوجه التناقض والانحراف والتحريف، لكن أيّاً من هذين العلمين، رحمهما الله، لم يدوّن في كتبه المتعلقة بالأديان ما يخدم موضوع دراستنا هذه، ولم يتصدّ للردّ على الشبّهات والمطاعن التي وجهتها الكنيسة الغربية ورهبانها للإسلام ونبوّه محمدٍ ﷺ على ما نعلم، والله أعلم.

وسنراعي في ذكرنا واستعراضنا لجهود هؤلاء العلماء التسلسل التاريخي قدر الامكان مقتصرين في كلّ محطةٍ عالمٍ تقف عندها على استعراض أبرز ما كتبه في موضوع ردّ الشبّهات والمطاعن عن الإسلام ونبوّه محمدٍ ﷺ.

وبالعودة للحديث عن الأندلس، فإنّها قد عاشت سنواتٍ طويلةً من الجدل الديني بين المسلمين وغيرهم من أصحاب الأديان السماوية، وبالذات أتباع الكنيسة الكاثوليكية من الرهبان والقساوسة الذين أخذوا على عاتقهم إعلان الحرب العقديّة والفكريّة ضد الإسلام، وذلك من خلال ما خطّوه في أدبهم من مؤلّفاتٍ كثيرة العدد اشتركت كلّها في قاسمٍ واحدٍ هو تكذيب كلّ ما جاء به محمدٌ من القرآن والعقائد والشرائع. وكانت مؤلّفات الرهبان هذه،

في كثير من الأحيان، نُكْتَبُ في الحفاء وتُحْفَظُ في الأديرة أو مكتبات الكنائس في ظلّ الحرية الكبيرة التي منحتها الدولة الإسلامية لغير المسلمين آنذاك. وفي أحيان أخرى كان أصحاب هذه الكتابات يُجاهرون بها ويتمتّدون المسلمين ويدعونهم للحوار والمناظرة، وفي أحيان أخرى كانت هذه الكتابات تتخذُ شكل رسائل تُبعثُ لمن يُراد مناقشته وعرضُ المسيحية عليه لاعتناقها وترك الإسلام.

وتكاد القرون الهجرية الرابع والخامس والسادس والسابع تكون العصور الذهبية لمثل هذه المذونات المسيحية، ولما ورد عليها من ردود واعتراضات إسلامية، وهي قرونٌ ازدادت فيها معرفة الإسبان باللغة العربية وتوضّحت في كتاباتهم وترجماتهم للقرآن الكريم، بعد أن كان إتقان اللغة العربية وفهمها السبيل الأبرز للتعرف على القرآن الكريم وتفاسيره، والسيرة النبوية الشريفة، والحديث النبوي الشريف، فقاموا بالظن والتشويه والتزييف وإثارة الشبهات والشكوك مُستغلّين بذلك علو سقف الحرية والتسامح الذي تعامل به المسلمون معهم.

"لقد تعامل المسلمون مع نصارى الأندلس بتسامح كبير، ولقد تمتّع رجال الدين المسيحي بحرية دينية، وسمح لأساقفة النصارى بعقد مؤتمراتهم الدينية (وأغلبها مخصّص للتبشير) في المدن الأندلسية الكبيرة مثل: المؤتمر الديني الذي عقد في قرطبة عام ٥٨٢م ومؤتمر أشبيلية عام ٨٧٢م. وغني عن القول أنّ الحكومة الإسلامية سمحت للنصارى بتشييد العديد من الكنائس. وكان بعض فقهاء المسلمين في الأندلس يتخذون من النصارى مُساعدين لقضاء حوائجهم ولا يجدون في ذلك غضاضة، فقد ذكر الطرطوشي أنّ الفقيه ابن الحصار استعمل جاره النصراني على قضاء حوائجه ومنافعه .. بل وصل بعض النصارى إلى مناصب عالية في الحكومة الإسلامية، فقد استوزر المقتدر بن هود (ت: ٤٧٤ هـ) ملك سرقسطة أبا عامر بن غند شلب النصراني. وفعل مثله محمد بن عبد الرحمن الأوسط (ت: ٢٧٣ هـ) الذي صار كبير الكتبة عنده قومس ابن أنتينان النصراني"^(١).

(١) المسكر، عبد الله بن إبراهيم، الجدل الديني في الأندلس، ص ٢، دراسة مطوّلة نشرها قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض بتاريخ ٢٠٠٨/٣/٢٣.

المبحث الأول

أبرز جهود العلماء المبذولة قديماً في ردّ الشبهات عن الإسلام ونبوة محمد ﷺ
والتصدّي للمطاعن فيها
أولاً: أبو الوليد الباجي

عاصر أبو الوليد الباجي^(١) ابن حزم الأندلسي، رحمهما الله، وقد جرت بينهما جلساتٌ ومناظراتٌ عديدة. كان هذا الرجل من أهل العلم المتمكنين وبالذات في علوم التوحيد والفقه وأصول الفقه، وقد زادت مصنّفاته على ثمانية عشر، كان من أبرزها (المنتقى في الفقه) و(التسديد إلى معرفة التوحيد) و(إحكام الفصول في أحكام الأصول). وفي هذا الرجل وفي أبي بكر الطرطوشي قال شيخ الإسلام ابن تيمية، رحمه الله، "... ولهم في الإسلام مساعٍ مشكورة، وحسناتٌ مبرورةٌ ولهم في الردّ على كثير من أهل الإلحاد والبدع، والانتصار لكثير من أهل السنة والدين، ما لا يخفى على من عرف أحوالهم، وتكلّم فيهم بعلمٍ وصدقٍ وعدلٍ وإنصافٍ"^(٢).

وقد استدعى الأميرُ المقتدر بالله حاكم سرقسطة^(٣) آنذاك، أبا الوليد للردّ على الرسالة التي بعث بها الراهبُ الفرنسي الشهير القديس "هيو"، الذي كان قائماً على دير كلوني، الذي سبق الحديث عنه. والرسالة التي نحن بصدد الحديث عنها هي مثالٌ واضحٌ على جهود علمائنا الأقدمين في الردّ على شبهات النصارى ومطاعنهم في الإسلام ونبوة محمد ﷺ. ولكنّ هذه رسالةٌ طويلة^(٤) لا يسعنا إيرادها في هذا المقام، لكننا سنذكر أبرز ما اشتملت عليه من نقاطٍ تخدم موضوع دراستنا هذه، فقد أشار الباجي في رسالته إلى أنّ المسلمين يعرفون

(١) هو الإمام العلامة، الحافظ، القاضي أبو الوليد، سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، الأندلسي، القرطبي، الباجي، الذهبي المالكي صاحب التصانيف. وأصله من مدينة بطليوس فتحول جدّه إلى باجة - بليدة بقرب إشبيلية - فنسب إليها، وما هو من باجة المدينة التي بإفريقية تونس التي ينسب إليها الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الباجي، وابنه الحافظ الأوحّد أبو عمر أحمد بن عبد الله بن الباجي، وهما من طلاء الأندلس أيضاً. ولد أبو الوليد في سنة ثلاث وأربع مائة. مات أبو الوليد بالمرية في التاسع عشر من رجب، سنة أربع وسبعين وأربع مائة، فعمره إحدى وسبعون سنة سوى أشهر، فإن مولده في ذي الحجة من سنة ثلاثة وأربع مائة.

(٢) ابن تيمية: دره تعارض الضل والنقل، ج ١، ص ٢٤٤، ٢٤٥، ج ٢، ص ١٠١، ١٠٢، تحقيق الأستاذ / الدكتور محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٣) كانت سرقسطة عاصمة النضر الأعلى لباي عهد الخلافة في قرطبة، زمن حكم ملوك الطوائف، وقد أصبحت بعد استيلاء النصارى عليها عاصمة لإقليم أرجون. والمقتدر بالله هو أحد الحكام من بني هود، وقد حكم سرقسطة من سنة ٤٣٨ هـ - ٤٧٤ هـ / ١٠٤٦ م - ١٠٨١ م.

(٤) اللوقوف على النض الكامل لهذه الرسالة الجوابية ورسالة الراهب التي سبقتها، انظر: الشرقاوي، محمد عبد الله، رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها. ص ٤٢ فما فوق، ط ١، ١٩٨٦، مكتبة دار الضحوة، القاهرة.

المسيحية تماماً وأنّ لهم اطلاعاً واسعاً على كتبها ومعرفة بما فيها من التناقض والتضاد، كما فكّد وبالتفصيل ادّعاء المسيحيين بالوهية المسيح، عليه السلام، ثم عرض وبالتفصيل ما في الإسلام من محاسن وفوائد وخير في العقيدة والشريعة والنظم الأخلاقية والاجتماعية ... وطلب إلى راهب فرنسا أن يحضر بنفسه إلى بلاد المسلمين ليتعرّف عن قرب على الإسلام ويسمع آيات القرآن الكريم من أفواه المسلمين أنفسهم. ولم يكتف الباجي، رحمه الله، بذلك بل دعا هذا الراهب للتفكير في اعتناق الإسلام وأن يكون سبباً في إسلام من حوله من الناس ...

لقد لقيت هذه الرسالة اهتماماً كبيراً لدى الكثيرين من المستشرقين المتأخرين وتمّت ترجمتها إلى العديد من اللغات الأجنبية وكان من أبرز من اهتمّ بها (Salo baron) و(Allen cutler) ومن قبلهما المستشرق البريطاني الشهير دانلوب. وقد ذكر الأستاذ محمد الشرفاوي كلاماً طيباً في تقييمه لهذه الرسالة الجوابية الهامة للباجي، فقال⁽¹⁾: إنّ رسالة الباجي تُظهِر - في تقديري - رؤية إسلامية صحيحة وعميقة، لما عليه العقيدة النصرانية من اضطرابٍ وتناقضٍ ووهاءٍ، كما أنها تبرز مسؤولية القاضي الباجي في الدعوة إلى الله تعالى بين غير المسلمين، ووعيه بالطريق الأرشد إلى ذلك فالقضية - عنده - لم تكن مجردَ تدييح جوابٍ على رسالة راهبٍ فرنسيٍّ بعث بها - مع رسولين - إلى المقتدر بالله حاكم سرقسطة، أقصى ما يؤمّله الباجي من ورائه، أن يرضى المقتدر بالله عنه؛ لكنّ طموحه السديد كان أبعد من ذلك وأعظم؛ إذ كان يروم تعريف راهب فرنسا وكبير رجالات الكنيسة فيها بمحاسن الإسلام، وما عليه النصرانية - بعد التحريف - من مجافاة للعقل والمنطق، فضلاً عن مصادمتها للفطرة السليمة، بأسلوبٍ قويمٍ حكيم، وإنّ كلّ فقرة في الرسالة لتؤكد هذا المعنى وتعمقه.

(1) الشرفاوي [م.س] ص ٣٠، ٣١.

ثانياً: أحمد بن عبد الصمد الخزرجيّ

إن كان الباجيّ قد ردّ على راهب فرنسا القديس "هيو" برسالةً جوابيّةً شهيرةً وقفنا على مضمونها في الصفحات السابقة، فإنّ أحمد بن عبد الصمد الخزرجيّ^(١)، هو الآخر، قد بعث برسالةً جوابيّةً إلى قسيس كبير في مدينة طليطلة بعد وقوعها الأول "المؤقت" تحت حكم تحالف عربيّ مسيحيّ إبان التنزع على الحكم في ظلّ الحكم الإسلاميّ للأندلس آنذاك. وقد تحوّلت هذه الرسالة الجوابيّة فيما بعد إلى كتاب هامّ حمل عنوان (مقام الصلبان ومراتع رياض الإيمان) أو (مقام هامات الصلبان وروائع رياض الإيمان)^(٢).

وحسب مقدّمة الكتاب^(٣) فقد كان سقوط قرطبة في ذي الحجة من عام خمسائة وأربعين للهجرة الموافق لعام ١١٤٥ للميلاد، على يد ابن حمدين الذي استعان بالتصاري على منافسيه من المسلمين، فأعات النصارى في شرق قرطبة فساداً كبيراً وأسروا بعض المسلمين وكان من هؤلاء المأسورين أحمد الخزرجيّ الذي بقي أسيراً في طليطلة من عام ٥٤٠ هـ / ١١٤٥م إلى عام ٥٤٢ هـ / ١١٤٧م، وقد كان عمره آنذاك اثنتين وعشرين أو ثلاثاً وعشرين سنة. وقبل الحديث عن مضمون هاتين الرسالتين، الجوابيّة من الخزرجيّ والأولى من القس الطليطليّ فإنه من المهمّ جدّاً أن نعلم أنّ السنة التي ألّف فيها الخزرجيّ "مقام الصلبان" هي ذات السنة التي أنهى فيها روبرت الكيتوني ترجمة القرآن الكريم إلى اللاتينيّة بطلبٍ ودعمٍ من بطرس المبجل، ممّا يُعطينا فكرةً واضحةً عن مدى الاهتمام الكاثوليكيّ بالإسلام في تلك الأيام ومدى حرص القساوسة والرهبان على محاربتهم والطعن في عقائدهم وفي القرآن الكريم ونبوة الحبيب المصطفى ﷺ. ومن ضمن هذا الاهتمام جاءت رسالة القس الطليطليّ إلى الخزرجيّ يعرض فيها عليه ترك الإسلام واعتناق المسيحيّة ويحاول تشكيكه في

(١) هو أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة، بن محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الحق الأضاري الخزرجي الساعدي، نسبة إلى سعد بن عبادة الصحابي. ولد بقرطبة سنة ٥١٩ هـ في أسرة عريقة وكان أحد أجداده، أحمد بن عبد الرحمن، (ت ٥١١ هـ) من كبار المقرئين ومجّلة المتقين للأداء الجودين.

وكان الخزرجيّ معتنياً بالحديث وروايته في جامع القرويين ممّا جلب له إعجاب "خطاب رئيس أهل المدن" فوّت له جارية بأربعة دينار "عدا ما يحتاج إليه من كسوة ومؤون مواسم لم يقطعها عنه مئة تسعة أعوام بعد أن كانت مؤوته من تفقد الأخوان واحسانهم إلى أن توفي بفاس عقب ذي الحجة من سنة ٥٨٢ هـ.

(٢) اشتهر هذا الكتاب بعدة أسماء منها، قاع هامات الصلبان وروائع رياض الإيمان، ومقام الصلبان ومراتع... ومنها مقاطع الصلبان في الرد على عبدة الأوثان.

(٣) الخزرجي، أحمد بن عبد الصمد، مقام الصلبان، تحقيق وتقديم عبد المجيد الشرفي ط، ١، ١٩٧٥، من منشورات الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس.

دينه من خلال شبهاتٍ كثيرة أثارها حول تشريعات الإسلام في الزواج والطلاق وفي الجهاد واعتراض على وصف القرآن لمريم بأنها أختُ هارون وقدح في الوصف الحسيّ الذي حمّله القرآن للجنة لما فيها من طعامٍ وشرابٍ ونكاح ...

ويمكننا بعد قراءة رسالة هذا القيس الطليطلي أن نرصدَ بعض الموضوعات التي أوردتها ومنها العشرة التالية:

١. الدعوة إلى الإيمان بالمسيح ابن الله.
٢. إقرار القرآن بأن المسيح روح الله وكلمته وأنه أحياناً الموتى، وأنّ سلوك المسيح يدل على ألوهيته.
٣. الصلْبُ رحمةً ببني آدم ودليلٌ على ألوهية المسيح.
٤. عدم الفائدة في شريعة الإسلام وأنّ الزواج والطلاق في الإسلام دليلٌ على أنه ليس حقاً.
٥. القرآن ينسب إلى التوراة والإنجيل ما ليس فيها (كالقتال مثلاً).
٦. سخيرية من القول بالنسخ في القرآن.
٧. إنكار ما يذكر القرآن من إسقاط إبليس من السماء.
٨. القول بتحريف التوراة والإنجيل والزيور لا يقوم عليه دليل.
٩. فسو الإسلام بالتثيف والقهر على عكس المسيحية.
١٠. دعوة المسلم إلى الاعتبار والتدبّر.

"ولمّا وقف الشاب الأملجي [أحمد الخزرجي] على هذه الرسالة: زجرَ موصلها وامتنع عن مراجعة القسيس نخوفاً منه، لكونه يومئذٍ بين ظهرانيهم وفي كُنه دياتهم، فأحّ الناس عليه في الجواب فكتب هذا الجواب المُسمّى "مقامع هامات الصلبان، وروائع روضات الإيمان" .. واستفتح رسالته بالبسملة والمحمدة والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ ثم قال: فصل: في تقديم الاعتذار عن النزول إلى إجابتك للاعتراف بأن الالتفات إلى ما لديكم يخلُ بعقل الإنسان ودينه.. وأخذ يناقش دعاوى النصارى واحدةً واحدةً ويردّ عليها ويُطلها، وبدأ بإبطال دعاوى ألوهية المسيح عليه السلام، وتعبّجَ من دعوة القسيس له إلى الدخول في النصرانية ... وناقش المؤلّف مزاعم النصارى حول معجزات المسيح التي رفعه بها إلهاً، وهي في الحقيقة

دلائل نبوته ومعالم رسالته ووقع مثلها للأنبياء على مدى تاريخ الرسالات ...^(١) ثم تكلم المؤلف عن اضطراب الأناجيل وتناقضها وساق نماذج متعددة لذلك ثم شرع في الرد على كل الشبهات والمطاعن التي أوردها القسيس حول الإسلام وتشريعاته ونبوة رسول الله ﷺ.

لقد حملت هذه الرسالة الجوابية الرائعة التي بعث بها الخزرجي إلى هذا القس ردوداً شافية وافية على ما كان القس قد أثاره من شبهات ومطاعن. والرسالة يطول ذكرها في هذا المقام، وهي موجودة بالنص الكامل في الكتاب السابق ذكره، وهو متوقّف في المكتبات العامة ومكتبات الجامعات والله الحمد. وقد احتوت الرسالة، إضافةً لنقض شعائر وعقائد النصراري وقد حججهم وأدلتهم، احتوت العديد من الردود على شبهاتهم ومطاعنهم وهي ردوداً نراها تتكرر عند الكثيرين من المتأخّرين عن الخزرجي الذين أفادوا منها في محاججتهم للنصراري.

- ويمكننا بعد قراءة هذه الرسالة الجوابية أن نرصد بعض الشبهات والمطاعن التي ردها ونقضها ومن أبرزها ما يلي:
١. الرد على طعن أساقفة النصراري في الإسلام ونبوته.
 ٢. شواهد من التوراة في التبشير بمحمد.
 ٣. افتراء المضلّين من النصراري على محمد واستدراك مجامعهم.
 ٤. عرض أكاذيب النصراري في شأن محمد والقرآن والرد على هذه الأكاذيب.
 ٥. نفي قول الرسول أنه لا يموت.
 ٦. الاستهزاء من مسيلمة وكتابه.
 ٧. الرد على إنكار النصراري لفصاحة القرآن وإعجازه.
 ٨. الرد على إنكار النصراري لمعجزات محمد.
 ٩. الرد على إنكار النصراري لإخبار القرآن عن الغيب.
 ١٠. ذكر معجزات محمد ومقارنتها بمعجزات غيره من الأنبياء.
 ١١. مدى دلالة الآيات على ثبوت النبوة.
 ١٢. بشارات التوراة والزبور والإنجيل والنبوات بمحمد.
 ١٣. فضائل محمد وصفاته.

(١) المسير، محمد سيد أحمد، المدخل لدراسة الأديان، ص ١٥٦ بصريف، ط١، ٢٠٠١، دار الندى، مصر.

١٤. الردّ على القسّ في شأن التناذ الأّجسام في الجنة والاستشهاد على ذلك بما جاء في الإنجيل والتوراة والقرآن.
١٥. الرد على القس في أمر انتشار الإسلام بالقهر والسيف.

ثالثاً: أحمد بن إدريس القرافي

ذكر الإمام القرافي^(١) في مقدّمة كتابه (الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة) السبب الذي دعاه إلى تأليف هذا الكتاب فقال^(٢): "إنّ بعض النصارى قد أنشأ رسالةً على لسان النصارى مُشيراً أنّ غيره هو القاتل، وأنّه هو السائل. مشتملةً على الاحتجاج بالقرآن الكريم على صحّة مذهب النصرانيّة، فوجدته قد التبسّ عليه المنقول. وأظلمت لديه قضايا العقول. فإنّ كتابنا العزيز وكنهم دالةً على صحّة مذهبنا وإبطال مذهبهم. وأتأبئ ذلك إن شاء الله تعالى في أربعة أبواب.

يتكوّن كتاب "الأجوبة الفاخرة" من أربعة أبواب. ردّ فيه المؤلف في بابه الأوّل على خمس عشرة شبهةً من أبرز الشبهات التي أثارها النصارى على المسلمين وكان من أبرز هذه الشبهات وأشهرها شبهة خصوصيّة رسالة الإسلام بالعرب فقط، وشبهة المسيح روح الله وشبهة ودعوى إعلاء منزلة النصارى في القرآن الكريم، وشبهة مدح القرآن لعقيدة القربان وشبهة احتجاجهم ببعض آيات القرآن الكريم لصالحهم، وشبهة دعوى الاستغناء عن شريعة محمد عليه السلام. وفي الباب الثاني أجاب القرافي -رحمة الله- عن أسئلة عبث بها النصارى ضدّ المسلمين، جمعها في خمسة عشر سؤالاً وفنّدها وردّها عليها بالتفصيل. وكان من أبرز هذه الأسئلة الخبيثة دعوى انتشار الإسلام بالسيف ودعوى أنّ المسلمين على ضلال، ودعوى جواز الاتحاد والحلول بنصّ القرآن، ودعوى خلاف المسلمين في القرآن!!.

أمّا في الباب الثالث من هذا الكتاب فنرى القرافي، يرحمه الله، قد تحوّل من موقع المُجيب إلى موقع السائل، ومن موقع المُدافع إلى موقع المهاجم فألتمى على اليهود والنصارى مائة وسبعة أسئلة تتعلّق في صميم معتقداتهم وكنّهم المقدّسة وشعائرتهم. كما طرح عليهم أسئلةً صعبةً مُحرّجة لهم تتعلّق بثبوت المعجزة لمحمد، ﷺ، وعن الفرق بينها وبين معجزات السابقين

(١) هو أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن الملقّب بشهاب الدين القرافي. والقرافي أمّا نسبةً إلى قبيلة أصلها مغربي سكنت مصر وعرفت المنطقة باسمها. وأمّا نسبة إلى القرافة (الحلة المجاورة لتبر الإمام الشافعي الآن بالقاهرة) حيث كان شهاب الدين يمر بها أثناء خروجه لطلب العلم. وقد تأخر مرّة ولم يتذكر كاتب الأسماء اسمه فكّبه القرافي نسبةً إلى حمة الحضور فصارت لقباً له.

كان من أشهر شيوخه العز بن عبد السلام الملقّب بسلطان العلماء وقد لازمه من سنة ٦٢٩ هـ وحتى سنة ٦٦٠ هـ له من المصنّفات ما يزيد على الخمسة والعشرين، ومن أشهرها الأجوبة الفاخرة في الردّ على الأسئلة الفاجرة، وأدلة الوجدانية في الردّ على النصرانية، والاعتقاد في الاعتقاد، والخيبة في الفقه المالكي، وتفتيح النصول في علم الأصول وهو مقدمة الدخير، وتوفي في جادى الآخرة عام ٦٨٤ هـ ودفن بالقرافة.

(٢) القرافي، أحمد بن إدريس، الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، تهديم وتحقيق وتعليق الدكتور بكر زكي عوض، ص ٤٧، ط ١، ١٩٨٦، الناشر [المحقق]، القاهرة.

وعن موقف العقلاء من نبوة محمد، ﷺ، وعن موقفهم من عدم الأكل والشرب في الجنة. وفي
الباب الرابع والأخير أورد القرافي - يرحمه الله - إحدى وخمسين بشارة من كتبهم كلها تبشّر
بالنبي محمد ﷺ.

رحم الله الإمام القرافي وجيله من العلماء الذين أناروا لنا الدرب وأشعلوا مشاعل
العلم والمعرفة وتصدّوا للذود عن هذا الدين ونبيّه الكريم ودستوره الخالد.

رابعاً: الإمام ابن تيمية

إن أبرز مؤلفات ابن تيمية^(١)، رحمه الله، فيما يتعلّق بموضوع دراستنا هو كتاب "الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح". وقد ذكر في مقدّمة هذا الكتاب السبب المباشر الذي دعاه لتأليفه فقال^(٢): "إنّ كتاباً ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى، بما يجحجج به علماء دينهم وفضلاء ملّتهم قديماً وحديثاً، من الحجج السمعية والعقلية، فاقضى ذلك أن نذكر من الجواب ما يحصل به فصل الخطاب، وبيان الخطأ من الصواب، لينتفع بذلك أولو الألباب، ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب، وأنا أذكر ما ذكره بالفاظهم بأعيانها فصلاً فصلاً، وأتبع كلّ فصلٍ بما يناسبه من الجواب فرعاً وأصلاً، وعقداً وحلاً. وما ذكره في هذا الكتاب هو عمدتهم التي يعتمد عليها علماءهم في مثل هذا الزمان، وقبل هذا الزمان، وإن كان قد يزيد بعضهم على بعض بحسب الأحوال، فإنّ هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك، ويتناقلها علماءهم بينهم، والنسخُ بها موجودةٌ قديمةٌ، وهي مضافةٌ إلى "بولص" الراهب أسقف صيدا الأنطاكيّ كتبها إلى بعض أصدقائه وله مُصنّفاتٌ في نصر النصرانية، وذكر أنّه لما سافر إلى بلاد الروم والقسطنطينيّة وبلاد الملافطة، وبعض أعمال الافرنج ورومية، واجتمع بأجلاء أهل تلك الناحية، وفاوض أفضالهم وعلماءهم، وقد عظّم هذه

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله، تقي الدين أبو العباس، الملقب بشيخ الإسلام ولد في ٦٦١ هـ هو أحد علماء المسلمين. ولد في حرّان وهي بلدة تقع حالياً في تركيا في جزيرة ابن عمرو بين دجلة والفرات. وحين استولى المغول على بلاد حرّان وجاروا على أهلها، انتقل مع والده وأهله إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ فنشأ فيها وتلقّى على أبيه وعلمه عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام. كانت جدته لوالده تسمى تيمية وعزّف بها. وقدم مع والده إلى دمشق وهو صغير قرأ الحديث والتفسير واللغة. وشرع في التأليف من ذلك الحين. تقدّم صيته في تفسير القرآن وانتهت إليه الإمامة في العلم والعمل وكان من مذهبه التوفيق بين المقول والمقول. يقال عنه إنه كان مقترحاً متحمساً للجهاد والحكم الشرعي، وقد كان أيضاً شخصاً مؤثراً في نحو حركة الإسلام كان ابن تيمية حنبلي المذهب، سلفي النزعة.

كثير مناظره ومنتاقوه وانتقدوا عليه أموراً خالفهم فيها، منها إن زيارة الأنبياء من الشركيات، ونبهه عن شدّ الرحال لزيارة القبور والتوسل بأصحابها فنازعهم ونازعه وأبلغوا أمره إلى حكام السلطنة في مصر فطلب إلى مصر وعقّد مجلس مناظرته ومحاكمته حضره القضاة وكبار رجال النوبة حكموا عليه وحبسوه في قلعة الجبل سنة ونصفاً مع أخويه. وعاد إلى دمشق ثم أعيد إلى مصر وخُيس في برج الإسكندرية ثمانية أشهر وأُخرج بعدها واجتمع بالسلطان في مجلس حافل بالقضاة والأعيان والأمراء وقررت براءته وأقام في القاهرة مدة ثم عاد إلى دمشق وعاد فقهاه دمشق إلى مناظرته في ما يخالفهم فيه وقررت حبسه في قلعة دمشق ثم أفرج عنه بأمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون واستمر في التدريس والتأليف إلى أن توفي عن ٦٧ عاماً.

صنف كثيراً من الكتب منها ما كان أثناء اعتقاله. من تصانيفه: (فتاوى ابن تيمية) والجمع بين العقل والنقل) و(مناهج السنة النبوية في نقض الشيعة القديمة) و(الفرقان بين أولياء الله والشيطان). حصّ على حماد المغول وحرّض الأمراء على قتلهم. وكان له دور بارز في انتصار المسلمين في معركة شتّوب.

دخل السجن في شهر شعبان سنة ٧٢٦ هـ ومكث في السجن إلى أن مات في ٢٦ من ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ، حيث مرض بضعةً وعشرين يوماً، ولم يعلم أكثر الناس بمرضه وفوجئوا بموته. ذكر خبر وفاته مؤذن القلعة على منارة الجامع وتكلم به الحرس على الأبراج فتسلم الناس بذلك واجتمعوا حول القلعة حتى أهل الفوطاة والمريخ وفتح باب القلعة فامتلات بالرجال والنساء، وكانت جنازته عظيمة جداً وأقل ما قيل في عدمه خمسون ألفاً.

(٢) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، تحقيق وتقديم محمد حسن إسماعيل، ص ٢٣، ط ١، ٢٠٠٣، المكتبة العلمية، بيروت.

الرسالة، وسمّاها: "الكتاب المنطقي السورة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم".

لقد استشعر شيخ الإسلام ابن تيمية خطورة مضامين هذه الرسالة وما انطوت عليه من مبالغاتٍ في مدح عقائد النصارى ومحاولاتٍ لإثبات صحتها ولطعن في نبوة محمد ﷺ وعدم الحاجة إليها، فقرأ هذه الرسالة وذكر في مُقدمة كتابه أنها تتكوّن من ستة فصول هي التالية:

الفصل الأول: دعواهم أنّ محمداً ﷺ لم يُبعث إليهم، بل إلى أهل الجاهلية من العرب، ودعواهم أنّ في القرآن ما يدلُّ على ذلك والعقل يدلُّ على ذلك.

الفصل الثاني: دعواهم أنّ محمداً ﷺ أثنى في القرآن على دينهم الذي هم عليه، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه.

الفصل الثالث: دعواهم أنّ نبوات الأنبياء المتقدمين كالتوراة والزبور والإنجيل وغير ذلك من النبوات تشهد لدينهم الذي هم عليه من الأقانيم، والتثليث، والاتحاد، وغير ذلك، بأنه حق وصواب، فيجب التمسك به، ولا يجوز العدول عنه إذا لم يعارضه شرعٌ يرفعه ولا عقلٌ يدفعه.

الفصل الرابع: فيه تقرير ذلك بالمعقول، وأنّ ما هم عليه من التثليث ثابتٌ بالنظر المعقول، والشرع المنقول، موافقٌ للأصول.

الفصل الخامس: دعواهم أنّهم مُوحّدون، والاعتذار عمّا يقولونه من ألفاظٍ يظهر منها تعدد الآلهة، كالأقانيم، فإنّ ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التي يظهر منها التشبيه والتجسيم.

الفصل السادس: أن المسيح، عليه السلام، جاء بعد موسى، عليه السلام، بغاية الكمال، فلا حاجة بعد النهاية إلى شرعٍ يزيد على الغاية، بل يكون بعد ذلك شرعاً غير مقبول.

وقد بيّن ابن تيمية في المقدمة ذاتها المنهج الذي سيعتمده في ردّ دعوى النصارى الباطلة هذه فقال⁽¹⁾: ونحن والله الحمد والمنّة نبين أنّ كلّ ما احتجوا به من حجةٍ سمعيةٍ من

(1) ابن تيمية [م] ص ٢٤.

القرآن، أو من الكتب المتقدمة على القرآن، أو عقلية فلا حجة لهم في شيء منها، بل الكتب كلها مع القرآن، والعقل حجة عليهم لا لهم، بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ومن المعقول، فهو نفسه حجة عليهم، ويظهر منه فساد قولهم، مع ما يفسده من سائر النصوص النبوية، والموازن التي هي مقاييس عقلية.

يعدُّ كتاب "الجواب الصحيح" أضخم ما كتبه ابن تيمية في الردِّ على النصرانية وقد عقائدها وشبهاتها حول الإسلام والقرآن الكريم ونبوة محمد ﷺ، وقد زادت فصوله على مائة وخمسة وتسعين فصلاً في النسخة التي بين أيدينا⁽¹⁾ في هذه الدراسة. ومن أبرز الفصول التي خطها ابن تيمية، رحمه الله، فيما يخدم موضوع دراستنا هذه ما يلي:

١. شبهات النصارى على رسالة محمد ﷺ وردّها.
٢. معجزات محمد ﷺ.
٣. ردُّ احتجاجاتهم ببعض الآيات على خصوصية الرسالة.
٤. ردُّ دعوى خصوصية الإسلام لكون القرآن أنزلَ بلسانٍ عربي.
٥. الردُّ على زعمهم الاستغناء برسل الله إليهم عن رسالة محمد ﷺ.
٦. ردُّ زعمهم بأنَّ عدل الله يقتضي أن لا يُطالبوا باتباع إنسانٍ لم يأت إليهم.
٧. الردُّ على النصارى في احتجاجهم بأنَّ الله مدَّحهم.
٨. الردُّ على دعواهم بتعظيم الإسلام لمعابدهم.
٩. رفض دعواهم وجوب التمسك بدينهم بعد بعثة محمد ﷺ.
١٠. ردُّ دعوى النصارى في أنَّ القرآن أقرهم على ما هم عليه.
١١. نقض دعواهم أنَّ القرآن أثبت في المسيح اللاهوت والناسوت.
١٢. إثبات الفضل والكمال لرسول الله ﷺ ولشريعته ولأمته.
١٣. فصلٌ في دلائل النبوة.

(1) هذه النسخة تتكون من جزأين زادت صفحاتها عن ألف وستين صفحة، وهي بتحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وهي طبعة كاملة محققة على النسخة الخطية لدار الكتب المصرية تحت رقم (٣٧٨) ومقابلة على طبعة العاصمة، وقد نشرتها المكتبة العلمية ببيروت عام ٢٠٠٣م.

خامساً: الشيخ عبد العزيز بن حمد آل معمر

قد لا يكون هذا الشيخ^(١) من الأعلام المشهورة في بلادنا ولكنه، رحمه الله، قد ترك لنا مؤلفاً هاماً نسأل الله تعالى أن يكتبه له صدقةً جاريةً تبقى إلى يوم القيامة. وهذا المؤلف يأتي في صميم هذه الرسالة ويخدم موضوعها بوضوح، هذا المؤلف هو "منحة القريب المحيب في الردّ على عبّاد الصليب"^(٢). وقد حكى الأستاذ محمد سيّد المسير سبب إقدام الشيخ عبد العزيز آل معمر على وضع هذا الكتاب فقال^(٣):

قد واجه به المؤلف كتاباً في التنصير خطّه المندوب الإنجليزي في البحرين بعنوان "مفتاح الخزان ومصباح الدفائن" يشتمل على طعون في الرسالة الإسلامية والرّسول محمد ﷺ، ويشيد بالنصرانية، وبعث المندوب الإنجليزي بكتابه هذا إلى حاكم البحرين الشيخ عبد الله بن خليفه ليعرضه على العلماء المسلمين فانبرى له الشيخ عبد العزيز بن حمد آل معمر وسجّل الردّ في فترة وجيزة وسلّمه لحاكم البحرين.

ومن المفيد قبل الشروع في الحديث عن أهمّ محتويات هذا الكتاب التنبيه إلى عدم الخلط بينه وبين كتاب "تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب" وهو من وضع عبد الله الترجمان الأندلسي الذي هداه الله إلى الإسلام بعد أن كان في السابق قسيساً إسبانياً يحمل اسم "إنسليم تورميديا".

في بداية كتابه عرض الشيخ عبد العزيز، رحمه الله، النص الكامل لما كتبه المندوب الإنجليزي في البحرين، آنذاك، ثم أتبعه بالردود الشافية الوافية على ما ذكر. ويتكوّن هذا الكتاب من خمسة مقامات (ما يعادل الأبواب) طويلة تدرج تحتها مجموعة من الفصول، وناقش في هذا الكتاب مجموعة من المواضيع أبرزها ما يلي:

(١) هو الشيخ عبد العزيز بن حمد بن ناصر بن معمر رحمه الله (١٢٠٣هـ-١٢٤٤هـ) ولد في الدرعية، وتعلّم فيها على أئمة الدعوة، وكان أبوه من كبارهم. ذهب إلى (البحرين) بعد سقوط الدرعية على يد الباشا، ومات فيها، له قصائد متبادلة مع الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله، وله مريّة للدرعية مشهورة يسميها علماء نجد الطنّانة.

(٢) منحة القريب المحيب في الرد على عبّاد الصليب. الطبعة الأولى كانت عام ١٩٧٨م وقد نشرتها دار هيف للنشر والتأليف، الطائف، المملكة العربية السعودية.

(٣) المسير [م.س] ص ١٦١.

١. تحريف النصارى للدين الذي جاء به عيسى ابن مريم، عليه السلام، ودور المجامع الكنسية في ذلك.
٢. تحريف كتب النصارى واختلافاتها وتناقضاتها مع بعضها البعض.
٣. تحريف النصارى لصفات الرسول محمد ﷺ الواردة في كتبهم المقدسة.
٤. المناقشة التفصيلية لمقارنة المندوب الإنجليزي بين محمد وعيسى، عليهما السلام، وفيها ردّ على أسباب ترجيح المقارنة لصالح المسيح عليه السلام، وختم بأنّ الترجيح بين الأنبياء والرسل لا يعود لنا نحن البشر بل لله تعالى.
٥. أفاض المؤلف في ذكر فضائل وشمائل الحبيب المصطفى ﷺ.
٦. الردود على شبهات النصارى حول بعض آيات القرآن الكريم التي تصف المسيح بأنه روح من الله تعالى، وبيان التفسير الصحيح لهذه الآيات والفهم الذي يجب أن تندرج تحته.
٧. الإفاضة في تعداد وشرح معجزات الرسول ﷺ ووجوهها.
٨. الرد على شبهة انتشار الإسلام بالسيف وبيان الحكمة من تشريع الجهاد.
٩. توضيح الحكمة من تشريع الطلاق وتشريع تعدد الزوجات.

سادساً: الشيخ رحمت الله الهندي

ليس من قبيل المبالغة القول إنَّ الكتاب الذي ألفه الشيخ رحمت الله الهندي^(١)، رحمه الله، والذي يحمل عنوان "إظهار الحق"^(٢) هو أئمن وأهم الكتب التي رصدتها هذه الدراسة فيما يتعلق بالرد على عقائد المسيحية ودفع شبهات ومطاعن الرهبان عن الإسلام ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك لأمرين:

أما الأمر الأول: فيرجع إلى الظروف التي دفعت الشيخ الهندي لعقد مناظرته الشهيرة مع القسيس فندر، والتي تُعتَبَرُ مادةً هذا الكتاب تدويناً لنصوصها وأحداثها وتوثيقاً لها، فقد حدث أن المنصرين في الهند في الخمسينات من القرن الثامن عشر قد جعلوا من الشوارع والأماكن العامة والأسواق في القارة الهندية منابر لنشر الكفر البواح، يتحدثون المعتقدات الإسلامية، ويهاجمون العلماء، ويصفونهم بالخور والجبن وضعف الحجّة، وأهمهم ليسوا بقادرين على إثبات صحّة هذا الدين، وعلى رأسه هذا القرآن، ورسالة محمد ﷺ، ليصلوا إلى هدفهم من إثبات ألوهية عيسى عليه السلام، وأحقّيّة دين المسيح الخلّص للعالم بزعمهم إلى غير ذلك. وشتوا حملة لا هوادة فيها على طبقات الشعب المسلم، يوردون عليه شبهاتٍ وأوهاماً وتفسيراتٍ حسب أهوائهم، يقتطعونها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يلبسونها ثوب الحق ويدعون أحقيتها زوراً وبهتاناً، وعاش المسلمون فترة قاسيةً ومحنة أطاشت عقولهم، وشلّت نشاطهم، فنهض رحمت الله الهندي ليُعلنَ التحديّ ويذود عن الإسلام وقرآنه الكريم ونبوة الحبيب المصطفى ﷺ في هذا الوقت القاتل والموقف الصعب.

(١) هو محمد رحمت الله (بالتاء المفتوحة) بن خليل الرحمن الكيرانوي الهندي الحنفي، ونسبه ينتهي إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، عند الجد الرابع والثلاثين. ولد الشيخ رحمت الله بجي (دربار كلان) أي الحلي الكبير في كيرانه، التابعة لمحافظة (مظفر ناجار) من توابع دلهي عاصمة الهند - في جمادى الأولى سنة ١٢٣٣هـ الموافق: التاسع من مارس سنة ١٨١٨م. في عهد السلطنة المغولية. وقد اشتهر أفراد أسرته بالعلم والطب والمناصب العليا. اشتهر بمناظرته للقس فندر حيث كانت الغلبة للشيخ رحمت الله، وقد كان له دور كبير في الثورة الهندية عام (١٢٧٤هـ، ١٨٥٧م) مما اضطره إلى مغادرة الهند تحت ملاحظة البولة البريطانية وحكمها عليه بالإعدام، ففادر بعد مصادرة أمواله ويمتلكته إلى مكة المكرمة، وبها أمّس أول مدرسة في الجزيرة العربية وهي التي تعرف الآن باسم المدرسة الصوليتية نسبة إلى المحسنة "صولة النساء" التي تبرعت بمالها لإنشاء المدرسة. زادت مؤلفاته عن ستة عشر كتاباً، من أشهرها: إظهار الحق، إزالة الشكوك، قلب المطاعن، أحسن الأحاديث في إبطال التلث، معيار التصحيح، إنجاز عيسوي. توفي رحمت الله الهندي في مكة المكرمة ليلة الجمعة ٢٢ من شهر رمضان المبارك عام ١٣٠٨هـ ودفن في المعلاة مكة المكرمة بالقرب من أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها، عن عمر يقارب خمساً وسبعين سنة، رحمه الله تعالى.

(٢) الهندي، محمد رحمت الله الكيرانوي، إظهار الحق، ط١، ١٩٨٣، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي، النوحة، قطر.

أما الأمر الثاني: فيرجع لعبقريته، رحمه الله، في عقد المناظرة وتمكُّنه منها حيث كان يناقش كل قضية يأتي عليها من كل زاوية بدقّة تامّة وتجرّد نزيه، ثم يتناولها بالتنفيذ والتقدم من المصادر نفسها التي يعتمد عليها الخصم، ومن أقوال علماءهم حتى يتّضح الحقُّ، ويبرهن على عبودية المسيح عليه السلام، وعلى وجود التحريف والتناقض في الإنجيل والتوراة بعرض النصوص ومقابلة بعضها البعض، وعلى تزويه ساحة النبوة والأنبياء من كل تقيصة ومذمّة، وعلى أنّ القرآن الكريم لا تناقض فيه ولا اختلاف. ثم كان لا يفوته رحمه الله أن يدعم الحقُّ بالأدلة من كتاب الله وستة رسوله، ليجمع بين الحجّتين.

ومن المفيد أن نقف عند هذه المناظرة قليلاً لأنها، كما أسلفنا، مادّة الكتاب الذي نحن بصدد الحديث عنه وأصله⁽¹⁾، وسببها المباشر أنّ قسيساً شهيراً اسمه "فندر" قد قدّم من إنجلترا قام بنشاط كبير وحمايس زائد، في مناظرة علماء الهند، وقد تحدّاهم تحدّياً سافراً، وقام بجولة في مديريات الهند، يخطب في الجامع، ويدعو إلى النصرانية. وقد استفحل أمر "فندر" ورأى أنّ الجوّ قد خلا له، فازداد جرأة وتحدياً.. رأى الشيخ، رحمه الله، أنه لا سبيل إلى الحدّ من نشاط هؤلاء القسيسين ومقاومتهم، وفي مقدّماتهم وعلى رأسهم القس "فندر" وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين، إلّا مناظرة "فندر" في جمع حافل يحضره المسلمون والمواطنون، والحكام الأوربيون، والنصارى المنتصرون.

وكان "فندر" كثير الاستدلال بكتابه "ميزان الحق" فحوراً متبجحاً به، ويرى أنه ليس من السهل معارضته، ونقضه من علماء المسلمين.

حرص الشيخ، رحمه الله، على مناظرة القس "فندر" كلّ الحرص، فراسله في هذا الموضوع، وألح عليه بالظهور أمام الجمهور وعلماء المسلمين، واستعان في ذلك بكلّ من يرى فيه غناءً أو تأثيراً، ولمّا رأى القس أنّه لا مناص له من هذه المناظرة، قبلها وتقرّر عقد مجلس المناظرة في ١١ من رجب سنة ١٢٧٠هـ (١٠ من إبريل ١٨٥٤م) في "أكبر أباد - أكر" إحدى مديريات الولاية الشمالية الرئيسية والتي كانت ساحةً للنشاط التنصيري في الهند، وفي حيٍّ من أحيائها المعروفة بحارة "عبد المسيح".

(1) الهندي [م.س.]، المقدّمة، ص ٩-١٠-١١، باختصار وتصرف.

بدأ الحفل في اليوم المُعيّن، والساعة المحددة وقد حضر ولاية المديرية من حُكّام وقضاة، وبعض كبار موظفي الثكنة الإنجليزية من الإنجليز، وحضر القس الشهير (فندر) والقس (وليم كلين) وعددٌ كبيرٌ من أعيان البلد ووجهائه، ومن أبناء البلد المسلمين والمسيحيين والشيخ، وكان الدكتور محمد وزير خان بجوار الشيخ رحمت الله يساعده ويتعاون معه، وكان موضوع البحث والمناظرة خمس قضايا هي:

١. التحريف في الكتاب المقدس (العهد القديم والجديد).
٢. وقوع النسخ.
٣. التثليث.
٤. نبوة محمد ﷺ.
٥. صدق القرآن وصحته.

وقد تهرّر أنّه إذا انتصر الشيخُ رحمت الله في هذه المناظرة يدخل "فندر" في الإسلام، وإن كان العكس يتصرّف الشيخ... أسفرت هذه المناظرة التي لفتت أنظار المعنيين بالقضية في داخل البلد وخارجه، وكانت حديث النوادي، والشغل الشاغل، والمقيم في البلد، عن اعتراف القس "فندر" بوقوع التحريف في ثمانية مواضع من الإنجيل، فقال الشيخ رحمت الله الهندي: (إنك ما دمت قد اعترفت بوقوع التحريف في الإنجيل، فقد أصبح هذا الكتاب مشكوكاً فيه برمته)^(١) وانتهى البحث على ذلك. ولم يرجع القس إلى البحث والمناظرة في اليوم الثالث، وكان من الواضح أنه انسحب عن ميدان المناظرة، وكان انتصاراً رائعاً للجانب الإسلامي، قويت به معنوية المسلمين، وتشجعوا على مواجهة القسيسين وردّ دعاوهم، وفقدت الدعوة التنصيرية الكثير من اعتبارها وقيمتها. وبالطبع فإنّ القس "فندر" قد نكث بوعده ولم يدخل في الإسلام.

أمّا عن السبب الذي دعا الشيخ رحمت الله الهندي إلى تدوين هذا الكتاب فهو كذلك مذكورٌ في مقدمته^(٢)، حيث طلب منه السلطان التركيّ عبد العزيز ورئيس الوزراء خير الدين باشا تأليف كتابٍ بالعربية يشمل المسائل الجوهرية، والمواضيع الأساسية، والمباحث الحقيقية بين الإسلام والديانة المسيحية، والتي تُبطلُ مزاعم اليهود والنصارى مع إيراد كلّ ما حصل في المناظرة بالهند، وطلبوا من الشيخ البقاء في تركيا لإكمال هذه الخدمة الإسلامية الدينية المحضة، فرأى من الواجب عليه تأليف كتابٍ يكون بمثابة حصنٍ منيع بين

(١) الهندي [م.س.]، ص ٢٣.

(٢) الهندي [م.س.]، المقدمة، ص ٢٥.

الإسلام والمذاهب الباطلة، فشرع في تأليف هذا الكتاب الجليل في شهر رجب عام ١٢٨٠هـ، وأكمله في ستة أشهر. وطُبع في تركيا تحت الرعاية السلطانية، ووُزِعَ في البلدان العربية والإسلامية، كما تُرجم إلى اللغة الإنجليزية والألمانية والفرنسية، كما اهتم السلطان بترجمته إلى اللغة التركية باسم "إبراز الحق" وقد علّقت جريدة "لندن تايمز" في ذلك الوقت بعبارة: "لو داوم الناس على مطالعة وقراءة هذا الكتاب لتوقّف انتشارُ الدين المسيحي كلياً، وتأبى النفوس من قبوله ويرجعون إلى الإسلام".

وقد طبع هذا الكتاب عشرات المرات في تركيا ومصر وسورية ولبنان، وقام القسيسون ورجال الهيئات التنصيرية بمصادرة نُسخه وإتلافها حتى لا تصل إلى أيدي الناس في البلدان العربية. والجدير بالذكر أيضاً أنّ الهيئات المختصة بالهند في عهد الحكومة البريطانية منعت طبع وتداول مؤلفات الشيخ رحمته الله، ومجازاة كلِّ مَنْ يقوم بطبع ونشر مؤلفاته، ولكن مع ذلك ظلت كتبه، رحمه الله، محفوظةً مصونةً في البيوت والمكتبات القديمة، وفي صدور العلماء ورجال التاريخ.

ويرى العلامةُ الشيخ أبو الحسن الندوي، رحمه الله، أنّ كتاب "إظهار الحق" الذي بين أيدينا، يمتاز على غيره بعدة ميزات من أهمها^(١):

أولاً: أنّ المؤلف آثر خطة الهجوم على خطة الدفاع التي لا تزال أقوى وأكثر تأثيراً في النفس، فإنها تُلجئ الخصم إلى أن يتخذ موقف الدفاع، وأن يقف في قفص الاتهام، ويدافع عن نفسه وينفي التهمة.

ثانياً: أنّ المؤلف تجنّب البحوث الدقيقة التي يتسّع فيها مجال الجدل، ويكثر فيها القيل والقال، بل اعتمد في الكتاب على التناقضات الواضحة، والبديهيات الجليّة، التي لا تقبل التأويل، واستخرج منها نتائج، كنتائج رياضية لا يختلف فيها اثنان، فقد أثبت أنّ التوراة والإنجيل مليئةٌ بالاختلافات والتناقضات، وقد وقعت فيها أخطاء فاحشة عدّ منها مائةٌ وثمانية أخطاء، وبرهن بذلك على أنها كلّها ليست إلهاماً من الله، وأنّ التحريف قد وقع في "الكتاب المقدس" لا محالة.

(١) الهندي [م.س.]، المقدمة، ص ١٤-١٥ بصرف.

ثالثاً: تعرّض المؤلف فيه لمغالطات النصارى وتمويههم، وردّ عليها في أسلوبٍ سائرٍ مُقنعٍ، وتعرّض لإثبات النسخ ووقوعه في الديانتين السابقتين وصفحها.

رابعاً: وضع المؤلف العلامة حقيقة عقيدة التثليث النصرانية على محكّ العقل، ونقدتها نقداً علمياً يستسيغه كلُّ من رزق العقل السليم والذوق الصحيح.

خامساً: لم يكف المؤلف بنقد المسيحية وعقائدها وصفحها، بل أضاف إلى ذلك الحديث عن القرآن الكريم وإثبات أنه كلام الله، لا شكّ في ذلك، وأجاب في هذا الصدد على كلّ ما عارضه به النصارى، واعترضوا على القرآن، وذكر في ذلك نبذة عن سيرة الرسول ﷺ ومعجزاته والبشارات التي وردت في شأنه. وقد ذكر ثماني عشرة بشارَةً، وحقّق صحّة الأحاديث، لذلك كان الإقبال على هذا الكتاب كبيراً والعناية به عظيمةً.

ويمكننا بعد قراءة هذا الكتاب القيم الضخم أن نقف فيه على الكثير من المواضيع التي تهّم وتخدم موضوع دراستنا هذه، والتي تأتي في البابين الخامس والسادس منه، وذلك بعد الانتهاء من الأبواب الثلاثة الأولى من نقد ونقض وتفنيد كتب العهد القديم والعهد الجديد وإثبات تحريفها وإبطال التثليث. ومن أبرز ما يهّمنا فيه حديثه، رحمه الله، عمّا يلي:

١. إثبات كون القرآن الكريم كلام الله ومعجزاً ودفع شبهات القسيسين على القرآن وقولهم بأنه ليس في الدرجة القصوى من البلاغة، وأنه مُخالفٌ لكتب العهد العتيق والجديد في مواضع وبالتالي فهو ليس من كلام الله. وقد أفرد لذلك مائة وسبع صفحات.

٢. دفع شبهات القسيسين الواردة على الأحاديث النبوية الشريفة. وقد أفرد لذلك خمساً وثلاثين صفحةً.

٣. إثبات نبوة محمد ﷺ ودفع مطاعن القسيسين فيها ودفع شبهات علماء النصرانية والردّ عليها، وقد أفرد لذلك مائة وتسعاً وستين صفحةً.

٤. دفع مطاعن القسيسين المتعلقة بالجهاد، وعدم ظهور المعجزات على يد رسول الله ﷺ وبيان كذب ذلك، ودفع الشبهات المتعلقة بزوجات الرسول ﷺ، ثم دفع شبهة أنه ﷺ كان مُذنباً. وقد أفرد، رحمه الله، لهذه الردود والدفوع أربعاً وخمسين صفحةً.

رحم الله الشيخ الهندي الكيرانوي وجعل هذا العمل الجبّار في ميزان حسناته إلى
يوم الدين، فله أجره وأجر من قرأه وأفاد منه في التّودع عن هذا الدين والحبيب المصطفى إن
شاء الله تعالى.

سابعاً: نعمان بن محمود الألوسي

يُعتبر الإمام الألوسي^(١)، رحمه الله، مؤلف كتاب "الجواب الفسيح لما لُقِّعَ عبد المسيح"^(٢) خيرَ مَنْ رَدَّ رَدّاً شافياً وافياً على "الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها" أو "رسالة عبد الله بن إسماعيل الهاشمي إلى عبد المسيح بن إسحاق الكندي". وهي الرسالة التي أوردنا نصّها وبعضاً من نصّ الرسالة الجوابية عليها في المبحث الثالث من الفصل الرابع السابق. وقد مرَّ معنا التشكيك في صحّة وجود طرفيها وأنّ أسماهما إنما هي لشخصين وهمين. وقد تصدّى الألوسي، رحمه الله، لموضوع هاتين الرسالتين كاملاً، وكتب فيه باستفاضة مفيدة، وخلّص إلى نتيجة مفادها عدم وجود أصلٍ قديمٍ لها يعود لعصر الخليفة المأمون، وبل وعدم ذكر أيِّ مصدرٍ تاريخيٍّ معتمدٍ لأيِّ من نصيَّهما أو الترجمة لصاحبها. والذي ترخّج لديه، رحمه الله، أنّ جماعةً من النصارى المتأخّرين (من طائفة البروتستانت) هم الذين قاموا باختلاق ووضع هاتين الرسالتين المزيّقتين وكتبوا لها تاريخاً قديماً مزوراً يعود لزمان حكم المأمون في القرن الهجري الثالث. وقد استدلّ على صحّة استنتاجه هذا بقوله: "ومما يدلُّ على التزوير والافتراء: أنّ المؤلّف إذا ذكر آيةً من آيات التوراة أو الإنجيل يذكر بجوارها اسم السفر ورقم الإصحاح. والرّم الذي يذكره هو مطابقٌ للرقم المذكور الآن في طبعات البروتستانت للكتاب المقدّس. وهذا يدلُّ على أنّ المؤلّف من البروتستانت، وأنّه من العلماء"^(٣).

(١) هو نعمان بن محمود بن عبد الله أبو البركات خير الدين الألوسي، وهو ابن الألوسي المفسّر صاحب "روح المعاني". ولد في بغداد في ١٢ من المحرم سنة ١٢٥٢هـ. ولما أتمّ علومه التحق بوظائف الحكومة، وتولّى القضاء في الحلة وغيرها، ثم ترك المناصب، واشتغل بالعلم والتأليف والوعظ والإرشاد. وفي سنة ١٢٩٥ هـ سافر إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج، وزار مصر. وفي سنة ١٣٠٠ هـ سافر إلى الآستانة، وأتمّ عليه السلطان عبد الحميد الثاني بمراتبٍ عالية، وأصدر أمره بإعادة مدرسة مرجان إليه. ولما عاد إلى بغداد تصدّى للتدريس وكان رئيس المترسّين. وكان منذ صباه شغوفاً بالمطالعة، ميّالاً إلى جمع الكتب النادرة فوفّق لجمع مكتبة حافلة، ثم وقفها على مدرسته. وكان عالماً ضليعاً، وأديباً جليلاً، عبق النفس، واسع الحلم، شديد التحري للحق. توفي في صبيحة الأربعاء السابع من المحرم سنة ١٣١٧ هـ الموافق ١٨٩٩م في بغداد.

من مؤلفاته:

١. جلاء العينين في محاكمة الأحمدين: ابن تيمية وأحمد بن حجر العسقلاني.
 ٢. الآيات النبوات في عدم سماع الأموات.
 ٣. الجواب الفسيح لما لُقِّعَ عبد المسيح، ردّه على الرسالة المنسوبة لعبد المسيح ابن إسحاق الكندي، في مجلدين.
 ٤. غالية المواعظ في الوعظ.
 ٥. الأجوبة العقلية لأشرفية الشريعة المحمدية.
- (٢) الألوسي، نعمان بن محمود، الجواب الفسيح لما لُقِّعَ عبد المسيح، تحقيق الدكتور أحمد مجازي السقا، ط١، ١٩٩٢، دار الجيل، بيروت.
- (٣) الألوسي [م. س.]، ص ٥.

وقد اتبع الألويسي، رحمه الله، منهجاً سهلاً وسليماً في رده على رسالة عبد المسيح حيث كان يضع عبارات المسمى (عبد المسيح) بنصها ثم يتبعها بالرد والتفنيد والنقد. كما صرح، رحمه الله، في مقدمة الكتاب بأنه استفاد من خبرات علمائنا السابقين في الرد على النصارى واستعان بكتبهم مثل كتاب "هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى" للإمام ابن قيم الجوزية، وكتاب "إظهار الحق" للشيخ رحمت الله الهندي الكيرانوي. وقام منهجه على استخدام الحجج النقلية والعقلية على السواء. وقد كان وقوفه على نص الرسالة السابق ذكرها السبب المباشر الذي دعاه لتأليف هذا الكتاب الضخم⁽¹⁾ النافع فقال: "رأيت في السنة الرابعة بعد الثلاثمائة وألف من هجرة النبي الأشراف أوراقاً مطبوعة في لندن سنة ١٨٨٠م بالضللال والبهتان مشتملة على تقديم دين النصارى على سائر الأديان، طاعنة دين الإسلام بكل قصير رمح وكليل سنان، مزخرفة بالأكاذيب على الله تعالى ورسوله مما لم تسمعها الآذان منسوبة إلى "عبد المسيح بن اسحق الكندي" مجيباً بها في زمن "المأمون العباسي" رسالة "عبد الله بن إسماعيل الهاشمي" حينما دعاه فيها إلى دين الإسلام القوي الدعام .. وأن الصانع لها عصري، أو زنديق متقدم العصر أراد ترويح الغي، وأن ينسخ نور الشمس بالفيء. ولعمري أن باطلها لا يخفى على ذي عينين .. ولقد قدمت رجلاً وأخرت أخرى عن رد باطلها، وبيان عاطلها، واستعظمت أن أنطلق ولو على طريقة النقل بكلماتها، أو أحررت بقلمي على سبيل الرد قبيحها، لأن ما فيها يحكي العواء على بدر السماء، غير أن جملة النصارى ربما يختلج في أذهانهم مجز المسلمين عن رد هديانهم فأسرعت لرد الجواب، واقتديت بمن قبلي من الأجلة الداخلين في هذا الباب، الذين أتوا بالحكمة وفصل الخطاب، فشرعت فيه طالباً للتوفيق والإمداد، متكللاً على من تتره عن الصاحبة والأولاد، سائلاً منه جل وعز الهداية والتيسير والحفظ من كيد الأعداء والحساد، مسمىً له بـ الجواب الفسيح لما لفقّه عبد المسيح"⁽²⁾.

وقد لا يكون هذا الكتاب الذي بين أيدينا شهيراً، وهو قليل التداول، قليل الوجود في المكتبات لكنه هام تصدى فيه المؤلف لنقد معتقدات اليهود والنصارى كما تصدى للرد على كل الشبهات التي ذكرت في الرسالة السابقة ردوداً شافية، خصوصاً إذا ما تذكرنا أن الشبهات الواردة فيها هي الجذر الأساس للكثير من الشبهات المفرضة الموجودة اليوم على

(1) يقع الكتاب المذكور في مجلدين وهو يتكون من ١٥٥١ صفحة شاملة للمقدمة والتهافت.

(2) الألويسي، [م.س.]، ص ٣٤، ٣٤، بصرف.

بعض مواقع الإنترنت المسيحية التي تخصصت في الإساءة للإسلام والحبيب المصطفى ﷺ.
وقد كان من أبرز هذه الشبهات التي أجاب عليها الألوسي، رحمه الله:

١. شبهة مرض موت النبي ﷺ.
٢. شبهة إنتشار الإسلام بالسيف.
٣. شبهة كتابة القرآن بعد موت النبي ﷺ.
٤. شبهة اللحن والتحريف الموجودين في اللغة العربية.
٥. شبهة خداع النبي للعرب بالنبوة وأنه لم يكن نبياً.
٦. شبهة وجود التناقض في القرآن.
٧. شبهة ظهور المعجزات والخوارق على يد أيّ إنسان.
٨. شبهة أنّ المسلمين الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا شهداء.
٩. شبهة أنّ القرآن يدعو إلى المملّات والشّهوات.
١٠. شبهة أنّ المسلمين ضالّون.

رحم الله الإمام الألوسي، العلامة الذي سَخَّرَ جمده ووقته وإمكانياته للذود عن دين
الله تعالى وحبيبه المصطفى، وردّ السّهام إلى نحر أصحابها المَبْغُضِينَ الكارهين

ثامناً: الشيخ عبد الرحمن الجزيري

في معرض حديثنا عن الردّ على مؤلّف بعينه، وكما استعرضنا في الصفحات الماضية "الردّ على الرسالة الإسلامية والجواب المسيحي عليها" نستعرض فيما هو آت الردّ على كتاب القس فندير المُسمّى "ميزان الحقّ". وهو الكتاب الذي كان هذا القس يُكثرُ الاستشهاد به في مناظراته للشيخ رحمت الله الهندي، رحمه الله، ويرى أن المسلمين لا طاقة لهم به، ولا يقدرّون على معارضته والردّ عليه. وقد انبرى الشيخ عبد الرحمن الجزيري^(١)، رحمه الله، للردّ على هذا الكتاب في كتابٍ سمّاه "أدلة اليقين في الردّ على كتاب ميزان الحقّ"^(٢). ومع أنّ الشيخ رحمت الله الهندي قد تصدّى في كتابه "إظهار الحقّ" للردّ على كتاب القس فندير وبذل مجهوداً عظيماً في الردّ على فرضياته ونظرياته، إلّا أنّ الشّيخ الجزيري قد ألف "أدلة اليقين" للردّ على الكتاب المذكور ذاته وقد علّل ذلك بقوله: "نعم أنّ الأستاذ الجليل المرحوم الشيخ رحمت الله الهندي، أكرم الله مثواه، قد بذل مجهوداً كبيراً في الردّ على بعض نظريات هذا الكتاب وأقام الدلائل القاطعة على تحريف التوراة والإنجيل في كتابه "إظهار الحقّ" ولكن قد جاء بعد ذلك قسيسٌ آخر اسمه "الدكتور تسدل" فأضاف إلى هذا الكتاب مطاعنَ كثيرةً وحذف منه عباراتٍ جمةً ليردّ بذلك على الأستاذ الشيخ رحمت الله. وقد زعم أنّ زيادته هذه بناها على الكشف العلميّ. فمن أجل ذلك كلّه رأيتُ أن أردّ على كتاب ميزان الحقّ في جميع ما جاء به وبذلك يتم الردّ على جميع المبشرين"^(٣).

ولعلّ تصدّي اثنين من أبرز علماء المسلمين في القرن الثامن عشر للردّ على كتاب بعينه أكبر دليلٍ على مدى خطورة هذا الكتاب على الإسلام والمسلمين. فما الذي احتواه هذا الكتاب الخطير يا ترى؟؟ في الواقع لقد حلّل الشيخ الجزيري، رحمه الله، في مقدمة "أدلة اليقين" أقسام هذا الكتاب وأبرز ما اشتمل عليه على النحو التالي^(٤):

(١) هو عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري: فقيه، من علماء الأزهر. ولد بجزيرة شندويل (مركز سوهاج) بمصر (عام ١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م) وتعلّم في الأزهر من سنة ١٣١٣ إلى ١٣٢٦ هـ، ودرس فيه. وتغيّن مقتشاً لتقسيم المساجد بوزارة الأوقاف سنة ١٣٣٠ هـ، فكيّراً للمفتشين، فأستاذاً في كلية أصول الدين. ثم كان من أعضاء هيئة كبار العلماء. وتوفي بجلوان. له كتب، منها الفقه على المذاهب الأربعة - أربعة أجزاء، شاركته في تأليف الجزء الأول منه لجنة من العلماء، واقرّر في تأليف بقبته، وتوضيح العقائد في علم التوحيد، والأخلاق الدينية والحكم الشرعية، وأدلة اليقين في الردّ على بعض المبشرين توفي، رحمه الله، سنة ١٣٦٠ هـ - ١٩٤١ م.

(٢) الجزيري عبد الرحمن، أدلة اليقين في الردّ على كتاب ميزان الحقّ وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين في الإسلام، ط١، ١٩٣٤، مطبعة الإرشاد، مصر.

(٣) الجزيري [م.س.]، ص ٩.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ١٠، بصرف.

لقد قسّم المؤلف كتابه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول ادّعى فيه عدم تحريف التوراة والإنجيل وعدم نسخ شيءٍ منها فلا الإنجيلُ ناسخٌ للتوراة ولا القرآنُ ناسخٌ لشيءٍ من التوراة والإنجيل، وكلُّ ما فيها وحيٌّ من الله تعالى هما كان مضاداً للعقل ومنافياً لما يقتضيه نظام الله في خلقه. ومما كان مشتملاً على نقائص في الأنبياء من أخطأ ما يُوصَفُ به السفلةُ الأدياء ومهما كان مشتملاً على أغاليطٍ علميةٍ وتاريخيةٍ صريحةٍ لا يمكن تأويلها. وقد استدل على دعواه هذه بشهادة القرآن للتوراة والإنجيل، وبأنّ كلام الله لا يصحّ تبديله ولا نسخه كما قال المسيح (تزلو السموات والأرض ولا يزول كلامي) وكما قال تعالى: (لا تبديل لكلمات الله).

أما القسم الثاني فقد ادّعى فيه أنّ التعاليم الصحيحة النافعة هي تعاليم الإنجيل التي من بينها مسألة التثليث وصلب الإله لتخليص العالم من الخطيئة.

أما القسم الثالث فزعم فيه أنّ الكتاب المقدّس (التوراة والإنجيل) لم يرد فيه شيءٌ يدلُّ على نبوة سيدنا محمد ﷺ بل الإشارات التي فيه عن النبوة إنما هي تنطبق على عيسى عليه السلام. وقد هجم في هذا القسم على كتاب الله الكريم وعلى رسوله الصادق الأمين هجوماً جريئاً يدلُّ على جهالةٍ وسوء أدبٍ لا حدَّ لها.

ومع أنّ كتاب القس الدكتور فندر يفيضُ بقلّة الأدب والتطاول على القرآن الكريم والإسلام والرسول الكريم ﷺ إلا أنّ الجزيري، رحمه الله، يقرُّ ويكلِّ علوً ونزاهةً وأدبٍ ألاّ ينزلق كما انزلقوا وكانوا بوراً فيقول⁽¹⁾: "وانتي أعاهد القراء وأشهد الله على أنني لا أحميد عن البراهين العلمية قيد شعرة، ولا أخرج في كتابتي عن الأدب إلا حيث يخرجون على الله ورسوله، ومع ذلك سأعضي عن كثيرٍ من سفاهتهم وأكل أمرهم إلى البراهين العقلية الجازمة التي تُظهرهم للناس في مظهرهم الصحيح".

وبما أنّ كتاب القس فندر كان يتكوّن من ثلاثة أقسامٍ فقد وقع الردّ عليه في كتابٍ يتكوّن من ثلاثة أقسامٍ كذلك، حيث ناقش الجزيري، رحمه الله، في قسمه الأول أدلّة "ميزان الحق" على عدم تحريف التوراة والإنجيل وتقدها وتفضيها دليلاً دليلاً. ثم استعرض الفهم الخاطي والتفسير المغلوط الذي استدل به فندر من القرآن على صحّة التوراة والإنجيل،

(1) الجزيري [م. س.]، ص ١٠.

وساق ثلاثة أدلة دامغة على تحريف الإنجيل وساق عشرة اعترافات على تحريف الإنجيل وخمسة أخرى على تحريف التوراة، مُستندطاً إياها من كتاب فنذر نفسه. وفي القسم الثاني من هذا الكتاب أورد الجزيري، رحمه الله، أدلة فنذر العشرة على إثبات صحة عقيدة الثالوث ثم ناقشها ونقدها واحداً تلو الآخر. ولعلّ القسم الثالث من كتاب الجزيري، رحمه الله، هو أكثر ما يهتَمنا في هذه الدراسة ألا وهو التصدي لمطاعن "ميزان الحق" في الإسلام ونبوة محمد ﷺ، حيث ردّ على المطاعن كلّها وأقام الأدلة على صدق رسالته عليه الصلاة والسلام، من نبؤات التوراة والإنجيل، ومن معجزات رسول الله ﷺ نفسها، وردّ على شبهات فنذر حول القرآن الكريم وحسيّة الجنة ونعيمها وقام بتصويب سوء الفهم لبعض الآيات التي استشهد بها فنذر على ذنب وأوزار سيدنا محمد ﷺ مثل آية "ووضعنا عنك وزرك" وآية "واستغفر لذنبيك" كما تصدّى الجزيري، رحمه الله، للردّ على مطاعن المستشرقين في الجهاد وفي الفهم الإسلامي للقضاء والقدر، وشبهات أخرى تتعلّق بزوجات النبي ﷺ وخيالات المبشرين حول عقته ونزاهته، عليه السلام، وما يتخيّلونه من أخطاء نحوية في القرآن الكريم وامتلأته بالأخطاء التاريخية!!!

تاسعاً: الشيخ أحمد ديدات

لكلِّ فعلٍ ردٌّ فعلٍ مساوٍ له في المقدار ومعاكس له في الاتجاه. هذه وباختصارٍ، كانت حكاية بداية سير الشيخ ديدات^(١)، في طريق دراسة المسيحية والكتاب المقدس وقد عقائدها وإسكات المبشرين والرهبان، الذين دأبوا على الطعن في الإسلام ونبوة الحبيب المصطفى ﷺ. وقد حكي الشيخ ديدات، رحمه الله، وابنه يوسف هذه القصة للدكتور عبد الله قادري الأهدل^(٢) عند زيارته لها عام ١٩٩٩ للميلاد في فترة مرضه، رحمه الله تعالى، وقد روى الدكتور الأهدل بدوره هذه الحكاية في مؤلفه الضخم "سلسلة المشرق والمغرب" على لسان الداعية ديدات فقال: يقول الداعية: إنه بعد أن انتهى من المدرسة، عمِلَ في أحد المحلات لبيع السكر والملح والدقيق والأرز، وكان المكان يبعد عن مدينة درين مائة وخمسة وعشرين ميلاً. وكانت توجد في الجانب الآخر من موقع الدكان إرساليةً مسيحيةً جامعيةً تُسمَّى: (آدمز مشين) وهي تقوم بتدريس الطلاب المسيحية وتدريبهم على مواجهة الإسلام والمسلمين بالشُّبُه والتشكيك في دينهم. وكان بجانب هذه الكليّة مئات المنازل الصغيرة التي

(١) ولد أحمد حسين ديدات في بلدة (تادكيشان) بولاية (سوارات) الهندية. هاجر أبوه، وكان يعمل خياطاً، إلى جنوب أفريقيا بعد مولده مباشرة. لحق أحمد ديدات بأبيه عام ١٩٢٢م لتعلم وصعوبة فرص الدراسة في الهند، وتوفيت والته بعد فراقه بشهور قليلة. واجه الطفل أحمد ديدات آنذاك صعوباتٍ جمةً لكنه اجتهد بظفره وبما وهبه الله له من ذكاء فصّل الإنجليزية وتفرّق في دراسته وتوقف عند الصف السادس بسبب الظروف المادية الصعبة. في السادسة عشرة من عمره بدأ عمل له كإتاع في متجر ثم عمل في متاجر كثيرة. ثم عمل ديدات في عام ١٩٣٦م في متجر يملكه مسلم، وكان بالقرب من معهد تعلم ضراني على ساحل نائال الشمالي، وقد ازدادت الإهانات المستمرة ضد الإسلام من قبل المنصرين المحتزين بالمعهد في نفس الرغبة في إبطال ادعائهم الباطلة.

في بداية الخمسينيات أصدر كتيبه الأول: "ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ؟"، ثم نشر بعد ذلك أحد أبرز كتيباته: "هل الكتاب المقدس كلام الله؟"

في عام ١٩٥٩م، توقف أحمد ديدات عن مواصلة أعماله حتى يتسوّى له التفرغ للمهمة التي نذر لها حياته فيما بعد، وهي الدعوة إلى الإسلام من خلال إقامة المناظرات وعقد الندوات والمحاضرات. وفي سعيه الخيبي لأداء هذا الدور العظيم زار العديد من دول العالم، واشتهر بمناظراته التي عقدها مع كبار رجال الدين المسيحي أمثال: كلارك - سيجي سواجارت - انيس شروش.

كان أحمد ديدات العضو المؤسس الأول للمركز الدولي لنشر الإسلام "معهد السلام لتفريخ الدعاة" "IPCI" بمدينة (ديرين) بجنوب أفريقيا وأصبح رئيساً له.

نشر أحمد ديدات ما يزيد على عشرين كتاباً، وورّع ملايين النسخ منها مجاناً، كما ألقي الآلاف من المحاضرات، فضلاً عن نجاحه في المناظرات مع التساوسة حول الإنجيل، والتي كان من أبرز نتائجها إسلام آلاف البشر في مختلف دول العالم.

مُنح أحمد ديدات جوائز الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام ١٩٨٦ وأعطى درجة "استاذ". يعتبر الداعية أحمد ديدات أحد أكثر المتعمقين في ضصوص الأنابيل المختلفة، فهو عالمٌ مسلمٌ في الإنجيل المسيحي. أطلقت العديد من الألقاب على أحمد، منها: "قاهر المنصرين"، و"الرجل ذو المهمة". كما علم ديدات العديد من التلاميذ الذين ساروا على دربه، ومضوا في طريق الجهاد في سبيل الله ضد المنصرين والتساوسة، من أبرزهم الدكتور زاكر نايك، والذي قال عنه ديدات: "ما قمْتُ به في أربعين سنة، قام به زاكر في = أربع سنوات!" بعد مرض عضالٍ أقده شليلاً منذ عام ١٩٩٥ توفي في ٨ أغسطس عام ٢٠٠٥ وقد المسلمون بموته داعية ومحاوراً ومناظراً يشار إليه بالبنان.

(٢) ولد بمنطقة (عيس) شمال غرب اليمن سنة ١٣٥٦ هـ. حصل على شهادة البكالوريوس في الشريعة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ومن ثم حصل على الماجستير من كلية الشريعة والقانون ومن ثم شهادة الدكتوراه من كلية الشريعة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض. له عشرون كتاباً مطبوعاً من ضمنها سلسلة المشرق والمغرب التي ضمنها مذكراته في رحلاته لبلدان العالم، ومنها لقاءه هنا مع الشيخ أحمد ديدات عام ١٩٩٩م.

يسكن فيها السود. وكان الطلاب المتدريون يزورون أحمد ديدات والعاملين معه في النكان، ويلقون عليه أسئلةً وشبهاتٍ يهاجمون بها الإسلام، ولم يكن يعرف هو وزملاؤه شيئاً عن ذلك. ومن ضمن تلك الأسئلة والشبهات ما يأتي:

هل تعلمون أنّ محمد ﷺ كان يكثر من الزوجات؟
وهل تعلمون أنه أخذ القرآن عن اليهود والنصارى؟
وهل تعلمون أنه نشر الإسلام بحمد السيف وأكره الناس على ذلك؟

قال الداعية: وقد أحال هذا الهجوم على الإسلام حياتنا إلى بؤس وعذابٍ وشقاءٍ، وأحدث عندنا حيرةً وقلقاً بسبب عدم معرفتنا شيئاً نردّ به عليهم. وكنت أرغب في ترك المحلّ والهرب إلى مكانٍ آخر، ولكن ذلك كان مستحيلاً، لصعوبة وجود مكانٍ آخر. وأخذت أتساءل: كيف أتصرف؟ ويسّر الله الحلّ! فقد كتبت أقلبُ رزماً من الجرائد والمجلات القديمة في مخزنٍ رئيسي في العمل، وهي مليئةٌ بالغبار، فوجدت كتاباً بين تلك الجرائد تنتشر عليه الحشرات، وفتحته من باب الفضول.. فإذا هو باللغة العربية بعنوان (إظهار الحق) .. وقرأت الكتاب فوجدته يتناول هجمة النصارى على الإسلام في موطني الأصلي (الهند) ووجدت أنّ الكتاب طُبِعَ قبل ولادتي بثلاث سنوات، فقد كانت طباعته في سنة: (١٩١٥م) وأنا وُلِدْتُ في سنة (١٩١٨م).

وقرأت الكتاب - إظهار الحق - فوجدت فيه من المعلومات والمناظرات ما كان له أكبر الأثر في حياتي، وجعلني أعزم على مواجهة المسيحيين، لأنّ في الكتاب ما يجعلني مُسلّحاً قوياً في مواجهتهم، ووجدت موقف النصارى هو نفس موقفهم في جنوب أفريقيا. وشعرت بعد قراءتي هذا الكتاب أنني أستطيع الآن أن أدفع عن نفسي وعن الإسلام. وبدأت أتصدى للمسيحيين بالمعلومات التي تعلّمتها من الكتاب، وأزورهم في بيوتهم كلّ يومٍ أحياناً وأناقشهم، وكنت أقابلهم بعد خروجهم من الكلية لأحاورهم. ومن خلال تلك المناقشة تعلّمت كيف أجادل وأناقش ...

ويُستفاد من هذه القصة التي رواها الشيخ ديدات - رحمه الله - أمران هامان:

الأمر الأول: مدى مساهمة الاستفزازات التي يقوم بها الرهبان والمبشرون، ومحاولاتهم الطعن في الإسلام ونبوة محمد ﷺ، في الكشف عن العديد من المواهب المسلمة وتقديمها لنا دون قصدٍ منهم لذلك، وعلى سبيل المثال فقد ساهمت استفزازات القس الدكتور "فندر" لمسلمي الهند في ظهور العلامة رحمت الله الهندي، كما ساهمت استفزازات رجالات إرسالية (آدمز مشين) لمسلمي جنوب أفريقيا في ظهور العلامة أحمد ديدات، رحمه الله تعالى.

الأمر الثاني: أهمية تأليف مثل هذا النوع من الكتب، التي سخر الله تعالى وسهل لمؤلفيها الردّ على أهل الكتاب وما يعتمل في صدورهم من شبهات وأضاليل قديماً وحديثاً، ولنذكر على سبيل المثال، لا الحصر، الأثر العظيم الذي تركته قراءة كتاب "إظهار الحق" للشيخ رحمت الله الهندي في حياة الشاب أحمد ديدات، حيث ساهمت في استنارة طاقاته الكامنة وصنعت منه علمَ المسلمين الأبرز في مبارزة ومناظرة أهل الكتاب في القرن الماضي دون منازع. ولعلّ أكثر ما يفيد موضوع دراستنا هذه من حياة الشيخ ديدات، رحمه الله، هو المجهود الجبار الذي بذله في الردّ على مطاعن الرهبان والقسيسين في الإسلام ونبوة محمد ﷺ حيث أنّ هذه المطاعن، كما أسلفنا، هي التي أوقدت في قلبه شعلة التحدي والرغبة في الردّ على التشكيك والظعن. وقد توضح ذلك من خلال مناظراته العديدة ومؤلفاته التي زادت على العشرين والتي خصصها كلها لنقد عقائد النصارى وردّ شبهاتهم ومطاعنهم في الإسلام والقرآن الكريم ونبوة محمد ﷺ.

أولاً: أبرز مناظراته⁽¹⁾

ما من شكّ في أنّ أبرز وأول مناظرة سلّطت الضوء على الشيخ ديدات - رحمه الله - كانت تلك التي عقّدت في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٨٦م. فطيلة أكثر من خمسين سنةً قضاها ديدات في المحاضرة والمناظرة لم يكن يعرفه إلا بعض المختصين في الأديان، حتى كان العام ١٩٨٦م، حين لجأ إليه بعض الطلاب المسلمين في الولايات المتحدة

(1) قام الأستاذ علي الجوهري مشكوراً بترجمة كلّ مناظرات الشيخ ديدات بجمعه الله بنصوصها الحرفية وأودع كلّ منها في كتابٍ خاصٍ يحمل عنوانها واسمها طرفها.

الأمريكية ليناظر القس الأمريكي التلفزيوني الشهير "جيمي سواجارت". كانت شهرة سواجارت طاغية، فقد وصلت إلى مائة وأربعين دولة، حيث كان الناس في هذه البلدان يستمعون إلى حديثه الأسبوعي مترجماً إلى عددٍ من اللغات، واستطاع أن يحصل على أكثر من مائة وأربعين مليون دولار سنوياً، وكان يُعتبر أكثر المنصّرين نفوذاً في العالم. "وقد حظي سواجارت بسمعةٍ غير طيبةٍ لدى المسلمين؛ فقد كان دائم الهجوم والتناول على القرآن الكريم والرسول، ﷺ، حتى قال في أحد أحاديثه [إنَّ الخطر الذي يهدد الحضارة الغربية الآن ليس هو الشيوعية والاتحاد السوفيتي إنما الإسلام الذي يغزو بلاد الغرب بصورةٍ مذهلة]، وذكر المشاهدين بأن لندن عاصمة فيكتوريا التي كانت تحكم العالم الإسلامي كُله، أصبحت تأوي أنشطه مركزٍ إسلامي في العالم.

أما عن مناظرة سواجارت مع ديدات، فقد أعادت كثيراً من الراحة إلى نفوس المسلمين في أمريكا، بعد الحلق والغيبط الذي اعتمل في نفوسهم من جزاء تناول هذا القس الذي بدا في مناظرته مع ديدات وديعاً لطيفاً هادئاً على غير ما يعرفه الناس؛ إذا اختفت حركاته التليفزيونية أمام الهيبة التي أحاطت بالشيخ أحمد ديدات. وحينئذ انتبه العالم لهذا الرجل المتواضع الذي جاء من جنوب أفريقيا ليتحدّى أشهر مبشّر تليفزيوني، وليقف سواجارت مكتوف الأيدي أمام طلاقة هذا الرجل وحُججه العقلية، لتكون بداية النهاية لهذا القس الذي بدأ يخجو سراجُه مع هذه المناظرة، حتى انطفأ السراج تماماً حين عُرف عن سواجارت تورّطه في قضايا أخلاقية واعترافه بها، فانتهت بذلك أسطورةُ المبشّر الفذ وسقط نهائياً أمام الملايين من مشاهديه"⁽¹⁾.

بعد الدويّ الكبير الذي أحدثته مناظرته مع سواجارت، كان المنصّرون الكبار هم الهدف الأول للشيخ أحمد ديدات، فقد دعاهم للمناظرات التي كانت محطّ انظار العالم، وكان من أشهر خصومه في هذه المناظرات "ستانلي شويرج" راعي الكنيسة الإنجيلية في السويد، والمنصّر الأمريكي "ديفيد كلارك". وفي بعض الأحيان كان المنصّر هو الذي يتحدّى ديدات ويطلب مناظرته؛ مثل القس "أنيس شوروش"، الذي رأى في نفسه من القوة والشجاعة والعلم أن يتحدّى ديدات، حيث شوروش كان يرى أنّ سواجارت وغيره لم يكونوا مؤهلين

(1) ناديا سعد، أحمد ديدات فارس الدعوة وقاهر المنصّرين، ص 5، دراسة منشورة على الإنترنت في موقع www.bnyaan.net وموقع www.defensearab.com.

لمناظرة ديدات، أما هو فكفؤاً له؛ فهو حاصلٌ على الدكتوراه في اللاهوت، ومتخصّصٌ في نقد الدين الإسلامي وإبراز معانيه ومثالبه!

وفي إحدى المناظرات كان الدكتور أنيس شوروش بين الحاضرين ووجه تحدياً لديدات، ودعاه لمناظرته فلبى ديدات دعوته بكل سرور، وعقدت مناظرتان كبيرتان استغرقت إحداهما أكثر من خمس ساعات، وساهمت هي الأخرى في رفع أسهم ديدات شعبياً وإعلامياً وقد اشتُهرَ ديدات في موطنه بتلك المناظرات المكثفة التي كانت تُقام في مدينة "كيب تاون". "كيب تاون" مدينة ذات طبيعة خاصة، فهي تتميز بكثافة سكانية إسلامية عالية، لكنّ أوضاع المسلمين فيها ليست على ما يرام وبالمقابل تتميز بأغلبية قوية ومنظمة جداً من المسيحيين، بالإضافة إلى أنها ذات موقع مهم، ولها ثقلها التجاري والسياسي. وقد كانت مناظراته مع الأسقف "جوسيه ماكدويل" في ديربان عام ١٩٨١م من أشهر مناظراته داخل جنوب أفريقيا، وكان عنوانها "هل صُلب المسيح؟".

ولم يكتف الشيخ ديدات، رحمه الله، بمناظرة الرهبان والقساوسة، فقد بعث برسالة إلى البابا يوحنا بولس الثاني الراحل، يدعوه فيها للحوار العلني، وقد تقدّم معنا القول في دعوة هذا البابا الراحل للحوار مع المسلمين، أكثر من مرّة، وفي أكثر من مناسبة واستجابةً لدعوات البابا المتكررة أرسل الشيخ أحمد ديدات إليه رسالة أعرب فيها عن قبوله لإجراء مثل هذا الحوار في لقاء علنيّ في ميدان القديس بطرس في روما مقرّ البابوية، وفي الوقت والزمان المناسب الذي يختاره البابا.

ولمّا لم يردّ البابا على تلك الرسالة، عاود الشيخ ديدات الكرة، وأرسل ثلاثة خطاباتٍ أخرى وبرقية، وهنا ردّ بابا الفاتيكان مقترحاً إجراء هذا الحوار في سكرتارية الفاتيكان وليس في مكان علنيّ. حينئذٍ ردّ الشيخ ديدات على بابا الفاتيكان برسالة جاء فيها:

"يُسعدنا أنكم تسعون للترتيب لإجراء لقاءٍ معنا، ولكننا نتمسك بأن يكون هذا اللقاء علنياً، كما كان خطابنا المفتوح إليكم، والذي اقترحنا فيه مثل هذا اللقاء، وذلك من أجل البلايين المؤمنة بالمسيحية والإسلام، من أجل الحقيقة وإرضاء الرب، ومع هذا فإنه من الممكن اللقاء معكم حسب رغبتكم في السكرتارية، ولكنّ هناك العديد من المسلمين في جنوب أفريقيا والذين يُصرون على حضور هذا اللقاء، لذلك نرجو إفادتنا عن الإمكانيات

المتاحة في سكرتارية الفاتيكان والخاصة بإسكان هؤلاء، ونظراً لوجود آلاف آخرين ممن يرغبون في حضور هذا الحوار، فإننا نطلب أيضاً تصريحاً بتصوير اللقاء بأجهزة الفيديو حتى تصل مناقشتنا إلى الملايين الذين يودون الاستفادة من الحوار"⁽¹⁾.

وبعد أكثر من شهرين من الانتظار تم إرسال برقيتين أخيرين، إحداها إلى سكرتارية الفاتيكان والأخرى إلى البابا ذاته، وبعد شهر آخر، تم إرسال برقيتين أخيرين دون جدوى!!.

ثانياً: أبرز مؤلفاته

زادت مؤلفات الشيخ ديدات، رحمه الله، على العشرين. تخصص معظمها في نقد معتقدات النصارى وبيان التناقضات في الكتاب المقدس. ويعيننا في هذه الدراسة، وبالدرجة الأولى، الوقوف على أبرز مؤلفاته التي ردّ فيها على مطاعنهم في الإسلام ونبوة محمد ﷺ. فقد خطّ الشيخ، رحمه الله، كتاب "محمد ﷺ أعظم عظماء العالم" وكان قد افتتحه بكلام الأستاذ مايكل هارت صاحب كتاب "The 100: A ranking of the most influential persons in history" والذي تُرجم إلى العربية تحت عنوان المئة الأوائل، حيث صنّف فيه المؤلف هارت رسولَ الله ﷺ على أنه أكثر الأشخاص تأثيراً في العالم وقال:⁽²⁾

"يجوز أن يُدهش اختياري محمداً ﷺ ليكون على رأس قائمة أكثر الأشخاص تأثيراً في العالم بغضّ القراء، وربما كان ذلك عُزْزةً للاستفسار من آخرين، ولكنه ﷺ كان هو الرجل الوحيد في التاريخ الذي تحقق له النجاح الكامل - كل الكمال - على المستوى الديني وعلى المستوى الدنيوي. لقد وضع مُحَمَّدٌ ﷺ أسس واحِدٍ من أعظم الأديان في العالم، وقام بنشرها استناداً إلى مصادرٍ جدّ ضئيلة، وأصبح أيضاً قائداً سياسياً عظيم التأثير. واليوم، بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً بعد وفاته لا يزال تأثيره قوياً واسع الانتشار".

(1) المرجع السابق نفسه، ص 6.

(2) أحمد ديدات ومايكل هارت، محمد ﷺ أعظم عظماء العالم، ترجمة علي الجوهري، ص 5، مكتبة القرآن.

لقد تقصّد ديدات، رحمه الله، أن يبدأ كتابه هذا بعبارة مايكل هارت السابقة وهو يدرك تماماً أنّ كتابه هذا موجّه لأهل الغرب المسيحي بالدرجة الأولى، ثم أتبع ذلك بذكر أهم أحداث ووقائع السيرة النبوية الشريفة واقفاً عندها وقفه المحلل الواعي الذي يدرك أنّ كتابه هذا سيكون باباً من أبواب تعرف الغربيين عن قرب على شخصيّة وسيرة الحبيب المصطفى ﷺ فركّز على أبرز الجوانب الأخلاقية والإنسانية الكريمة في حياته، عليه الصلاة والسلام، واختتم كتابه بالتركيز على حقيقة كون الإسلام أسرع الأديان نمواً وانتشاراً في واقعنا المعاصر، ليفهم القارئ أنّ أخلاقه وإنسانيته ومعاملته، عليه السلام، إنّما كانت مقدّمة هامةً وسبباً رئيسياً لهذا النمو والانتشار للإسلام اليوم.

أمّا في كتابه "ماذا يقول الكتاب المقدّس عن محمد ﷺ" فقد ظهرت عبقرية ديدات، يرحمه الله، وهو يسوق النصّ تلو النصّ من الكتاب المقدّس ويفصّل القول في شرحها وبشاراتها بمحمد ﷺ ليخدم بذلك عنوان الكتاب والتعليق الصغير الذي وضعه تحته على الغلاف فقال (محمد ﷺ مذكور بالاسم في نسخ الكتاب المقدّس الذي بين أيدينا).

ولئن كان مجهود الشيخ ديدات، رحمه الله، واضحاً في هذين الكتابين في التعريف بنبوّته عليه السلام إلا أنّ مجهوده الأبرز والأوضح في هذا المجال كان الردّ على كتاب "الآيات الشيطانية"^(١)، لمؤلفه المرتدّ سلمان رشدي. وهذا الكتاب ومؤلفه يستحقان من دراستنا وقفه غير ذات عجمالّة، وذلك لخطورة مضمونه وللآثار التي نجمت عن نشره في العالم وقد أورد ديدات، رحمه الله، الردّ الشافي على مضمون كتاب سلمان رشدي في كتاب سّماه "كيف خدع سلمان رشدي الغرب". وهو الكتاب الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ علي الجوهري وأضاف على عنوانه عبارة "شيطانية الآيات الشيطانية". وسنورد في مبحث الردود على شبهات ومطاعن الرهبان والمستشرقين الردّ الكامل على قصّة الغرائق والتي تُعتبر واحدة من أبرز القصص المتهاكمة التي استند عليها سلمان رشدي في كتابه السابق ... وتتلخّص قصّة

(١) آيات شيطانية كتاب من تأليف الكاتب البريطاني من أصل هندي سلمان رشدي. صدر في لندن في ٢٦ سبتمبر ١٩٨٨. بعد تسعة أيام من إصدار هذا الكتاب منعت الهند سلمان رشدي من دخول بلاده وتلقّت دار النشر التي طبعت الكتاب الآلاف من رسائل التهديد والامتحانات الطفوية المطالبة بسحب الكتاب من دور بيع الكتب. قامت بنغلاديش والسودان وجنوب أفريقيا وكينيا وسريلانكا وتايلاند وجمهورية تنزانيا المتحدة وإندونيسيا وفنزويلا وسنغافورة بمنع الكتاب وخرجت مظاهرات تنديد بالكتاب في إسلام آباد ولندن وطهران ويومي ودا واسطنبول والخرطوم ونيويورك. حصلت خلال عمليات الاحتجاج هذه حادثتان لفتتا أنظار العالم وهي حادثة حرق أعداد كبيرة من الكتاب في برادفورد في المملكة المتحدة في ١٤ يناير ١٩٨٩ والحادثة الثانية هي صدور فتوى من المحيني في ١٤ فبراير ١٩٨٩ بإبادة دم سلمان رشدي. وهاتان الحادثتان لفتتا نظر وسائل الإعلام الغربية بشدة.

الآيات الشيطانية⁽¹⁾ في الحوارات التي كانت تتعقدُ دوماً بين الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية وهما صلاح الدين جمجة، الذي هو هنديّ عاش منذ صغره في المملكة المتحدة وانسجم مع المجتمع الغربي وتكرّر لأصوله الهندية، وجبرائيل فريشته الذي هو ممثلٌ هنديّ متخصصٌ بالأفلام الدينية وقد فقد إيمانه بالدين بعد إصابته بمرضٍ خطيرٍ حيث لم تنفعه دعواته شيئاً للشفاء، حيث يجلس الاثنان على مقعدين متجاورين في الطائرة المسافرة من بومباي إلى لندن، ولكنّ الطائرة تنفجر وتسقط نتيجةً لعملٍ تخريبيٍّ من قِبَلِ جماعاتٍ متطرفة، وأثناء سقوط هذين الشخصين تحصلُ تغييراتٌ في هبتهما؛ فيتحول صلاح الدين جمجة إلى مخلوقٍ شبيهٍ بالشيطان، وجبرائيل فريشته إلى مخلوقٍ شبيهٍ بالملاك. وفي أحد أحلام جبرائيل فريشته يرجع بنا سلمان رشدي إلى فترة صلح الحديبية ويبدأ فصلاً جديداً من الرواية بعنوان (ماهوند)، وهذا الفصل من الرواية جُرْحَتْ فيه مشاعرُ المسلمين بصورةٍ عميقة؛ حيث مرَّ معنا في الفصل الأول من هذه الدراسة المدلولات التي كانت تحملها تسمية رسول الله ﷺ بـ (ماهوند) بدلاً من محمد ﷺ. وإضافةً لهذه الإساءة القبيحة لشخصه، عليه السلام، نرى أنّ هذا المرتدُّ رشدي قد ذكّر في هذا الفصل من هذه الرواية قصةً قدرّةً تتحدّث عن وجود دارٍ للدعارة في مدينةٍ جاهليةٍ، كان يقصدُ بها مكة المكرمة، وأنّ دار الدعارة تلك قد ضمت بين جنباتها وغرفها اثنتي عشرة عاهرة، وكانت الأسماء التي سَمَّاهن بها تتطابق مع أسماء زوجات رسول الله ﷺ!!! إضافةً لاحتواء هذا الفصل من هذه الرواية على وصف تفاصيل الممارسة الجنسية التي كان ماهوند يقوم بها معهن!!! لقد أثارت هذه الرواية القذرُ كلُّ ما فيها حفيظة المسلمين في العالم كلّ وأدت إلى خروج المظاهرات ووقوع المصادمات التي أودت بحياة أربعين مُسْلِماً آنذاك، بما استدعى علماء الأمة للنهوض والردّ، وكان أبرز الناهضين على الإطلاق الشيخ أحمد ديدات، رحمه الله، الذي توجّه في خريف عام ١٩٨٩م إلى لندن وألقى محاضرةً بهذا الخصوص في أكبر قاعة بها للمحاضرات، (قاعة ألبرت الملكية) واستأجر الصالة لمدة خمس ساعاتٍ على نفقة المركز الإسلامي العالمي للدعوة الذي أسّسه وكان يديره.

(1) انظر:

أ. عصام بن أحمد، هل مارس رشدي الجنس مع ملكة بريطانيا، مقالة منشورة على شبكة الإنترنت على موقع www.dedaatwordparess.com
ب. عقيل عبد الله الأزرق، تكريم الغرب لرشدي مكافأة له أم احتضار للمسلمين؟ مقالة منشورة على شبكة النبا المعلوماتية www.annaba.org بتاريخ ٢٥/٦/٢٠٠٧م.
ج. الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مادة سلمان رشدي.

"لكنَّ الحكومة البريطانية لم تسمح للشيخ ديدات سوى بأربع ساعات، وكذلك لم توافق الحكومة البريطانية على أن يكون موضوع المحاضرة (كيف خدع سلمان رشدي الغرب الإعلانات إلى (تحدُّ لعمالة الأدب البريطاني) وقد حضر هذه المحاضرة أكثر من ستة آلاف شخص من جميع الجنسيات العربية والأوروبية والآسيوية، إلا أنه قد تمَّ منع الأطفال من الدخول مع تحذير النساء من الحضور مسبقاً أنَّ في المحاضرة ما سيخدش الحياء الذي يسببه استدلال المحاضرة مباشرة من رواية (آيات شيطانية) التي استعمل فيها سلمان رشدي أفدَرَ الألفاظ، إذ لا توجد أيُّه صفحة من روايته لا تخلو من الألفاظ البذيئة المقرَّنة والقذرة. وليس ذلك فقط بل تكلم رشدي عن السُّود بشكل مقزِّرٍ وعنصريٍّ يدلُّ على أفكاره التي تدافع عنها دور النشر التي نشرت روايته"⁽¹⁾.

رحم الله الشيخ أحمد ديدات، فقد تكاملت في شخصيته كلُّ العوامل التي نرجو الله وجودها في العلماء والأساتذة الذين يتخصَّصون في المجال الذي برع وتخصَّص فيه. لقد استفاد، رحمه الله، من وسائل الاتصال المعاصرة في نشر الدعوة وإيصال الأفكار والمعتقدات وكان يسافر إلى دول الغرب والقارة الأمريكية ويناظر فيها كبار القساوسة والرهبان على اختلاف مللهم وطوائفهم، فنقل المعركة إلى أرض الغرب وحاربهم بسلاحهم وناظرهم بلقمتهم الإنجليزية التي كان مُتقناً لها تمام الإتيان، بعكس حال الكثيرين من العلماء القداماء والمعاصرين الذين ردّوا على مؤلِّفات الرهبان ومطاعنهم بعد ترجمة أعمالهم إلى العربية، وبطبيعة الحال فإنَّ هذا لا يقلل من قدرهم ومقدار جهودهم لا، ولكنَّ حاججة الخصم بلغت أوقع في التمس وأكثُر جاذبيَّة وتأثيراً في المستمعين. ينبغي أن لا يغفل علماء المسلمين اليوم عن أهمية إتقان اللغة الإنجليزية والتي هي اللغة الأولى في عالمنا اليوم، لا لأنها لغة الأعداء كما يُقال أحياناً، ولكن لأنها وسيلة من أبرز وسائل التخاطب والتواصل بين أهل الحضارات والأديان المختلفة، ولأنَّ الكثيرين من الذين يعتنقون الإسلام من أبناء الغرب لا يعرفون لغة سواها.

(1) عصام بن أحمد [م. س.].

المبحث الثاني

أبرز جهود العلماء المعاصرين في ردّ الشبهات عن الإسلام ونبوة محمد ﷺ
والتصدّي للمطاعن فيها
أولاً: الأستاذ الدكتور محمد عمارة

لا يحتاج محمد عمارة^(١) إلى مقدّمةٍ لنعرفَ فيها بشخصيّته ومؤلفاته؛ فهو من العلماء الأفاضل ذوي الوزن العلمي الثقيل المُعتَبَر في المشرق والمغرب. وقد كانت له صولاتٌ وجولاتٌ مع الكنيسة الغربية وأتباعها ورجالها، وذلك من خلال عشرات المؤتمرات والندوات التي أُقيمت تحت مُسمّى "حوار الأديان" و"حوار الحضارات" و"ندوات التقريب بين الأديان"، إلى أن اعتزل ذلك أخيراً، في أواخر القرن الماضي وسجّل تجربته في هذا الموضوع في المقدّمة التي خطّها لكتاب "مازق المسيحيّة والعلمانيّة في أوروبا، تجربة ألمانيّة"^(٢) الذي ألفه القس الدكتور "جوتفرايد كوزنلن". ومن المعروف أنّ عمارة من المؤلفين ذوي القلم السيال، ويشهدُ لذلك مؤلفاته الغزيرة التي زادت عن مائة وأربعين وثمانين. وأكثر ما يهمننا في مؤلفات الأستاذ عمارة كتابه الأخير عن الفاتيكان والذي حمل عنوان "الفاتيكان والإسلام، أهي حاققة؟ ... أم عداة له تاريخ؟؟" والذي جاء ردّاً صريحاً وواضحاً وجريئاً على محاضرة البابا بنديكطيوس السادس عشر التي ألقاها في جامعة ريجنسبورغ بألمانيا بتاريخ ١٢/٩/٢٠٠٦م وقد تقدّم معنا إيراد النصّ الكامل لهذه المحاضرة وتعليقات الأستاذ عمارة عليها في كتابه

(١) محمد عمارة مصطلقى عمارة، مفكر إسلامي، مؤلّف ومحقّق وعضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، القاهرة. ولد بريف مصر مركز قلين - كفر الشيخ - في مصر في ١٩٣١/١٢/٨، حفظ القرآن وتجوّده وهو في كتاب التوبة. بدأت تنفتح وتعمق اهتماماته الوطنية والعربية وهو صغير. وكان أول مقال نشرته له صحيفة (مصر الفتاة) بعنوان (جماد عن فلسطين). درس الدكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة عام ١٩٧٥م والماجستير في العلوم الإسلامية تخصص فلسفة إسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة عام ١٩٧٠م والكالوريوس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة عام ١٩٦٥م. حصل على العديد من الجوائز والأوسمة والشهادات التقديرية والبروق، منها "جائزة جمعية أصدقاء الكتاب، لبنان سنة ١٩٧٢م"، و"جائزة النولة التشجيعية بمصر سنة ١٩٧٦م" وسام التيار الفكري الإسلامي القائد المؤتس سنة ١٩٩٨م.

اسهم في العديد من الموريات الفكرية المتخصصة، وشارك في العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية، وقال عضوية عدد من المؤسسات الفكرية والبحية منها المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، والمعهد العالي للفكر الإسلامي. وقد اتسمت كتابات الدكتور عمارة وأبحاثه التي أشرى بها المكتبة العربية والتي وصلت إلى ما يقارب (٢٠٠) مؤلفاً بوجهات نظرٍ تجديدية وإحيائية، وبالإسهام في المشكلات الفكرية، ومحاولة تقديم مشروع حضاري نهضوي للأمة العربية والإسلامية في المرحلة التي تعيش فيها.

(٢) كوزنلن، جوتفرايد، مازق المسيحيّة والعلمانيّة في أوروبا، تجربة ألمانيّة، المقدّمة، ط١، ١٩٩٩، دار نهضة مصر، القاهرة. وأصل هذا الكتاب محاضرة ألقاها في الفترة ٧ - ٩/٤/١٩٩٧م في عمان، وقد كان المؤلف آنذاك يعمل مدرّساً لمادة اللاهوت والأخلاقيات الاجتماعية في جامعة القوات المسلحة الألمانية بمدينة ميونخ.

السابق، والذي تم الاستشهاد به مرّاتٍ عديدةً في المبحث العاشر من الفصل الأول في هذه الدراسة..

يتكوّن كتاب الأستاذ عمارة السابق من مائةٍ وثلاثٍ وأربعين صفحةً شاملةً للفهارس. وقد قام فيه بالتحليل الكامل والردّ الشافي على محاضرة البابا بنديكيتوس السالف ذكرها وتناول فيه خمسة محاور رئيسية هي:

١. افتراء البابا على ربّ العالمين سبحانه وتعالى، والردّ على ذلك.

٢. تمّ افتراءه على رسول الله ﷺ، والردّ على ذلك.

٣. ثمّ خلطه بين الجهاد وبين الحرب المقدّسة والردّ على ذلك.

٤. ثمّ افتراءه على القرآن الكريم والردّ على ذلك.

وكان المحور الأول الذي انطلق منه الاستاذ عمارة ليراده لبعض الافتراءات والتحريضات التي قام بها بعض البابوات السابقين تجاه الإسلام وأهله. أثبتت عمارة في هذا الكتاب بالوثيقة والدليل أنّ إساءة بابا الفاتيكان بنديكيتوس للإسلام لم تكن حماقة ولا صدفةً ولا خطأً غير مقصود، بل إنّها كانت حلقةً ضمن سلسلةٍ من الإساءات الفاتيكانية للإسلام وأهله. صحیح أنّ الكثير من الردود صيغت للردّ على محاضرة البابا بنديكيتوس السابقة، إلّا أنّ أيّاً منها لم يرق للمستوى الذي قدّمه الأستاذ عمارة في هذا الكتاب. لم يكن مؤلّفه السابق عن الفاتيكان والإسلام أول كتابٍ يدافع به عن هذا الدين ويندّرأ عنه الشبهات والمطاعن، فقد كتب قبل ذلك كتاب "في فقه المواجّهة بين الغرب والإسلام" وكان قد ضمّنه موقفه من حوار الأديان بعد تجربته المريرة فيه وأفرد له مبحثاً سماه "حوار الأديان ... هل هو حوار الطرشان؟!"^(١) وفي هذا الكتاب تصدّى الأستاذ عمارة لتفنيد وتوضيح الردّ على كثير من القضايا التي شكّلت قنواتٍ معاصرةً للهجوم الحضاري والثقافي على الإسلام ورسوله الكريم ﷺ ومنها "نظرية صدام الحضارات" ومنها "الحرب الثقافية على الإسلام" ومنها "صورة الإسلام في التراث الغربي".

(١) عمارة، محمد، في فقه المواجّهة بين الغرب والإسلام، ص ١٥٦ - ١٦٧، ط٢، ٢٠٠٧، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.

ثانياً: الأستاذة الدكتورة زينب عبد العزيز

على خلاف كل العلماء والأعلام والأساتذة القداماء والمعاصرين الذين عرّفت بهم هذه الدراسة لم تكن زينب عبد العزيز⁽¹⁾ من المتخصصين في الشريعة أو علوم الدين، ولم تكن من الذين درسوا الفلسفة الإسلامية أو الذين برعوا في علم الكلام. فهي بالرغم من تخصصها في اللغة الفرنسية ومن ثم في الحضارة وتاريخ الفن، وبالرغم من عملها كأستاذة للأدب الفرنسي في الجامعات المصرية إلا أنها قدمت فيما يتعلق بموضوع الكنيسة والإسلام مؤلفات على درجة عالية من الأهمية والإبداع، وقد كان زوجها لطف الطنبولي، رحمه الله تعالى، وراء تشجيعها لدراسة كل ما كُتِبَ عن الإسلام باللغة الفرنسية.

برزت الأستاذة زينب عبد العزيز في العديد من المؤتمرات والمحافل الدولية. وكان لها فيما يتعلق بتاريخ الكنيسة وحاضرها وبتعاملها مع الإسلام والمسلمين صولاتٌ وجولاتٌ لا يقدر عليها إلا الشديداً المتمكّن من الفرسان، الذين نذروا أنفسهم للنود عن هذا الدين وسُبعة الحبيب المصطفى ﷺ. ولو ذكرنا من مآثر الأستاذة زينب فقط كونها صاحبة أحدث ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية لكفاها ذلك فخراً، كيف لا وهي الترجمة التي كانت ثمرة تفرغ تامٍّ وجهد متواصلٍ "دام ثمانى سنواتٍ، بواقع خمسة عشر ساعة عملٍ يومياً حتى تمت"⁽²⁾، فشفت بذلك صدر شيخ الأزهر السابق جاد الحق علي جاد الحق، رحمه الله، ومن بعده صدور كل المسلمين بما كان يتلجلج في صدورهم تجاه دراسة المستشرق الفرنسي "جاك بيرك" حول القرآن الكريم وما ألحقه بها من ترجمة لمعاني القرآن الكريم للغة الفرنسية. لقد استدعت اللجنة التي ألفتها جاد الحق، رحمه الله، لحصر الأخطاء الواردة في ترجمة جاك بيرك ووضع بيان بها مع التصويب، استدعت اللجنة الأستاذة زينب التي كانت خير سنيدي وعونٍ، وخرج الجميع بنتيجة مفادها: "إنّ بيرك جاهلٌ باللغة العربية ومغزاهُ ويتعمّدُ الإساءة إلى

(1) زينب مصطفى عبد العزيز، ولدت في مدينة الإسكندرية في التاسع عشر من شهر كانون الثاني عام 1935م حصلت على درجة البكالوريوس في الأدب الفرنسي وعلى شهادتي الماجستير والدكتوراه في الحضارة وتاريخ الفن من كلية الآداب بجامعة القاهرة في الأعوام 1962، 1967، 1974. لها فيما يتعلق بالإسلام والدراسات الإسلامية ثمانية عشر مؤلفاً أبرزها سلسلة في صليبية الغرب وحضارته، وترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية.

قامت بترجمة عشرات المؤلفات من الفرنسية إلى العربية ولها ثمانية أبحاث مطبوعة ومنشورة باللغة الفرنسية، شاركت في عشرات المؤتمرات التي قدمت خلالها أبحاثاً متنوعة كان من أبرزها مؤتمر التصريف بالإسلام عام 2003م في باريس والمؤتمر العام السابع للدعوة الإسلامية في روما عام 2004م.

(2) زينب عبد العزيز وحوار حول ترجمات القرآن، حوار منشور على موقع الشبكة الإسلامية بالقاهرة www.islamweb.net بتاريخ 2002/9/8.

الإسلام والمسلمين، وأنه يفتقد إلى الأمانة العلمية التي يجب أن يتحلّى بها عند تناول نصّ القرآن الكريم بالبحث والدراسة⁽¹⁾. وقد كان ذلك حافزاً لوضعها فيما بعد لترجمتها التي حملت اسمها⁽²⁾. قول: لو كانت هذه الترجمة الجديدة عملها الوحيد لكفاها ذلك فخراً وعزّاً ورفعةً، ولكنها أرادت المزيد فاجتهدت في الدراسة والبحث والتأليف وأبدعت في ردّ شبهات خصوم الإسلام عنه وعن الرسول الكريم ﷺ، فأخرجت سلسلة "صليبيّة الغرب وحضارته". وكان من أبرز أجزاء هذه السلسلة كتاب (تصوير العالم، مناقشة لخطاب البابا يوحنا بولس الثاني "روعة الحقيقة"). وكتاب (حرب صليبيّة بكلّ المقاييس) وكتاب (محاصرة وإبادة، موقف الغرب من الإسلام). وقد هدفت هذه السلسلة إلى توضيح أبعاد التعصّب الكنسيّ وحرية ضدّ الإسلام والمسلمين في عصور متواليّة، مع ذكر المؤلّفة للشواهد على ذلك بالوثيقة والدليل، قديماً وحديثاً. كما هدفت إلى نقد الكثير من العقائد الكنسيّة كالتثليث والأسرار السبعة، وهدفت إلى إبراز التناقضات العديدة بين الأنجيل، كما أفردت صفحات كثيرة لتوضيح حقيقة النظرة الغربيّة للإسلام وللرسول محمد ﷺ. ومع أنّ الأستاذة زينب أخرجت ما يزيد على ثمانية عشر مؤلّفاً يتعلق بالإسلام إلّا أنّ جديد إنتاجها من دراساتٍ وبحوثٍ ومقالاتٍ متوافرّ فقط على شبكة الإنترنت وبالذات على موقعها الخاص⁽³⁾.

يُعتبرُ موقع الأستاذة زينب من أهمّ المواقع الإلكترونيّة الموجودة على شبكة الإنترنت في العالم الإسلامي، وذلك راجعاً إلى أهميّة الموادّ والموضوعات المعروضة فيه، وهو يحتوي على العديد من النوافذ منها نافذة "المؤسسة الكنسيّة" ونافذة "الأنجيل" ونافذة "مخطوطات قرآن" ونافذة "الفاتيكان" ونافذة "الحوار بين الأديان". وإنّ أبرز وأهمّ الدراسات والمقالات الجديدة في هذا الموقع، فيما يتعلّق بموضوع دراستنا هذه ما يلي:

- وثيقة هبة قسطنطين.
- البوابات والإسلام من يوحنا العاشر إلى بنديكتيوس.
- شفرة دافنشي ومحام التفتيش والمؤسسة الكنسيّة.
- حوار الأديان في هيئة الأمم.

(1) المرجع السابق نفسه.

(2) قامت جمعية الدعوة الإسلاميّة العالمية، ومقرها طرابلس في ليبيا بطبعها تحت عنوان (القرآن الكريم وترجمة معانيه إلى اللغة الفرنسيّة).

(3) موقع الدكتورّة زينب عبد العزيز www.dr-z-abdelaziz.com.

- خطاب مفتوح إلى البابا بنديكتيوس السادس عشر حول محاضرة راتسبون.
- المتناقضات في الأناجيل.
- طوفان قادم.
- التبشير إجباري بأمر البابا.
- رسالة الفادي.
- وثيقة "في زماننا هذا" وعلاقات الكنيسة بالإسلام.
- توجيهات من أجل حوار بين المسيحيين والمسلمين، للكاردنال موريللا.
- اعترافات القس جيروم بتحريف الكتاب المقدس.
- التنصير عالمٌ خطيرٌ لا نرى منه إلا القليل.
- المسلمون ومُستنقع الفاتيكان.
- أفيقوا أيها المسلمون.
- خطاب أُل ١٣٨ والفاتيكان.

إنَّ كلَّ قارئٍ لهذه الدراسة لمنصوحٌ له أن يقرأ هذه المقالات والدراسات، ففيها من المفاجآت ما فيها، وفيها من الردود الشافية لصدور المؤمنين ما فيها. جزى الله، الأستاذة زينب خير الجزاء وأكرمها، فإننا نرى فيها برهاناً على أنموذج المرأة المسلمة، الزوجة والأم والأستاذة والداعية والمفكرة والمجاهدة بقلمها ولسانها، التي لا تنفك تدعو أبناء الأمة للنهوض وللتعريف الصحيح بهذا الدين، وللذود عن الرسول المصطفى ﷺ وتدعو المؤسسات والمعاهد والجامعات المسلمة للقيام بدورها في هذا المجال دون تردد وتقول^(١):

والأمر ليس مرفوعاً إلى الإمام الأكبر للأزهر الشريف، وإلى خادم الحرمين الشريفين، وإلى كافة علماء المسلمين فحسب، بل إلى أمة محمد، صلوات الله عليه، لذلك أكرُّ الصيحة: أفيقوا أيها المسلمون، أيها كنتم وأيا كان مستواكم العلمي أو المعرفي، أفيقوا للدفاع عن الدين قبل أن تتفاقم الأحداث!. فالهجمة الشرسة على الإسلام باتت من التَّحَّة والغطرسة المعلنة، بوضوح لا ريب فيه، بحيث يقتضي الردُّ عليها أن يكون قطعاً حاسماً في الدفاع عنه،

(١) زينب عبد العزيز، أفيقوا أيها المسلمون، مقالة منشورة على موقعها www.dr-z-abdelaziz.com بتاريخ ١٧/٧/٢٠٠٩م.

ليضع هؤلاء القوم بتعصّبهم البغيض، والقائم ببنائهم على تلّ من الأكاذيب والتّصوص المزورة، المنسوجة عبر القرون، في المكان الذي يستحقّونه".

ولكي يقف القارئ على مدى حدّة وقوّة عبارات الأستاذة زينب وعدم خشيتها في الحقّ لومة لائم، فإننا نقتطف المقطع الختاميّ من مقالها الشهيرة المعنونة "خطاب آل ١٣٨ والفاتيكان"^(١) والتي ردّت فيها على الكثير ممّا قاله البابا بنديكيتوس السادس عشر عن الإسلام ورسوله الكريم ﷺ ومن ذلك:

وسؤالٌ أتوجّه به إلى علماء الأزهر ومؤسّساته وإلى كلّ المؤسسات الإسلامية في العالم الإسلامي: أين أتم من كلّ ذلك الذي يدور في حقّ الإسلام؟ أين أتم حتّى من الذين يفتنون إليكم اسماً ويشاركون في مثل هذه المحافل الإجرامية في حقّ الدين؟! ألم يكن الوقت أن تنفضوا عن كاهلكم ذلك التّورّ السلبيّ غير الكريم وتهبوا للدفاع عن الإسلام؟... أليس من الأكرم أن تشرحو للعالم الغربيّ المسيحيّ المتعصب أسباب نزول آيات الجهاد الحربيّ في القرآن، بكل اللغات، بدلاً من ذلك الصمت الغريب؟! وكلمة أخيرة أتوجّه بها للبابا بنديكيت السادس عشر، باسمي وباسم كلّ الأئمّة في أمة محمّد، عليه صلوات الله، الذين أعرف يقيناً أنهم لن يرضوا بذلك الهوان: إنّ القرآن الكريم، الذي تسعى كلّ تلك المحاولات الخبيثة لتغييره وتبديله، هو النصّ الدينيّ المتزلّ الوحيد الذي لم يعرف التحريف، وكلّها حقائق تعرفونها أكثر منّي، بدلاً من القيام بمزيد من الإسقاطات على الإسلام، وإشعال الفتن والضّغائن بين الشعوب بالإصرار على تنصير العالم، أعيدوا النظر في موقفكم من التسامح، الذي طالبكم به عصر التنوير، وأوضح لكم في العديد من النصوص أن الإسلام لا يعرف الأسرار والغياب، وقائمٌ على الاستقامة وأمانة علاقة الإنسان بربه.

... لا يا سيادة البابا المجلّ: نحن لا نعبّد نفس الإله، وهذا الخطاب المشبوه لا يمثل إجماع المسلمين، والإرهاب ليس من الإسلام وإنّما من الضّغوط التي تُمارَس على المسلمين لاقتلاعهم من دينهم الذي أتى مُصوّباً لكلّ ما قامت به مؤسّستكم على مرّ التاريخ: نحن نعبّد الله الذي ليس كمثله شيء، الله خالق السموات والأرض والكون بأبعاده وكل ما فيه، ونؤمن بالرسالتين التوحيديتين قبل تحريفهما والحيايد عن تعاليمهما، ونؤمن بجميع الرسل

(١) زينب عبد العزيز، خطاب آل ١٣٨ والفاتيكان، مقالة منشورة على موقعها www.dr-z-abeldelaziz.com بتاريخ ٢٧/١٠/٢٠٠٨.

والأنبياء ومنهم عيسى عليه السلام، ونشهد بأن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، ونؤمن
إيماناً يقينياً وقاطعاً بكامل سورة الإخلاص القائلة: " قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ
يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)".

جزى الله، هذه الخنساء المعاصرة خيرَ الجزاء فقد أجادت العرض والنقد، وكانت
كلماتها الحزوة الصريحة انعكاساً واضحاً لاعتزازها بهذا الدين العظيم وبحضارته التي غيرت وجه
العالم. لم تقبل زينب على نفسها أن تخطّ كتاباً أو رسالة تفيض بالخوف من جرح مشاعر
رجال الفاتيكان أو تمتلئ بالتذلل لهم بغية الحصول على فتات الرضا كما فعل بعض الذين
صاغوا ردوداً وتعليقاتٍ خجلةً على محاضرة البابا، وكأنهم كتبوها على عجالة أو استحياءٍ خشيةً
أن يحلّ بهم الغضبُ والسخطُ!!! قالت زينب ما عجزت بعض الهيئات المسلمة عن قوله،
وهي واحدةٌ وهم عشرات!!!.

ثالثاً: الدكتور إبراهيم عوض

لقد سخرَ الله تعالى هذا الرجلَ الموسوعيَ المتبصّرَ واسعَ القراءةَ والاطّلاعَ ليكونَ درعاً من الدروع التي تكسو صدر الإسلام وتردّ عنه رماح وسهام الطاعنين المُفرضين. وقد قدّم الدكتور إبراهيم^(١)، جزاه الله كلّ خيرٍ، مجموعةً من الكتب الهامة جدّاً التي تخصّصت في الردّ على المطاعن الكنسيّة الغربيّة والاستشراقية في الإسلام ونبوّه محمد ﷺ، وكان من أكثر العلماء الذي وافقت أفكار هذه الدراسة أفكارهم، والتقت معهم في العديد من النقاط.

لقد خطّ هذا الأستاذ الكبير مجموعةً من الكتب والبحوث التي زاد فيها عن الإسلام ونبوّه الحبيب المصطفى ﷺ فقد كتب كتاباً بعنوان "هل أسس محمد دينه على الوثنيّة؟!؟" ردّ فيه على شبهات وسخافات المدعو "سام شمعون". كما ألّف كتاباً بعنوان "لكنّ محمداً لا يواكي له" ردّ فيه على شبهات المدعو خليل عبد الكريم صاحب كتاب "فترة التكوين في حياة الصادق الأمين". كما ألّف كتاباً هاماً تصدّى فيه لبعض المستشرقين الذين سبق وأن ذكرناهم في دراستنا هذه مثل برنارد لويس وصاموئيل هنتنغتون ودانيال بايس وعنون هذا الكتاب بـ "المستشرقون الجدد، دانيال بايس وبقية أفراد العصاة". عرض فيه أبرز أفكارهم تجاه الإسلام ثمّ قام بتفنيدها والردّ عليها بالتفصيل. ولعلّ أبرز ما يخدم دراستنا هذه من مؤلفات هذا الأستاذ الكبير ثلاثٌ هي التالية:

أولاً: كتاب "مصدر القرآن، دراسة لشبهات المستشرقين والمبشّرين حول الوحي المحمدي"^(٢).

(١) ولد الدكتور إبراهيم عوض في قرية كاتمة الغابة مركز بسون بمحافظة الغربية في مصر عام ١٩٤٨م في أسرة تشغلت بالتجارة. تعلّم في كتاب القرية حيث أمّ حفظ القرآن في الثامنة من عمره، ثم التحق في الثانية عشرة تقريباً بالمعهد الأحدي الأزهري في طنطا. حصل على درجة البكالوريوس اللغة العربية وآدابها من كلية الآداب بجامعة القاهرة التي تخرج منها عام ١٩٧٠م، وكان ترتيبه الأول على الدفعة، إذ كان الوحيد الذي حصل على تقدير "جيد جداً مع مرتبة الشرف الثانية".

وحيث أعلنت آداب عين فمس عن حاجتها إلى معيد في قسم اللغة العربية وآدابها تخدم لشغل هذه الوظيفة ضمن المتضمين، فكانت من نصيبه. وبعدها حصل على درجة الماجستير من تلك الكلية في الأدب العربي الحديث عام ١٩٧٤م، ثم سافر في بعثته إلى بريطانيا عام ١٩٧٦م لمواصلة دراساته العليا في جامعة أوكسفورد، وعاد سنة ١٩٨٢م بعد أن حصل على درجة الدكتوراه في النقد الأدبي. وهو الآن أستاذ في قسم الكلية، ويدرس للطلاب مقررات الأدب العربي والنقد الأدبي والدراسات الإسلامية والترجمة من الإنجليزية، ويشرف على طلاب الماجستير والدكتوراه. وهو متزوج ولديه ابن وبنتان، وقدنشأ بيم الأبين، إذ ماتت أمه وهو في السادسة، ولحق بها أبوه بعد ذلك بثلاثة أعوام. وله من الكتب أكثر من مائة كتاب ما بين كتبٍ وريّةٍ وكتبٍ إلكترونية منشورة على الإنترنت.

(٢) نشرت هذا الكتاب مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة عام ١٩٩٧م، وهو يقع في ثلاثمائة وثلاثٍ وأربعين صفحة من القطع المتوسط.

وهو كتابٌ يبيّن بالأسلوب العلمي أنّ الدراسة المدققة لشخصية الرسول وشخصية القرآن لا بدّ أن تؤديّ إلى الإيمان الجازم بأنّ ذلك الكتاب يستحيل أن يكون من نتاج عقل محمد ومشاعره أو أيّ إنسانٍ آخر، وإنّما هو وحيّ إلهيٌّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّ الرجل الذي جاء به لا يمكن أن يكون إلا نبيّاً رسولاً.

ويتكوّن هذا الكتاب من باين أما الباب الأول فقد خصّص لدراسة شخصية الرسول عليه الصلاة والسلام، وأما الباب الثاني فقد خصّص لدراسة المحتوى القرآني وروحه. وقد قسّم الباب الأول بدوره إلى ثلاثة فصولٍ نوقشت فيها الشبهات التي يفسّرُ بها المستشرقون والمبشّرون المصدرَ الذي جاء منه القرآن. وقد زُيّت هذه الشبهات ترتيباً منطقيّاً بحيث أنه عندما يفرغ البارس من مناقشة أولها ويتبيّن أنها غير قائمة على أساس تاريخيٍّ أو علميٍّ يجد أنها تُسلمة تلقائياً إلى الشبهة التالية ... وهكذا. وهذه الشبهات تتلخّص في أنّ محمداً عليه السلام كان كذاباً محمّداً، أو أنه كان واهماً مخدوعاً، أو أنه كان مريضاً بمرضٍ عصبيٍّ. وقد فنّد المؤلف هذه الشبهات واحدةً واحدةً ودرّسها دراسةً متأنيةً طرح فيها كلّ لون من ألوان التحرّج بغية الوصول إلى الحق الذي من شأنه أن يريح النفوس المتطلّعة إليه والتي لا تألو في البحث عنه أيّ محمد، وقد اعتمد المؤلف في ذلك كلّ على الروايات التاريخية الموثّقة بعد أن مرّرها بما سمّاه (مصفاة المنطق الإنساني العام، والدراسات النفسية والطبية، وبخاصّة تلك التي تتعلق بمكونات اللاوعي والأمراض النفسية والعصبيّة). أما الباب الثاني فقد قسّمهُ المؤلف إلى ثلاثة فصولٍ، درس فيها شخصيّة القرآن ومحتواه، ووجد أنه لا يمكن أن يكون قد استنسخ من أيّ مصدرٍ بشريٍّ أو اقتبس من أيّة ديانةٍ أخرى، وذلك بعد مقارنته بغيره من أديان عصره التي اتّهم الرسول بأنه قد أخذ عنها أفكاره عن وعيٍ أو عن غير وعيٍ.

ثانياً: بحث "ماذا تقول الموسوعة الكاثوليكيّة عن الإسلام ورسوله؟"

وهو بحثٌ قيّمٌ تناول فيه المؤلف الكاتب إبراهيم عوض اللمز المقصود والمغالطات المتعلقة بالإسلام ونبوّته ﷺ وردّ عليها ردوداً شافيةً كافيةً. وكان من أبرز هذه المغالطات التي اشتملت عليها هذه الموسوعة الكاثوليكيّة ما يلي:

١. إنّ عنوان المقال الموجود في هذه الموسوعة عن الإسلام ليس كلمة إسلام كما كان يجب أن يكون بل هو محمد والمحمديّة!!

٢. الغمز في أن محمداً قد تلقى الإسلام من اليهود والنصارى الذين التقى بهم في رحلاته إلى الشام، مع قوافل قومه حيث حصل معرفته الناقصة بدين هاتين الطائفتين!!.
٣. إن محمداً كان عرضة للإصابة بالصرع بين الحين والحين.
٤. إن كتب السيرة النبوية ليست أهلاً للثقة، إذ تمتلئ بالخرافات والروايات المصنوعة!!.
٥. إن كتب السيرة لم تُدوّن إلا بعد نحو قرن ونصف من وفاة محمد!!.
٦. إن محمداً كان انفعالياً ويخشى الألم الجسدي لدرجة غير معقولة!!.
٧. كان محمد شديد القسوة مع اليهود!!.

ثالثاً: كتاب "عصمة القرآن وجهالات المبشرين".^(١)

وهذا الكتاب مخصّص للردّ على كتاب "هل القرآن معصوم؟" لمؤلفه المُسمّى عبد الله الفادي أو عبد المسيح الفادي. وقد سبق لنا التعريف بكتاب الفادي هذا في المبحث الثالث من الفصل الرابع من دراستنا. ويقع كتاب الردّ "عصمة القرآن" في فصلين اثنين، تصدّى الأستاذ إبراهيم عوض في فصله الأوّل للردّ على الشبهات اللغوية، وهي التي كان عبد الله الفادي قد سماها بـ "الأسئلة اللغوية"، وهي خمسة وعشرون سؤالاً، عقد لها فصلاً مستقلاً غطّى صفحات الكتاب من ١٠٧ إلى ١١٢، وكان الفادي يهدف من وراء ذلك إلى إيهام القراء بأنّ القرآن الكريم مليء بالأخطاء اللغوية!!.

أمّا في الفصل الثاني من كتاب الردّ "عصمة القرآن" فقد تصدّى الأستاذ إبراهيم عوض للردّ على الشبهات الخاصة بمضمون ومحتوى القرآن الكريم، وردّ فيه على شبهات وأوهام وأباطيل عبد الله الفادي وفنّدها بالتفصيل.

لقد أثبت الأستاذ إبراهيم من خلال مؤلفه السابق حقيقة مفادها أنّ عبد الله الفادي وأمثاله من المبشرين على جملي تامّ ومطبقي بالقرآن الكريم وأنّ اعتراضاتهم كلّها ليست محلّ اعتبار ولا نظير، ولكنهم يحاولون الطعن وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم فقط لأنّه يخالف معتقداتهم ودينهم. ونحن بدورنا لا نرى في عبد الله وأمثاله إلا تكراراً مججولاً لأخلاق وأفكار رهبان العصور الوسطى، مع تغيّر في الشكل واللغة والزمان والمكان فقط ...

^(١) نشرت هذا الكتاب مكتبة زهراء الشرق بالقاهرة، سنة ٢٠٠٥، وهو يقع في مائة وسبع وستين صفحة، من القطع المتوسط.

لقد توفّرت في الدكتور إبراهيم عوض مواهبٌ متعدّدةٌ أبرزها أربعٌ هي التالية:

الأولى: موهبة إتيان اللغة الإنجليزية التي مكّنته من الاطلاع على الكتب المسيحية والتراث المسيحي، وهي اللغة التي كان استاذنا قد أتقنها عند دراسته في بريطانيا لنيل شهادة الدكتوراة من جامعة أكسفورد.

الثانية: موهبة نقد التصوص، التي يحمل درجة الدكتوراة فيه.

الثالثة: موهبة كثرة القراءة وسعة الاطلاع، التي تدلّنا عليها كتاباته في مواضيع متعدّدة.

الرابعة: موهبة القلم السيّال التي تدلّ عليها مؤلّفاته التي زادت عن المائة.

كلُّ هذه المواهب سجّرها هذا الرجل لخدمة دين الله والّود عنه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

رابعاً: الأستاذ الدكتور صلاح الخالدي

يُعدُّ الأستاذ الخالدي^(١) من أشهر أساتذة تفسير القرآن الكريم في الكليات الشرعية والجامعات في المملكة الأردنية الهاشمية، وهو من أبرز الذين عرّفوا بالكتابات المدافعة عن القرآن الكريم والمبينة لمحاولات تشويهه والظعن فيه. والخالدي من العلماء المشهود لهم بكثرة الاطلاع والكتابة، وتشهد لذلك مؤلفاته التي زادت عن الأربعة والأربعين، وهو كذلك من العلماء المشهورين بعمق اللسان وتقابل وجهات النظر المخالفة والحرص الكامل على نقل علمه وتجربته وما تربي عليه إلى طلبه العلم من خلال لقاءاته الكثيرة بهم أو من خلال مؤلفاته. وهذا ليس مُستغرباً من رجلٍ تخصّص في "سيد قطب" ونحى منحاه في الكتابة والدعوة والثبات على الحق.

ولعلّ أبرز ما يميّنا في مؤلفات أستاذنا وشيخنا الخالدي آخر كتبه ومؤلفاته والذي حمل عنوان "القرآن وتقض مطاعن الرهبان"^(٢). وقد خصّصه الخالدي للانتصار للقرآن الكريم والدفاع عنه أمام هجمات أعدائه الذين حاولوا الانتقاص من شأنه وخطّووه مثيرين حوله كلّ ما أمكنهم من شبهات واتهامات، باعتمهم على ذلك العداوة له والجهل به. وقد سبق لنا التعريف بكتاب الفادي المسمّى "هل القرآن معصوم؟" في المبحث الثالث من الفصل الرابع في هذه الدراسة، وذكرنا في الصفحات القريبة الماضية جهود الدكتور إبراهيم عوض في الردّ عليه وعلى أبرز ما فيه من شبهات. ولعلّ تصدّي الأستاذ الخالدي هو الآخر للردّ على هذا الكتاب ليعكس مدى خطورته، لا لمستوى مضمونه ومحتواه لا، ولكن لأنّه نُشر على الإنترنت بعد توزيعه مطبوعاً، فوصلَ بذلك إلى الكثيرين من ضعاف النفوس والجاهلين بالقرآن مما استدعى الردّ من جديد لإزالة كلّ شبهة قد تعلق في النفوس ليزداد القراء يقيناً بأنّ القرآن كلامُ الله وأتّه منزّة عن الأخطاء والمطاعن كلّها. ويتألّف كتاب الأستاذ الخالدي من فصولٍ عشرة هي التالية:

(١) ولد صلاح عبد الفتاح الخالدي في مدينة جنين في ١٢/١٢/١٩٤٧م الموافق ١٨/محرم/١٣٦٧ هـ سافر إلى القاهرة سنة ١٩٦٥م، وهناك حصل على الثانوية الأزهرية، ثم دخل كلية الشريعة وتخرّج فيها سنة ١٩٧٠م، وعاد إلى الأردن لأن الضفة الغربية كانت قد احتلت سنة ١٩٦٧م. تقدّم لدراسة الماجستير سنة ١٩٧٧م في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وكانت الرسالة التي قدّمها بعنوان: سيد قطب والتصوير الفني في القرآن وجاءت في قسمين: القسم الأول عن حياة سيد قطب، والثاني عن التصوير الفني في القرآن. وتمت المناقشة سنة ١٩٨٠م ثم حصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن سنة ١٩٨٤م من الجامعة نفسها، وكانت الرسالة بعنوان: في ظلال القرآن - دراسة وتقييم. بلغت مؤلفاته أربعة وأربعين، ومن أبرزها "سيد قطب الشهيد المحي"، و"سلسلة من كوز القرآن" و"نظرة التصوير الفني عند سيد قطب" و"وقفات مع بعض الآيات".

(٢) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار القلم، بدمشق، عام ٢٠٠٧، وهو يتكون من ٧٥٨ صفحة من القطع العادي (المتوسط).

- الفصل الأول: نقض المطاعن الجغرافية.
 الفصل الثاني: نقض المطاعن التاريخية.
 الفصل الثالث: نقض المطاعن الأخلاقية.
 الفصل الرابع: نقض المطاعن اللاهوتية.
 الفصل الخامس: نقض المطاعن اللغوية.
 الفصل السادس: نقض المطاعن التشريعية.
 الفصل السابع: نقض المطاعن الاجتماعية.
 الفصل الثامن: نقض المطاعن العلمية.
 الفصل التاسع: نقض المطاعن الفنية.
 الفصل العاشر: نقض المطاعن الموجهة إلى حياة الرسول ﷺ.

وقراءة مقدمة كتاب الخالدي على درجة عالية من الأهمية لكلِّ مقتنٍ له ففيها بيّن المؤلف اسم الكتاب المختار للردّ عليه، وعزّف بكتابه ووضّح السبب المباشر الذي دفعه للردّ عليه كما شخصّ في المقدمة موطن الخلل عند الفادي وبيّن ذلك ما يلي:

١. أمّا عن اسم الكتاب المختار للردّ عليه، وعن اسم مؤلفه فقال ^(١): "الكتاب الذي خصّصنا كتابنا للردّ عليه وتفنيد شبهاته واتهاماته هو (هل القرآن معصوم؟) ونُسب لرجلٍ دينٍ نصرانيٍّ هو عبد الله الفادي، ويبدو أنّ هذا الاسم مستعار. وصدر الكتاب عن مؤسسة تنصيرية في النمسا، اسمها ضوء الحياة، وظهرت طبعته الأولى عام ١٩٩٤م وتوزّع هياتٌ ومراكز التبشير النصرانية. ودعت مؤسسة ضوء الحياة إلى مراسلتها لإرسال الكتاب لمن يطلبونه كما أنها أنزلته على الإنترنت".
٢. وأمّا عن السبب المباشر الذي دفعه للردّ على هذا الكتاب فقال ^(٢): "وقد رأينا من المناسب أن نردّ على كتاب الفادي "هل القرآن معصوم؟" وأن نُبيّن تهافت أسئلته، وتفاهة انتقاداته... والذي دفعنا إلى الردّ عليه أنه يمثّل خلاصة جهودِ النصارى في فحص القرآن، وإثارة الأسئلة والشبهات حوله، فهناك كتبٌ كثيرةٌ لنصارى عديدين، تنتقد القرآن، وتبني حوله الاعتراضات، وترجم الوقوف على أخطاء، ولقد قرأنا بعض تلك الكتب، ولدى مقارنتها بهذا الكتاب، وجدناه خلاصة لها، فالردّ عليه رُدٌّ عليها.

(١) الخالدي، صلاح عبد الفتاح، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، المقدمة ص ٥، ط ١، ٢٠٠٧، دار القلم، دمشق.

(٢) المرجع السابق نفسه ص ٨.

٣. وأما عن تشخيصه لموطن الخلل عند الفادي، فقد ذكره الأستاذ الخالدي بعد أن اقتبس بعض عبارات الفادي التي أوردها في مؤلفه الطاعن في عصمة القرآن فقال: "رغبْتُ منذ حداثتي أن أقوم بخدمةٍ مُنتجةٍ دائمةٍ للأثر للجنس البشري، وليس في مقدوري أن أكتشف قازةً، مثل ما فعل كولمبس، ولا أن أخترعَ مدياعاً، مثلما فعل ماركوني، ولا أن أسخّرَ الكهرباء، مثل ما فعل أديسون، ولا أن أحلل الذرة، كما فعل أينشتاين، فليس شيء من هذا يدخل في دائرة اختصاصي ... ولكنني كرجل دين، رأيتُ أن أدرس القرآن"^(١).

وقال الأستاذ الخالدي معلقاً على عبارات الفادي السابقة ومحدداً موطن الخلل فيها بقوله^(٢): "لم يبق أمامه إلا الإسلام ليدرسه، وبما أنَّ القرآن هو أساس الإسلام، فيلوجه القسيس الفادي نظراته الكنسية النصرانية إليه، ليدرسه دراسةً مفصلةً، يقدم بها خدمةً للبشرية!! فالفادي المسكين تراوده أحلام المجد وأن يكون في مصافِّ أديسون وماركوني وأينشتاين، لهذا وضع هذا الكتاب "خدمةً للبشرية"!!! فالمسكين أسيرُ فكرةٍ عجيبةٍ استحوذت عليه وفرضت عليه المُضيَّ في هذه الطريق ... وطبعاً لن ينال المجد إن درس القرآن دراسةً منصفةً مُحكمةً، بل لا بدَّ أن تكونَ دراسته من منطلقٍ نصرانيٍّ ضيقٍ ... كي ينال المجد الذي يحلم به!!! وهذا هو موطن الخلل: الأفكار المسبقة، والتحيزُ والتعاملُ.

لقد ردَّ الأستاذ الخالدي على مطاعن وأكاذيب الفادي واحدةً تلو الأخرى، بتفصيلٍ مفيدٍ دون أن يترك شاردةً ولا واردةً ووضَّح بما لا يدع مجالاً للشكِّ كذب الفادي وغشّه الذي تمثل في إخلاله المقصود بالأمانة العلمية حيث كان يأخذ النصوص من كلام المفسر البيضاوي، رحمه الله، ثمَّ يزيدُ عليه ما لم يقله البيضاوي ويحذف منه الشيء الكثير.

وينبه الأستاذ الخالدي في هذا المعرض إلى أنَّ هذا التصرف "الشائن" ليس خاصاً بالفادي وحده بل هو نهجٌ عند أمثاله من أهل الكتاب في إحاثهم لكتب العلماء المسلمين التي يأخذون منها أحياناً ويستيعنون بها، حيث أنهم يفتقدون إلى الأمانة العلمية في النقل والنسبة.

(١) المرجع السابق نفسه ص ١٥.

(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٥.

خامساً: الدكتور مُنقذ السَّقَّار

يُعتبرُ الدكتور السَّقَّار^(١) من الوجوه المشرقة التي برزت حديثاً في ساحة الدعوة إلى الله في السنوات الثماني الماضية. وهو بالرغم من حداثة ظهوره إلا أنه شقَّ طريقه في الدعوة بقوة وعزيمة وإصرار، وسجَّل حضوراً لافتاً للأُنظار من خلال ألمعيته في محاوره ومناظرة النصارى باللغتين العربية والإنجليزية، وهذا واضحٌ معلومٌ لكلِّ متابعٍ للمواقع والمنتديات الإلكترونية المتخصصة في محاوره ومناقشة النصارى.

وهذا ليس مُستغرباً من هذا العَلم الذي خطَّ العديد من المؤلفات في هذا الموضوع وأبرزها "هل العهد القديم كلمة الله؟" وكتاب "هل العهد الجديد كلمة الله؟" وكتاب "الله جلُّ جلاله واحدٌ أم ثلاثة؟" وكتاب "هل افتدانا المسيح على الصليب؟" وكتاب "هل بشرَ الكتاب المقدسُ بمحمدٍ ﷺ؟" وهذه الكتب جميعها قام السَّقَّار بترجمتها إلى اللغة الإنجليزية.

والدكتور السَّقَّار واحدٌ من الأساتذة والدعاة الذين يدركون تماماً أهمية توظيف وسائل الاتصال المعاصرة في الدعوة إلى الله تعالى، لذلك نرى مؤلفاته كلها متوفرة، وبالجمان، على شبكة الإنترنت والمواقع الإسلامية. كما أنّ له حلقاتٍ كثيرةً وسلاسل من الدروس الصوتية والمتلفزة في مناقشة النصارى وردّ شبهاتهم عن الإسلام. ومن أبرز هذه الدروس والمحاضرات والمناظرات ما يلي^(٢):

- سلسلة هل العهد القديم كلمة الله؟
- سلسلة مناظرة مع القس أسعد وهبة عن الصلب في التوراة.
- سلسلة مناظرة مع القس أسعد وهبة عن الصلب في العهد الجديد.
- سلسلة مناظرة مع القس رأفت مشرفي عن قدسية العهد القديم.
- سلسلة هل صُلب المسيح عليه السلام.

(١) منقذ بن محمود السَّقَّار، عالمٌ وداعيةٌ سعوديٌّ. يحمل شهادة الدكتوراة في علم مقارنة الأديان من جامعة أم القرى في السعودية. تخصصت معظم كتاباته في الدين المسيحي شقاً وتحليلاً.

(٢) جميع مؤلفات الدكتور مُنقذ السَّقَّار ودروسه ومحاضراته متوفرة على الصفحة المتخصصة له على موقع صيد الفوائد www.saaaid.net وموقع طريق الإسلام www.islamway.com وموقع ابن مريم للحوار الإسلامي المسيحي www.ebnmaryam.com

- سلسلة محاضرات ومناظرات متعلقة بالنصرانية والكتاب المقدس.
- سلسلة من دلائل النبوة.
- سلسلة مناظرات مع القس رافت مشرقي (تافار) عن إنجيل لوقا.
- سلسلة مناظرة مع القس جاكوبي حول الكتاب المقدس.
- سلسلة مناظرة مع المُتصّر بوس عن ألوهية المسيح.
- سلسلة تعالوا نتأسى بمحمد ﷺ.
- مناظرة مع القس لف يوكي.
- ردّ على مغالطة البابا حول انتشار الإسلام.
- الإرهاب بين الإسلام والمسيحية.
- الردّ على شبهة أنّ ورقة بن نوفل هو من علم النبي ﷺ القرآن.
- الردّ على شبهة حول الجزية في الإسلام.
- القرآن والإرهاب.
- الردّ على من زعم بأنّ القرآن منحولٌ من أشعار العرب وبحيرا.
- الردّ على فرية أنّ النبي ﷺ كان مُصاباً بالصرع.
- الردّ على شبهة الفرانيق.
- الردّ على من يقول بوجود أخطاءٍ نحويّةٍ في القرآن الكريم.

ومن الواضح بما سبق ذكره وتعداده من دروس ومحاضرات الدكتور السقّار أنّه كان يركّز على نقد ونقض الكثير من العقائد المسيحية لكنّه وفي الوقت ذاته كان يركّز على ردّ كلّ الشبهات التي يثيرها المسيحيون حول الإسلام ونبوّته ﷺ.

ولعلّ أكثر ما يهّمنا في دراستنا هذه من مؤلفات الشيخ السقّار دراسته الأخيرة المطوّلة والهامة، التي حملت عنوان "شبهات النصارى حول الإسلام" وهو بحثٌ يتكوّن من أربعة مطالب ويقع في صميم دراستنا.

وقبل البدء في استعراض أهم ما اشتملت عليه مطالب البحث الأربعة، نلّفث إلى أنّ الشيخ السقّار قد أشار في مقدمة بحثه إلى أنّ أبرز الموضوعات التي ركّز عليها الدراسات النصرانية المتعلقة بالإسلام هي الستّة التالية:

١. التشكيك في مصدريّة الإسلام.
٢. الطعن في النبي ﷺ.
٣. الطعن في القرآن الكريم.
٤. الطعن في ستّة النبي ﷺ.
٥. الطعن في تاريخ الإسلام على مر العصور.
٦. الزعم بأن القرآن قد حوى في دفتيه ما يؤيد المعتقدات والكتب النصرانية.

أما عن مطالب بحث السقّار الهام جدّاً عن شبهات النصارى حول الإسلام فقد جرت على النحو التالي:

في المطلب الأول، والذي حمل عنوان "منهج النصارى في شبهاتهم عن الإسلام" لخّص المؤلّف المنهج في كذبهم وتلاعبهم بالنصوص وتحريفهم لها، ثمّ تحدّث عن نماذج من ذلك وعن نماذج من المغالطات التي يقعون فيها عند استدلالهم على ما يقولون. وكانت أبرز كتب النصارى التي استخرج منها المؤلّف ما يثبت صحّة كلامه كتاب "أديان العالم" لمؤلّفه حبيب سعيد، وكتابات القس أنيس شروش.

وفي المطلب الثاني والذي حمل عنوان "شبهات النصارى المتعلقة ببعض شرائع الإسلام" تصدّى الدكتور السقّار الردّ على شبهة انتشار الإسلام بالسيف وقدم فيها المبررات التي لأجلها شرع الإسلام الجهاد، وردّ فيها كذلك مستعرضاً الاضطهاد الديني الذي رافق انتشار النصرانية في العالم. ثم ردّ على شبهة ظلم الإسلام للمرأة وهضمه لحقوقها وتشريعه لضرب النساء ولقوامة الرجال وللطلاق ولتعدد الزوجات وإعطاء المرأة نصف ما للرجل في الميراث.

وفي المطلب الثالث الذي حمل عنوان "شبهات النصارى حول نبوة نبينا ﷺ"، تصدّى السقّار لشبهة النصارى القائلة بأنّ محمداً لم يأتِ بمعجزاتٍ مُستدلّين ببعض الآيات القرآنية الكريمة التي تأوّلوها على نحوٍ باطلٍ والتي أوردها وهيب خليل في كتابه "استحالة تحريف الكتاب المقدس". ثم تصدّى الشيخ السقّار للردّ على الشبهات النصرانية المثارة حول تعدّد زوجات الرسول ﷺ.

وفي المطلب الرابع والذي حمل عنوان "شبهات النصارى عن القرآن الكريم" فتدّ المؤلف كلّ شبهاتهم المتعلقة بمصدر القرآن، وقولهم بأنّ مصدره يعود للكتاب المقدس ولأشعار العرب وللعقائد النسطورية ولبحيرا الراهب. كما فتدّ المؤلف كذلك شبهاتهم المتعلقة بصحة ثبوت القرآن الكريم حيث يزعم هؤلاء أنّ القرآن الكريم عند وفاة النبي ﷺ كان نصوصاً مُتنافرةً وحدها عثمان بن عفان، ويزعم هؤلاء كذلك أنّ المسلمين بعد وفاة محمد ﷺ استقطوا بعض الآيات والسور القرآنية كرجم الزاني وسورة الحفد والخلع، ويزعم هؤلاء أنّ في القرآن الكريم تناقضاتٍ وأخطاءً تاريخيةً ولغويةً ... وأخيراً فقد زعم هؤلاء النصارى أنّ القرآن أيّدَ المعتقدات المسيحية بالوهية المسيح وعقيدة التثليث!!! كلّ هذه الشبهات تصدّى لها الشيخ منقذ، أقره الله، وفنّدها وردّها كلمةً كلمةً وجلّى الحقّ والصواب. جزى الله هذا الشيخ خيراً عن هذه الأمة العملاقة، وأطال سيفه في الحقّ والذبّ عن الإسلام وأهله ونبّيته المصطفى ﷺ.

نأملُ أن تكون هذه الدراسة قد وُفِّقَتْ في تقديم هذا الداعية لمن لا يعرفونه من طلبة العلم في بلادنا، فهو أسدّ من أسود الله وسيفٌ من سيوفه التي تكتسي على الزمان مضاءً بعونه تعالى.

سادساً: الشيخ أكرم حسن مُرسي (١)

مرة أخرى قدّمت إلينا استفزازات الرهبان والمنصرين شخصيّة مسلمة متميّزة ما كُنّا نعرفها لولا أن واجهتها استفزازات وامتحانات المنصرين للمسلمين ومحاولة تشكيكهم في دينهم ونبوة الحبيب المصطفى ﷺ.

معلوماتنا عن هذه الشخصيّة، وهي الشيخ أكرم حسن مُرسي قليلة جدّاً، ولكنّ العمل الذي أنجزه في الذبّ عن ديننا ورسولنا كبيرٌ جدّاً. كبيرٌ في مستواه وهدوئه وعقلايته وحُسن تعامله مع الكارهين المُبغضين لهذا الدّين. ألف الشيخُ كتاباً ضخماً جاوزت صفحاته الستائة وسبعاً وعشرين، وسمّاه "ردّ السّهام عن خير الأنام محمدٍ عليه الصلاة والسلام" وقد روى هذا الكاتبُ الشابُّ في مقدّمة كتابه المذكور سبب إقدامه على كتابته فقال^(٢):

"إنّ اثاره الشّهاتِ لتشكيك المسلمين في عقيدتهم، أخطر الحروبِ على الإسلام؛ لأن اصحابها يستهدفون البسطاء وذوي النفوس الضعيفة، وطالبي الدنيا ومتاعها الزائل؛ فالمغريات كثيرةٌ، والشّهاتُ شديدةٌ على من تُلقَى إليهم، فيتخبّطون حيارى، يريدون من يأخذ بأيديهم، فلا يجدون من يشفي صدورهم، ويرجّح قلوبهم، ويزيل ما بها من شكٍّ وريبةٍ - وأصدقكم القول - أنّي تعرّضتُ لما تعرّضوا، وفُتنتُ كما فُتّنوا، وزلزلتُ زلزالاً شديداً، فقد ألمّ بي طائفٌ منهم، تقرب إليّ، وادّعى صداقتي لينال مأربه وما كان ذلك إلا صرفي عن ديني وتشكيكي في عقيدتي التي درجتُ عليها، وقد وجد ضالّته، وأصاب مني مأربه، فقد كنت في ذلك الوقتِ ضائعاً، أتخبّطُ في الشّهوات .. واستطاع - رُغم عدم براعته في إلقاء الشبهة - أن يجعلني أسهزُ الليالي الطوال، وأبيثُ مفكراً فيما يقولُ، ولا أجدُ إجابةً شافيةً، فقد كنتُ خاوياً، عقلٌ ضالٌّ وقلبٌ فارغٌ، ثم أراد الله بي خيراً، وتعمّدني بواسع رحمته، وعظيم فضله، فقد قيّض الله لي من يأخذ بيدي، وينتشلني مما أنا فيه، شابٌ نجيبٌ، له سمّتُ العلماءِ فطنة المفكرين، فطرحتُ عليه تلك الأسئلة، وأخبرته بمكنون صدري، وما كان يموجُ في عقلي من شكوكٍ وضلالاتٍ، فأذهب ما في نفسي بالإقناع والحجّة، وليلتها نمتُ مستريحاً البال، قرير العين، فقد كنتُ قبل ذلك تتنازعني الوسوس والشكوكُ، وقد ولدتُ على يديه مولداً

(١) أكرم حسن مرسي (الحامي)، من دُعاة الجمعيّة الشرعية بالحيزة في مصر، وله عنوانان إلكترونيان:

akram614@hotmail.com و AIM07AMY@Paltalk.com

(٢) مرسي، أكرم حسن، ردّ السّهام عن خير الأنام محمدٍ عليه الصلاة والسلام، ص ٢، ٣، النسخة الإلكترونية.

جديداً، وبعثُ بعثاً آخرَ، وأوصاني هذا الأخُ الكريمُ - حفظه الله - بأن التمسَ العلمَ، وأنفقهُ في الدين، وبدأتُ بسماعِ المحاضراتِ، وقراءةِ القرآنِ الكريمِ بتدبيرٍ، وشئياً فشيئاً أصبحتُ شغوفاً بالعلمِ، أطلبُهُ أينما كان فليست العبرةُ بمن سبق ولكن العبرةُ بمن صدق. ومع مرور الأيام دخلت على "الإترنت" بقدر الله وحاورتهم وحاوروني، فأكسبني ذلك خبرةً بطرقهم ومسالكتهم، فانكشفت لي الأعيهُم، وأظنني اليوم قادراً على مجاراتهم وردّ كيدهم إلى نحورهم - بإذن الله -، ولعلّ فيما ذكرته خيراً يرُدُّ الأمةَ إلى ربها، ويوقظها من سباتها وما يرادُ بها، فينقلبُ السحرُ على الساحرِ".

إنه لمن الواضح تماماً خطورة الدور الذي يلعبه المنصرون في حرهم على الإسلام ورسول الله ﷺ ومدى التشكيك الذي تُحدثه شبهاتهم لعامة المسلمين. ولخطورة هؤلاء فقد أكّد الكاتبُ أنه يخاطبهم وحدهم في كتابه هذا ولا يخاطبُ أحداً غيرهم مُعلماً إياهم بأنه سيردُّ على شبهاتهم بعد عرضها بأسلوبهم، وأنه لن يلجأ إلى السخرية والاستهزاء والهمز واللمز، كما فعلوا هم، مؤكداً على حقّه في الدود عن الإسلام ودفع الشبهات بالحجّة.

وقد وضح الكاتبُ أنه اعتمدَ في منهج كتابه هذا على جمع الشبهات التي تتألُّم الرسول ﷺ والرّد عليها بأسلوبٍ هادئٍ بعيدٍ عن الاتفعال والانسحاق وراء العواطف وركوب الشطط والمغالاة، ولم يسلك مسلك هؤلاء بالتعمية على القارئ وإخفاء الحقائق التي لا يستطيع عاقلٌ أن ينكرها ومنصفٌ أن يجحدها. وذكر بأن أصحاب الشبهات يعتمدون في إثارة شبهاتهم حول الرسول ﷺ على أحاديث - جُلّها - ضعيفة الإسناد، أو صحيحة لم يفهموها إمّا لجهلهم أو لسوء نيّتهم، فيعمدون إلى الكذب والتدليس وبتّر الأحاديث والاستدلال بما ليس فيها.

يتألّف كتاب "ردّ السّهام" من ستة أقسام. وفي القسم الأول الذي حمل عنوان "شبهاتٌ حول عصمته ورسالته" تصدّى الكاتب للردّ على العديد من الشبهات الخبيثة الخطيرة كان من أبرزها:

١. شبهة أن القرآن وصف محمداً بأنه يرتكبُ الذنوب.
٢. شبهة سحر الرسول.

٣. شبهة الغرائق.
٤. شبهة عبادة محمد للأصنام.
٥. شبهة كاد محمد أن يُقتل.
٦. شبهة كان محمد ضالاً.
٧. شبهة محاولة محمد الانتحار.
٨. شبهة كان محمد ينسى.
٩. شبهة محمد يُعظّم ويُقبل الحجر الأسود.
١٠. شبهة كان محمد يعبس ويتولى.
١١. شبهة كان محمد يجرّم ما أحله الله.
١٢. أخطأ محمد في علم الساعة.
١٣. مات محمد مسموماً بعد أكله من شاة مسمومة.
١٤. مات محمد وتحلّل جسده حتى تعفن.
١٥. انتفخ جسد محمد بعد موته.

وفي القسم الثاني الذي حمل عنوان "شبهات حول رحمته"، تصدّى الكاتب لمزيد من الشبهات والافتراءات الممثلة في سوء فهم وتفسير الكثير من نصوص الحديث النبوي الشريف، ومن ذلك:

١. محمد يقول: أمرت أن أقاتل الناس.
٢. محمد يقول: الجنة تحت ظلال السيوف.
٣. محمد يُرعبُ الناس ويُرهبهم رافعاً شعار "نُصِرْتُ بالرّعب".
٤. جعل رزق محمد تحت ظلّ رحمة وأخذ الغنائم.
٥. أمر محمد بقتل النساء والصبيان.
٦. كان محمد يحرّق النخيل والزرع ويُفسد في الأرض أثناء حروبه وغزواته.
٧. كان محمد يأخذ الجزية.

وفي القسم الثالث والذي حمل عنوان "شبهات حول أخلاقه وسلوكه ﷺ" فنّد الكاتب وردّ شبهات عظيمة كان من أبرزها ما يلي:

١. كان محمدٌ يكثر من اللعن والسبِّ كقوله: "تمكلك أمك".
٢. كان محمدٌ يكتحل مثل النساء ويحجِّي شعره الطويل الذي يبلغ كنفه.
٣. كان محمدٌ يتبولُ جالساً مثل النساء.
٤. اضطلع محمدٌ مع فاطمة بنت أسد في قبرها وعاشرها وهي ميتة.
٥. كان محمدٌ عاشقاً للنساء يقول: حُبِّبْ إليَّ من دنياكم النساء.
٦. كان محمدٌ يلعقُ أصابعه بعد الأكل.
٧. كان محمدٌ يحلل الكذب بحجة إصلاح ذات البين.

وفي القسم الرابع، الذي حمل عنوان "شبهات حول معجزاته" ردَّ الكاتب على شبهاتٍ كثيرة، كان من أبرزها قول المنصرين ما يلي:

١. محمدٌ ليس له معجزات.
٢. لو كان محمدٌ رسولاً لوردَ ذكره في الكتاب المقدس.
٣. أخذَ محمدٌ القرآن وتعلَّمه من البشر والناس مثل مجير الراهب، ومن بعده ورقة بن نوفل.
٤. كان محمدٌ يعرفُ القراءة والكتابة.

وفي القسم الخامس، والذي حمل عنوان "شبهاتٌ حول أحداثٍ تتعلق بالمرأة، وزوجاته عليه السلام"، ردَّ المؤلف على الاقتراءات والشبهات التي كان من أبرزها ما يلي:

١. حكَّم محمدٌ على المرأة بأنّها شؤم.
٢. أمرَ محمدٌ المرأة أن تسجد لزوجها.
٣. قال محمدٌ: إنّ الملائكة تلعن المرأة إن رفضت دعوة زوجها للفراش.
٤. وصفَ محمدٌ النساء بأنهن ناقصات عقلٍ ودينٍ.
٥. حقرَ دينُ محمدٍ المرأة عندما جعل شهادتها نصفَ شهادة الرجل.
٦. وصلَ عددُ زوجات محمدٍ إلى إثنتي عشرة، مما يثبتُ ولعه بالدنيا.
٧. تزوّجَ محمدٌ من طفلةٍ كان عمرها تسع سنوات اسمها عائشة.
٨. أجبرَ محمدٌ ابنه بالتبني على تطليق زوجته زينب بن جحش ثم تزوّجها هو وذلك بعد أن رآها فأعجبته وقال: سُبْحان مقلب القلوب.

٩. تزوج محمدٌ ميمونة وهو مُحْرَمٌ، وتزوجَ صفيةَ قبل انقضاء عدتها وطلق سودة لأنها أصبحت كبيرةً مُسنَّةً.

وفي القسم السادس والأخير، والذي حمل عنوان "شبهات حول أصولِ يزعمون أنها خرافات"، ردَّ المؤلف على شبهاتٍ كثيرةٍ كان من أبرزها ما يلي:

١. كيف يكون محمدٌ أوَّلَ المسلمين، والقرآن يذكر أن النبيَّ إبراهيم كان مُسلمًا؟
٢. كيف يُصَلِّي اللهُ على محمدٍ؟
٣. كيف أجرى الملاكُ جبريلُ عمليةَ جراحةٍ لمحمدٍ وشقَّ صدره وغَسَلَ قلبه؟

سابعاً: الدكتور سليمان بن عبد الله الرومي

لا تتوفر لدينا معلومات كثيرة عن الدكتور سليمان الرومي^(١)، ولكن تتوفر لدينا معلومات وافرة عن كتابه "دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية"^(٢)، والذي كان في أصله رسالة دكتوراه خطها أستاذنا الرومي وهو على مقاعد الدراسة، وأخرجها إلى النور عام ٢٠٠٧م في كتاب من مجلدين بواقع تسعمائة صفحة. وفي هذا الكتاب الضخم تصدى المؤلف لمعتقدات النصارى كالتثليث والقول بالاتحاد والتجسد وألوهية المسيح والصلب والفداء، وفنّدها واحدة تلو الأخرى، بالأدلة العقلية والنقلية، وكذا فعل عندما ناقش شعائر النصارى وطقوسهم كالمعمودية والصلاة والصوم وترك الختان وتعظيم الصور والتماثيل. ولكنّه وقبل أن ينتقل لردّ شبهات النصارى عن الإسلام ونبوة الحبيب المصطفى ﷺ نراه، جزاءً لله خيراً، قد أفرد مبحثاً من خمسة مطالب عتّون له بـ "الدعوة إلى العقيدة الإسلامية"، وكان من مطالب هذا المبحث الدعوة إلى اعتناق الإسلام من خلال بيان محاسنه، ومن خلال ردّ الشبهة عنه وعن تشريعاته، وكان من مطالب هذا المبحث كذلك الدعوة إلى الإيمان بالقرآن والدعوة إلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ. واستعرض المؤلف جهود أبرز الولاة والقادة والعلماء والدعاة في تلك العصور الذين قاموا بدعوة النصارى لاعتناق الإسلام. وقد أفرد المؤلف كذلك مبحثاً هاماً تصدى فيه للردّ على شبهات النصارى ومطاعنهم في الإسلام ونبوة محمد ﷺ وكانت أبرز هذه الشبهات والدعاوى ما يلي:

١. دعوى خصوصيّة رسالة النبي ﷺ بالعرب.
٢. دعوى أنّ القرآن ورد بتعظيم النصارى والثناء عليهم.
٣. شبهة تعدّد الزوجات في الإسلام.
٤. دعوى انتشار الإسلام بالسيف.
٥. دعوى عدم جزم المسلمين بصحّة القرآن لاختلاف الصحابة في جمعه وتعدّد قراءاته.
٦. دعوى أنّ القرآن يشتمل على ما ليس بصحيح.
٧. انتقادهم الطلاق في الإسلام.
٨. دعوى أنّ المسلمين وثنيون وكفّار.

(١) سليمان بن عبد الله بن صالح الرومي، عضو هيئة تدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) الرومي، سليمان بن عبد الله بن صالح، دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية ط١، ٢٠٠٧، مكتبة الرشد، الرياض.

المبحث الثالث

أبرز الجهود الجماعية المؤسسية المعاصرة في ردّ الشبهات عن الإسلام ونبوة محمد محمد والتصدي للمطاعن فيها

مرّ بنا في المبحثين السابقين استعراضٌ لبعض أبرز جهود أبناء هذه الأمة قديماً وحديثاً في ردّ الشبهات والمطاعن التي أثارها النصارى، ولا زالوا، حول الإسلام ونبوة محمد ﷺ. وهي المطاعن التي أسّس لها وأثارها رهبانُ العصور الوسطى الذين أسّسوا الاستشراق الديني ووضعو له القواعد والمنطلقات والأهداف، وذلك كلّه بغرض محاربة الإسلام والتشكيك فيه والتيل منه. ولما كان إطلاق الشبهات والتأسيس لها عملاً جماعياً ومؤسسياً قام به رهبان العصور الوسطى، وذلك نظراً لانطلاقه برعاية وتشجيع ودعم الكنيسة الغربية وما يتبع لها من الأديرة والأبرشيات... كان من الطبيعي والمتوقع أن تكون هناك جهودٌ جماعيةٌ مؤسسيةٌ تتصدى للردّ على هذه الشبهات ومُطْلَقِها.

وسنعرّضُ تالياً ل نماذج من هذه الجهود ولبعضها لا كلّها، وذلك راجعٌ لتعدد وكثرة مؤسسات العمل الدعوي والثقافي، ولله الحمد. فكان استعراض جهودها كلّها من الصعوبة بمكان.

أولاً: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر

يُعتبرُ هذا المجلس الأعلى، وهو تابعٌ لوزارة الأوقاف المصرية، نموذجاً رائعاً من نماذج العمل الدعوي الإسلامي، ولعلّ موقعه الإلكتروني على شبكة الإنترنت⁽¹⁾ خير دليل على ذلك، ففيه تعريفٌ بالإسلام بأبرز لغات أهل الأرض، وهو يقدم الخدمات والمعلومات والإجابات لكل سائلٍ أو مُتّصلٍ أو باحثٍ، وهذا الكلام ليس وليد الساعة أو اليوم، فقد سبق لهذا المجلس الأعلى، أن قاد حملةً ضخمةً على الإنترنت كان هدفها تحسين صورة الإسلام، وبالذات في النول الأوروبية والأمريكية لكلّ الذين أسأوا فهم هذا الدين بعد أحداث الحادي عشر من أيلول عام ٢٠٠١ للميلاد. وذلك عن طريق بثّ رسائل مباشرة

(1) موقع المجلس على شبكة الإنترنت هو www.islamic-council.org

على الإنترنت تهدف للدفاع عن صورة الإسلام ومبادئه ضدّ الحملات التي تعمل على تشويه صورته.

"وأوضح الدكتور عبد الصبور مرزوق، أنّ هذه الرسائل سوف تناوُل بين طياتها أيضاً مناقشاتٍ تستند إلى المنطق والحقائق، رداً على العديد من القضايا التي يثيرها المجتمع الغربي في هذه المناطق، إمّا عن جهلٍ وإمّا لأسبابٍ مُغرِضة. وتبيّن المناقشات موقفَ الإسلام من القضايا المتعلقة بحقوق الإنسان، وقضايا المرأة خاصّة ما يدور حول أحكام الميراث بالنسبة لها وقواعد المساواة بينها وبين الرجل أو الشهادة. وذكر أن المسلمين لن يقفوا مكتوفي الأيدي ضدّ تلك الدعاوى. وأنه يجبُ على كافة المؤسسات الإسلامية أن تؤدّي دورها دفاعاً عن الإسلام وتصحيح المعلومات المغلوطة والخطأفة. وشدد على ضرورة أن تمتلك الدول الإسلامية وسائل إعلام قوية لمواجهة الهجوم الغربي على الإسلام وعلى المجتمعات الإسلامية، موضحاً أنّ موقع المجلس الأعلى يتضمن موسوعةً إسلاميةً ومكتبةً دينيةً كبيرة تضم عشرات الكتب في فروع العلوم الإسلامية"⁽¹⁾.

قول ما نقول عن هذا المجلس وأعضائه الكرام، بعد أن قام بنشر كتابٍ هامٍّ جدّاً يقع في صميم دراستنا حمل عنوان "حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين"، والذي تضمّن الردّ على مائةٍ وسبعٍ وأربعين شبهةً من الشبهات المغرِضة حول الإسلام ونبوة محمد ﷺ، وكان هذا الكتاب من وضع بعض العلماء المعروفين المشهود لهم في العالم الإسلامي وهم الأساتذة محمود حمدي زقزوق وعبد الصبور مرزوق وعبد العظيم المطعني ومحمد عمارة وعلي جمعة. وسوف يترجم هذا العمل المشرفّ للعديد من اللغات، حتّى تعم الفائدة ويطلّع عليه المسلمون من العرب وغير العرب وحتى يطلّع غير المسلمين على مضمونه كذلك.

وكان ممّا ورد في مقدّمة هذا الكتاب النافع التي خطّها الأستاذ محمود حمدي زقزوق بياناً للأسباب الدافعة لتأليف هذا الكتاب، ومن ذلك أنه عندما ظهر الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، لم يتوقّف سيلُ الشبهات التي يثيرها المشككون من خصوم هذا الدين تشكيكاً في مصادره أو في نيّته أو في مبادئه وتعاليمه. ولا تزال الشبهات القديمة تظهر حتى اليوم، في أوتابٍ جديدةٍ يحاول مروجوها أن يضيفوا عليها طابعاً علمياً زائفاً.

(1) جريدة الشرق الأوسط العدد 8866، بتاريخ 2003/3/8م.

ومن المفارقات الغريبة في هذا الصدد أن يكون الإسلام قد احتُصَّ من بين كل الديانات التي عرفها الإنسان سماويةً كانت أم أرضيةً بأكبر قدرٍ من الهجوم وإثارة الشبهات حوله. ووجه الغرابة في ذلك، يتمثل في أنّ الإسلام في الوقت الذي جاء فيه يُعلنُ للناس الكلمةَ الأخيرةَ لدين الله على الأرض لم يُنكر أياً من أنبياء الله السابقين ولا ما أنزل عليهم من كتبٍ سماوية، ولم يُجبر أحدٌ من أتباع الديانات السابِقة على اعتناق الإسلام. ولم يقتصر الأمرُ على عدم الإنكار، وإنما جعلَ الإسلامُ الإيمانَ بأنبياء الله جميعاً وما أنزل عليهم من كتبٍ عنصراً أساسياً من عقيدة كل مسلم بحيث لا تصحُّ هذه العقيدة بدونه. ومن شأن هذا الموقف المتسامح للإسلام إزاء الديانات السابقة أن يُقابلَ بتسامحٍ مماثلٍ وأن يُقلِّدَ من عدد المناهضين للإسلام. ولكنّ الذي حدثَ كان على العكس من ذلك تماماً، فقد وجدنا الإسلام - على مدى تاريخه - يتعرَّضُ لحملاّتٍ ضاريةٍ من كل اتجاهٍ. وليس هناك في عالم اليوم دينٌ من الأديان يتعرَّضُ لمثل ما يتعرَّضُ له الإسلام في الإعلام الدولي من ظلمٍ فادحٍ واقتراعاتٍ كاذبةٍ. وهذا يبيّن لنا أن هناك جهلاً فاضحاً بالإسلام وسوءَ فهمٍ لتعاليمه سواءً كان ذلك بوعيٍ أو بغير وعيٍ ... ومواجهة ذلك تكون ببذل جهودٍ علميةٍ مُضاعفةٍ من أجل توضيح الصّورة الحقيقية للإسلام، ونشر ذلك على أوسع نطاق.

ولم يقصّر علماء المسلمين على مدى تاريخ الإسلام في القيام بواجبهم في الردّ على هذه الشبهات، كلّ بطريقته الخاصة وبأسلوبه الذي يعتقد أنه السبيل الأقوم للردّ، وهناك محاولاتٌ جادةٌ بُذلت في الفترة الأخيرة للدفاع عن الإسلام في مواجهة حملات التشكيك. ولعلّ أبرز الشبهات التي وردت في دراستنا هذه، قد وردت كذلك في كتاب الردّ الصادر عن المجلس الأعلى، حيث تناول كتاب "حقائق الإسلام" العديد من هذه المواضيع، وكان من أبرزها ما يلي:

أولاً: حقائق حول القرآن الكريم.

وتّم فيه تفنيد ودحض العديد من الشبهات الزائفة، وكان من أبرزها:

١. شبهة الكلام الأعجمي في القرآن.
٢. شبهة الكلام المتناقض والمفكك والمنسوخ في القرآن.
٣. دعوى أنّ القرآن مُقتبسٌ من التوراة.

٤. مخالفة القرآن للكتاب المقدس في أسماء بعض الشخصيات التاريخية.

ثانياً: حقائق حول رسول ﷺ.

وتم فيه تنفيذ ودحض العديد من الشبهات الزائفة والتي منها:

١. تعدد زوجات النبي ﷺ.
٢. محاولة النبي محمد ﷺ الانتحار.
٣. ولادة النبي ﷺ عادية.
٤. يحتاج محمد ﷺ إلى الصلاة عليه.
٥. محمد ﷺ أمي فكيف علم القرآن؟
٦. محمد ﷺ يحرم ما أحل الله.
٧. تعلم محمد ﷺ من غيره.
٨. محمد ﷺ يعظم الحجر الأسود.
٩. كاد محمد ﷺ أن يقتل.
١٠. قاتل محمد ﷺ في الشهر الحرام.
١١. محمد ﷺ مُذنب كما في القرآن.
١٢. الشيطان يُوحى إلى محمد ﷺ.
١٣. حول عصمة الرسول ﷺ وموقف القرآن من العصمة.
١٤. دعوى خلو الكتب السابقة من البشارة برسول الإسلام.
١٥. قوم النبي محمد ﷺ زناة من أصحاب الجحيم.
١٦. مات النبي ﷺ بالسم.

ثالثاً: حقائق حول السنّة النبوية.

وتمّ فيها الردّ على شبهتين بارزتين حول تناقض النقل (القرآن) مع العقل. وحول الاستغناء عن السنة بالقرآن.

رابعاً: حقائق حول الإسلام.

وتمّ فيها الردّ على شبهة انتشار الإسلام بالسيف، وتحييده للعنف.

خامساً: حقائق حول الآيات القرآنية.

وتمّ فيها الردّ على شبهاتٍ عديدةٍ كان من أبرزها، ما يلي:

١. هل النجوم رجوم للشياطين؟
٢. هل الرعدُ ملكٌ من الملائكة؟
٣. تناقض القرآن مع العلم.

سادساً: حقائق حول الأنبياء والرسل والأعلام.

وتمّ فيها الردّ على مجموعةٍ من الشّبهات كان من أبرزها ما يلي:

١. نوحٌ لم يتبعه الأراذل.
٢. إختراع طفلٍ ينطق بالشّهادة.
٣. إسماعيل بين الأنبياء.
٤. قيضٌ سعريٌّ.
٥. لم تنزل مائدةٌ من السماء.
٦. إنكار الصّلب.

سابعاً: حقائق حول التحليل.

ثامناً: حقائق حول الحدود.

تاسعاً: حقائق حول الشريعة.

عاشراً: مناقشة النموذج الإسلامي لتحرير المرأة.

ومن الجدير في نهاية حديثنا عن مضمون هذا الكتاب المفيد أن نُشيرُ إلى أنّ المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية قد نشر العديد من الرسائل في سلسلتيّ "قضايا إسلامية" و"دراسات إسلامية"، قام فيها العديد من العلماء بالردّ على هذه الشبهات، ومنها على سبيل المثال: حقائق إسلامية في مواجهة حملات التشكيك، ومقولات ظالمة، وشبهات وإجابات حول القرآن الكريم، وشبهات وإجابات حول مكانة المرأة في الإسلام ج ١، ٢، وحقائق القرآن وأباطيل خصومه، وشبهات وردود ج ١، ٢. فجزاهم الله عن المسلمين خير الجزاء.

ثانياً: المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "الإيسيسكو"

يُحسبُ لمنظمة الإيسيسكو^(١) أفرادها مؤلّف خاصّ للردّ على الافتراءات المسيحية الغريبة، في الوقت الذي اكتفت فيه بعض منظمات وهيئات العمل الإسلامي بالشجب والاستنكار للحملات المعادية للإسلام في السنوات الثلاث الماضية..

لقد حمل هذا المُصنّف عنوان "الإسلام بين الحقيقة والادّعاء"، وتمّ فيه شرح المفهوم المتكامل للإسلام، كما تمّ فيه تفنيد العديد من الشبهات المُغرّضة المثارة حول الإسلام والرسول ﷺ. وقد حملت هذه الشُّبهات مُسعى الادّعاءات، وذلك بالطبع راجعٌ لزيّفها وبطلانها وعدم توفّر أيّ دليلٍ يدعم صحّة أيّ منها.

(١) المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو) (بالإنجليزية: ISESCO) منظمةٌ تابعةٌ للمؤتمر الإسلامي، تعني بمبادئ التربية والعلوم والثقافة والإصّال في البلدان الإسلامية، مقرها الرياض. وكان القرار الأعلى الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامي الثالث بمكة المكرمة في ٢٥ - ٢٨/١/١٩٨١م، تأكيداً لإنشاء جهازٍ إسلامي دولي جديد ضمن أجمرة العمل الإسلامي المشترك في إطار منظمة المؤتمر الإسلامي، يحمل اسم: "المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة".

قامت مجموعة من ستة علماء بارزين بتأليف هذا الكتاب. وهم الأساتذة أحمد شلبي وأحمد عمر هاشم وعبد الصبور شاهين وأحمد كمال أبو المجد وعبد الصبور مرزوق ومحمود حمدي زقروق. وكانت أبرز الادعاءات التي تصدى المؤلفون للردّ عليها التالية:

١. إنّ مصدر القرآن بشريّ وليس وحياً إلهياً.
٢. إنّ محمداً كان يغيّر خطه حسب الظروف التي يُوجدُ فيها، والدليل على ذلك أنّه قدّم الإسلام في مكة على أنّه دينٌ خاصٌّ بالعرب ثم جعله عالمياً بعد أن انتصر في المدينة.
٣. إنّ محمداً كان رجلاً شهوانياً ويشهدُ لذلك كثرة عدد زوجاته.
٤. إنّ الإسلام انتشر بالسيف وكانت الجيوش المنتصرة تسبّقه دائماً.
٥. كانت الفتوحات الإسلامية توسّعت استعماريّة ذات طابع اقتصاديٍّ تهدف إلى الحصول على الغنائم وفرض الجزية.
٦. المسلمون لا يحترمون الآخر، ولا يحترمون حضارته والدليل على ذلك إحراقهم لمكتبة الإسكندرية.
٧. لا يسمّح الإسلام بإعمال العقل بل يجعله خاضعاً للنصوص الدينيّة.
٨. نصوص الإسلام شديدة الوضوح في احتقار المرأة وظلمها.
٩. يُعارض الإسلام حرية التعبير، والدليل على ذلك الموقف من سلمان رشدي.
١٠. الجهاد الإسلامي حربٌ عدوانيةٌ تهدف إلى الاعتداء على الآخرين.

ثالثاً: مؤسّسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي^(١).

يتّبع لهذه المؤسّسة العديد من المؤسّسات الإسلامية كالمدارس والجامعات ومواقع الإنترنت ... ولعلّ أبرز هذه المواقع على الإطلاق موقع (كلمة سواء). وقد سُمّي الموقع بهذا الاسم للتعريف بوثيقة أو رسالة (كلمة سواء بيننا وبينكم)؛ ففي الثالث عشر من تشرين الأول عام ٢٠٠٦م، وبعد شهرٍ على التمام، من المحاضرة التي ألقاها البابا بنديكيتيوس السادس عشر

^(٢) هذا هو المسقّى الجديد، للمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، وهو هيئة علمية إسلامية مستقلة، مقره مدينة عمان عاصمة المملكة الأردنية الهاشمية، يختار أعضاؤها من كبار علماء المسلمين في شتى بلدان العالم الإسلامي، ممن اشتهروا بمؤلفاتهم وبحوثهم وآرائهم العلمية في أحد ميادين المعرفة التي نشأت وازدهرت في ظل الحضارة الإسلامية، كالعلوم الشرعية، وآداب اللغة العربية والتاريخ الإسلامي. وقد تأسس المجمع بأمر من الملك الراحل الحسين بن طلال ملك المملكة الأردنية الهاشمية، وبإشرافه في مطلع شهر نيسان عام (١٩٨١م)، وبلغ عدد أعضاء المجمع في بداية عام (١٩٩٥م)، مائة عضو وعضواً واحداً. من سبعة وثلاثين بلداً إسلامياً. ويقعد المجمع مؤقراً علمياً دورياً، مرّة كل سنتين، يحضره الأعضاء وعدد من العلماء المحجّمين من أنحاء العالم الإسلامي، ويناقش البحوث العلمية المتخصصة في ميدان أو أكثر من ميادين العلوم الإسلامية.

في ريجنسبيرغ في الثالث عشر من أيلول عام ٢٠٠٦م، صدرت كلمة الردّ على البابا من ثمانية وثلاثين من علماء المسلمين من أرجاء العالم، ينتمون لجميع المذاهب والمدارس الفكرية، بروح من التبادل الثقافي المفتوح والتفاهم المتبادل. وفي هذا الرد، الذي حمل عنوان "رسالة مفتوحة إلى البابا" تحدّث العلماء المسلمون من جميع فئات المسلمين، بصوتٍ واحدٍ حول التعاليم الحقيقية للإسلام.

وبعد مرور عامٍ كاملٍ على صياغة هذه الرسالة والردّ المفتوح ازداد عدد الموقعين على هذه الرسالة ووصل إلى مائةٍ وثمانيةٍ وثلاثين، فقاموا بتوسيع رسالتهم هذه معلنين إضافة ما سُمّي بـ "القواسم المشتركة بين الإسلام والمسيحية" إليها. وكانت صيغتها النهائية تحمل عنوان "الحبّ في القرآن الكريم". والذي يعيننا في هذه الدراسة، وبالدرجة الأولى استعراض ما تضمّنته الرسالة في صيغتها الأولى التي رُفعت إلى البابا بنديكتيوس السادس عشر لأننا نراها جاءت واضحةً صريحةً قصدت الردّ بطريقةٍ عصريةٍ مهذّبةٍ على خطاب البابا بنديكتيوس، الذي لم يكن خطابه خطاباً عصرياً ولم يكن خطاباً مهذباً، لم يكن عصرياً لأنه جاء بأسلوبٍ استعلائيٍّ أكّدهُ تعليقاته اللاحقة عليه، ولم يكن مهذباً لأنه تعمّد الطعن الصريح واللز المباشر وغير المباشر بالإسلام وبالرسول الكريم ﷺ، والذي وُصف بأنّه جاء بكلّ ما هو شرير ولا إنساني!!!.

وكما ذكرت هذه الدراسة في فصلها الأول / المبحث السادس النصّ الكامل لمحاضرة البابا في جامعة ريجنسبورغ الألمانية، فإنّ من المفيد تماماً أن نذكر النصّ الكامل لردّ هؤلاء العلماء والمفكرين، والذي حمل عنوان (كلمة سواء بيننا وبينكم)، وهو التالي:

بسم الله الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم
رسالة مفتوحة إلى قداسة البابا بندكت السادس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم
" وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "
(القرآن الكريم، العنكبوت ٢٩: ٤٦)

بالنسبة إلى محاضرتكم التي ألقيتها في جامعة رجنسبورغ في ألمانيا بتاريخ ١٢
 أيلول / سبتمبر ٢٠٠٦م، نحسب أنه من الملائم في سياق روح النقاش المفتوح أن نتناول
 استخدامكم لمناظرة جرت بين الإمبراطور مانويل الثاني باليولوجوس ورجل "فارسي مثقف"
 كقطة بداية لخطابكم حول العلاقة بين العقل والإيمان. ففي الوقت الذي نثني فيه على جهودكم
 التي تبذلونها في معارضة هيمنة الفلسفة الوضعية والمادية في حياة الإنسان، لا بد لنا أن ننوه
 إلى بعض الأخطاء التي وردت في إطار الطريقة التي أشرتم فيها إلى الإسلام على أنه الجهة
 المقابلة للاستعمال المناسب للعقل؛ بالإضافة إلى بعض الأخطاء التي وردت في التأكيدات التي
 سقمتوها لدعم حجّتكم.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ.

لقد ذكرتم بأنه "وفقاً لما يقره أهل التّراية" فإنّ الآية القرآنية التي مطلعها " لَا
 إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " (البقرة ٢: ٢٥٦) كانت في بداية أمر النبي عندما "كان ضعيفاً وتحت
 التهديد"، وهذا غير صحيح. والصحيح الثابت أنّ هذه الآية تعود إلى الفترة التي كان فيها
 التّبريلُ القرآني متوافقاً ومنسجماً مع تنامي السيطرة السياسية والعسكرية للأمة الإسلامية
 الفتية. لم تكن آية لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...، أمراً للمسلمين بالبقاء ثابتين راسخين أمام رغبة الذين
 ظلموهم وعدّبوهم لإرغامهم على التخلي عن دينهم وإيمانهم؛ ولكنها جاءت تذكيراً للمسلمين
 أنفسهم عندما تحققت لهم أسباب القوّة والمتعة أنّه لا يمكن لهم أن يُرغموا قلوب غيرهم على
 الإيمان. " لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ " تخاطب أولئك الذين هم في حالة القوّة وليس الضّعف. ولقد
 بيّنت التفسيرُ الأولى للقرآن الكريم (مثل تفسير الطبري) بأنّ المسلمين في المدينة أرادوا
 إرغام أبنائهم ليتحوّلوا من اليهودية أو النصرانية إلى الإسلام، فكانت هذه الآية جواباً دقيقاً لهم
 بالأّ يحاولوا أن يكرهوا أبنائهم على الإسلام. هذا بالإضافة إلى أنّ المسلمين لديهم أيضاً
 توجيهات قرآنية هادية في هذا الصدد مثل: " وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ
 فَلْيُكْفُرْ... " (الكهف، ١٨: ٢٩) وأيضاً " قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أُعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا
 أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ
 وَلِي دِينِ (٦) ". (الكافرون، ١٠٩: ١ - ٦).

تنزيه الله تعالى

لقد قلتم أيضاً: إِنَّ "الإله، بالنسبة إلى التعاليم الإسلامية، مُنزَّة تنزيهاً مطلقاً؛ وهذا تبسيطٌ يمكن أن يكون مؤذاه مضرلاً. فلقد بيّن القرآن أنه: "... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ..." (الشورى، ٤٢: ١١)، وبين أيضاً: " اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...." (النور، ٢٤: ٣٥)، وقال: ".... وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ" (ق، ٥٠: ١٦)، وقال: "هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ..." (الحديد، ٥٧: ٣)، وقال: ".... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ..." (الحديد، ٥٧: ٤)، وقال: ".... فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَجْهَ اللهِ..." (البقرة: ٢: ١١٥)؛ وكذلك دعونا نتذكّر حديث النبي، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، الذي يبيّن فيه أن الله يقول في (العبد الصالح): "فإذا أحببته كت سمعته الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها" (صحيح البخاري ٦٥٨١، كتاب الرقاق).

وفي مجال التعليم المتعلق بالرقائق وعلم الكلام والفلسفة، يُعتبرُ المفكرُ ابن حزم (المتوفى ١٠٦٩م) الذي استشهدتم به شخصيّة فاضلةً ولكن هامشية - وإن كان ذا شهرة - وهو ينتمي إلى المذهب الظاهري الذي لا يتبعه أيُّ مسلم في العالم اليوم. وإذا أراد إنسانُ البحثَ عن عباراتٍ ونصوصٍ أصيلةٍ بشأن عقيدة التنزيه، فإنّ هناك شخصياتٍ لدى المسلمين أهم بكثيرٍ من ابن حزم من حيث تأثيرهم ومرجعيتهم في مجال العقيدة الإسلامية مثل الإمام الغزالي (المتوفى ١١١١م) وكثيرين غيره.

لقد اقتبستم مناقشةً مفادها أنه بسبب أن الامبراطور "كان متأثراً بشدةً بالفلسفة اليونانية" فإن فكرة أنّ "الله لا يرضى عن سفك الدماء" "أمرٌ بدهيّ" بالنسبة له، وأنّ التعاليم الإسلامية بشأن تنزيه الإله عُرِضَتْ مقابلها ك نموذجٍ مُضادٍّ. فقولكم إنّ إرادة الله بالنسبة للمسلمين "غير مقيدة بأيّ مقولةٍ من مقولاتنا" يعتبر تبسيطاً أيضاً يمكن أن يفضي إلى سوء فهم. إنّ لله تعالى في دين الإسلام أسماءٌ كثيرةٌ منها: الرحيم والعدل والبصير والسميع والعليم والودود واللطيف. وإنّ اعتقاد المسلمين التامّ بوحدانية الله تعالى وأنه " وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ" (الإخلاص، ١١٢: ٤) لم يؤدِّ إلى إنكارهم نسبةً هذه الصفات إلى الله تعالى وإلى خلقه، (مع الوضع جانباً الآن فكرة 'المقولات' وهي عبارةٌ تحتاج إلى إيضاحٍ أكثر في هذا السياق). وحيث أنّ هذا أمرٌ يتعلّق بإرادة الإله، فاستنتاجكم أنّ المسلمين يؤمنون بالله مزاجيّ يمكن أن يأمرنا بالشر أو يمكن ألا يأمر، من شأنه أن يُغفل قوله الله في القرآن: " إنّ

اللَّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" (النحل، ١٦: ٩٠) كما يُعْطِلُ قوله تعالى: ".... كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ...." (الأنعام، ٦: ١٢، انظر أيضاً ٦: ٥٤)؛ وبأنه قال: "..... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...." (الأعراف، ٧: ١٥٦). وإنَّ كلمة رحمة يمكن أيضاً أن تُترجم إلى الحبِّ والطف والشفقة. ومن كلمة الرحمة جاءت العبارة المقدَّسة التي يستعملها المسلمون يومياً، 'بسم الله الرحمن الرحيم'؛ أليس بدهياً أن سفك دم بريء يتعارض مع الرحمة والشفقة؟

استعمال التفكير المنطقي

إن التعاليم الإسلامية غنيةً بتنقيباتها وبحوثها في طبيعة الذكاء الإنساني وعلاقته بكُنْه الإله وإرادته، ويتضمَّن ذلك تساؤلاتٍ بشأن ما هو بدهيٌّ وما هو غير بدهيٍّ. لكنَّ الفصل بين التفكير المنطقي من جهةٍ والإيمان من جهةٍ أخرى لا يوجد بنفس هذا الشكل تماماً في الفكر الإسلامي؛ بل أدرك المسلمون قوَّة الذكاء الإنساني وحدوده بطريقتهم الخاصَّة، مقرِّين بتسلسلٍ هرميٍّ للمعرفة يقع التفكير المنطقي في جزء هامٍّ جدًّا منه. وهناك تَطَرُّقَانِ عَمَلِ المنهج الفكري الإسلامي الأصيل على تجنبها عموماً: الأول، جعل العقل التحليلي هو الحَكْم النهائي على الحقيقة؛ والآخر، هو إنكار قوَّة الإدراك الإنساني في تناول التساؤلات المطلقة. والأهمُّ من ذلك، أنَّ البحوث الفكرية للمسلمين خلال العصور في أنماطها الأكثر نضجاً ورواجاً قد حافظت على انسجامٍ وتوافقٍ بين حقائق التنزيل القرآني ومطالب الذكاء الإنساني دون التضحية بأحدهما من أجل الآخر. يقول الله تعالى: " سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِينَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ... " (فضلت، ٤١، ٥٣). هذا وإنَّ العقل آيةٌ من بين آياتٍ كثيرةٍ بداخلنا، دعانا الله للتأمل فيها والتأمل بها، كوسيلةٍ لمعرفة الحقيقة.

ما الحرب المقدَّسة؟

تُؤدُّ الإشارة إلى أنَّ "الحرب المقدَّسة" مصطلحٌ ليس له وجود في المفردات الإسلامية؛ ولا بدَّ من التأكيد هنا أنَّ الجهاد يعني المجاهدة والمناضلة، وخصوصاً الجهاد في سبيل الله تعالى. إنَّ هذا الجهاد يمكن أن يأخذ أشكالاً كثيرةً، بما في ذلك استخدام القوة. وبالرغم من أنَّ الجهاد يمكن أن يكون مباركاً بمعنى أن يكون في سبيل غايةٍ ساميةٍ مباركةٍ، إلاَّ

أنه ليس بالضرورة أن يكون "حرباً". وعلاوة على ذلك، تجدر الملاحظة إلى أن مانويل الثاني باليولوجوس يقول بأن "العنف" يتعارض مع طبيعة الإله، ولكن المسيح نفسه (عليه السلام) استعمل العنف ضد صرّافي الأموال في المعبد، وقال: "لا تظنّوا أنني أتيت لأجلب السلام في الأرض، لم آت لجلب السلام ولكن جئت بالسيف .." (متى، ١٠: ٣٤ - ٣٦). وعندما أغرق الله فرعون، هل كان يتصرّف على عكس طبيعته؟ ربما قصد الإمبراطور القول أنّ القسوة والوحشية والعدوان ضدّ طبيعة الإله، وفي هذه الحالة، فإن ذلك يتوافق تماماً مع التشريع الأصيل الخاصّ بالجهاد في الإسلام.

لقد قاتم بأنّ "الإمبراطور عليم، بالطبع، التعليمات التي طوّرت فيما بعد ودوّنت في القرآن فيما يتعلّق بالحرب المقدّسة"، ولكن كما أشرنا أعلاه بخصوص "لا إكراه في الدين .." فإنّ التعليمات آتت الذكر لم تكن فيما بعد على الإطلاق. وعلاوة على ذلك، فإنّ أقوال الإمبراطور حول اعتناق الدين بالعنف تبين أنه لم يكن يدري ما هي هذه التعليمات وكيف كانت دائماً.

ويمكن تلخيص القواعد الإسلامية الأصيلّة المعتمدة الخاصة بالحرب في المبادئ

التالية:

١. غير المقاتلين ليسوا أهدافاً جائزة أو شرعية. ولقد تمّ التأكيد على هذا مراراً وبشكل واضح من قبيل النبي، صلى الله عليه وآله وسلّم، وأصحابه ومن قبيل أهل العلم منذ ذلك الحين.
٢. الاعتقاد الديني لوحده لا يجعل أيّ إنسان هدفاً للنيل منه. فالجتمع الإسلامي الأول كان أفراداً يقاتلون وثنيتين قاموا بطردهم من ديارهم وظلّوهم وتعذيبهم وسفك دماهم. وبعد ذلك كان الفتوحات الإسلامية ذات طبيعة سياسية.
٣. المسلمون يمكنهم أن يعيشوا بسلام مع جيرانهم وينبغي عليهم ذلك. " وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ " (الأنفال، ٨: ٦١). ومع ذلك، فهذا لا يستبعد حقهم الشرعيّ في الدفاع عن أنفسهم والحفاظ على سيادتهم واستقلالهم.

والمسلمون ملتزمون تماماً بالتقيّد بهذه القواعد كالتزامهم باجتناب السرقة والزنا. وإذا نظّم الدين تشريعاً للحرب وحدّد الظروف التي تجعلها ضروريةً وعادلةً، فذلك لا يجعل هذا

الدين ديناً عدوانياً، كما لو أن الدين وضع نظاماً خاصاً بالعلاقة الجنسية فإن ذلك لا يجعل الدين ديناً شهوانياً. وإذا استخف البعض بالتعاليم والمبادئ الراسخة بقوة وعلى مدى طويل من أجل أحلام يوطوية حيث الغاية تبرر الوسيلة، فإن فعلهم يكون من قبيل الهوى والرغبة الخاصة وليس بتشريع صادر عن الله أو عن نبيه، صلى الله عليه وآله وسلم، أو عن أهل العلم. يقول الله في القرآن الكريم: ".... وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا غَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ....." (المائدة، ٥: ٨). وفي هذا السياق، لا بد من بيان أن جريمة القتل التي وقعت في الصومال بتاريخ ٢٠٠٦/٩/١٧م وراح ضحيتها راهبة كاثوليكية بريئة - وأية أعمال عنف فردية مخزية وشائنة مماثلة أخرى - كردة فعل لمحاضرتكم في جامعة رجنسبورغ، هي لا تمت بصلة إلى الإسلام أبداً، ونحن ننكر مثل هذه الأفعال تماماً.

اعتناق الدين بالإكراه

إنّ الفكرة التي مفادها أنّ المسلمين مأمورون بنشر دينهم "بالسيف" وأنّ الإسلام في الواقع انتشر بشكل هائل "بالسيف" تنهاوى أمام التدقيق وإمعان النظر. وحقيقة الأمر أنّ الإسلام من حيث كونه كياناً سياسياً فقد انتشر بشكل جزئي نتيجة للفتوحات، لكنّ الجزء الأكبر من توسعه قد تحقق نتيجة للنشاط الدعوي. فالتعاليم الإسلامية لم تنص على أن يتم إرغام سكّان البلاد المفتوحة أو إكراههم على الإسلام. وفي الواقع، إنّ كثيراً من المناطق الأولى التي فتحها المسلمون بقيت أغلب أجزائها غير مسلمة لقرون من الزمان. ولو أن المسلمين رغبوا بإكراه الناس جميعهم حتى يعتنقوا دينهم، لما بقي هناك كنيسة واحدة أو معبد يهودي في أيّ مكان من العالم الإسلامي. وإنّ الأمر الإلهي الذي تمضمّنه آية "لا إكراه في الدين... " تعني الآن ما عنته في ذلك الوقت. وإنّ مجرد كون الشخص غير مسلم لم يكن مبرراً شرعياً للحرب قط لا في الشريعة ولا في العقيدة الإسلامية. وبالنسبة لقوانين الحرب، يُبدي التاريخ أنّ بعض المسلمين قد خرقوا المبادئ الإسلامية فيما يتعلق بإكراه غيرهم على اعتناق الدين ومعاملة أقوام الأديان الأخرى، ولكنّ التاريخ يُبدي أيضاً بأنّ هذه التصرفات بلا أدنى ريب هي استثناء يُثبت القاعدة ويبرهن عليها. وإننا نوافق بالتأكيد على أن إكراه الآخرين على الاعتقاد - إن كان ذلك ممكناً بحال من الأحوال - هو أمر غير مَرَضِيٍّ عند الله، وأنّ الله لا يرضى عن سفك الدماء البريئة. ونحن في حقيقة الأمر نؤمن كما آمن المسلمون

دائماً بقول الله: "... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ..."
(المائدة، ٥: ٣٢).

شيء جديد؟

لقد ذكرت تأكيد الإمبراطور بأنّ "أي شيء جديد" جاء به النبيّ كان "شريراً ولا إنسانياً، مثل أمره المزعوم بنشر الدين الذي يدعو إليه بالسيف". هذا وإنّ الأمر الذي فشل الإمبراطور في إدراكه ومعرفته - عدا عن أن واقع مثل هذا الأمر (كما ذكر أعلاه) ليس له وجودٌ في الإسلام مُطلقاً - هو أنّ النبي، صلّى الله عليه وآله وسلّم، لم يدّع أنه جاء بشيء جديد من الأساس. يقول الله تعالى في القرآن العظيم: " مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ " (فصلت، ٤١: ٤٣)، ويقول أيضاً "قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مَنْ الرُّسُلِ وَمَا أَذْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ" (الأحزاب: ٤٦: ٩). وهكذا فإن الإيمان بالله الواحد ليس من خصائص أيّ ملّةٍ لوحدها دون غيرها. ووفقاً للعقيدة الإسلامية فإنّ جميع الأنبياء الحقيقيين (عليهم السلام) كانوا يدعون أقواماً مختلفين في أزمنةٍ مختلفةٍ إلى الحقيقة ذاتها. فمن الممكن أن تكون الشرائع مختلفةً، ولكن الحقيقة لا تتغيّر.

"أهل الدراية"

لقد أشرتم مرّة من دون تحديد إلى "أهل الدراية" (بشأن الإسلام)، وفعلياً قتم أيضاً بنقل كلام باحثين كاثوليكيتين بالاسم، الأستاذ (عادل) تيودور خوري و(الأستاذ المشارك) روجر أرناليز. ويكفي القول هنا أنه بينما يعتبر كثير من المسلمين أنّ هناك منصفين من غير المسلمين ومن الكاثوليك الذين من الممكن أن يُعتبروا حقيقةً "أهل دراية" في دين الإسلام، إلا أن المسلمين لم يصادقوا حسب علمنا على "أهل الدراية" اللذين اشرتم إليهما ولا يقرّون لها بأنها يمثلان المسلمين أو وجهات نظرهم. لقد كررتم بتاريخ ٢٥/٩/٢٠٠٦م، ما جاء في بيانكم الهام في مدينة كولونيا في ألمانيا بتاريخ ٢/٨/٢٠٠٥م، أنّ "الحوار بين الأديان والثقافات فيما بين المسيحيين والمسلمين لا يمكن تقليصه إلى مستوى الشيء الزائد الاختياري"، فهو في الواقع ضرورةً أساسيةً حيويةً يعتمد عليها مستقبلنا بمقدار كبير". وفي الوقت الذي نوافقكم فيه تماماً، إلا أنه يبدو لنا بأنّ جزءاً كبيراً من هدف الحوار بين الأديان يكمن في أن نجاهد من أجل الإصغاء إلى الأصوات الفعلية لأولئك الذين تتحاور معهم، وأخذها بعين الاعتبار، وليس فقط لأصوات أولئك الذين ينتمون إلى جماعتنا.

المسيحية والإسلام

إن المسيحية والإسلام يُعتبران الدينين الأول والثاني من حيث عدد أتباعهما في العالم وفي التاريخ، حيث يشكل المسيحيون والمسلمون حسب التقارير ما يزيد على ثلث العالم وخمس العالم على التوالي. وهم يشكلون معاً أكثر من ٥٥% من عدد سكان العالم، مما يجعل حُسن العلاقة بين مجتمعات هذين الدينين أهمّ عاملي من العوامل المساهمة في إحلال سلام مؤثّرٍ حول العالم. وباعتباركم قائداً لأكثر من مليار كاثوليكي ومثالاً أخلاقياً لكثيرين غيرهم في أرجاء المعمورة، فربما تكونون الصوت الأوحيد والأهمّ في مواصلة المضي قدماً في هذه العلاقة باتجاه التفاهم المتبادل. ونحن نشارككم الرغبة في إقامة حوارٍ صريحٍ مُخلصٍ ونذكر أهميته في عالم يشتدّ الترابط فيه بشكلٍ متزايد. وعند إقامة حوارٍ مُخلصٍ فإننا نأمل في الاستمرار ببناء علاقات وثامٍ وصدقةٍ مؤسّسةٍ على الاحترام والانصاف المتبادلين وعلى ما يجمعنا جوهرياً من الإرث المشترك المرتبط بالأنبياء من ذرية إبراهيم (عليه السلام)؛ وخصوصاً الوصيتين العظميين، في إنجيل مرقس، ١٢: ٢٩-٣١ (وبشكلٍ مختلفٍ في إنجيل متى، ٢٢:

٣٧ - ٤٠) 'الربُّ إلهنا ربُّ واحدٌ، وتُحِبُّ الربَّ إلهك من كل قلبك من كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى؛ وثانية مثلها هي تحبُّ قريبك كنفْسِكَ ليس وصية أخرى أعظم من هاتين'.

وعلى ذلك، فإن المسلمين يقدِّرون الكلمات الآتية الصادرة من مجلس الفاتيكان الثاني:

تُكِنُّ الكنيسة أيضاً احتراماً عالياً للمسلمين، فهم يعبدون الله الواحد الحي القيوم الرحيم القادر، خالق السماوات والأرض، والذي كلَّم البشر أيضاً. وهم يجتهدون في الخضوع الكامل لأوامر الله دون تحفُّظٍ، تماماً مثل خضوع إبراهيم لقضاء الله، وهو الذي يربط المسلمون دينهم بدينه بشدَّة. وبالرغم من أنهم لا يقرُّون بأن عيسى المسيح إله، إلا أنهم يوقِّرونه باعتباره نبياً، وهم يجلُّون أمه العذراء أيضاً ويذكرونها حتى في أوقات تضرعهم الخاشع؛ ويترقبون أيضاً يوم القيامة والثواب من الله بعد بعث الأموات. ولهذا السبب هم يُعظِّمون الحياة المستقيمة ويعبدون الله خاصَّةً من خلال الصلوات والصدقات والصوم (نوسترا إيتاته، ٢٣/١٠/١٩٦٥م).

كذلك وبنفس القدر، يثمن المسلمون كلمات البابا الراحل يوحنا بولص الثاني والذي كان يحترمه ويقدره كثيرٌ من المسلمين: نحن المسيحيين نعترف بكل سرورٍ بالقيم الدينية التي نشترك فيها مع الإسلام. وأود اليوم أن أكرِّر ما قلته لشباب مسلمين في الدار البيضاء قبل بضعة سنين: "نحن نؤمن بالإله نفسه، الإله الواحد الحي، الإله الذي خلق العالم وأخرج مخلوقاته في أكل صورة" (انسجمنتي، VIII/٢، [١٩٨٥]، صفحة ٤٩٧، اقتبسَتْ من كلمة خلال عظة عامَّة بتاريخ ٥/٥/١٩٩٩م).

كما يُقدِّر المسلمون أيضاً تعبيركم الشخصي غير المسبوق عن الأسف وإيضاحكم وتأكيديكم (في ١٧/٩/٢٠٠٦م) بأنَّ الاقتباس الذي استعملتموه لا يعكس رأيكم الشخصي، بالإضافة إلى تأكيد أمين سر حاضرة الفاتيكان الكاردينال تارشيزيو بيرتوني (في ١٦/٩/٢٠٠٦م) على ما جاء في الوثيقة الوفاقية الصادرة عن مجلس الفاتيكان نوسترا إيتاته. وأخيراً، فإنَّ المسلمين يقدِّرون تعبيركم عن "الاحترام الكامل والعميق لجميع المسلمين" أمام مجموعةٍ مجتمعةٍ من سفراء دولٍ إسلاميةٍ بتاريخ ٢٥/٩/٢٠٠٦م.

نأمل بأننا سوف نتجنب جميعاً أخطاء الماضي ونتحاشاها ونعيش سوية في المستقبل بسلام، وتسامح واحترام متبادلين.

والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قول من غير مجاملة ولا مهادنة: لقد كان هذا الرد من هؤلاء العلماء والأساتذة والمفكرين محبوباً تماماً ومفيداً جداً، فقد ساهم في تعريف الكثير من القيادات المسيحية الغربية بحقيقة الإسلام ودعوته، كما ساهم في تعريف البابا ببعض المفاهيم الإسلامية، هذا على فرض أنّ البابا خالٍ الذهن من معرفة الإسلام، لم يطلع عليه، ولم يسبق له دراسته بالتفصيل بهدف نقضه وإظهار عيوبه ونواقصه!!.

ولقد لاقت هذه الرسالة صدًى واسعاً من الارتياح في العالم الغربي المسيحي، في الوقت الذي كان يتوقع فيه مزيداً من الخطابات والردود المليئة بالشتم والسب والقبح في جهرهم الأعظم، صاحب الفضل في ابتداء طريق السب والقبح.

لقد تعرّضت هذه الرسالة والردّ لبعض الانتقادات من بعض المفكرين المسلمين لأنها ذكرت إجماع العلماء والمفكرين المسلمين عليها - وهو الأمر الذي لم يتحقق - كما تعرّضت لانتقادات من بعض علماء الدين المسيحي كالأب تروال الجزويتي الذي أكد على الفارق السحيق بين الله الواحد بالنسبة للمسلمين وبين الله الثالث بالنسبة للمسيحيين. ولا يملك أحد الحق في تكهيم الأفواه ومنع الانتقادات، بل تتسع له الصدور - إن شاء الله - ولكن المرفوض في كلّ الأحوال هو السب والشتم، فنحن نقبل كلّ ما يوافق شرعنا، شرع العقول المستنيرة والقلوب السليمة من المرض. وتجدر الإشارة في نهاية الحديث عن هذه الرسالة أنّها ساهمت وبقدر كبير في ردّ الكثير من الشبهات والغموض الذي يكتنف عقول بعض الغربيين عن الإسلام ونبوة محمد ﷺ. وإن كان لنا من ملاحظة على نصّ هذا الردّ والرسالة فإنّ ملاحظتنا تقتصر على أنّ الذين صاغوا هذا الردّ، الذي تؤكد على أنّه مُحكمٌ ومفيدٌ، لم يراجعوا مسألة (أنّ ابن حزم ذهب إلى حدّ الإقرار بأنّ الربّ الله لا يلتزم حتى بكلمته الخاصة ... فإنّه ينبغي علينا التعبّد بشكلٍ وثيقٍ أعمى) حيث أنّ فيها افتراءً على هذا العالم وظلماً له، وقد اكتفت وثيقة الردّ (الرسالة) بوصف ابن حزم بأنّه شخصيّة فضلة ولكن هامشية وأنّ له مذهباً

لا يتبعه أي مسلم في العالم اليوم!!! لقد كان الجدير بهؤلاء الأساتذة والعلماء أن يقرؤوا تاريخ الأندلس وأن يوفوا "مؤسس علم مقارنة الأديان" حقه!!.

رابعاً: مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا

في آخر الجهود الجماعية المؤسسية، نعرض البيان الذي ردّ فيه مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا⁽¹⁾ على ما سبق إيرادها في محاضرة البابا بنديكتيوس السادس عشر السابقة من شبهات على الإسلام والرسول المصطفى ﷺ. ولن يتساءلون عن سبب إدراجنا لردود بعض هذه المؤسسات الإسلامية على محاضرة البابا بنديكتيوس السادس عشر نقول: لقد اشتملت هذه المحاضرة على العديد من الشبهات الخطيرة التي كانت ولا زالت تردّها أفواه الكارهين للإسلام منذ أزمان بعيدة. ومنها شبهة عدم اتفاق العقيدة الإسلامية مع العقل، وشبهة انتشار الإسلام بالسيف، وأنّ حروبه كانت لقهر الناس وإجبارهم على اعتناقه، وشبهة أنّ محمداً لم يأت بأي شيء جديد، وأنّ محمداً جاء بالأشياء الشريفة فقط. وسبب آخر نورد لأجله ردود هذا المجمع على البابا وخطبته ألا وهو إظهار مدى اعتزاز هؤلاء العلماء بدين الله عزّ وجلّ ودفاعهم عن دفاعاً مقنعاً بأسلوب خطابي لا يصدّر إلا عن قوّة وحقّ واعتزاز بهذا الدين. لم يتزلّف علماء المجمع إلى البابا ولم يخاطبوه على خوف، وهم يدركون تماماً أنهم يعيشون بين ظهرائي النصراني في أقوى دول الغرب المسيحي ألا وهي الولايات المتحدة الأمريكية. فجزى الله هؤلاء المعتزين بدينهم خير الجزاء وأكرمهم. وحتى لا يطول الحديث فسنذكر تالياً نص هذا البيان⁽²⁾ كما هو دوناً حاجة لأيّ تعليق أو تذييل.

بيان من مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا ... ردّاً على اتهامات البابا

"يتابع مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا ببالغ الأسف والإنكار ما أدلى به البابا بنديكت السادس عشر رأس الكنيسة الكاثوليكية على مستوى العالم من تصريحات مسيئة للإسلام

(1) هو مؤسسة شرعية علمية غير ربحية، أعضاء كلهم من حملة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية. تسمى هذه المؤسسة إلى بيان أحكام الشريعة فيما يعرض للمؤمنين في أمريكا من النوازل والأفريات. ومن أبرز أعضاء هذه المؤسسة ومُستشاريها الأساتذة صلاح الصاوي وعلي أحمد السالوس وأحمد شليك ووهبة الزحيلي وعمر سليمان الأشقر.

(2) صدر هذا البيان في شهر أيلول من عام ٢٠٠٦م، وقد قام المجمع بنشره على موقعه الإلكتروني www.amjaonline.com كما نشرته الشبكة الإسلامية بتاريخ ٢٠٠٦/٩/٢١م على موقعها الإلكتروني www.islamweb.net.

والمسلمين في محاضراته بجامعة ريجنسبرج. وهي تصريحاتٌ تمُّ عن ذهولٍ أو جحودٍ لأبسط الحقائق الإسلامية، الأمر الذي لا يليق برجلٍ في مثل سنِّه ومكانته اللاهوتية، فهو الذي شارف الثمانين من عمره، وأنفق حياته بأسرها في الدراسات اللاهوتية، وتبوأ منصب الأستاذية بالجامعة، وأسس بها علم الأديان، وتدوَّج في المناصب اللاهوتية حتى تبوأ منصب البابوية منذ ما يزيد على عام!

ورغم كل مشاعر الغضب والاستياء التي تحتاح العالم الإسلامي عامَّةً وتحتاح مشاعر أعضاء المجمع وخبرائه خاصَّةً بمناسبة هذه التصريحات الفجَّة، إلَّا أننا سننطلق من أدب الإسلام في مجادلة المخالفين، ونستصح قوله تعالى في محكم آياته: {ولا تجادلوا أهل الكتاب إلَّا بالتي هي أحسن}، وستنوجه بكلمة هادئةٍ إلى البابا بنديكيت السادس عشر وإلى العالم من ورائه راجين أن يكون فيها إقامةٌ للحجَّة وتبرئةٌ للذمَّة!

أولاً: حول طلاقة المشيئة الإلهية

يذكر البابا في حديثه " أن (الله) في العقيدة الإسلامية مُطلقُ السَّمو، ومشيئته ليست مرتبطةً بأي شيءٍ من مقولاتنا، ولا حتى بالعقل، ثم عقد مقارنته مع الفكر المسيحي المنشعب بالفلسفة الإغريقية، زاعماً أن الفكر المسيحي ينحاز إلى العقل، ويرفض كلَّ ما يتناقض معه، ودلَّل على ذلك بما جاء في أول فقرة في سفر التكوين، وهي أول فقرة في الكتاب المقدس ككلُّ، استخدمها يوحنا في بداية إنجيله قائلا: في البدء كانت الكلمة. ويلاحظ أن هذه الكلمة لم ترد في صدر سفر التكوين كما ذكر وإنما ورد فيه " في البدء خلق الله السموات والأرض"

أمَّا طلاقة المشيئة الإلهية فهي موضع إجماع المسلمين، بل هي موضع إجماع الرسائل السماوية جميعاً قبل أن تمتد إليها يد البشر بالتحريف والتبديل. ولكنَّ هذا يمثل نصف الحقيقة فقط، أما نصفها الآخر فهو ما أجمع عليه حملةُ الشريعة أيضاً من أن مشيئة الله تعالى مرتبطةٌ بحكمته لا تنفصل عنها، فلا يشاء أمراً مخالفاً للحكمة ولا مخالفاً للحق، فهو لا يخلق شيئاً باطلاً، ولا يشرع شيئاً عبثاً، بل هو حكيمٌ فيما خلق، وحكيمٌ فيما شرع، فخبرةٌ صدقٌ، وحكمةٌ عدلٌ، {وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً}، فهو الحكم العدل، وتكرار ذلك في

القرآن كما يدركه القاصي والباقي، فلا تتعلق مشيئته بباطل، ولا تتعلق مشيئته بظلم، كيف وهو الذي خلق السماوات والأرض بالحق وأنزل الكتاب بالحق، وحرّم الظلم على نفسه وجعله محرّماً بين عباده، وهو جلّ وعلا لا يفعل إلا ما فيه الخير والصلاح لعباده، كما قال صلى الله عليه وسلم في مناجاته لربه: "الخير بيدك، والشر ليس إليك".

ثانياً: حول الثبات والتطوّر في مدلول كلمات الله

وللمزيد من استجلاء الحقيقة حول مدى استيعاب البابا للتصوّر الإسلامي نتابع كلمته - في ندوة كنسيّة حول الإسلام في أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥م - حول قابلية الإسلام للتطور التي اعترض عليها بشدة قائلاً "إن كلمة الله عند المسلمين كلمة أبدية كما هي، غير قابلة للتلاؤم مع المستجدات أو التأويل، وهذا فارق أساسي مع المسيحية واليهودية، فكلمة الله عندهم أوكلت إلى البشر، وأوكل إليهم أن تتعدّل لتتلاءم مع المستجدات".

ولتصحيح هذا التصوّر المغلوط نقول: إنّ كلمات الله منها المُحكّم القطعي ومنها المتشابهة الظني، والله في ذلك كلّ الحكمة البالغة، ولو شاء الله عز وجل أن يجعل كلماته جميعاً على نحو لا يحتمل في الفهم إلا معنى واحداً ما أعجزه ذلك، ولكنه جعل منها القواطع التي تمثل الشرع المحكم الذي تجتمع عليه كلمة المسلمين ويمثّل مبني دينهم، وجعل منها المتشابهات التي تمثل دائرة المرونة والتوسعة في هذه الملة، حتى لا تجبس الأمة في اجتهاد واحد أو في تفسير واحد، وبهذا يجمع مدلول كلمة الله بين الثبات والتطور، وبين القطعي والظني، وبين المحكم والمتشابه، ولهذا استوعبت شريعة الإسلام ما لا يحصى وما لا يتناهى من الوقائع والأحداث، ويبتدأ أحكام الله بشأنها، وذخرت المكتبة الإسلامية بمئات الألوف من الذخائر الفقهية التي حوت نفائس الاجتهادات ودقائق الاستنباطات، واستوعبت حاجات الإنسان على مدى الزمان وعلى مدى المكان، فلم تضق بجديد ولم تصادر فطرة، ولم تقم حاجة بشرية حقيقية، ولم تعثّ أحداً من البشر، ولا يزال فقهاؤنا يتحدثون عن تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان، وعن المصلحة ودورها في استنباط الأحكام، وعن الضرورات وفقهاها، والحاجات وتزليلها منزلة الضرورات في إباحة المحظورات في منظومة تشريعية بديعة محكمة ومنضبطة أذهلت العالم كله شرقاً وغرباً بما لا نظّته يخفى عن رجلٍ في مثل سنّ البابا وعلمه.

ولا تزال الجامع الفقهية المعاصرة تنظر نوازل الأمة ومستجدات حياتها، وتستنبط أحكامها وتقدم الصيغ والبدائل للمعاملات المحترمة في إطار يجمع بين المحافظة على الأصل واستيعاب العصر، فلم تحل حراماً مُجمَعاً عليه، ولم تحرم حلالاً مُجمَعاً عليه، ولم تبدل شرعاً مُجمَعاً عليه، ولم تقدم بين يدي الله ورسوله، فبقي الدين محفوظاً من الخلل، وبقيت الأمة ممنوعة من الزلل. أما ما فعله أحرار اليهود والنصارى بشرائعهم فالأبواب أخبر به! لقد استخفوا كتاب الله تنزيلاً وتأويلاً، فما حافظوا على تنزيله ولا على تأويله، لقد دخل التحريف على التنزيل بما يقر به علماء النصرانية أنفسهم وبما يعني عن الاستشهاد عليه من خارجهم، أما تحريفات التأويل فسيبك أنهم يحلون الحرام ويحرمون الحلال، وما خبر تقيين الشذوذ والسحاق وزواج المثلي وإباحة الربا وقد نهوا عنه بعبدي، وهو الأمر الذي يستنكره البابا لما عرف من تصلبيه، ولكن كائنات عديدة ومرجعيات نصرانية معتبرة في شرق العالم وغربه أقرته تحت سمع العالم وبصره، وهو الذي أشار إليه القرآن بحق في قول الله جل وعلا {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون}.. وقد كانت الربوبية فيهم أنهم يحلون الحرام ويحرمون الحلال فيتابعونهم على ذلك.

ثالثاً: حول العلاقة بين الإسلام والعقل

إذا كانت أول فقرة استخدمها يوحنا في بداية إنجيله كما يقول البابا: في البدء كانت الكلمة. فإن أول كلمة تنزلت في القرآن الكريم على محمد صلى الله عليه وسلم، هي قول الله جل وعلا {اقرأ باسم ربك الذي خلق} فهي دعوة إلى القراءة ودعوة إلى العلم، ولا يعرف كتاب احتفى بالنظر ودعا إلى التدبر وقدر العقل وأعلى من شأنه كالقرآن الكريم. وآياته التي يقرؤها المسلمون في المشارق والمغرب شاهدة بذلك، فقد أشاد هذا الكتاب الكريم بالعقل، وجعله مناط التكليف، وأصبح من القواعد الثابتة في شرعنا أن من لا عقل له، لا تكليف عليه، وقد أمر الله الناس أن يعملوا عقولهم، وأن يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض، حتى يخلص الإنسان من خلال ذلك إلى الحق الذي بعث الله به أنبياءه ورسوله، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَعْطِيكُمْ بِوَأَدْعِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قُرْآنِي ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} (سبأ: ٤٦). وعبر سبحانه الكفار بتركهم تعقل وتفهم وحيه، فشبهم بالبهائم، فقال سبحانه: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الذِّبْذِبِ إِذَا دُعِيَ إِلَى مِثْلِهِمْ لَقُوا بِمِثْلِ الْبَهَائِمِ} (سبأ: ١٧٥).

لا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمْ بِكُمْ عَمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} (البقرة: ١٧١)، وقال أيضاً: {إِنَّ شَرَّ الدُّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} (الأنفال: ٢٢)، والآيات في هذا الباب كثيرة، وهي لا تزال كتاباً مفتوحاً على العالم أجمع، فالعقل أساس النقل، وبالعقل ثبت النقل والوحي والنبوة، وإن من الأجدديات والبدهيات في دين الإسلام أنَّ العلم يسبق الإيمان، وأنَّ الإيمان ثمرة له، كما في قوله تعالى: {وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ} [الحج: ٥٤] فجعل العلم سابقاً للإيمان ثمرة له. ولا يُعْرَفُ في الإسلام تعارض بين عقلٍ صحيحٍ ونصٍ صريحٍ، وهو تحدُّ معروضٌ على العالم كله، فليأتونا بمثالٍ واحدٍ يهدم هذه الحقيقة، ولعلماء المسلمين في درء التعارض بين العقل والنقل مراجعٌ ومطولاتٌ، ولهم في ذلك من القوانين والقواعد الكليَّة ما لا يزال مفضرةً للفكر البشريِّ كله.

ومن العجيب أن يرمي رأس الكنيسة الإسلام بهذه الفرية ولا يُعْرَفُ دينٌ حَفَلَ بالعجائب والخرافات كالنصرانية المحرَّفة التي يتبوا البابا عرش بابوتها والتي تقول تعاليمها: آمين ثم اعلم! اعتقد وأنت أعمى! أغمض عينيك ثم اتبعني! والتي يقول أحد فلاسفتها الدينيين (أوغستين): أومن بهذا لأنه مُحالٌّ، أو غير معقول! ويقول أحد قساوستها من المعاصرين وهو القس وهيب الله عطا: "إن التجسيد قضيةٌ فيها تناقض مع العقل والمنطق والحس والمادة والمصطلحات الفلسفية، لكننا نُصَدِّقُ ونؤمنُ أنَّ هذا ممكن حتى ولو لم يكن معقولاً" (عن كتاب مقارنة الأديان لشلبي ١٢٤/٢).

هل يستطيع البابا أن يُمنطقَ لنفسه أو للعالم عقائد النصرانية من الصلب والفداء والتثليث والتجسيد والعشاء الرباني وسائر ما حفلت به عقائد القوم من العجائب والغرائب والأباطيل؟!!!

رابعاً: حول مفهوم الجهاد في الإسلام

يُنددن البابا حول مغالطة كبرى مُعادَة ومكرورة، يَرَعَمُ مَنْ تَوَلَّى كِيرها أنَّ الإسلام قد انتشر بالسيف، أي أنَّ حروبه كانت لقهر الناس على الإيمان، ثم يصول البابا ويجول في بيان أنَّ هذا مجافٍ للمنطق ولطباع الأشياء، بل مجافٍ لطبيعة الرب ذاته التي لا تُحِبُّ الدماء والتي تجعل من الكلمة والإقناع الطريق الوحيد إلى الإيمان. والحقيقة التي لا مرأى فيها

أنَّ الجهاد في الإسلام إنما شُرِعَ لدرءِ الحِرابَةِ وكفِّ العِدوانِ، وليس للإكراهِ على اللّدينِ سواءَ كانت هذه الحِرابَةُ واقِعَةً بالفعلِ، وهو ما يُسَمَّى بجهادِ الدِّفعِ، أو متوقِّعَةً ولاحَت نذُرُها بدلائلِ قطعيَّةٍ وبيِّناتٍ يقينيَّةٍ وهذا هو جهادِ الطَّلَبِ، وحسبنا هذه الآية القطعية المحكَّمة من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ { لا إكراهَ في الدينِ قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ } [البقرة: ٢٥٦]. ولم تخرج حروبُه كلها، صَلَّى اللهُ عليه وسلم، عن ذلكَ لمن تَدَبَّرَ السيرةَ وأمعنَ النظرَ في حروبِه وغزواتِه، صَلَّى اللهُ عليه وسلم؛ ذلكَ أنَّ هذه الأمةُ أُمَّةٌ هاديَّةٌ، وليست أُمَّةٌ بغيٍّ وحِرابَةٍ، وحيثما أمكنَ استحياءُ النفوسِ بالإيمانِ أو بالأمانِ فلا ينبغي العُدولُ عن ذلكَ فإنَّ اللهُ تعالى لم يُنخِ من قتلِ النفوسِ إلا ما لا بُدَّ منه لصلاحِ الخلقِ، دفعاً للعدوانِ ودحرًا للمعتدينِ، ولعلَّ اللهُ أن يخرِّجَ من أصلابِها من يعبدُ اللهُ تعالى ويوحِّدُه، وقد قال تعالى: { وقاتلوا في سبيلِ اللهِ الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدينِ }.

وكلُّ ما ذكره البابا من مجافاةِ القهرِ على الإيمانِ للمنطقِ وحكمةِ الرّبِّ جلَّ وعلا فهو وإن كان صحيحاً في مُجمَلِه ولكنَّه لا علاقةَ له بالإسلامِ الذي يسوقُ البابا هذا الكلامَ للإرجافِ حوله والتشنيعِ عليه.

وإذا كان البابا ينطلقُ في حديثِه من بعضِ حوادثِ العنفِ التي تقعُ في مناطقٍ متفرقةٍ من العالمِ، فلا نحسبُ أنه يخفي على مثله أنَّ العنفَ ظاهرةٌ عالميَّةٌ لم تكدْ تنفكْ عنها أُمَّةٌ من الأممِ، ولا ملةٌ من المللِ، وأنَّ ما يقعُ من مظاهرِ العنفِ في بعضِ مناطقِ العالمِ الإسلاميِّ أو من بعضِ من ينتسبونَ إليه فإنَّ منه ما هو مشروعٌ لا يَنكُرُه على أصحابِه إلا ظالمٌ لنفسِه، وهو ما يندرجُ تحتِ أعمالِ المقاومةِ المشروعةِ التي اتفقتْ على مشروعيتها الشرائعُ السماويةُ والقوانينُ الوضعيةُ، كهذا الذي يجري على أرضِ فلسطينِ والعراقِ ولبنانِ وغيرها من المناطقِ المحتلَّةِ في عالمنا الإسلاميِّ، لدفعِ ما وقعَ عليها من الظلمِ والعدوانِ، والذي لو وقعَ مثله على دولةِ الفاتيكانِ ما وسعَ البابا إلا أن يُعلنَ بنفسِه النفيَ، وأن يندمجَ إلى قوافلِ المقاومةِ، وأن يَجيشَ قومه قاصيهم ودانيهم لدفعِ العدوانِ ودحرِ المعتدينِ! ومنه ما هو غير مشروعٍ كهذا الذي جرى في الولاياتِ المتحدةِ ولندنِ وغيرها وهو الأمرُ الذي يدينُه المسلمونَ قاطبةً، ويعتقدونه خروجاً صارخاً على أبسطِ قواعدِ المشروعيةِ الإسلاميَّةِ، وهذا النوعُ من العنفِ إن كان سببه ما يقعُ على أُمَّةِ الإسلامِ من مظالمٍ واعتداءاتٍ تحتِ سَمعِ العالمِ وبصرِه، ولكنَّ هذا لا يُستوعَبُ مثل هذه الأعمالِ ولا يُضفي عليها مشروعيةً بحالٍ من الأحوالِ.

ومن ناحية أخرى فهل نسي البابا ما ارتبط بالمسيحية من عنفٍ على مدار التاريخ قديماً وحديثاً سواء في صراعاتها الداخلية أم في صراعها مع العالم الإسلامي بدءاً من الحروب الصليبية وانتهاءً بالحملات الاستعمارية في العصر الحديث؟!

يقول "هانز كونج" عالم اللاهوت السويسري، المحاضر السابق بالجامعات الألمانية، ومؤسس "مشروع الأخلاق الكونية"، في معرض انتقاده لبابا الفاتيكان: إنه "وضع العنف والإسلام في سلّة واحدة، وأغفل ما ارتبط بالمسيحية على مدار التاريخ من عنف".

واستطرد كونج: "المسلمون لا يتذكرون فقط الحملات الصليبية؛ بل يذكرون أيضاً الاستعمار الأوربي بالقرن الـ ١٩ الذي امتد من المحيط الأطلسي حتى ماليزيا".
الجديد الذي جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم

ويبلغ التطاول والعدوان ذروته عندما يسوق البابا في حديثه قول الإمبراطور البيزنطي في حديثه المزعوم للمسلم الفارسي: أرني شيئاً جديداً أتى به محمدٌ، فلن تجد إلا ما هو شرير ولا إنساني، مثل أمره بنشر الدين الذي كان يُنشرُ به بحدّ السيف".

وبعيداً عن الشكّ الذي يكتنف هذه الرواية من حيث المبدأ، وعن ذكره لقول الإمبراطور البيزنطي وصمته عن جواب المسلم عنه، وهو الأمر الذي يجافي أبسط قواعد الإنصاف والموضوعية، فإن الجحود والجهل والحقد الذي يكتنف هذه المقولة أكبر من أن تحيط به كلباتُ البشر بالغة ما بلغت!

وفي البداية نوّكد على أنّ محمداً، صلى الله عليه وسلم، لم يكن بدءاً من الرسل، بل جاء بما جاء به سائر الأنبياء من قبله من التوحيد وأصول الشرائع، كالدعوة إلى عبادة الله وحده، والكفر بما يُعبَد من دونه، والدعوة إلى مكارم الأخلاق والنهي عن سفاسفها، وغير ذلك من أصول الشرائع التي اتفق عليها سائر النبيين، فهو اللبنة الأخيرة في بيان النبوة الذي تكامل به على مدار التاريخ، وهو القائل إنما بُعثتُ لأتممّ مكارم الأخلاق، والقائل [إِنْ مَثَلِي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجلٍ بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنةٍ من زاويةٍ، فجعل الناس يطوفون به ويُعجبون له ويقولون هلاًّ وضعت هذه اللبنة قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم

النبيين [ثم بعد هذا خصَّه اللهُ عز وجل بياقةٍ من الخصائص تميَّز بها وتميَّزت بها دعوته، وهو الأمر الذي لا يحول دون الإقرار به إلا البهتُ الصريحُ أو الجهلُ الفاحش!]

تري أيجهلُ البابا أنَّ محمداً، صَلَّى اللهُ عليه وسلم، قد وضع بدينه الإصر والأغلال التي كانت على بني إسرائيل بظلمهم وفسوقهم وفسوقهم عن أمر الله؟! أم هو الجحود والتجاهل؟! أيجهلُ البابا أن محمداً، صَلَّى اللهُ عليه وسلم، هو الذي أعاد للمرأة كرامتها، وقد كانت سلعةً تُباع وتُشتري وتُورثُ كما يُورثُ المتاع؟! أم هو الجحود والتجاهل؟! أيجهلُ البابا أنَّ محمداً، صَلَّى اللهُ عليه وسلم، هو الذي جاء بمنظومة متكاملة من الأحكام والشرائع المدنية والحقوقية بما لا يسع العالم إلا أن يقف أمامها صاغراً ومذهولاً؟! أم هو الجحود والتجاهل؟! أيجهلُ البابا أنَّ محمداً، صَلَّى اللهُ عليه وسلم، هو الذي جاء بمنظومة من القواعد والآداب التي تحكم العلاقات الدولية حرباً وسلاماً بما لا ترقى إلى عشرٍ معشاره أرقى الاتفاقيات الدولية المعاصرة؟! وهو الأمر الذي شهد به كبار الحقوقيين من بني جلدته؟! أم هو الجحود والتجاهل؟! أيجهلُ البابا أنَّ محمداً، صَلَّى اللهُ عليه وسلم، هو الذي أعلن المساواة بين الجنس البشري، وهدم التمييز بين البشر على أساس الألوان أو الأعراق أو الألسنة، ولم يجعل معياراً للتفاضل بينهم إلا بالتقوى، وقد تجسَّد ذلك في المؤاخاة التي جرت في المدينة، ثم تجذَّر هذا المفهومُ في المجتمع المسلم وأصبح من أكَّد الإنجازات الحضارية التي قدَّما الإسلام للبشرية؟! أم هو الجحود والتجاهل؟!

أيجهلُ البابا أنَّ محمداً، صَلَّى اللهُ عليه وسلم، هو الذي قدَّم إلى البشرية التكامل بين الروح والجسد، والتوافق بين العقل والقلب، والتمازج بين الدنيا والآخرة، ولَبَّى مطالب الإنسان المادية كما أشبع أشواقه الروحية، في تكاملٍ وتناسقٍ بديعٍ عجيبٍ، وجاء بالوسطية السمحة بين الرهبانية العاتية والمادية الطاغية؟! أم هو الجحود والتجاهل؟!

هذا غيضٌ من فيضٍ، ولا تحتمل مثل هذه المقولة أكثر من هذه الإشارات الجملة!
هل يمكن اعتبار ما صدر عن البابا من قبيل الزلَّة العارضة؟

وأخيراً فإنه لا يمكن حمل كلمات البابا على أنه من قبيل الزلَّة العارضة أو الفلتة العابرة كما اعتبر بعضهم كلمة "بوش" في حديثه عن قيادته لحروب صليبية في بدايات مسلسل ما ساء الحرب على الإرهاب، فكلمة البابا جاءت في سياق محاضرة أكاديمية له،

وهو الرجل الأكاديمي الذي درّس في الجامعة لسنواتٍ عديدةٍ، وحصل بها على درجة الأستاذية، وأسس بها علم الأديان، وهو يُمثّلُ كنيسةَ تعتقد العصمة لرجالها، وتدقّق فيما يصدر عنهم من كلماتٍ وتصريحاتٍ قبل تطهيرها، لغسْرِ رجوعها واعتذارها عمّا يُنسب إليها، ولم تتراجع الكنيسة عن كثيرٍ من أخطائها إلا بعد مرور مئات السنين عليها!

كما لا يمكن فصل هذه الكلمة عن السيرة الذاتية للبابا الذي يحملُ مشاعرَ سلبيةً تجاه الإسلام والمسلمين فاضت بها مواقفه وتصريحاته، سواءً منها ما كان قبل تبوئه منصب البابوية كما حدث عندما أدلى بتصريحٍ في عام ٢٠٠٤م عندما كان كبيرَ علماء اللاهوت في الفاتيكان أعرب فيه عن مناهضته لانضمام تركيا للاتحاد الأوروبي لأنها دولةٌ مسلمةٌ! أو ما كان منها عبر مشوار ولايته البابوية على قصره كما حدث عند استقباله لمئتين مسلمين في مدينة كولونيا بقوله (إنَّ على المسلمين نزحٌ ما في قلوبهم من حقدٍ، ومواجهة كلِّ مظاهر التعصب، وما يمكن أن يصدر منهم من عنفٍ)! وكاستقباله للكاتبة الإيطالية المقيمة في الولايات المتحدة (أوريانا فالانثي) والتي تُوَلِّبُ في كتبها ومقالاتها على الإسلام والمسلمين. والتي تصفُ الإسلام كلّه بالتطرف ولا ترى فرقاً بين إسلامٍ مُتطرفٍ وإسلامٍ معتدلٍ! هل يحمل الأسف الذي أعلنه البابا اعتذاراً عن تصريحاته أو تراجعاً عنها؟

وما اعتذر به البابا من القول بأنه يُشعُرُ بالأسف بعد أن رأى أنَّ كلمته عن الإسلام التي تحدثت عن انتشار الديانة عبر إراقة الدماء كانت مسيئةً، قائلاً إنه يحترم عقيدتهم ويأمل أن يفهموا "المعنى الحقيقي" لكلماته. فالواقع أنَّ مثل هذا الأسف لا يفيد في هذا المقام، ذلك أن المشكلة لا تتمثّل في "قصده" بل في مضمون كلماته، فضلاً عن أنَّ هذا المضمون هو الموضوع المفضّل قديماً وحديثاً لدى بنديكت السادس عشر، أي التوفيق بين "العلم والدين" أو "العقل والعقيدة"، وتلك "مشكلةٌ كنسيّةٌ" قديمةٌ جديدةٌ، فحديثه [عن الإسلام] لا يمكن كما سبق اعتباره من قبيل الزلة العارضة، ومن هنا كان حديثه عن الإسلام في المحاضرة - على أفضل التفسيرات- من باب "المثال"، الذي أراد ذكره للقول إنَّ التناقض (في زعم القائل) بين الدين والعقل يمنع الحوار مع الآخرين، ومن ناحيةٍ أخرى فإنَّ هذا الأسف يحمل تجهيلاً للمسلمين وسباً جديداً لهم بقصور الفهم وضيق الأفق، وادعاءً بأنهم لم يرتقوا إلى المستوى الذي يؤهلهم لفهم كلماته ولذلك فإنه يأسى لهم ويأسف لحالهم!!

أما قولُ بعضهم بأن البابا قد أورد مقولة قيصرٍ بيزنطيٍّ ولا يعني إيرادها بالضرورة تبنيّه لمضمونها فإنه قولٌ لا يتسوّى قبوله في هذا المقام، فقد كان باستطاعة البابا الكاثوليكي ذي الأصل الألماني، المتحدّث بالألمانية، لجمهور ألمانيٍّ، على الأرض الألمانية.. كان باستطاعته لو أراد شيئاً آخر سوى "مضمون" الاستشهاد، أن يأتي مثلاً ببعض ما قاله عن الإسلام القيصر الألماني غليوم الثاني قبل أقلّ من قرنٍ واحدٍ، بدلاً من القيصر البيزنطي إيمانويل الثاني قبل ستة قرون، أو ببعض ما قال به جوتة، أشهرُ شاعرٍ وأديبٍ ألماني، أو سواهما - وسواهما كثير- من مشاهير الفلاسفة الألمان وغير الألمان في حقبة "التنوير" الأوروبية.

للحوار آدابه وقواعده

أما قولُ البابا "إنه يؤيّد بشكلٍ مطلقٍ الحوار بين الأديان والثقافات" فإننا نقول له: إنَّ للحوار آدابه وقواعده، متى التزم بها المتحاورون كان الحوار مثمراً وبتاءً، وإلا فإنه يفتح أبواباً إلى الجدل العقيم وإثارة الأحقاد والضغائن بما لا يفيد قضية الحوار بل ربما أتى بنقيض ما أُريدَ بها.

وأخيراً فإنَّ للبابا أن يكفر بالله ورسوله كما شاء، وأن يُسيء الظن ببنّيه ورسالته كما شاء، فتلك قضيتُهُ التي لا شأن لنا بها، وسيردُّ إلى ربه فيحاسبه على ذلك، أما أن يُحوّلَ هذا الكفر إلى سبابٍ وأكاذيب فهذا الذي نتحدّث عنه في هذا المقام وهو الذي يرفضه منطقُ الحوار الذي يرفع البابا لواءه ويفتح أبوابه.

وما أحوجنا في واقعنا المعاصر وقد مزقته الصراعات وأشقته المنازعات إلى صوت الحكمة الذي يرفعه عقلاء العالم على اختلاف أجناسهم وملهم ونحلهم لكي يجتنبوا البشرية ويلات هذه الحروب الطاحنة ويمهتوا الأجواء لتعايشٍ سلميٍّ هادئٍ يمشي الناس فيه في مناكب الأرض يبتغون من رزق الله ويتعرّفون على هدايات أنبيائه ويسعون في مرضاته بعيداً عن التطاحن والتظالم والتقاتل الذي لا تصلحُ به دنيا ولا يُقام به دينٌ، والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل^(*).

(*) هنا ينهي النص الكامل لبيان مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا.

يُستفاد مما سبق أنّ علماء الأمة لم يقصّروا ولم يدّخروا حمداً في كلّ الأزمان والعصور التي مرّت على الإسلام. لقد نهض علماءنا بكلّ عزة وشموخ ليردّوا الشبهات والافتراءات عن الإسلام ونبوة الحبيب المصطفى ﷺ، وهي الشبهات التي كان رهبان الكنيسة الغربيّة في العصور الوسطى قد أسّسوا قواعدها وأقاموا بنيانها، وحاولوا أن يجعلوها سياجاً شائكاً يضرّونه حول الإسلام ويحاصرونه به، حتّى يصدّوا الناس عن الدخول فيه. نعم، لم يتعرّض دينٌ ولا نبيٌّ في تاريخ البشريّة من عهد آدم وحوّاء، عليهما السلام، إلى يومنا هذا لما تعرّض له الإسلام والحبيب المصطفى من حملاتٍ محاربةٍ وتشويهٍ وتزييفٍ وتضليلٍ استهدفت الثيل منها والقضاء عليها. فكانت النتيجة أن نهض العلماء من أبنائه ليندودوا عن حياضه، ويمحوه ويقدموه للعالم بصورته الحقيقيّة كما هي دون تعديلٍ أو تجميلٍ؛ نعم فالإسلام لا يحتاج إلى تجميلٍ أو تعديلٍ من أحدٍ، فهو الدّينُ الذي ارتضاه الله لنا، جميلاً سهلاً واضحاً كاملاً غير منقوصٍ يحملُ في كينونته القدرة على الاستمرارية والنمو والازدهار..

ولمّا توالى الشبهات توالى الردود، ولمّا استمرّت حملاتُ التزييف استمرت حملاتُ التوضيح ولا زالت المعركة مستمرة...

المبحث الرابع

الردود الشافية الكافية على ما تقدّم من شبهات ومطاعن ونقضها تفصيلاً

الحمد لله الذي بنعمته تمّ الصّالحات. وبعد؛ فقد وقفنا فيما سبق على الدور الخطير الذي لعبه رهبان العصور الوسطى حين أسسوا للأباطيل والشبهات التي أطلقوها على الإسلام ونبوة الحبيب المصطفى - ﷺ - ... كما تقدّم القول في أنّ خطورة هذه الشبهات تكمن في استمراريتها وبقائها حيّة في عصرنا هذا، مع الأخذ بعين الاعتبار خضوع بعضها للتعديل والزيادة والتطوير. كما تكمن خطورة هذه الشبهات كذلك في إصابة سهاها لقلوب بعض العوام من المسلمين حيث أصابتهم بالتشكك في دينهم والحيرة والقلق، فتركهم يتساءلون عن هذا الثبأ العظيم، وهم لا يدرون كيف يردّون عنه سهام الباطل والكيد والأذى ...

وقد استدعى هذا الأمر، قديماً وحديثاً، نهوض علماء الأمة ودعاتها والأساتذة وطلبة العلم فيها ليقوموا بالدور المطلوب منهم في هذا الصدد، فلم يقصروا ولم يُطّئوا - جزاهم الله خيراً - وهم يدركون تماماً أنّ نهوضهم هذا إنّما هو جزءٌ من حقّ الله تعالى عليهم. "ومن بعض حقوق الله على عبده ردّ الطاعنين على كتابه ورسوله ودينه، ومجاهدتهم بالحجة والبيان، والسيّف والسنان، والقلب والجنان، وليس وراء ذلك حبة خردلٍ من إيمان" (1).

نحن نوقن بأنّ هذا الدّين متين، واضح لا تشويبه شائبةٌ، ولن تُقَصّص من علوّ قدره ومنزلته الشتائم والمطاعن التي يُميرها رجالات الكنيسة الغريبة، فقد سبقهم إلى مثل ذلك كقارّ قريش الأوائل ... ولكن يجب أن يعلم هؤلاء الكارهون الطاعنون وكلّ من دار في فلكهم أنّ لهذا الدّين فرساناً جاهزين على مدار الساعة، لكلّ أنواع المواجهات وعلى رأسها وفي مقدّمتها الفكرية العقديّة. لأنّ الشكوت في عالم اليوم لن يؤدي إلا إلى مزيد من ارتياب المُبتلّين وتماديهم في غيهم، ولن يفهم إلا على أنّه عجز عن الردّ وبالتالي صحّة المطاعن والشبهات والشكوك.

(1) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق عصام الحرساني، ص 27، ط 1، 1994، المكتبة الثقافية، بيروت.

هذا يعني أصابنا في ديننا ورسولنا الكريم وبالتالي وجب الانتصار لها والدُّودُ عنها مصداقاً لقوله تعالى: "وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ" (١). مع التذكير بأننا في حديثنا هذا لا نقومُ لحمل السيوف أو لإطلاق الرصاص أو لإخضاع المخالف لنا بالقوة والقهر، ولا وإنما نهضُ وبين أيدينا مصدرٌ يُعلِّمنا كيفية النهوض وآدابه ومقتضياته، نهضُ كما نهضَ محمدٌ ﷺ، لا شتاماً ولا سباً ولا طعناً، نهضُ لئخاطب العقول والقلوب ونفض الغبار عن فطرة الناس السليمة التي فطرهم الله عليها لمواجهة الحجّة بالحجّة ودافعين بالحسنة السيئة، لتستبين السبيل لكلِّ من عمي عليه وفُرضت عليه نظارة سوداء لا يلبسها إلا حين ينظر إلى الإسلام والمسلمين ونبوة الحبيب المصطفى ﷺ.

وتجدر الإشارة قبل الشروع في إيراد الردود على الشبهات أن مُطلقي هذه الإشاعات والشبهات قد أخذوا جذورها وأصولها من كتب التراث الإسلامي (ككتب التفسير وشرح الحديث والتاريخ الإسلامي) ثم صاغوا لها القوالب والأشكال التي تلائم هواهم وأهدافهم، وبالتالي فهم مُطالبون بالقبول بالتوضيحات والتفسيرات التي جاءت في نفس الكتب التي يزعمون أنهم استفقوا معلوماتهم منها. ونذكرُ بادئ ذي بدءٍ، بأن كثيراً من المواضيع التي تناولتها الشبهات قد سبق لأئمة الكفر وصناديده الأوائل من قرينش أن أثاروها وتعلقوا بها، فقذفوه، ﷺ، بالسحر والجنون والتلذذ على يد الأعاجم، وما إلى ذلك من الاتهامات. وقد كان واقع حال النبي ﷺ، آنذاك يكذبهم، ويدفع اتهاماتهم وشبهاتهم حتى إنها لتبدو في صور الأباطيل المتهاكة التي لا يلقى إليها بالٌ ولا تنال الكثير من الاهتمام والترويج.

الشبهة الأولى ودفعها:

كان محمدٌ مُصَاباً بالصرع، وكان يُعلّلُ حالات الصرع التي تُصيبه بأنّها وحىٌ ينزلُ عليه من السماء بواسطة ملكٍ اسمه جبريل. وقد حدث ذات مرّة أن غابت عنه حالات الصرع الذي يُسمّيه وحياً لفترة غير قصيرة فشرعَ محمدٌ في الانتحار.

(١) سورة الشورى: الآية ٣٩.

- هذه الشبهة مركّبة من جزأين، أولها أنّ رسول الله ﷺ كان يُصاب بالصرع وثانيها أنّه،
حاشاه، عليه قد شرع في الانتحار.

- أما عن أكذوبة إصابة النبي ﷺ بنوباتٍ من الصّرع فيكذبها ما يلي:

"إنّ المريض بالصرع يُصاب بالأمّ حادّة في أعضاء جسمه كافة، يحسّ بها عندما
تنتهي نوبة الصرع، ويظل حزينا كاسف البال، وكثيراً ما يحاول مرضى الصرع الانتحار من
قسوة ما يعانون من الآلام. فلو كان ما يعتري النبي ﷺ عند الوحي صرعاً، لَحَزَنَ لوقوعه
وَلَسَعِدَ بانقطاعه، ولكنّ الأمر بخلاف ذلك. ثمّ إنّ الثابت علمياً أنّ المصروع أثناء الصرع
يتعطلُ تفكيره وإدراكه تعطلاً تاماً فلا يدري المريضُ في نوبته شيئاً عمّا يدور حوله، ولا ما
يجيش في نفسه، كما أنه يغيب عن صوابه. والنبي ﷺ بخلاف هذا كلّه كان يتلو على الناس،
بعد انتهاء لحظات نزول الوحي، آياتٍ بَيِّنَاتٍ وَعِظَاتٍ بليغاتٍ، وتشريعاً مُحْكَمًا، وأخلاقاً
عاليةً، وكلاماً بلغ الغاية في الفصاحة والبلاغة، فهل يُعقلُ أن يأتي المصروعُ بشيءٍ من
هذا؟" (1).

ثمّ إنّ كان محمدٌ ﷺ مصاباً بالصرع فلماذا سكنت عن ذلك نساؤه رضوان الله
عليهنّ؟ ثمّ لِمَ اتّبعه أحكمُ رجال قريش وأعقلهم كالصديق والفراروق وعثمان وعليّ رضوان الله
عليهم؟ وقبل هذا كلّه وذاك فلماذا يسكت صناديدُ قريش من أعدائه عن ذلك، وهم الذين
يتريصون به ريب المنون آناء الليل وأطراف النهار؟ لماذا يسكتون وهم كانوا بانتظار ولو
هفوةٍ أو زلّةٍ ليجعلوا منها مأخذاً عليه وعلى نبوّته؟؟ لعمرى لو كان هذا صحيحاً لسرّت
الفضيحةُ في السرّ والعلن، ولسار بخبرها الرّكبانُ ولعلمُ بها القاصي والناي. ولكنّها شمس الحق
عندما تشرق فتغطّي على كل نورٍ سواها، شمس الحق التي تشرق كلّ يوم على ما يزيد عن
المليار والنصف من سكّان هذه الأرض الذين يؤمنون بدعوة هذا الحبيب المصطفى ﷺ.

- أمّا عن أكذوبة شروعه ﷺ في الانتحار، فقد بنى الكاذبون شبهتهم وفريتهم هذه على ما
ورد في بعض كتب السّيرِ والتفسير من أنّ النبي ﷺ قد حزن حزناً شديداً لما فتر
الوحي وأصابه ضيقٌ وألمٌ لذلك. فزعم المقترون أنّه عليه السلام قد فكّر بالانتحار وقتلِ

(1) الجبري، عبد المتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ص ٥٩ بصرف، ط١، ١٩٨٨، مكتبة وهبة، مصر.

نفسه بسبب ذلك وأخذ يتنقل في رؤوس الجبال ليلقي نفسه من أعلاها، فنزل القرآن مُعاتباً له يقول "فلعلك باخع نفسك". وفسروا ذلك بقولهم: أي فلعلك تقتل نفسك غمّاً!!! وكلام هؤلاء باطلٌ مردودٌ ليس له ما يدعمه من حديثٍ صحيحٍ ولا حسنٍ ولا حتى ضعيفٍ. وليس هناك تفسيرٌ عند أيٍّ من علمائنا الأفاضل يؤيده، فقوله تعالى:

" فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ

أَسَفًا " (١) يُجَسِّدُ وَبِكَ لُ وَضُوحٌ حَرَصَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى هِدَايَةِ قَوْمِهِ وَيُظْهِرُ تَأَلُّمَهُ بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ لَهُ وَصَدَّاهُمْ عَنْهُ، وَذَلِكَ إِشْفَاقاً مِنْهُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ مَا يَنْتَظِرُهُمْ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ إِنْ هُمْ بَقُوا مُصْرِّينَ عَلَى كُفْرِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.

كفيع فهم هؤلاء الزاعمون دلالة هذه الآية على محاولة النبي الانتحار ورغبته فيه لاندرى!!! ثم كيف يُعقلُ أن يقوم النبي بذلك وقد رَفَضَ الصلاة على رجلٍ قتل نفسه بنصلٍ سهم، وكذلك أخبرنا بأن المنتحر خالدٌ مُخلدٌ في نار جهنم!! روى الإمام النسائي (٢) في الجزء الرابع من سننه في كتاب الجنائز في (باب ترك الصلاة على من قتل نفسه) قال: "أخبرنا إسحاق بن منصور قال أنبأنا أبو الوليد قال حدثنا أبو خيثمة زهير قال حدثنا سماك عن ابن سمرة أن رجلاً قتل نفسه بمشاقص (٣). فقال رسول الله ﷺ: أما أنا فلا أصلي عليه. أخبرنا محمد بن عبد الأعلى قال حدثنا خالد قال حدثنا شعبة عن سليمان سمعتُ ذكوان يحدثُ عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - قال: مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتْرَدَى خَالِداً مُخْلِداً فِيهَا أَبَداً. وَمَنْ تَحَسَّى سَمًا فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمُهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخْلِداً فِيهَا أَبَداً. وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِمَجْدِيدَةٍ ثُمَّ انْقَطَعَ عَلَيَّ شَيْءٌ خَالِدٌ يَقُولُ كَانَتْ حَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخْلِداً فِيهَا أَبَداً".

(١) سورة الكهف: الآية ٦.

(٢) انظر: أ. سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي ج ٤، كتاب الجنائز، باب (ترك الصلاة على من قتل نفسه)، ص ٦٦، ٦٧، ط دار البشائر الإسلامية، بيروت.

ب. صحيح البخاري كتاب الطب، باب شرب السم والنواء به وما يخاف منه والحديث.
(٣) المشاقص: فصل السهم إذا كان طويلاً غير عريض.

وقول تأكيداً على ما سبق: إن كان النبي - ﷺ - قد رفض الصلاة على من مات منتحراً فكيف يُعقل أن يكون عليه السلام قد شرع في الانتحار؟؟ لعمرى إنه كلام تشعير له الأبدان.

الشبهة الثانية ودفعها:

إن كان محمدٌ يزعمُ أنَّ كتاباً أنزلَ عليه من السماء، فإنَّ هذا الكتاب عينه يُخبرنا أنَّ محمداً كان مُذنباً (واستغفرَ لذنبك) كما يُخبرنا هذا الكتاب كذلك أنَّ محمداً كاد أن يُقتلَ (وإن كادوا ليفتنونك).

- هذه الشبهة هي الأخرى مركبةٌ من جزأين أولها اتهامُ الرسول - ﷺ - بارتكاب الذنوب وثانيها اتهامه بأنه كاد أن يُقتلَ.

- أما عن شبهة ذنوب النبي ﷺ فتفنيدها هو التالي:

من الطبيعي والمتوقع أن يتوَدَّ أخذُ الآياتِ الكريمة السابقة على ظاهرها إلى فهمٍ غير صحيح لها، حيث أنَّ المعنى الظاهر هنا يُعارضُ عصمةَ الله تعالى لأنبيائه ورسله عن الوقوع في المعاصي والآثام والذنوب، إذ لا يصلحُ مذنبٌ وآثمٌ وعاصٍ لأن يكون قدوةً للناس يأخذ بيدهم إلى الخير والفلاح ويقودهم لتطبيق تعاليم شرع الله تعالى "فذنُبُ الرسول ﷺ ليس ذنباً حقيقياً، قائماً على فعل المعصية، وإنما هو ذنبٌ معنويٌّ يقوم على نوعٍ من تركِ الأولى، والسهو والغفلة والنسيان، الذي لا يؤدي إلى ترك واجبٍ أو فعلٍ محرَّم. وقد يفعل الرسول ﷺ خلافَ الأولى، فيعاتبه الله، وقد يمر بحالةٍ من السهو اليسير أو الغفلة البسيطة، فيتداركه الله، وهذا نوعٌ من التقصير، يستدعي أن يستغفرَ الله منه، ليبقى ﷺ في كامل تألقه وارتقائه. وقديماً قيل: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقربين. إنَّ استغفارَ الرسول ﷺ وتوبته نوعٌ من أنواع ذكره الله، وعلى هذا قوله ﷺ: "إنه ليغانُ على قلبي فأتوبُ إلى الله واستغفره في اليوم مئة مرة" فاستغفاره لله صورةٌ من صور ذكره وشكره له^(١).

(١) الخالدي [م، س]، ص ٦٩٠.

وعلى ذلك يكون الأمر بالاستغفار أن يستغفر النبي ﷺ من الأمور التي اجتهد فيها، من غير وحي إليه فيها، فترك الأولى (الأحسن) وأخذ بالحسن وكان من أمثلة ذلك أنه عليه الصلاة والسلام قد أذن لبعض المنافقين بالتخلف عن إحدى الغزوات والعودة عن الجهاد، وكذلك قبوله - عليه السلام - أخذ الفدية من أسرى معركة بدر، وكذلك أيضاً عندما عبس وجهه عليه الصلاة والسلام، وأعرض لأجل عن عبد الله بن أم مكتوم في وقت كان منشغلاً فيه، عليه السلام، بعرض الإسلام على بعض كبار وأشرف غير المسلمين. وبالعودة لقوله تعالى: " لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ " (١) فإننا نذكر هؤلاء الذين أجروها على معناها الظاهر فاتهموا الحبيب المصطفى بارتكاب الذنوب والآثام بأنه لو كان مذنباً - كما يظنون ويزعمون - لما أيده الله تعالى بنصره وتوفيقه، ولما أتم عليه نعمته وهداه صراطاً مستقيماً، فهذه كلها أمور لا تنبغي للمذنبين والعصاة والآثمين أبداً.

لقد كان من الجدير بهؤلاء الرهبان المستشرقين القدامى والمعاصرين الذين يتهمون الحبيب المصطفى بارتكاب الذنوب - التي لا زالوا غير قادرين حتى هذه الساعة على إثبات واحدٍ منها - كان من الجدير بهم الالتفات إلى كتابهم المقدس الذي وسّم أنبياء الله تعالى بكلّ مالا يليق بهم من أوصافٍ قبيحةٍ وذنوبٍ عظيمةٍ، حيث نسب إلى الكثيرين منهم الكذب والشكر وزنا المحارم والرقص غراً والأمر بممارسة القتل والإبادة الجماعية!!!.

- وأما عن شبهة "كاد محمد أن يقتن" ففضيئدها ما يلي:

إنّ هذه الشبهة مبنية على فهم خاطئ وتفسير مغلوط لقوله تعالى: " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِينَ أُوْحِيَْنَا إِلَيْكَ لِنُفْتِرِيَّ عَلَيْكَ غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تُبَشِّرْنَا لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا " (٢). وقبل الشروع في إيراد التفسير الصحيح لهاتين الآيتين الكريمتين نشير إلى أنّ

(١) سورة الفتح: الآية ٢

(٢) سورة الإسراء: الآيات ٧٣، ٧٤.

فيها ردّاً صريحاً ومباشراً على كلّ أولئك الذين اتّهموه - عليه الصلاة والسلام - بأنّه جاء بالقرآن من عنده وأنه المؤلّف الحقيقي له. لأنّه لو كان كذلك، حاشاه، فلماذا يكتب آيات يُعاتب نفسه فيها؟؟؟

وقد ذكر المفسّرون أسباباً متعدّدة، ولكنها متقاربة في معناها، لنزول هاتين الآيتين الكريمتين، وقد ساقها الإمام السيوطي، رحمه الله، في تفسيره، وكان من أبرزها ما يلي^(١):

١. أخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم وابن مردويه، عن ابن عباس قال: إنّ أميّة بن خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً من قريش، أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: تعال فاستلم آلتهنا وندخل معك في دينك. وكان رسول الله ﷺ يشتدّ عليه فراق قوميه ويحبّ إسلامهم، فرقّ لهم فأنزل الله "وإن كادوا ليقتونك .." إلى قوله "نصيراً".
٢. وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي، عن باذان عن جابر بن عبد الله مثلاً.
٣. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبيرة قال: كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر فقالوا: لا ندعك تستلمه حتى تستلم آلتهنا. فقال رسول الله ﷺ: وما عليّ لو فعلت والله يعلم منّي خلافه؟ فأنزل الله "وإن كادوا ليقتونك .." إلى قوله "نصيراً".
٤. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب قال: كان رسول الله ﷺ إذا طاف يقول له المشركون: استلم آلتهنا كي لا تضرك فكاد يفعل فأنزل الله "وإن كادوا ليقتونك" .. الآية.
٥. وأخرج ابن أبي حاتم عن جبيرة بن نفير رضي الله عنه، أنّ قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إنّ كنت أُرسلت إلينا فاطرد الذين اتّبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك. فركن إليهم فأوحى الله إليه "وإن كادوا ليقتونك" .. الآية.
٦. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنّ هيفاً قالوا للنبي ﷺ: أجلبنا سنة حتى نهدي لآلهتنا، فإذا قبضنا الذي يهدى للآلهة أحرزناه ثم أسلمنا وكسرنا الآلهة. فهّم أن يؤجّلهم فنزلت "وإن كادوا ليقتونك" .. الآية.

(١) السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الدر المنثور في التفسير المأثور، ط١، ج ١٥، ص ١٣٨، ٣١٩، بصرف، ١٩٨٣، دار الفكر، بيروت.

وخلاصة هذه المعاني والتفسيرات والأسباب السابقة هو: يا محمد لقد قاربت أن تستجيب لما عرضه عليك ولكنتك لم تفعل وذلك بسبب عصمة الله لك وتبنيته إياك. وكاد المشركون أن يفتنوا النبي ﷺ لكنته لم يفتن وذلك لعصمة الله تعالى وحمايته له.

الشبهة الثالثة ودفعها:

يُبَّعُ المسلمون رجلاً مسحوراً اسمه "محمد". وقد ذكرت التعاليم التي كان محمدٌ يلقِّها لأصحابه والمُسَمَّاة "الحديث النبوي" أن محمداً قد سِحَرَ وأنَّ يهودياً هو الذي قام بذلك.

مَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذه واحدةٌ من الشِّبهات الخطيرة التي أثارها الرهبان المستشرقون وتكمنُ خطورة هذه الشبهة في القول بأنَّ كلَّ ما جاء به من آياتٍ قرآنيةٍ إنَّما هو ناجمٌ عن السُّحر الذي أصابه ودَّهَبَ بعقله، فهو مسحورٌ في كلِّ ما يصدرُ عنه من أقوالٍ وأفعالٍ.

- وتفنيدُ هذه الشبهة والردُّ عليها وتوضيح ما حدث هو التالي: لقد حاول بعض العلماء الأفاضل، كالجصاص (في كتابه أحكام القرآن) والقاسمي في تفسيره، إنكار هذا الحديث لتكون الشبهة مردودةً تلقائياً لأنَّها مبنيةٌ عليه. والصواب أنَّ الحديث الذي ذكر سحرَ النبي ﷺ حديثٌ صحيحٌ ذكره الإمام البخاري - رحمه الله تعالى - في صحيحه في كلِّ من كتاب بدء الخلق وكتاب الأدب وكتاب الجزية، ورواياته هي التالية:

١. صحيح البخاري كتاب (الأدب) باب قوله الله سبحانه: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبُغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ" حدَّثنا الحميدي حدَّثنا سفيان حدَّثنا هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: مكثَ النبي ﷺ كذا وكذا يُجِيلُ إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي. قالت عائشة: فقال لي ذات يوم: يا عائشة إنَّ الله أفتاني في أمرٍ استفتيته فيه. أتاني رجلان فجلس أحدهما عند رجلي والآخر عند رأسي فقال الذي عند رجلي للذي عند رأسي: ما بال الرجل. قال: مطبوب يعني مسحوراً قال: ومن طبُّه قال: لبيد بن أعصم قال: وفيم. قال: في جفِّ طلعة ذكرٍ في مُشطٍ ومُشاقةٍ تحت رعوفةٍ في بئر ذروان فجاء النبي ﷺ فقال: هذه

البئر التي أريتها كان رؤوس نخلها رؤوس الشياطين وكان ماءها نقاعة الحناء فأمر به النبي ﷺ فأخرج قالت عائشة: فقلْتُ يا رسول الله: فهلا تعني تنشّرت فقال النبي ﷺ: "أما الله فقد شفاني وأما أنا فآكره أن أثير على الناس شراً" قالت: وليد بن أعصم رجل من بني زريق حليف لليهود.

٢. صحيح البخاري كتاب (بدء الخلق) باب صفة إبليس وجنوده ... حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عيسى عن هشام عن أبيه عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ وقال الليث: كَتَبَ إِلَيَّ هِشَامٌ أَنَّهُ سَمِعَهُ وَوَعَاهُ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى كَانَ يَخْتَلُّ أَنَّهُ يَفْعَلُ الشَّيْءَ وَمَا يَفْعَلُهُ، حَتَّى كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ دَعَا وَدَعَا، ثُمَّ قَالَ: أَشَعَرْتُ أَنَّ اللَّهَ أَفْتَانِي فِيهِ شَفَائِي. أَتَانِي رَجُلَانِ فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالْآخَرُ عِنْدَ رِجْلِي فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ قَالَ: وَمَنْ طَبَّه؟ قَالَ: لَيْدُ بْنُ الْأَعْصَمِ قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمَشَاقِفٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرَ قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بئرِ ذِرْوَانَ. فَخَرَجَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لِعَائِشَةَ حِينَ رَجَعَ: نَخَلُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَقُلْتُ: اسْتَخْرَجْتَهُ فَقَالَ: لَا "أَمَا أَنَا فَقَدْ شَفَانِي اللَّهُ وَخَشِيتُ أَنْ يُبَيِّرَ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ شَرًّا ثُمَّ دُفِنْتُ الْبَيْرُ".

٣. صحيح البخاري كتاب (الجزية) باب هل يُعفى عن الذمي إذا سحر ... حدثني محمد بن المنثري حدثنا يحيى حدثنا هشام قال: حدثني أبي عن عائشة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى كَانَ يُخْتَلُّ إِلَيْهِ أَنَّهُ صَنَعَ شَيْئًا وَلَمْ يَصْنَعْهُ.

وبعد إيرادنا لهذه الأحاديث نقول: من المعلوم أننا إذا أردنا استخراج حكم مسألة ما، فإننا نجمع الروايات الواردة فيها لتخرج من مجموعها بفهم صحيح متكامل. لقد ركز المستشرقون والطاعنون على عبارة في الأحاديث السابقة هي (وكان يختلُّ إليه أنه صنع شيئاً ولم يصنعه) وتناسوا عبارة (كان يختلُّ إليه أنه يأتي أهله ولا يأتي) والتي هي مفتاح الفهم الصحيح للقصة كلها، والتي تملخص في أن السحر تعلق بموضوع إتيان النبي ﷺ لزوجاته مع أنه لم يأتهم، وهذا الأمر لا علاقة له بالوحي ولا بالرسالة التي بعثه الله بها من قريب ولا من بعيد. "فالإنسان قد يأخذ قرصاً معيناً من الدواء فلا يستطيع أن يأتي أهله، أو قد يكون مُتعباً نفسياً أحياناً، فلا يستطيع أن يأتي أهله، وكل هذه الأمراض التي لها علاقة بالصفات البشرية، وليس لها علاقة بالوحي والرسالة، فالنبي ﷺ معصومٌ في تأديته للرسالة، ومن

المستحيل أن يزيف عن الوحي أبداً^(١). قال القاضي عياض، رحمه الله تعالى: وقد جاءت روايات هذا الحديث مُبَيَّنَّةٌ أَنَّ السَّحْرَ إِنَّمَا تَسَلَّطَ عَلَى جَسَدِهِ وَظَاهِرِ جَوَارِحِهِ لَا عَلَى عَقْلِهِ وَقَلْبِهِ وَاعْتِقَادِهِ^(٢).

ولعلَّ اتهامات الرهبان المستشرقين هذه للنبيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ بأنه مسحورٌ تتعارض مع اتهاماتٍ سابقةٍ لأسلافهم زعموا فيها أنَّ محمداً ساحراً مُحْتَرَفٌ وَأَنَّ ممارسته للسحر كانت السَّبَبُ المباشر وراء سُرْعَةِ انتشار الإسلام وإقبال الناس عليه بِسُرْعَةٍ عجيبة.

ثم لماذا لم يذكر هؤلاء الطاعنون عبارةً أمَّا "أنا فقد شفاني الله" التي وردت على لسانه ﷺ في الحديث السابق والتي كانت نهايةً للحادثة؟؟ إنها العقلية الانتقائية المريضة التي تحاول الاستدلال الخاطي بنصٍّ صحيح على أمر خاطي، واتباع المنهج (فلا تقرؤوا الصلاة) أو (فويل للمصلين)! ثم كيف يُعقل أن يُقال "إنَّ محمداً مارس السحر"، في الوقت الذي عدَّ فيه هذا الرسولُ الكريم ﷺ السَّحْرَ من السَّبْعِ الموبقات المهلكات؟؟ حيث قال: "اجتنبوا الموبقات: الشُّرْكَ بالله والسَّحْرَ"^(٣). وحين قال ﷺ: "اجتنبوا السَّبْعَ الموبقات. قيلَ يا رسول الله، وما هنَّ؟ قال: الشُّرْكَ بالله والسَّحْرَ... الحديث"^(٤). وقد ذكر الإمام النووي، رحمه الله تعالى، في شرحه لهذا الحديث الشريف "ومذهب الجماهير أنَّ السحر حرامٌّ من الكبائر فعلة وتعلُّمه وتعليمه"^(٥).

الشبهة الرابعة ودفعها:

كيف يُسمِّي محمدٌ نفسه أوَّلَ المسلمين، والقرآن الذي بين يديه يذكر أنَّ إبراهيم كان حنيفاً مسلماً؟؟ ومعلومٌ أنَّ إبراهيم عاش قبل محمدٍ بمئات السنوات!!!

(١) مُرسِي [م. س.] ص ١٥، بتصريف.

(٢) صحيح مسلم، بشرح الإمام النووي، كتاب السلام، باب السحر، ج ٧، ص ٣٥١، ط ١، مكتبة الإيمان، المنصورة.

(٣) صحيح البخاري، [م. س.]، كتاب الأدب، باب الشرك والشعر من الموبقات.

(٤) صحيح مسلم، [م. س.]، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٥) المرجع السابق نفسه ج ١، ص ٢٩٢.

- يحاول هؤلاء الرهبان المستشرقون الطاعنون أن يُوهموا الناس بوجود التناقض في القرآن الكريم. ويحاولون أن يضرّبوا القرآن الكريم بعبءٍ لبعض ليخرجوا بتناقض يُثبت بشريّة مصدره وأَنّه من عند محمدٍ وليس موحىً به.

- والجواب على هذه الشبهة ما يلي: لقد ذكر القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام كان

مُسلماً، قال تعالى: " مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا

مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ " (١). كما ذكر القرآن الكريم كذلك قوله تعالى على

لسانِ محمدٍ ﷺ بأنّه أولُ المسلمين، قال تعالى: " قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

الْمُسْلِمِينَ " (٢) والإجابة على ذلك نُخبرنا بها كتبُ التفسير، حيث ذكر معظمها أن معنى

قوله (وأنا أولُ المسلمين) أي أولُ المسلمين من هذه الأمة (٣)، فالنبي ﷺ هو أولُ من

انقاد لله تعالى من أمته - عليه السلام - وهو يُخبرنا ويُعلّمنا - عليه الصلاة والسلام - إذا

أصبحنا أن نقول "أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبيّنا محمدٍ وملة إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين" (٤). وهذا الحديث الشريف واضحٌ تماماً في

الدلالة على أننا ورسولنا المصطفى ﷺ من قبلنا مُعتنقون لدين إبراهيم الخنيف الموحّد عليه

السلام، وهذا الدين هو الإسلام.

الشبهة الخامسة ودفعها:

إنّ محمداً لم يأتِ بمعجزاتٍ، على خلاف موسى وعيسى وغيرهم من أنبياء بني

إسرائيل. وفي هذا دليلٌ واضحٌ على عدم صدق نبوّته، بل إنّ القرآن الذي جاء به محمدٌ للناس

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٧.

(٢) سورة الأنعام: الأجان ١٦٢، ١٦٣.

(٣) انظر على سبيل المثال السيوطي [م.س] ج ٣، ص ٤١٠.

(٤) رواه الإمام السيوطي في جمع الجوامع الجامع الكبير في الحديث، والجامع الصغير وزوائده، المجلد الأول، الحديث رقم (٣١٦٧)، وقد صححه الألباني، انظر صحيح الجامع (٤/٢٠٩).

يقول، وبكل صراحة ووضوح "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ" (١).

- يبدو أنّ هؤلاء الطاعنين لا يدركون حقيقة مفادها أنّ الله تعالى هو الذي يؤيّد الرسل بالمعجزات، وأنّ الرسل عليهم السلام لا يقدرّون على الإتيان بالمعجزات من تلقاء أنفسهم، ويشهد لهذه الحقيقة قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ" (٢). واستشهدهم بالآية السابقة من سورة الاسراء "وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ" باطلّ تماماً، فهذه الآية الكريمة لا تلغي الآيات المعجزات ولا تنفي فائدتها على الإطلاق " وإنما تنفي استجابة الله لطلب المشركين إنزال الآيات. فلم يستجب الله لهم، ولم يُنزل الآيات التي طلبوها؛ لأنه يعلم أنه لو أنزلها كما طلبوا فإنهم لن يؤمنوا بها، وبعد ذلك سيعذبهم ويهلكهم، ولذلك لم يستجب الله لهم رحمة بهم، لئلا يُعذبهم ... وليس معنى هذا أنّ الله لم يُنزل الآيات على النبي ﷺ ولا على غيره من الأنبياء السابقين" (٣).

ومن الواضح أنّ هذه الشبهة قائمة على الكذب الخالص، وذلك لأنّ كتاب الله العزيز، والأحاديث النبوية الشريفة، والأخبار المتواترة، التي جمعها علماؤنا ذكرت الكثير الكثير من هذه المعجزات، والتي منها على سبيل المثال:

١. القرآن الكريم: وهو أعظم هذه المعجزات على الإطلاق، ولئن زعمَ الرهبان المستشرقون ومن وافقهم من الطاعنين ضعف نصوص القرآن وتعارضها مع بعضها البعض وإنّها من عند محمد ﷺ، فإنّ التحدي بهذا القرآن لا يزال قائماً حتى قيام الساعة، وهم مُطالبون بالإتيان ولو بعشر سورٍ مقترياتٍ تصلح لأن تقابل بسور القرآن الكريم وآياته. ولا زال التحدي للخلق على الإتيان بمثل القرآن الكريم قائماً حتى هذا العصر، عصر الحاسوب والإنترنت والاختراعات والاكتشافات العلمية على مدار الساعة. ألا فليأتوا بمثل ذلك إن استطاعوا.

(١) سورة الاسراء: الآية ٥٩.

(٢) سورة الرعد: الآية ٣٨.

(٣) الخالقي، [م.س.]، ص ٦٩٧.

٢. معجزة انشقاق القمر، قال تعالى: " أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ " (١) وقد كان

هذا الانشقاق للقمر الذي حدث في زمن رسول الله ﷺ معجزة للنبي وآية دالة على صدق نبوته، وتوضيح ذلك وارد في صحيح الإمام البخاري، رحمه الله تعالى رحمة واسعة، الذي جاء فيه (٢): حدثني عبد الله بن عبد الوهاب حدثنا بشر بن المفضل حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أنس بن مالك رضي الله عنه "إن أهل مكة سألو رسول الله ﷺ أن يُرهم آية فأراهم القمر شقين، حتى رأوا جراً بينهما". ويُفهم من مجموع روايات الحديث الشريف السابق أن هذا الانشقاق استمر ما يقارب الساعة من الزمن. ولئن أنكر الرهبان المستشرقون والطاعنون المعاصرون صحة وقوع ذلك فإننا نحيلهم إلى الموقع الإلكتروني <http://the-moon.wikispaces.com> الذي نشر صورة للقمر كانت قد التقطتها وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) والتي يظهر فيها وبكل وضوح ما تبقى من آثار التثام هذا الانشقاق ويبلغ طوله مسافة ثلاثمائة كيلو متراً أي ما يعادل ١٨٦.٤ ميلاً (٣). بكل جلاء ووضوح.

وما من شك أن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف كانا المصدرين اللذين ذكرا حادثة بل معجزة انشقاق القمر آنذاك. وهنا نتوجه بالسؤال للرهبان ولطاعين فنقول: هذا اكتشاف علمي معاصر، وكان القرآن الذي جاء به محمد ﷺ قد أخبرنا به قبل مئات السنوات فماذا يجيبون على ذلك؟؟ ليس هناك سوى إجابة واحدة إنها النبوة. ولقد آثرنا وهنا التركيز على ذكر معجزة انشقاق القمر لأنها معجزة مادية حسية تحاكي فهم هؤلاء الرهبان الطاعنين للمعجزة إذ أنها عندهم لا تتجاوز حدود المادة والحس.

لن نُطيل في ذكر وتفصيل المعجزات التي ذكرها القرآن الكريم والتي أجزاها الله تعالى إظهاراً لصدق نبوة محمد ﷺ ولكننا سنذكر، وعلى عجالة، بعض هذه المعجزات والنبؤات والأخبار الصحيحة الإسناد التي حدثت بعده، عليه الصلاة والسلام، وكلها شواهد على معجزاته في الإخبار عن الغيب الذي سيقع ثم وقع، ومن ذلك (٤):

(١) سورة القمر، الآية ١.

(٢) صحيح البخاري، [م. س.] كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر.

(٣) انظر الصورة والقياسات والتقارير المرفق معها على موقع وكالة الفضاء الأمريكية (ناسا) التالي:

www.nasa.gov/mission-payes/LRO/multimedia/iromages/roc-20090928-ariadaeus.html

(٤) مُرسي [م. س.]، ص ٤١٨، ٤١٩، بصرف.

١. أخبر ﷺ الصحابة رضي الله عنهم، بفتح بيت المقدس، واليمن، والشام، والعراق، وقد وقع ما أخبر به ﷺ.
٢. أخبر ﷺ أنّ الإسلام سوف يسود حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله والذئب على غنمه، وقد وقع ما أخبر به ﷺ.
٣. أخبر ﷺ أنّ خير نفتح على يد عليّ، رضي الله عنه، في غد يومه، وقد فُتح على يد علي رضي الله عنه كما أخبر ﷺ.
٤. أخبر ﷺ أنّ المسلمين يقتسمون كوز ملك فارس وملك الروم، وقد فتح المسلمون تلك البلاد، وقسموا كوز ملوكها كما أخبر ﷺ، فأخذ سراقه بن مالك رضي الله عنه وغيره ما وعدهم به النبي ﷺ.
٥. أخبر ﷺ أنّ عثمان بن عفان رضي الله سيقتل وهو يقرأ القرآن، وقد كان كما أخبر.
٦. أخبر ﷺ أنّ عمار رضي الله عنه تقتله الفئة الباغية، فوقع كما أخبر النبي ﷺ.
٧. أخبر ﷺ أنّ الموتان أي: الوباء (الطاعون) يكون بعد فتح بيت المقدس، وقد وقع في خلافة عمر، رضي الله عنه، بعمواس في بلاد الشام من قرى بيت المقدس، وبها كان عسكره، وهو أول طاعون في تاريخ الإسلام، مات على أثره عدد كثير منهم لا يقل عن سبعين ألفاً.
٨. أخبر ﷺ أنّ فاطمة بنت النبي ﷺ أول أهله لحوقاً به بعد موته، فماتت - رضي الله عنها - بعد ستة أشهر من وفاته ﷺ، فكانت أول آل بيت النبي وفاة بعده ﷺ.
٩. أخبر ﷺ أنّ الحسن بن علي - رضي الله عنها - سيّد يصلح الله على يده بين فئتين من المسلمين تقتتلان، وقد حدث ما أخبره به ﷺ.

الشبهة السادسة ودفعها:

لو كان محمدٌ رسولاً لما مات مسموماً ولما تحلَّ جسده حتى تعفن

- تتكوّن هذه الشبهة من جزأين، أولهما أنّه ﷺ مات مسموماً، وثانيهما أنّ جسده تحلّل وتفنّن بعد موته.

- أمّا عن تفصيل القول في الجزء الأول من هذه الشبهة فلا نُسلّمُ به أبداً. نعم، أكل التّبي من شاة مسمومة قدّمها له يهوديّة بخير، لكنّه لم يمت من ذلك بل مات ﷺ بعد ما يزيد على الثلاث سنوات بعد غزوة خيبر⁽¹⁾. وقصة أكله، عليه السلام، من الشاة المسمومة ذكرها الإمام البخاري في صحيحه عند حديثه عن غزوة خيبر، كما ذكرها الإمام أبو داود في سننه في كتاب اللّيات فقال⁽²⁾: حدثنا وهب بن بقية في موضع آخر عن خالد بن محمد بن عمرو عن أبي سلمة ولم يذكر أبا هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية ولا يأكل الصدقة. زاد فأهدت له يهوديّة بخير شاة مصلية سمّتها فأكل رسول الله منها وأكل القوم فقال: "ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة". فمات بشر بن البراء بن معرور الأنصاري فأرسل [الرسول ﷺ] إلى اليهودية ما حملك على الذي صنعت؟ قالت إن كنت نبياً لم يضرك الذي صنعت وإن كنت ملكاً أرحت الناس منك فأمر بها رسول الله ﷺ فقتلت ثم قال في وجهه الذي مات فيه ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت بخير فهذا أو أن قطع أهرري.

وقد ورد في بعض الروايات الأخرى أنّ هذه المرأة اليهودية قد سألت عن أيّ عضو أحبّ إلى رسول الله ﷺ؟ فقبل لها الذراع، فأكرت السمّ فيها، ثم سمّت الشاة ... والوجه الصحيح الذي تُهمّم هذه الحادثة بناءً عليه هو التالي:

إنّ رسول الله ﷺ لم يمّث بتأثير السمّ، ولو مات بتأثير السمّ مات فوراً، أو بعد ساعات أو أيام أو أشهر، مثل بشر بن البراء الذي مات فوراً. وقد عاش رسول الله ﷺ بعد حادثة السم أكثر من ثلاث سنوات!.

"صحيح أنه بلغ أثر السم، لكنّ هذا الأثر لم يُودّ إلى وفاته، لأنّ الله تكفل بحمايته وعصمته من الأعداء، فكم حاول الأعداء اغتياله وقتله، ولكنّ الله عصمه وحماه، وأخبره عن

(1) وقعت خيبر في شهر محرم في العام الهجري السابع، بينما كانت وفاته ﷺ في شهر ربيع الأول في العام الحادي عشر للهجرة.
(2) انظر سنن أبي داود، كتاب اللّيات، باب (من سقى رجلاً سمّاً أو أطعمه فمات أهماذ منه).

ذلك في قوله تعالى: "يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا

بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ" (١). وصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعائشة رضي الله عنها: "ما زلت أجد أثر السم الذي قُدِّم لي في خيبر" وأنه قال لها أيضاً: "هذا أوانٌ انقطع أبهري". وهذا معناه أنه كان يمرض من أثر ذلك السم، وكان أكبر الأثر على أبهره، وهو وريده، لكن فرق بين أن تقول: كان يمرض من أثر السم، وبين أن تقول: مات متأثراً بالسم" (٢).

- أما عن زعم الرهبان المستشرقين والطاعنين بأنه ﷺ قد تحلَّل جسده وتعض بعد موته، فمسألة خطيرة، وقد بنى هؤلاء هذه الشبهة على حادثة رواها الإمام البارمي، رحمه الله تعالى، في سننه في باب وفاة النبي ﷺ، هذا تفصيلها كاملاً:

"أخبرنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة قال: توفِّي رسول الله ﷺ يوم الاثنين فَحُسِّسَ بقیة يومه وليلته والغد حتى ذُفِنَ ليلة الأربعاء، وقالوا: عن رسول الله ﷺ لم يمتْ ولكن عُجِرَ بروحه كما عُجِرَ بروح موسى، فقام عمر فقال: إن رسول الله ﷺ لم يمتْ، ولكن عُجِرَ بروحه كما عُجِرَ بروح موسى، والله لا يموت رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي أقوام وألسنتهم. فلم يزل عمر يتكلم حتى أزيد شدقه مما يوعد ويقول، فقام العباس فقال: إن رسول الله ﷺ قد مات وإنه لبشرٌ، وإنه يأسنُ كما يأسنُ البشر. أي قوم، فادفنوا صاحبكم فإنه أكرم على الله من أن يُميتَه إمامتين أميئاً أحدم إمامته ويُميتَه إمامتين، وهو أكرم على الله من ذلك؟ أي قوم فادفنوا صاحبكم، فإن يك كما تقولون فليس بعزيز على الله أن يُبحث عنه التراب. إن رسول الله ﷺ والله ما مات حتى ترك السبيل نهجاً واضحاً، فأحلَّ الحلال وحَرَّمَ الحرام، ونكح وطلَّق وحارب وسالم، ما كان راعي غنم يتبع بها صاحبها رؤوس الجبال يخبطُ عليها العِضَاءُ بمخبطه ويمدُّ حوضها بيده بأنصب ولا أداب من رسول الله ﷺ كان فيكم. أي قوم فادفنوا صاحبكم. قال: وجعلتُ أم أيمن تبكي فقيل لها يا أم أيمن تبكي على رسول الله ﷺ؟ قالت: إني والله ما أبكي على رسول الله ﷺ أن لا أكون أعلمُ أنه

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٢) الخالدي [م. س.]، ص ٧١٢، بصرف.

قد ذهب إلى ما هو خيرٌ له من الدنيا، ولكنّي أبكي على خبر السماء انقطع. قال حمّاد: خنقتِ العبرةُ أيوبَ حين بلغها هنا^(١).

ولعلّ أبرز عبارةٍ واردةٍ في هذه الرواية ركّز عليها الرهبان هو قول العباس رضي الله عنه وأرضاه "إنّ رسولَ الله ﷺ قد ماتَ وإنه يأسنُ كما يأسنُ البشرُ أي قوم، فادفنوا صاحبكم". ومن الواضح لكلّ ذي فهمٍ سليمٍ أن قول العباس، رضي الله عنه، السابق ليس إخباراً عن أمرٍ قد وقع أو عن وصفٍ لجسد رسول الله ﷺ بعد وفاته. وإنما هو ظنٌّ منه بأنّ ما يسري على سائر الأجساد يسري على جسده ﷺ بعد الموت. وقوله هذا ومن دون أدنى شكٍّ يُثبتُ عدم سماعه لقول رسول الله ﷺ "فإن الله عزُّ وجلّ قد حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء"^(٢). "وقد قال هذه المقولة ترهيباً وتنبهاً لعمر، رضي الله عنه، حين رفض قبول مصيبة موت رسول الله فضلاً عن دفن جسده الكريم، وصرخ من هول المصيبة متوعداً يقول: إنّ رسول الله ﷺ قد مات.

إذاً جسد رسول الله لم يكن قد أسنّ، وإنما طالب العباس - رضي الله عنه - بدفن البدن الشريف إكراماً له وترهيباً من تركه حتى يأسن اعتقاداً منه أنّ ذلك محتملٌ مع رسول الله ﷺ بحكم بشريته وطبيعته الإنسانية. و"الملاحظُ أيضاً أنّ هذا الحديث مُرسَلٌ منقطعُ السند لا يصحُّ ومع ذلك كانت أجابتنا على الشبهة بفرض صحته"^(٣).

(١) الدرّاجي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل، سنن الناري، تحقيق د. مصطفى البغا، ج ١، ص ٤٢، ٤٣، ط ١، ١٩٩١، دار القلم، دمشق. وقد وردت هذه الحادثة في باب (في وفاة النبي) رقم ٨٣، وهو من الأبواب التي وردت في مقدمة الكتاب قبل البدء بكتبه والتي كان أولها كتاب الطهارة.

(٢) انظر أ. القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، رقم الحديث ١٠٨٥، باب رقم ٧٨ (فضل الجمعة) ج ١، ص ٣٤٥، ط ١، المكتبة العلمية، بيروت.

ب. الشجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق عادل مرشد وسلم عامر، رقم الحديث ١٠٤٧، ص ١٧٤، ط ١، ٢٠٠٣، دار الأعلام، عمان.

(٣) مُرسِي [م. س.]، ص ١٢ بصرف.

النسبة السابعة ودفعها:

كان محمدٌ ضالاً على غير هدى، والقرآن الذي جاء به يشهدُ على ذلك "وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى" (١).

- من المضحك في سلوك هؤلاء الرهبان الطاعنين أنهم يرجعون للتفسيرات التي لربما وافق بعضها هواهم، فإن لم يجدوا شيئاً من ذلك فإننا نراهم يذكرون النص ولا يوردون تفسيره أبداً. ومن ذلك ذكرهم للآية الكريمة السابقة دون إيراد أي من أقوال العلماء في تفسيرها. ودورنا هنا يقتصر على إيراد بعض هذه التفسيرات شبه المتطابقة لهذه الآية، ومنها:

١. فسرها الطبري (٢) بـ "وجدك في قوم ضالّ فهداك".
٢. فسرها الزمخشري (٣) بـ "ضالاً عن علم الشرائع".
٣. فسرها السيوطي (٤) بـ "ووجدك بين ضالّين فاستنقذك من ضلاتهم".
٤. وفسرها صاحب التفسير الميسر بـ "ووجدك لا تدري ما الكتاب والإيمان فعلمك ما لم تعلم ووقفتك لأحسن الأعمال".

ونرأى في معرض حديثنا عن شبهة وفرية ضلال النبي، وما سبق أن ذكره الرهبان الطاعنون سابقاً من ارتكابه للذنوب والمعاصي، نرأى أن نلفت نظر القارئ الكريم إلى أنّ صدور هذه الاتهامات ومثلها عن هؤلاء الرهبان أمرٌ غيرٌ مستغربٍ أبداً؛ فهم يؤمنون بالكتاب المقدس كلّ بهديه القديم والجديد، وبما اشتمل عليه من العجائب والقبائح التي ألصقت بالأنبياء المذكورين فيه. ولنستعرض منها على سبيل المثال، لا الحصر، ما يلي:

١. كان نوحٌ يشرب الخمر ويسكر ويتعرّى! "وابتداً نوحٌ يكون فلاحاً وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكّر وتعرّى داخل خبائه" (٥).

(١) سورة الضحى: الآية ٧.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، المجلد ١٢، ص ١٤٩، ط١، دار المعرفة، بيروت.

(٣) الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقبول في وجوه التأويل، ج٤، ص ٧٦٨، ط١، ١٩٨٦، دار

الكتاب العربي، بيروت.

(٤) السيوطي [م.س.]، المجلد الثامن، ص ٥٤٤.

(٥) التكوين: ٩: ٢٠ - ٢١.

٢. ارتدَّ سليمان في آخر حياته عن عبادة الله تعالى! "وكان في زمن شيخوخة سليمان أنّ نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الربّ إلهه كقلب داود أبيه"^(١).
٣. شربَ لوطُ الخمرَ وزنا بابنتيه! "فحبلت ابنتا لوط من أبيهما"^(٢).

ومن المدهش في نهاية حديثنا عن هؤلاء للعصمة ولضلالات الأنبياء أن نذكر بما يعتقدونه من ثبوت العصمة "البابوات"، وهو الأمر الذي لا زال مثار شكّ واستهجانٍ إلى يومنا هذا!! ولكي نبرهن على صحّة معتقدنا ببطلان عصمة هؤلاء "البابوات" فإننا نسوق بين يدي القارئ الكريم نماذج من ممارسات هؤلاء الذين يؤمنّ الرهبان بعصمتهم في الوقت الذي ينفونها عن الحبيب المصطفى ﷺ ومنها^(٣):

١. حَكَمَ البابا أدريان الثاني بجواز الزواج المدني، ثم جاء بعده البابا بيوس الرابع فحَمَّ ببطلانه.
٢. قال البابا غريغوريوس الأول: إنّ أيّ إنسانٍ يرضى بلقب "البابا العالمي" فإنه ضدُّ المسيح. وجاء بعده البابا يونيفرس الثالث فأرغم الإمبراطور على أن يخلع عليه هذا اللقب، وسار على نهجه من أتى بعده من البابوات. أي أنّ بابوات روما قبل ذلك إنما كانوا يُعرَفون بأساقفة روما فحسب.
٣. حكم البابا إيغنين الرابع على جان الأركونية بأن تحرق حية لأنها ساحرة، بينما أعلن البابا بندكت الخامس عشر بعد ذلك في عام ١٩١٩م أنها قديسة!
٤. أجاز البابا سيكستوس الخامس قراءة كتبهم المقدس للعامة، بعد أن منعوا من ذلك منذ عام ١٢٢٩م، ثم جاء بعده بابوات آخرون، وعلى رأسهم البابا بيوس السابع، فمنعوها مرّة أخرى. وحتى اليوم فإن الكنيسة الكاثوليكية لا تُجيزُ للعامة قراءة وفهم نصوص العهد القديم والعهد الجديد بمفردهم، وإن كان لا بُدَّ من اقتناء نسخٍ منها فلتكن - وجوباً - النسخة المحشوة بتعليقات وتفسيرات الآباء والبابوات!.

(١) الملوك الأول ١١: ٤، وانظر كذلك ١١: ٥ - ٩.

(٢) التكوين: ١٩: ٣٠ - ٣٦.

(٣) الآزو، عبد الرزاق عبد المجيد، مصادر النصرانية دراسةً وثقافاً، ص ٩٢٩ فما فوق، ط ١، ٢٠٠٧، دار التوحيد للنشر، الرياض.

٥. وهذا بيوس السابع نفسه يصدر أمره في السابع من أغسطس عام ١٨١٤م بإعادة اليسوعيين إلى حظيرة الكنيسة، بعد أن كانت طاعتهم محظورةً محرومةً بأمر من البابا كلمنت الرابع عشر الصادر في الحادي والعشرين من يوليو عام ١٧٧٣م.

الشبهة الثامنة ودفعها:

عَلَّمَ مُحَمَّدٌ أَتْبَاعَهُ بَعْضَ الْعِبَادَاتِ الْوَتْنِيَّةِ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ الْحِجْرَ الْأَسْوَدَ وَيُعْظِمُهُ. وَقَدْ ذَكَرَ الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَ مُحَمَّدٌ حَقِيقَةَ عِبَادَةِ مُحَمَّدٍ لِلْأَوْثَانِ وَالْأَصْنَامِ بِقَوْلِهِ: "وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ".

- تكاد هذه الفريضة تكون أسخف ما اتهم به الرهبان الطاعنون رسولَ الله ﷺ، وهم الذين يعظمون أصنام المسيح، عليه السلام، وتماثيله وصوره، وتماثيل مريم، عليها السلام،

وصورها ويقدسونها!! أما بالنسبة لقوله تعالى في سورة المدثر ﴿يَأْتِيهَا الْمَدَّثِرُ﴾ (١)

﴿قَرَأَنَّا نِدْرًا﴾ (٢) ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرُ﴾ (٣) ﴿وَيَأْتِيكَ فَطَهِّرُ﴾ (٤) ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ (٥) فليس فيها

ما يدلُّ من قريبٍ ولا بعيدٍ على أنه ﷺ كان يعبدُ الأصنام أو يعظمها. وحتى يتضح تفسير معنى قوله تعالى " وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ " في ذهن القارئ، فمن المستحسن أن نورد بعض ما ذكره المفسرون في تفسيرها ومن ذلك:

١. فسرها الطبري^(٢) بقوله: الرجز: آلهتهم التي كانوا يعبدون [يقصد قريشاً] أمره أن يهجرها فلا يأتيها ولا يقرها، وقال آخرون: بل معنى ذلك والمعصية والإثم فاهجر.

٢. فسرها الزمخشري^(٣) بقوله: الرجز هو العذاب. ومعناه: هجر ما يؤدي إليه عبادة الأوثان وغيرها من المآثم. والمعنى الثبات على هجره، لأنه ﷺ كان بريئاً منه.

(١) سورة المدثر: الآيات ١ - ٥.

(٢) الطبري [م. س.] الجزء ٢٨ - ٣٠، تفسير سور المدثر ص ٩٣.

(٣) الزمخشري [م. س.] ج ٤، ص ٦٤٥.

٣. وفسرها السيوطي^(١) بقوله: عن ابن عباس قال: والرجز هو الأصنام. والرجز فاهجر: أي أترك المعصية. ثم قال السيوطي عبارة هامة في نهاية ذكره لهذه التفسيرات وهي (وعلى كل تقدير فلا يلزم تلبسه بشيء من ذلك).

ونظراً أن ذكر هذا القدر من التفسيرات كافٍ لبيان المقصود من قوله تعالى. ولا ننسى هنا أن واحداً من أبرز الأعمال التي قام بها رسول الله ﷺ عند فتح مكة قيامه بتحطيم الأصنام التي كانت حول الكعبة المشرفة فقد "أمر الرسول ﷺ بتحطيم الأصنام وتطهير البيت الحرام منها، وشارك في ذلك فكان يهوي بقوسه إليها فتساقط وهو يقرأ " وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا " ^(٢). وكانت ستين وثلاثمائة من الأنصاب، ولطخ بالزعفران صور إبراهيم وإسماعيل وإسحق وهم يستقسمون بالأزلام وكانت هذه الصور داخل الكعبة، وقال: قاتلهم الله ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام. وفي رواية أن صورة مريم كانت داخل الكعبة أيضاً. ولم يدخل الرسول ﷺ الكعبة إلا بعد أن مُحيث هذه الصور منها. ثم دخلها فصلّى فيها ركعتين" ^(٣).

ولا ندري كيف سيفسر لنا الرهبان الطاعنون قيام النبي ﷺ بتحطيم هذه الأوثان في الوقت الذي يتهمون فيه بعبادتها، حاشاه!!.

ويخبرنا التاريخ الإسلامي أن النبي ﷺ لم يكتف بتحطيم الأصنام التي كانت موجودة حول الكعبة، بل إنه قام بإرسال من يقوم بتحطيم أصنام مُضَر وهذيل "ولا شك أن تطهير البيت من الأصنام كان أكبر ضربة للوثنية في أرجاء الجزيرة العربية، حيث كانت الكعبة أعظم مراكزها، وما أن تم فتح مكة وطهرت الكعبة حتى أرسل الرسول ﷺ خالد بن الوليد إلى نخلة لهدم العزى التي كانت مضر جميعاً تعظمها فهدمها. وأرسل عمرو بن العاص إلى سواع

(١) السيوطي [م. س.] ج ٤، ص ٧٢٦.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨١.

(٣) العمري أكرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، ص ٤٨٣، ط ٧، ٢٠٠٧، مكتبة العبيكان، الرياض.

صم هذيل فهدمه. وأرسل سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة بالمشلل (ناحية قديد على طريق مكة - المدينة) فهدمها، وبذلك أزيلت أكبر مراكز الوثنية^(١).

نعم لقد نهى النبي ﷺ المسلمين عن عبادة الأوثان لأنها شرك بالله تعالى وكفر به سبحانه، فكانت تلك بدايةً لعهد جديد في حياة الصحابة، رضوان الله عليهم، عهد من التوحيد الخالص لله تعالى، ولقد سجل هذه البداية بحروفٍ من نورٍ جعفر بن أبي طالب، رضي الله عنه، في حواره الشهير مع النجاشي ملك الحبشة عندما سأل المهاجرين الأوائل عند دينهم فقال له جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: "أيها الملك كُنتا قوماً على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستجلب الحارم، بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئاً ولا نحرمه. فبعث الله إلينا نبياً من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم، ولا نعبد غيره.

ونظراً أن هذه الفرية قد تهاوت بما سلف ذكره وإيراده من النصوص والوقائع.

- أمّا عن تشييل الرسول ﷺ للحجر الأسود فهو أمرٌ لا ننكره بل نثبتته، وقد ذكره الإمام البخاري، رحمه الله تعالى، في صحيحه في كتاب الحج، فقال: حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان بن الأعمش عن إبراهيم عن عابس بن ربيعة عن عمر رضي الله عنه أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: إني أعلم أنك حجٌّ لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي ﷺ يقبلك ما قبلتك^(٢).

وقد شرح الإمام ابن حجر العسقلاني، يرحمه الله، هذا الحديث في "فتح الباري" فقال: "قال الطبري: إنّما قال ذلك عمرٌ لأن الناس كانوا حديثي عهدٍ بعبادة الأصنام فحشي عمرٌ أن يظنّ الجهال أنّ استلام الحجر من باب تعظيم الأجار كما كانت العرب تفعل في الجاهلية. فأراد عمرٌ أن يُعلم الناس أن استلامه اتباعٌ لفعل رسول الله ﷺ، لا لأنّ الحجر ينفع ويضر بذاته كما كانت الجاهلية تعتقده في الأوثان ... وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور

(١) المعري [م. س.]، ص ٤٨٤.

(٢) صحيح البخاري [م. س.]، كتاب الحج باب ما ذكر في الحجر الأسود.

الذين وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي ﷺ فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة فيه" (١).

ثم أنّ هذا الحجر الأسود يختلف عن كلّ أحجار الأرض إذ أنّه ليس منها، بل هو من أحجار الجنة، كما أخبرنا رسول الله ﷺ "نزل الحجر الأسود من الجنة أشدّ بياضاً من الثلج فسودته خطايا بني آدم" (٢).

فهو عليه السلام لم يقبله بوصفه وثناً أو صنماً كما فهم الطاعنون من الرهبان. ويُشار هنا إلى أنّ تقبيل الحجر الأسود بعد استلامه في الطواف حول الكعبة المشرفة مُستحبٌ وليس واجباً. "إذا لو كان الأمر فيه عبادة أصنامٍ وشركٍ كما يهزم المعترضون لكان الأمر على الوجوب، فشتان بين من يأتي ذلك طاعةً لله ورسوله مُعتقداً أنّ الحجر لا يضرّ ولا ينفع كما يذكر الحديث الذي ذكرناه، وبين من يقدّس الأوثان التي نهى الله سبحانه وتعالى عن الاقتراب منها" (٣).

لم يكن محمدٌ ﷺ عبداً للأوثان ولا معظماً لها أيها الرهبان الطاعنون، ولكنّ كنيسةكم الكاثوليكية هي التي كانت ولا زالت تمارس طقوس الوثنية من خلال إصرارها على وجوب تقديم المسيحيين للإكرام وسجود الاحترام لصور المسيح، عليه السلام، وأمه مريم عليها السلام، وهما بريتان من ذلك، والله تعالى يشهد، لم يكن محمدٌ وثنياً ولم يأمر أصحابه ولا أتباعه بوضع بقايا أجسادهم وأشلاتهم أو جثثهم في المساجد أثناء بنائها كما فعلتم عند بناء الكثير من كنائسكم.

ولربما يكدّب مكدّب كلامنا هذا فنُجيبه بالقول: إرجع إلى قرارات المجمع المسكوني السابع الذي عقّد في مدينة نيقية عام ٧٨٧ للميلاد الذي عقّد ثمانى جلسات عملٍ خلال شهرٍ واحدٍ فقط إتهمت "إلى وجوب تكريم وتقديس صور وتماثيل المسيح وأمه مريم وجمع القديسين وذلك بإحناء الرأس لها وتقبيلها وإضاءة الشموع أمامها وحتى السجود لها. كما جاء

(١) المسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، شرح كتاب الحج، باب ما ذكر في الحجر الأسود ج ٣، ص ٥٢٥ دون رقم الطبعة، ٢٠٠٤، دار الحديث، القاهرة.

(٢) صححه الألباني، في السلسلة الصحيحة، ورقمه فيها ٢٦١٨.

(٣) مرسي [م. س.]، ص ٧٤.

ذلك في إعلان المجمع أو ما نسميه في الأسلوب الحديث بالبيان الختامي له، فقد قالوا فيه: [...] نحدد بكلّ جزمٍ وتدقيقٍ أنه كما يُرفع الصليبُ الكريم المحيي، هكذا يجب أن تعلقَ الصُورُ الموقَّرةُ المقدَّسةُ المصبوغةُ بالدهان ... أو من موادٍّ أخرى في كنائس الله المقدَّسة، وأن توضع على الأواني المكرَّسة والحلل الكهنوتية، وأن تُرفع وتعلق في المنازل وفي الطرق، ونعني بذلك صورة ربِّنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح، وصورة سيِّدتنا الكليَّة الطهارة والدة الإله، وصورة الملائكة المكرَّمين، وصور كلِّ القديسين، وكلِّ الأشخاص الأتقياء ...، ويجب أن يُقدِّم لهذه الصورة الإكرام وسجود الاحترام دون العبادة المختصة بالطبيعة الإلهية دون سواها]. بل ورد في القانون السابع من مجموعة قوانين هذا المجمع - وعددها اثنان وعشرون قانوناً - وجوب وضع بقايا مَنْ ستموهم بالقديسين والشهداء (من آباء الكنيسة المتوفين) أو جثثهم في الكنائس أثناء تشييدها أو تدشينها، وأنَّ أيَّ أسقفٍ يدشنُ كنيسةً بدون جثث أو بقايا هؤلاء الآباء يجب عزله لمخالفته تقاليد الكنيسة"⁽¹⁾.

النَّشْبة التاسعة ودفعها:

زعمَ الرهبانُ الطَّاعنون، كما زعم أسلافهم من كُفَّار قريش سابقاً، أنَّ القرآن الكريم من تأليف محمدٍ جاء به من عنده لا من عند الله، وأنَّ هذا المؤلِّف [القرآن] كان نتيجةً لجدِّ متواصلٍ من جمع ومزج أساطير السَّابِقين.

- يترَكَّب هذا الادِّعاء الزائف من جزأين اثنين، كان القرآن الكريم قد أشار إليهما في قوله

تعالى على ألسنة كُفَّار قريش " وَإِذَا نُسِئْتُمْ عَلَيْكُمْ عَائِنْتُمْ نَاوَأ قَدْ سَمِعْنَا لَو

نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ " (١). وقد سجَّلَ

القرآن الكريم فرية (لَوْ نَشَاء لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا) مرَّةً واحدةً فقط، بينما سجَّلَ فرية (أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ) تسع مرَّاتٍ، والسبب في ذلك كما هو واضحٌ "أَنَّ أَخْفَ المَقُولَتَيْنِ مَوْنَةٌ عَلَى النَفْسِ هِيَ أَكْثَرُهَا ذِكْرًا عَلَى اللِّسَانِ. فَوَصَفَ الْمُنْكَرِينَ لِلْقُرْآنِ بِأَنَّهُ أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ لَمْ يَكُنْ يَكْلِفُهُمْ أَكْثَرَ مِنَ النُّطْقِ بِهَذِهِ الْفَرِيَةِ. وَلِنَا فَقَدْ رَدَّدُوها كَثِيرًا فِي مَوَاجَهَتِهِمُ لِلْقُرْآنِ. أَمَا دَعْوَاهُمُ الْإِتْيَانِ

(١) الأزو [م. س.]، ص ٨١٩، ٨٢٠، بصرف.

(٢) سورة الأفعال: الآية ٣١.

بمثله فكانت تكلفهم ما هو فوق طاقتهم جميعاً، وهو الإتيان بمثله فعلاً، ولأنهم قد أحسوا بضعفهم أمام هذا الادعاء فإنهم لم يكرروا القول به. ففي التكرار تحمیلٌ لهم بما ليس في قدرتهم، وبما فيه إدانةٌ لهم، إذا هم لم يأتوا بمثله، وما هم بفاعلين. ولهذا كله لم تساعدهم أنفسهم على تكرارها وإذاعتها أمام الخصوم" (١).

وقد تدرّج القرآن الكريم في التحدي، فبعد أن كان القدر المطلوب الإتيان بمثله هذا القرآن، حُدّد في مرحلة لاحقة بالإتيان بعشر سورٍ من مثله، ثم حُدّد أخيراً بالإتيان بسورة واحدة من مثله. ولكن العجز عن الإتيان بذلك ظلّ قائماً إلى يومنا هذا، وسيبقى إلى يوم الدين، وهذا التحدي هو ذاته الذي نواجه به الرهبان الطاعنين ألا فليأتوا بسورة واحدة من مثله إن استطاعوا.

إنّ هنالك العديد من الملاحظات والأمور والحقائق التي يجدرُ بمن يزعم أنّ القرآن من عند محمد ﷺ أن يقف عندها، ليدرك من خلالها بطلان هذه الدعوى وهذا الزعم، ومن ذلك ما يلي: (٢)

١. إنّ أسلوب القرآن الكريم يُخالِف مخالفةً تامّةً أسلوبَ كلام محمد ﷺ، فلو رجعنا إلى كتب الأحاديث التي جمعت أقوالَ محمد ﷺ وقاراتها بالقرآن الكريم لرأينا الفرق الواضح والتغاير الظاهر في كلِّ شيء، في أسلوب التعبير، وفي الموضوعات، فحديث محمد ﷺ تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في صورها ومعناها المألوف لدى العرب كافة، بخلاف أسلوب القرآن الكريم الذي لا يُعرف له شبيهة في أساليب العرب.
٢. إذا افترض الشخص أنّ القرآن الكريم إنتاج عقلٍ بشريّ فإنه يتوقع أن يذكر شيئاً عن عقلية مؤلّفه. ولو كانت تلك الادعاءات حقيقيةً فإنّ أدلة ذلك ستظهر في القرآن

(١) المطعني، عبد العظيم إبراهيم، الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، ص ٥١٧، ٥١٨، بصرف، ط١، ١٩٨٧، دار الوفاء السعودية.
(٢) انظر:

أ. زياتي، أنور محمود، معجم اقتراءات الغرب على الإسلام والرّد عليها، ص ٢٣٠ - ٢٣٣ باختصار وتصرف. وهذا الكتاب منشورٌ على موقع الكاتب الإلكتروني على شبكة الإنترنت <http://anwarzanaty.maktoobblog.com>. كما أنه منشورٌ جزئياً على موقع شبكة ابن مريم الإسلامية - عن المسحج الحق وعنوانها www.ebnmaryam.com.

ب. النقي، عبدالله أبو حفص، سلسلة مقالات علمية في مقارنة الأديان، هل القرآن هو كلام محمد؟ منشور على موقع www.maktoobblog.com بتاريخ ٢٧/١١/٢٠٠٨.

الكريم، فهل توجد مثل تلك الأدلة؟ وحتى تتمكن من الإجابة على ذلك فإن علينا معرفة الأفكار والتأملات التي دارت في عقله في ذلك الوقت ثم نبحث عنها في القرآن الكريم.

٣. محمد ﷺ أُمِّي ما دَرَسَ ولا تَعَلَّمَ ولا تَتَلَمَذَ، فهل يُعقل أنه أتى بهذا الإعجاز التشريعي المتكامل دون أي تناقض، فأقر بعظمة هذا التشريع القريب والبعيد، المسلم وغير المسلم؟ فكيف يستطيع هذا الأمي أن يكتب هذا القرآن بإعجازه اللغوي الفريد الغريب وإعجازه التشريعي المتكامل اجتماعياً واقتصادياً ودينياً وسياسياً ... هل يمكن لهذا الكتاب أن يكون من عنده؟! وهل يجزؤ على تحدي ذلك بقوله " أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ

أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا " (١) هذا تحدٍّ واضحٌ لغير المسلمين فهو يدعوهم لإيجاد خطأ فيه.

٤. إخبار القرآن بالغيب ووقوعه كما أخبر وفي التوقيت الذي حدّد (كما في نصر الروم). لو

أنّ محمداً ﷺ هو الذي كتب القرآن فما الذي يدفعه إلى الجزم بوقوع شيء في المستقبل القريب جداً؟ بل ويحدّد له موعداً لا يتجاوزه، ولا يترك التوقيت مفتوحاً كما في قوله

تعالى " الرَّ ۝١ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ

عَلَيْهِمْ سَيَعْلَبُونَ " (٢). ماذا لو لم يحدث مثل هذا في الموعد المحدّد (بضع

سنين) وهو ما لا يزيد عن تسع سنين؟ لو لم يحدث هذا لسقطت مصداقية الدعوة تماماً، ولثبت للعالم أجمع أنّ هذا القرآن ليس كلام الله. إنه ليس مضطراً أبداً لمثل هذا، لكنه كلام عالم الغيب والشهادة.

٥. لم يرد على لسان النبي ما يشبه القرآن قبل البعثة قال تعالى " فَكَدَّ لِبَنَاتٍ

فِيكُمْ عُمَرًا مِنْ قَبْلِهِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " (٣) ألم يكن سيدنا محمد ﷺ

يعيش بين قومه قبل البعثة أربعين عاماً، كيف لم يظهر في كلامه مثل هذا القرآن البليغ المذهل، ولو كان قد ظهر من قبل لكان هذا حجّة تلقّفها المشركون ولقالوا له، إنه كلامك مذ عرفناك والله ما هو بمجديد.

(١) سورة النساء، الآية ٨٢.

(٢) سورة الروم، الآيات ١ - ٣.

(٣) سورة يونس، الآية ١٦.

٦. لوم القرآن للنبي محمد ﷺ: إن القرآن نزل في غير موضع يلوم الرسول ﷺ ويُعاتبه على بعض أفعاله، فهل هو محمد ﷺ الذي يلوم نفسه؟؟

٧. لماذا يؤلف محمد ﷺ القرآن وينسبه إلى غيره؟ فالعظمة تكون أقوى وأوضح وأسمى فيما لو جاء بعملٍ يعجز عنه العالم كله، وكان بهذا العمل فوق طاقة البشرية فيرفع إلى مرتبة أسمى من مرتبة البشر، فأى مصلحة أو غاية لمحمد ﷺ في أن يؤلف القرآن - وهو عملٌ جبارٌ معجزٌ - وينسبه لغيره؟

٨. في القرآن أخبار الأولين بما يُغايّر أخبارهم في الكتب المتداولة أيام محمد ﷺ، فإن القرآن الكريم يحتوي على معلومات كثيرة لا يمكن أن يكون مصدرها غير الله. مثلاً: مَنْ أخبر محمداً ﷺ عن ذي القرنين وعن سفينة نوح وناقة صالح؟!.

نختم الحديث عن هذه الفرية بقولنا: لقد أخبر القرآن الكريم أنّ أبا لهب سيصلى النار ويكون من أهلها، وقد كان هذا من باب الإعجاز في الإخبار عن غيب المستقبل. وهنا تساءل: ألم يكن بإمكان أبي لهب أن يكذب محمداً ﷺ والقرآن الذي جاء به فيعلن إسلامه، ولو تظاهراً بذلك؟؟ بلى لقد كان بإمكانه ذلك، ولكنه لم يفعل، لماذا؟ لأن محمداً لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

الشبهة العاشرة ودفعها:

أخذ محمد الإسلام والقرآن عن مصادر بشرية وبالتحديد من اثنين من أبرز الرهبان والقسيسين آنذاك، وهما ورقة بن نوفل وبجيرا سرجيوس حيث قاما بتعليمه وتلقينه ما يريدان.

- تتكون هذه الشبهة من شقين، أولها أنّ محمداً أخذ الإسلام والقرآن عن ورقة بن نوفل وثانيهما أنّه أخذه عن الراهب بجيرا سرجيوس.

- أما عن ورقة بن نوفل فقد التقى به رسول الله ﷺ بعيدَ فترة قصيرة من نزول الوحي عليه ﷺ عندما رجع من غار حراء إلى خديجة، رضي الله عنها وأرضاها، ترجفُ بوادره وقال لها: زملوني زملوني. وقد أخرج الإمام البخاري، رحمه الله تعالى، هذا الحديث في صحيحه كما يلي:

عن عائشة زوج النبي قالت: كان أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، حُبِّبَ إليه الخلاء فكان يلحق بغار حراء فيتحنث فيه - قال: والحنثُ التعبُّدُ - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ... فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة، أخي أبيها وكان امرأ تنصّر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العربي ويكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: يا ابن عمّ اسمع من ابن أخيك، قال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره النبي (خبر ما رأى)، فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى. ليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً حين يُجرحك قومك، قال رسول الله ﷺ: "أو مخرجي هم؟" قال ورقة: نعم، لم يأت رجلٌ بما جئتَ به إلا أُوذي - وفي رواية: عُودي - وإن يدركني يومك حيّاً أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وقرت الوحي فترة حتى حزن رسول الله ﷺ (1).

وتقول بعد أن سقنا هذا الحديث الصحيح الذي وُصِّح لقاء النبي ﷺ بورقة بن نوفل لمدة قصيرة جداً ما يلي:

أولاً: إن كان الرهبان الطاعنون يزعمون أنّ محمداً قد سمع وتعلّم من ورقة بن نوفل فليخبرونا على وجه التحديد ما الذي سمعه محمدٌ منه؟ ومتى كان ذلك؟ وأين كان؟؟

ثانياً: خلال ثلاثٍ وعشرين سنةً من نزول الوحي على رسول الله ﷺ لم يلتق، عليه السلام، بورقة سوى دقائق معدودة، فالرجلُ مات بعد لقائه حبيبنا المصطفى بفترة قصيرة، وهو لم يعاصر التسلسل الزمني والفعلي للإسلام على مدى هذه الأعوام الثلاثة والعشرين إذ أنّه "توفي في أول البعثة، فأين ورقته من سؤالٍ يسأله المشركون أو اليهود أو غيرهم للرسول ﷺ فترى الإجابة قد وجدت في حينها وجاء القرآن يشرحها ويحدد موقفه منها كسؤالهم عن الأهلهة وعن الحيض وعن الخمر ... كثيراً ما كان المؤمنون أو اليهود أو المنافقون أو المشركون، يسألون عن أشياء يريدون فهمها أو عن أشياء يريدون تعجيز الرسول وإظهاره بمظهر عدم العارف ليضعفوا من شخصيته

(1) صحيح البخاري، [م، س] كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي على رسول الله ﷺ.

ومهابته، وكان نزول القرآن مفزقاً يتيح للرسول أن يتلقى الرد عليهم من جبريل بما يريد الله، ولذلك نجد كثيراً في القرآن (يسألونك) أو (يسألك الناس)، ونجد الرد بعد ذلك. حتى بلغ (يسألونك) نحو خمسة عشر سؤالاً وُجِّهت للرسول في أوقات مُتباعدة، ونزل القرآن للرد عليها فأين هو ورقة بن نوفل من هذه الأسئلة؟ أين ورقة من أحداثٍ تمت بعد وفاته وقد تحدّث عنها القرآن الكريم؟ فليخبرنا هؤلاء الرهبان الطاعنون هل عاصر ورقة غزوة الأحزاب التي تحدّث عنها القرآن الكريم؟ وهل عاصر يوم حنين الذي تحدّث عنه القرآن؟ هل عاصر قصة زيد التي تحدّث عنها القرآن الكريم؟ هل عاصر حادثة الإفك التي تحدّث عنها القرآن؟ هل عاصر قدوم وفدٍ نجران والدعوة للمباهلة؟⁽¹⁾.

ثالثاً: في القرآن الكريم آياتٌ لا توافق عقيدة المسيحية فكيف يكتبها ورقة؟ فعلى سبيل المثال: إذا كان القرآن مصدره ورقة، وورقة شخص نصراني فكيف يُنكر القرآن صلب المسيح؟

رابعاً: إنّ المشركين من أهل مكة قد دأبوا على أن يجدوا أيّ صلاةٍ أو علاقةٍ تدلُّ على كذب رسول الله ﷺ فيما جاء به عن ربه؛ ولو صحّ لديهم أو شاع عندهم أنه ﷺ كان يستعين ببعض أهل الكتاب لكانت تلك فرصتهم، وحجّتهم القوية على أنّه غير صادق فيما جاء به من الوحي. ومن الثابت تاريخياً أنّ اتهامات المشركين - بمن فيهم اليهود - لم يكن فيها [أنّ محمداً استعان بعناصر من أهل الكتاب]، مع أنّ الفرصة أمام اليهود والنصارى كانت سانحة لهم ليوتّموا له مثل هذا الاتهام، أما وإنهم لم يفعلوا ذلك - مع توافر الدواعي - فقد دلّ هذا على أن هذه المقولة كاذبة، ولا تمتُّ إلى الحقيقة بصلة.

ثم على فرض أن هذا الادعاء لم يكن أهل مكة يعرفونه، فمن المفروض أنّ مصدر الاستعانة - لو صحّ هذا - وهم أهل الكتاب كانوا موجودين زمن البعثة المحمدية، بدليل أن بعض وفود أهل الكتاب قد جاءت إلى رسول الله ﷺ، ولم ينقل إلينا التاريخ أنّ أحداً منهم أعلن أنّ محمداً أخذ عنهم أو استعان بهم.

(1) يوسف عبد الرحمن، الرد على شبهة أن النبي تلقى القرآن عن ورقة بن نوفل، مقالة منشورة بتاريخ ٢٠٠٨/٦/٢٤ في موقع

خامساً: لا يملك أيّ من هؤلاء الرهبان الطّاعنين أدنى دليلٍ على أنّ ورقة بن نوفل كان راهباً أو قسيساً. وإلاّ فليخبرونا عند من درس المسيحية ومن الذي كان يعلمه إياها؟ وفي أيّ ديرٍ أو كنيسةٍ؟ ومتى كان ذلك؟ وفي أيّ بلدٍ؟ وما هي المؤسسة التي كان ينشرُ المسيحية من خلالها؟ ومن هم الذين تنصّروا على يديه ومتى؟؟

سادساً: ولئن كانت هذه القدراتُ كلها عند ورقة بن نوفل فلماذا لم يُعلنها هو؟ لماذا لم يُعلن للملأ عن تأليفه لكتابٍ عظيمٍ كالقرآن الكريم؟ ولماذا ترك المجالَ لمحمدٍ ليُعلنَ عنه ويصدع به؟ لماذا تركَ هذه الفرصةَ الذهبيةَ للإفصاح عن مواهبه وقدراته؟ ولماذا لم يُعلن أنّه الأستاذ وأنّ محمداً كان تلميذاً عنده؟؟ لماذا ولماذا؟؟

إننا نوّكد في هذه الدراسة بكلّ مسؤوليةٍ وأمانةٍ رجوعنا إلى ما كتبه الرهبان الطّاعنون قديماً وحديثاً حول تلقين وتعليم ورقة بن نوفل الإسلام والقرآن لمحمد ﷺ، فما وجدنا لها أصلاً ولا دليلاً معتمداً في أيّ من الكتب التاريخية المعتمدة. حتى أننا لم نجد اسماً لشخصٍ بعينه أو مجموعةٍ من الأشخاص تزعم هذه المصادر أنها أخذت أو روث عنهم هذه الفرية، إذ أنّ الأصل أن تُبنى مثل هذه الادعاءات والافتراءات على روايةٍ أو رواياتٍ ولو لشخصٍ واحدٍ عاصرَ ورقة بن نوفل أو رآه أو سمعَ منه، بما يُثبت أنّ هذه الفرية لا أصلَ لها ولا دليل. ومّا يُثبت كذلك أنّها جاءت لاحقةً ومتأخّرةً عن عصر ورقة بل وعن عصر صدر الإسلام كلّهُ.

- أمّا عن الراهب مجيرا أو سرجيوس مجيرا كما تسمّيه المصادر المسيحية فالحديث عنه يطولُ ويطولُ، وكثُرا قد عرضنا في المبحث الثاني من الفصل الأول لهذه الدراسة تلخيصاً لتتبع المؤرخ الألماني لودفيغ هاغمان لفرية تلمذ محمد ﷺ على يدا مجيرا الراهب خلال فترة قاربت الأربعمئة سنة، حيث أكّدت الكثير من المصادر التاريخية المسيحية هذه الحادثة ووصفت هذا الراهب بإثّة نسطوريّ حيناً وآريوسيّ حيناً وإيبونيّ حيناً آخر!!.

أمّا بالنسبة لورود قصة لقاء رسول الله ﷺ بهذا الراهب مجيرا في المصادر الإسلامية فلخصّها ما يلي:

قال الإمام الترمذي^(١): حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَعْرَجُ الْبَغْدَادِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَزْوَانَ أَبُو نُوحٍ: أَخْبَرَنَا يُونُسُ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ بْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ: خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي أَشْيَاحٍ مِنْ قَرِيْشٍ فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ فَجَرَحَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبَ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمْرُونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ، قَالَ: فَهَمَّ يَحْلُونَ رِحَالَهُمْ فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: هَذَا سَيِّدُ الْعَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ فَقَالَ لَهُ أَشْيَاحٌ مِنْ قَرِيْشٍ: مَا عَلَّمَكُمَا؟ فَقَالَ: إِنَّمَا حِينُ أَشْرَفْتُمْ مِنَ الْعَقْبَةِ لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ وَلَا حَجْرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا، وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيِّ، وَإِنِّي أَعْرَفُهُ بِخَاتَمِ النَّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غَضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التَّفَاحَةِ، ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَلَمَّا أَنَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رَعِيَةِ الْإِبِلِ قَالَ: أَرْسَلُوا إِلَيْهِ. فَأَقْبَلَ وَعَلِيهِ غَمَامَةٌ تَظِلُّهُ فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْقَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالٌ فِيءِ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: انظُرُوا إِلَى فِيءِ الشَّجَرَةِ مَالٌ عَلَيْهِ قَالَ فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يَنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا إِلَى الرُّومِ، فَإِنَّ الرُّومَ إِذَا رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ الْحَدِيثُ".

ولقد ثارت بين العلماء نقاشات مطوّلةٌ حول مدى صحّة هذا الحديث وصلاحيته للاحتجاج به، فمنهم من أنكر صحّته ومنهم من حكم عليه بالقبول وقد بعض متنه، ومنهم من أقرّ بصحّته وصلاحيته للاستدلال به^(٢). والذي نميلُ إليه ونأخذ به في هذه الدراسة رأيُ الأستاذين أكرم ضياء العمري وزياد سليم العبّادي؛ فقد خلص الأستاذ العمري بعد دراسة مفصّلة لهذه الرواية سنداً وامتناً إلى القول: ويمكن أن تطمئنّ النفس إلى إثبات سفره ﷺ مع عمّه إلى بصرى، وتحذير الراهب بجيرا لعمّه من يهود الروم بالاعتقاد على رواية الترمذي، والاستئناس بالروايات الضعيفة الأخرى.

كما خلّص الدكتور العبّادي في نهاية بحثٍ مفصّلٍ أعدّه حول هذه الرواية إلى القول: من خلال بحثي المضني والذي استقرتُ من خلاله عشرات الكتب للوصول إلى إجابة شافية، لحالة حديث بجيرا في ميزان القبول والرد، فإتني أُبجّه على ما يأتي:

(١) سنن الترمذي، تحقيق عادل مرشد، أبواب المناقب، باب ٤ - ٥، ص ٧٩٤، ٧٩٥، رقم الحديث (٣٦٢٠) ط ١، ٢٠٠١، دار الأعلام، الأردن.

(٢) العمري، [م.س.]، ص ١٠٩.

١. ما تَطْمَئِنُّ لَهُ نَفْسُ الْبَاحِثِ ثُبُوتُ قِصَّةِ بَحِيرَا، وَإِنْ كَانَ ثَمَّةُ نَقْدٍ لِبَعْضِ الْأَلْفَاظِ الْوَارِدَةِ فِيهِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَطِيحُ بِالْحَدِيثِ، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ.
٢. جَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ أَثْبَتُوا صِحَّةَ الْحَدِيثِ نَصًّا، أَوْ اسْتَشْهَدُوا بِهِ فِي كَتَبِهِمْ مُقَرَّرِينَ لَهُ دُونَ نَقْدِهِ، بَلْ أَسَارَ ابْنَ الْأَثِيرِ لِلْإِجْمَاعِ عَلَى قَبُولِهِ، وَقَدْ يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ؛ لِأَنِّي لَمْ أَجِدْ أَحَدًا سَبَقَهُ فِي رَدِّ الْحَدِيثِ، وَمَا بَيْنَ وَفَاتِهِ وَوَفَاةِ الْإِمَامِ الذَّهَبِيِّ مَا يَقْرَبُ مِنْ مِائَةٍ وَأَرْبَعِينَ عَامًا.
٣. الْإِمَامُ الذَّهَبِيُّ هُوَ مَنْ تَزَعَمَ نَقْدَ الْحَدِيثِ، وَقَدْ انْصَبَّ نَقْدُهُ عَلَى الْمَتْنِ، وَكُلُّ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ نَاقِدًا لِلْحَدِيثِ؛ فَلَيْتَمَا كَانَ صَدَى لِكَلَامِهِ دُونَ إِضَافَةِ هَاتِمَةٍ.
٤. جَمِيعُ الشُّبُهَاتِ الَّتِي أُثِيرَتْ حَوْلَ الْقِصَّةِ أَمَكْنَ الْإِجَابَةَ عَنْهَا بِمَا يَثْبُتُ أَصْلَهَا وَصِحَّتَهُ وَقَوَعَهَا، وَفِي ذَلِكَ إِثْبَاتٌ جَزْءٌ هَامٌ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ ﷺ^(١).

وَيُسْتَحْسَنُ بَعْدَ الْإِسْتِنْسَاسِ بِرَأْيِ هَذَيْنِ الْأَسْتَازِينَ الْفَاضِلِينَ فِي إِثْبَاتِ وَقَوَعِ لِقَاءِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَمَا كَانَ صَغِيرًا بِبَحِيرَا الرَّاهِبِ، الرَّدُّ عَلَى الرَّهْبَانِ الطَّاعِنِينَ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ تَلَقَّنَ الْقُرْآنَ وَالْإِسْلَامَ وَأَخَذَهُمَا عَنْ هَذَا الرَّاهِبِ عِنْدَ لِقَائِهِ إِيَّاهُ وَيَتَجَلَّى رَدَّنَا عَلَى هَذِهِ الْفَرِيَةِ وَأَصْحَابِهَا فِيمَا يَلِي:

١. اتَّفَقَ مَوْزَخُو السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَعُلَمَاؤُهَا الْخِصَّصُونَ بِهَا وَيَعْلَمُونَ الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أَمِيًّا لَا يَعْرِفُ الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ، فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَتَلَقَّى صَبِيًّا أُمِّيًّا فِي سَنِ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ وَفِي وَقْتٍ قَصِيرٍ جَدًّا الْقُرْآنَ كُلَّهُ وَالْإِسْلَامَ كُلَّهُ وَأَنْ يَفْهَمَ التَّوَارَةَ وَالْإِنْجِيلَ، ثُمَّ يَقُومُ بِحِفْظِهَا وَتَحْزِينِهَا فِي ذَاكِرَتِهِ ثُمَّ يَخْرِجُهَا وَيُعَلِّنُ عَنْهَا وَهُوَ فِي سِنِّ الْأَرْبَعِينَ؟؟ لِعَمْرِي إِنَّ هَذَا إِلَّا كَلَامٌ يُفْتَرَى، وَإِنْ هَذَا إِلَّا عُجَابٌ.
٢. لَمْ تَتَجَاوَزِ الْفَتْرَةَ الَّتِي قَضَاهَا هَذَا الصَّبِيُّ بِصَحْبَةِ عَمِّهِ وَبَعْضِ رِجَالِ قَرِيْبِشٍ مَعَ هَذَا الرَّاهِبِ فَتَرَةَ التَّحْضِيرِ لَطْعَامِ الْغَدَاءِ وَتَنَاوُلِهِ وَالِاسْتِرَاحَةَ بَعْدَهُ، ثُمَّ انْطَلَقَتْ قَافِلَةُ قَرِيْبِشٍ بُعِيدَ ذَلِكَ تَسِيرٌ مِنْ جَدِيدٍ.
٣. لَوْ صَحَّ أَنَّ الصَّبِيَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ تَعَلَّمَ عِنْدَ هَذَا الرَّاهِبِ بِحِيرَا عِنْدَ لِقَائِهِ إِيَّاهُ فِي بُصْرَى لِشَاعٍ هَذَا الْأَمْرَ وَاشْتَهَرَ وَلَكِنْ مَعْلُومًا فِي الْأَوْسَاطِ الْفُرْشِيَّةِ بَعْدَ رِحْلَةِ الْعُودَةِ إِلَى مَكَّةَ.

(١) العبادي، زياد سلم، بحث غير منشور بعنوان (خبر بحيرا الراهب في ميزان النقد الحديث)، الخاتمة.

٤. أَلَصِقَ كَفَّارُ قَرِيْشٍ بِمُحَمَّدٍ ﷺ كُلَّ أَنْوَاعِ التُّهْمِ وَالْإِفْتِرَاءَاتِ إِلَّا تَهْمَةَ [إِنَّكَ تَعَلَّمْتَ دِينَكَ مِنَ الرَّاهِبِ بِحَيْرَا] فَلَوْ أَنَّهَا وَقَعَتْ فَعَلًا لَكَانَتْ مُسْتَنْدًا بَارِزًا لَهُمْ فِي تَكْذِيبِهِ. وَنَحْنُ نَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَرَيَّصُونَ بِهِ وَيَحَاوِلُونَ أَنْ يَخْلُقُوا لَهُ تَهْمَةً أَوْ شِبْهَةً أَوْ فَرِيَّةً مِنْ لَا شَيْءٍ. كَيْفَ لَا وَهُمْ الَّذِينَ اتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ يَعْلَمُ الْفَتَى الْأَعْجَمِيَّ النَّصْرَانِيَّ الَّذِي كَانَ عَبْدًا لِبَعْضِ بَنِي الْحَضْرَمِيِّ وَالَّذِي كَانَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَجْلِسُ مَعَهُ أحيانًا؟ "وقد كان هذا يتاعاً عند الصفا وكان أعجمي اللسان لا يعرف العربية أو أنه كان يعرف الشيء اليسير بقدر ما يردُّ جوابَ الخطاب لا بدَّ منه، فهذا قال الله تعالى: رَادًّا عَلَيْهِمْ [على قريش] في اقترابهم ذلك (

سَاتُ الَّذِي يُتَحَدَّثُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانُ عَرَبِيٍّ

مُتِينٌ) (١) أي القرآن، أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه الثامنة الشاملة... كيف يتعلم من رجلٍ أعجميٍّ؟" (٢).

لقد اصطنع هؤلاء القرشيون فضيحةً لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لمجرد جلوسه مع هذا العبد الأعجمي واتهموه بأنه هو الذي يعلمُ القرآن والإسلام، فلنتخيل كيف سيكون الأمر وردَّ فعلهم لو اشتبهوا بمجربٍ اشتباهه بأنَّ محمداً ﷺ كان يجلس مع بحيرا ويدرس عنده!!! واضحٌ تماماً أن قريشاً لم تدع ذلك مُطلقاً.

ولربما يسأل سائلٌ: إن لم تكن قريش، أبدأ، قد ادَّعت بأنَّ محمداً أخذ عن بحيرا الراهب وتلمذت عليه فمن أين جاءت بعضُ كتب التاريخ المسيحية بهذا الفرية؟؟؟ إن الردَّ الصريح الصحيح الذي نذكره في الإجابة عن هذا السؤال هو يوحنا الدمشقي (منصور بن سرجون بن منصور) الذي كان أوَّلَ مَنْ دَوَّنَ هذه الفرية في مؤلِّفه الخطير (ينبوع المعرفة) قسم (هرطقة الإسماعيليين) الذي سبقت الإشارة إليه في نهاية المبحث الأول من الفصل الثاني من هذه الدراسة. نعم إنَّ ما بينه الغرب من أكاذيب واقتراعاتٍ على الإسلام والرَسُولِ الْمُصْطَفَى ﷺ إنما هو مصنوعٌ في الشرق أولاً ومن ثم كان انتقاله للغرب.

(١) سورة النحل: الآية ١٠٣.

(٢) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء (إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة النحل، الآية (١٠٣)، ج ٢، ص ٩٥٦، ط ١، ١٩٨٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥. إن فرضنا جدلاً وجود هذا العلم الغزير المدهش كالقرآن وما تضمّنه والإسلام وما اشتمل عليه، والتوراة والإنجيل عند بحيرا الراهب فلماذا يا ترى كان هذا الرجل مغموراً ولم يُشتهر أمره بين الناس آنذاك؟؟ ثم أين موقف الكنيسة من الاهتمام به والترجمة له ولسيرته ولأعماله؟ وأين هي مؤلفاته؟ وقبل هذا وذاك أين هي سيرته الذاتية من حيث تاريخ الميلاد ومكانه ومؤهلاته العلمية والدينية اللاهوتية؟ كلها تساؤلات ستبقى من دون إجابات. ولكن لماذا؟ لأنّ بحيرا المسكين لم يكن كذلك؛ لم يكن شهيراً ولا عبقرياً ولا أستاذاً ولكنّ المتحاملين على الإسلام ورسوله الكريم ﷺ حملوه ما لم يكن ليقدّر على حمله!!! "أما بالنسبة لمعلوماتنا عن بحيرا فإنّ المصادر لا تكاد تثقّق على شيء بشأته، بل هي متضاربة في اسمه فمرة جرجيس وأخرى جرجس وثالثة سرجيس ورابعة معناه العالم المتبحّر ومرة يُنسب لقبيلة عبد القيس فهو عبقي ومرة هو نصراني وأخرى يهودي"^(١)!!!

الشبهة الحادية عشرة ودفعها:

إنّ من الأدلة على أنّ محمداً تتلمذ على يد الراهب النسطوري بحيرا ومن بعده ورقة بن نوفل، اللذين لُقّناه القرآن وتعاليم الإسلام وتعاليم التوراة والإنجيل امتلاء القرآن الذي جاء به محمدٌ بقصص التوراة والإنجيل، وقصص الأنبياء الواردة فيها كنوح وإبراهيم وشعيب وموسى وهارون ...

- تكاد هذه الفرية تكون أوثق الفريات والشبهات ارتباطاً بسابقتها، بل إنها صادرة عنها ونتيجة لها؛ فالقول بأنّ القرآن الكريم منحولٌ عن التوراة والإنجيل امتداداً للقول بأنّ بحيرا وورقة هما اللذان لُقّننا محمداً تعاليم القرآن والتوراة والإنجيل، وامتداداً للقول بأنّ الإسلام هرطقة مسيحية وأنه مزيجٌ من تعاليم التوراة والإنجيل. وهذا الكلام ليس جديداً علينا فنحن نسمعه يتردّد في الأوساط الكنسية الغربية المعاصرة والمواقع الإلكترونية التابعة لها صباح مساء.

(١) العمري [م. س] ص ١١٠، ١١١.

ولمّا جاء ذكر قصص الأنبياء على وجه التحديد في هذه الفرية كشاهدٍ على أخذها من التوراة والإنجيل، استلزم الأمر الردّ على ما فيها من خلال عقد مقارناتٍ ولو قليلةٍ ما بين القصص القرآني والقصص الكتابي بعهديه القديم والجديد.

ونشيرُ في بداية ردّنا على هذه الفرية، بإنها لربّما تكون صحيحةً في حالةٍ واحدةٍ فقط، ألا وهي تطابقُ النصوص والأشخاص والمضامين والأماكن والمستنات فيها. ولكنّ هذا مخالفٌ تماماً لواقع الحال، فعلى سبيل المثال نرى أنّ الإنجيل يروي قصّة آلام المسيح وحادثته إلقاء القبض عليه التي انتهت بقتله صلباً، بينما نرى القرآن الكريم يذكر قصّة عيسى عليه السلام ومعجزاته ويُبيّنُ تمام الإنكار حادثه صلبه وقتله عليه السلام.

كما أننا نرى الكتاب المقدّس في بعض نصوصه يرفع المسيح عليه السلام لمرتبة الإله في حين نرى القرآن الكريم يقرّر عبوديته لله تعالى، وأنّ مثله عند الله كمثل آدم الذي خلقه الله تعالى من ترابٍ ثم قال له كن فيكون. وبينما نقرأ في القرآن قصّة سليمان عليه السلام وإيمانه بالله تعالى وتوحيده له نقرأ في التوراة أنّ نساء الكثيرات أملن قلبه عن توحيد الله وأنّه جعل لنفسه آلهةً أخرى!!!.

وحتى تكون المسألة أكثرَ فاعليّةً وجدوى، فإننا سنعمدُ إلى ذكر ثلاثٍ من القصص المشهورة التي ورد ذكرها في كلّ من الكتاب المقدس وفي القرآن الكريم ليتبيّن الأمر من خلالها بشكل أوضح:

أولاً: من خلال مقارنتنا لبشارة زكريا يبحي عليها السلام كما وردت في إنجيل لوقا، في إصحاحه الأول في الآيات ٧ - ٢٢ بالبشارة نفسها كما وردت في القرآن الكريم في سُورتي آل عمران ومريم، فإننا نقف على مجموعة هامةٍ من الفروق الجوهرية التي تُثبتُ استحالة أخذ القرآن الكريم لهذه القصة عن الإنجيل. وبيان ذلك ما يلي^(١):

١. في سورة "آل عمران" تقدم على قصة بشارة زكريا يبحي، قصّة نذرِ امرأة عمران ما في بطنها خالصاً لله. في حين أنه لم يرد ذكر لهذا في النصّ الإنجيلي.

(١) هذه المقارنة والمقارنتان التاليتان لها ماخوذتان بالكامل من كتاب حقائق الإسلام في مواجهة المشككين [م. س.] قسم (دعوى أن القرآن من الكلام المنقول عن غيره).

٢. النص القرآني أخبر أن امرأة عمران ولدت أنثى؛ وكانت ترجو أن يكون المولود ذكراً، وهذا أيضاً لم يأت له ذكر في النص الإنجيلي.
٣. ذكر النص القرآني، كغفلة زكريا للمولودة "مريم" وأخبر عن وجود رزقها عندها، ويبيّن أنّ مصدر هذا الرزق هو الله. وهذا بدوره لم يرد ذكره في النص الإنجيلي.
٤. رَبَطَ النصّ القرآني بين قصّة الدعاء بمولود لزكريا، وبين قصّة مولودة امرأة عمران. وهذا لا وجود له في النص الإنجيلي.
٥. ذكر النص القرآني دعاء زكريا، في حين أننا لا نجد ذكراً لذلك في النص الإنجيلي.
٦. تناول النص القرآني ما رَبَّيْتُهُ زكريا على هبة الله له ولياً، وهو أن يرثه ويرث من آل يعقوب. بينما لم يرد ذكر لهذا في النص الإنجيلي.
٧. بيّن النص القرآني أن السبب الذي حمل زكريا على دعاء ربه، هو خوفه الموالي من ورائته. والنصّ الإنجيلي خالٍ من هذا تماماً.
٨. صرّح النص القرآني بأنّ زكريا أوحى لقومه، بأن يُسَبِّحُوا بكرةً وعشيّاً. ولا وجود لهذا في النص الإنجيلي.
٩. ذكر النص القرآني الثناء على المولود "يحيى" وبين أنه بارٌّ بوالديه، يوم ولادته ويوم موته ويوم بعثه حياً. ولا مقابل لهذا الثناء في النص الإنجيلي.

ثانياً: من خلال مقارنة لقصة قابيل وهابيل الواردة في التوراة بالقصة ذاتها الواردة في القرآن الكريم في سورة المائدة، فإننا نقف على فروق هامة تنفي وبكلّ جلاء ووضوح الزعم بأخذها من التوراة، وذلك من خلال جدول المقارنة التالي:

القصة كما رواها القرآن الكريم	القصة كما رواها التوراة
لا يسميها ويكتفي ببنوتها لآدم، كما اكتفى بذكر القربانين ولم يحددهما.	تُسمي أحد الأخوين قايين وهو "القاتل" والثاني "هابيل" كما تصفُ القربانين وتحدد نوعهما
لا يذكر حواراً حدث بين القاتل وبين الله، ولا يذكر أنّ القاتل طرده الله من وجهه إلى أرض بعيدة، إذ ليس على الله بعيد.	تروي حواراً بين قايين والرب بعد قتله أخيه، وتعلّق غضبَ الرب على قايين وطرده من وجه الرب إلى أرض بعيدة.
يذكر الحديث الذي دار بين ابني آدم، ويفضّل القول فيما صدر من القتل قبل قتله	التوراة تخلو من أيّ حوار بين الأخوين

القصة كما ذكرها القرآن الكريم	القصة كما روتها التوراة
وتهديده لأخيه بأنه سيكون من أصحاب النار إذا قتله ظلماً.	
يذكر مسألة الغراب، الذي بعثه الله ليُرِي القاتل كيف يتصرف في جثة أخيه، ويواري عورته.	لا مقابل في التوراة لهذه الرواية ولم تبين مصير جثة القتيل!؟
يصرح بندم "القاتل" بعد دفنه أخيه وإدراكه فداحة جرمته.	تنسب الندم إلى "قايين" القاتل لما هدده الله بجرمانه من خيرات الأرض، ولا تجعله يشعر بشناعة ذنبه.
يجعل من هذه القصة هدفاً تربوياً وبيني شريعة القصاص العادل عليها. ويوم بنو إسرائيل على إفسادهم في الأرض بعد مجي رسل الله إليهم.	لا هدف لذكر القصة في التوراة إلا مجرد التاريخ. فهي معلومات ذهنية خالية من روح التربية والتوجيه

ثالثاً: وآخر هذه القصص الثلاث قصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز. وتفصيل الفرق فيها ما يلي:

القصة كما ذكرها القرآن الكريم	القصة كما روتها التوراة
المراودة حدثت مرّة واحدة، اقترنت بعزم المرأة على يوسف لينفذ رغبتها.	المراودة حدثت مراراً. ونُصِح يوسف لامرأة سيده كان قبل المرة الأخيرة
يشيرُ إلى تغليق الأبواب وأن يوسف هم بالخروج، فقدت ثوبه من الحلف، وحين وصلا إلى الباب فوجئا بالعزيز يدخل عليها فبادرت المرأة بالشكوى في الحال	تخلو من الإشارة إلى تغليق الأبواب وتقول إن يوسف ترك ثوبه بجانبها وهرب، وانتظرت هي قدوم زوجها وقصت عليه القصة بعد أن أعلمت بها أهل بيتها
يوسف كان موجوداً حين قدّم العزيز، وقد دافع عن نفسه بعد وشاية المرأة، وقال هي راودتني عن نفسي.	لم يكن يوسف موجوداً حين دخل العزيز ولم يدافع يوسف عن نفسه لدى العزيز
يذكر تفصيلاً شهادة الشاهد، كما يذكر اقتناع العزيز بتلك الشهادة ولومه لامرأته وتذكيرها	تخلو من حديث الشاهد وتقول إن العزيز حمي غضبه على يوسف بعد سماع المرأة

القصة كما ذكرها القرآن الكريم	القصة كما روتها التوراة
بخطها. وثبتت يوسف على العفة والطهارة.	
يشير إلى أنّ القرار بسجن يوسف كان بعد مداولة بين العزيز وحاشيته.	تقول إنّ العزيز في الحال أمر بوضع يوسف في السجن ولم يعرض أمره على رجال حاشيته.
يذكر حديث النسوة بالتفصيل، كما يذكر موقف امرأة العزيز منهنّ ودعوتها إياهنّ ملتزمة أعدارها لسيهنّ ومُصرة على أن يُنقذ رغبتها.	تخلو من حديث النسوة اللاتي لَمَنَّ امرأة العزيز على مرادتها فتاها عن نفسه، وهي فجوة هائلة في نصّ التوراة.

هذه ستة فروق بارزة بين ما يورده القرآن الكريم وما ذكرته التوراة. والنظر الفاحص في المصدرين يُرينا أنّهما لم يتفقوا إلا في "أصل" الواقعة من حيث هي واقعة وكفى. "ثم إن القرآن والتوراة بعد هذا يختلفان في كلّ شيء، على أنّ القرآن قام هنا بعملين جليلين الشأن:

- أولها: أنه أورد جديداً لم تعرفه التوراة، ومن أبرزها هذا الجديد:
 ١. حديث النسوة وموقف المرأة منهن.
 ٢. شهادة الشاهد الذي هو من أهل امرأة العزيز.

- ثانيها: تصحيح أخطاءٍ وقعت فيها التوراة ومن أبرزها:
١. لم يترك يوسف ثوبه لدى المرأة بل كان لابساً إياه ولكنه قُطِع من الخلف.
 ٢. غياب يوسف حين حضر العزيز وإسقاطها دفاعه عن نفسه^(١).

لقد كانت فرية أخذ محمد ﷺ للقصص القرآني من التوراة والإنجيل واحدة من الفريات والادّعاءات الأكثر إزعاجاً واستفزازاً للمسلمين في الوقت الحاضر، وذلك كما أسلفنا، لأنّ الرهبان الطاعنين لا يملّون من تكرارها وتريديها على الدوام، مما دفع ببعض المفكرين المسلمين لوضع كتابٍ متخصصٍ في الردّ عليها، وقد كان في مقدمة هؤلاء المفكرين الأستاذ

(١) المرجع السابق نفسه.

عبد الجواد المحض. وقد كان تما دحض به هذا الأستاذ هذه الفرية إيراداً للعديد من القصص الذي انفرد به القرآن أو خالف فيه التوراة والإنجيل، ومن ذلك ما يلي^(١):

١. ما جاء في القرآن الكريم من أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وامتناع إبليس عن هذا السجود.
٢. ما ورد في القرآن الكريم من قصص إبراهيم الخليل، عليه السلام، مع قومه وتحطيمه لأصنامهم ونظرتهم في النجوم، وحجابه مع قومه، ومحاولتهم إحراقه في النار، وإسكانه بعض ذريته عند بيت الله الحرام، واشتراكه هو وابنه إسماعيل في رفع القواعد من البيت وبناء الكعبة.
٣. ما قصَّه علينا القرآن الكريم من محاورة بين نوح وابنه الكافر، وعدم ركوب ابنه في السفينة وغرقه، ومحاورة نوح مع الله في ذلك.
٤. ما قصَّه القرآن الكريم عن خبر سحرة فرعون والتقام العصا، التي انقلبت حيةً، لحبلم وعصبيهم، وسجودهم وإيمانهم برب هارون وموسى، ومحاورتهم مع فرعون.
٥. السامري الذي صنع العجل لبني إسرائيل في حين أن التوراة تذكر أنه هارون عليه السلام.
٦. ما قصَّه القرآن الكريم عن الرجل المؤمن من آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه، ودافع عن موسى حين هموا بقتله، وذلك الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى فنصح موسى بالخروج من أرض مصر.
٧. القرآن الكريم يذكر أن بنات الشيخ المذيبي اثنتان، في حين أن التوراة تذكر أنهن سبع.
٩. أمر الله لقوم موسى بدخول الباب سُجَّداً ومخالفتهم لهذا الأمر.
١٠. قصة أصحاب السبت ومسخهم قرده بعد أن اعتدوا فيه.
١١. ما قصَّه القرآن الكريم من تسخير الله الشجر والطير والحديد لناود عليه السلام.
١٢. تسخير الجن والريح لسليمان عليه السلام.
١٣. قصة الهدد، وكتاب سليمان ملكة سبأ وإسلامها وإحضار عرشها بلحم البصر من قبيل الذي عنده علم الكتاب.
١٤. كلام عيسى في المهدي.

(١) المحض، عبد الجواد، أباطيل الخصوم حول النص القرآن عرض ومناقشة، ص ٤٦ فما فوق، ط ١، ٢٠٠٠، البار المصرية، مصر.

ولا ندري بماذا يجيبُ الرهبان الطّاعنون على ورود هذا العدد الكبير من القصص في القرآن الكريم وعدم وروده في كتابهم المقدّس؟ ولا ندري كيف يجيبُ هؤلاء على إمكانية اطلاع بغيراً لمحمّد ﷺ على هذا العدد الكبير من القصص والكمّ الهائل الذي حوته من التفاصيل خلال ساعةٍ من الزمان تناولوا فيها طعام الغداء؟؟

ولن يتساءلون عن سبب ورود بعض هذه القصص في القرآن الكريم وفي التوراة والإنجيل بالرغم من تباعد الأزمان بينهم يقول: إنّ ذلك راجعٌ لوحدة المصدر الذي صدرت عنه هذه الكتب الثلاثة ألا وهو الله تبارك وتعالى، الذي أوحى بها إلى أنبيائه ورسله ليلغوها أقوامهم، فمنها ما حفظ كما نزل، ومنها ما تعرّض للزيادة والنقصان بما كسبته أيدي البعض.

ونلخّص في نهاية الرّد على شبهة وفرية أخذ القرآن للقصص من الكتاب المقدس بالقول: إنّ القرآن الكريم لم يقف ولو في واحدٍ من هذه القصص عند حدود ما ذكره الكتاب في مواضع التشابه بينهما؛ حيث أنّ القرآن الكريم عرض هذه القصص عرضاً يختلف تماماً عن عرض الكتاب المقدّس لها، كما أنّ القرآن الكريم عرض قصصاً جديدة لم يعرفها الكتاب المقدّس في المواضع المشتركة بينهما. وأخيراً فقد انفرد كتابُ الله العزيز بذكر قصص خاصة به لم ترد في أيّ مصدرٍ سواه.

الشبهة الثانية عشرة ودفعها

نشر محمد دينه بقوة السيف والسلاح، وأجبر الكثيرين على اعتناقه، وبالذات من كانوا يهوداً أو مسيحيين، ثم قام أصحابه الذين حكموا من بعد بالسير على هذا النهج أزماناً طويلة. وها هو الإسلام في القرن الحادي والعشرين مرتبطٌ ذكره على الدوام بالعنف والتهديد والإرهاب.

- تحتل هذه الشبهة مركز الصدارة في مجال الحرب الإعلامية التي تستهدف تشويه صورة الإسلام قديماً وحديثاً. وقد كان الترويج لها مقدّمة هامة في حث الشعوب الأوروبية لشقّ الحروب الصليبية على العالم الإسلامي. ونرى في واقعنا المعاصر العديد من البرامج والأفلام المتلفزة والسينمائية التي تخصصت في نشر هذه الفرية والترويج لها. حتّى بات ذكر الإسلام،

وللأسف، مقترناً في كثير من الأحيان بالعنف والإرهاب. والفضلُ في ذلك كله راجعٌ، وبكل تأكيد، لما حَطَّتْهُ أيدي الرهبان الطاعنين الذين ساقوا شعوبهم إلى الموت في الحروب الصليبيَّة بهدف القضاء على الإسلام.

وهذه الشبهة مركَّبة من ثلاثة عناصر خطيرة تستلزم منا دقَّة الردِّ، وهي:

١. انتشر الإسلام بقوة السيف والسلاح، وعن طريق الجهاد فقط.
٢. أجبر المسلمون غير المسلمين من اليهود والمسيحيين على الدخول في الإسلام عنوة.
٣. الإسلام مرتبط بالعنف والتهديد والتخويف (الإرهاب).

- أما بالنسبة لشبهة انتشار الإسلام بقوة السيف والسلاح والجهاد فقط فتدحضها الحقائق التالية:

يُطلق لفظ الجهاد غالباً على القتال، مع أنَّ القتال ليس سوى صورة واحدة من الصور التي يتجلَّى فيها الجهاد وتُعبَّرُ عنه. فالصبرُ على الأذى جهاد، والتربية الإيمانية جهاد، والثبات على الابتلاء جهاد، ومجاهدة النفس ومنعها عن الرذيلة والمعاصي جهاد، والتبرع بالمال لتجهيز جيوش المسلمين جهاد وكذا إمدادهم بالمؤونة والطعام والشراب. وإقامة الحجج العقلية والنقلية على غير المسلمين في دعوتهم للإسلام جهاد. "والجهادُ ليس أحد أركان الإسلام الخمسة. وخلافاً للرأي السائد في الغرب فهو أيضاً ليس دعامة الإسلام المحورية. لكن يظل من واجب المسلمين أن يلتزموا بالتضال على جميع الجبهات، الأخلاقية منها والسياسية والروحية من أجل خلق مجتمع عادلٍ كريمٍ جديرٍ بالاحترام، يعيش فيه الإنسان وفقاً لإرادة الله، ولا يُستَعْلَى في ظله الفقراء وغيرُ المحصَّنين. وقد يكون الحرب والقتال ضرورةً في بعض الأحيان، لكنَّ ذلك جزءٌ ثانويٌّ من الجهاد أو التضال. وهناك حديثٌ مروى عن محمد لدى رجوعه من إحدى المعارك حيث قال ما معناه: "لقد عُدنا من الجهاد الأصغر، إلى الجهاد الأكبر"، أي أنَّ الجهد الأكثر صعوبةً وحسماً هو هزيمة قوى الشر في نفس الإنسان، وفي مجتمع الإنسان في جميع تفاصيل الحياة اليومية"^(١).

(١) آرمسترونج، سيرة النبي محمد [م. س.]. ص ٢٥٣.

وهنا نذكر القارئ الكريم بأن الأصل في الدعوة إلى الإسلام هو قيامها على قوله تعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ" (١). وهي دعوة سلمية يقوم المسلمون بنشرها في العالم كله دون الوقوف عند حدود جغرافية أو مكانية أو زمانية أو لغوية أو عرقية.

فدعوة الإسلام دعوة الحق، تصلح للسريان والتطبيق في كل زمانٍ ومكانٍ ولكن هناك الكثير من العقبات والصعوبات والعوائق التي يصنعها أعداء هذا الدين ليجعلوا منها حواجز مادية تحول دون وصول دعوة الإسلام إلى الناس، ومن هنا كان الجهاد الوسيلة الأبرز لإزالة هذه العقبات والحواجز وتذليلها، وذلك لضمان وصول دعوة الإسلام للناس، وإعطائهم بالتالي الحرية الكاملة في الاختيار بقبول الإسلام أو رفضه. ولا يصح أبداً إكراههم على قبوله بأي شكلٍ أو صورة، وذلك حتى يكون رضاهم به، إن هم اختاروه، قائماً على الرضى الكامل والقناعة التي لا تتزعزع "وهكذا فإنَّ محمداً لم يفكر في ملكٍ ولا في مالٍ ولا في تجارةٍ وإنما كان كلُّ همّه توفير الطمأنينة لمن يتبع رسالته، وكفالة الحرية لهم في عقيدتهم ككفالتهم لغيرهم في عقيدتهم. وهذه الوجهة في التفكير هي التي نزل بها الوحي على محمدٍ منذ الهجرة وهي التي جعلته جنوحاً للسلم راعياً عن القتال مقتصداً طول حياته اشد القصد فيه غير لاجئٍ إليه إلا لضرورة تقتضيه دفاعاً عن الحرية والدين والعقيدة. ثم ألم تكن أول آية في القتال:

"أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ" (٢) والآية

بعدها: "وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ" (٣) فتفكير محمد إذاً إنما كان متوجهاً لغاية واحدة عليا وهي كفالة حرية العقيدة والرأي كفالة في سبيلها وحدها أجل القتال ودفاعاً عنها أبيع المعتدي حتى لا يفتن أحدٌ عن دينه ولا يظلم أحدٌ بسبب عقيدته أو رأيه! (٤).

(١) سورة النحل: الآية ١٢٥.

(٢) سورة الحج، الآية ٣٩.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٩٣.

(٤) رستم، أسد [م.س]، ج ٢، ص ١٥، ١٦، فلأ عن محمد حسين هيكل في كتاب حياة محمد ص ١٨٦، ١٨٧.

ولعمري، لو كان السيف والجهاد هو السبيل الوحيد لنشر الإسلام، كما زعم الرهبان الطاعنون، لارتدت كل القرى والمدن والبلدان التي فتحها جيوش الإسلام بمجرد رحيل هذه الجيوش عنها، وهذا ما تكذبه الحقائق التاريخية دون استثناء. ولو كان كلامنا خاطئاً فإننا نتحدى الرهبان الطاعنين أن يأتونا ولو باسم بلدٍ واحدٍ من بلاد غير المسلمين ارتد أهلُه بعد رحيل جيوش الإسلام عنه. ولا زالت إسبانيا التي شنت جيوشها حملات الاضطهاد والتنصير ومحاكم التفتيش على المسلمين بعد انهزام الجيوش الإسلامية فيها، لا زالت أصدق شاهدٍ على استمرارية وجود عشرات الآلاف من المسلمين المورسكيين والإسبان فيها إلى يومنا هذا.

ثم لو أننا سلمنا بصدق مقولة انتشار الإسلام بالسيف فماذا نُعللُ إسلام عشرات الآلاف من الأوروبيين والأمريكيين كل عام في وقتنا الحاضر؟؟ وقد ذهب عن المسلمين جيشهم وتلاشت عزيمتهم وتشتت شملهم ولم تقم لسيفهم قائمةٌ منذ مئات السنين؟؟ هل دخل هؤلاء الأوروبيون والأمريكيون الإسلام بقوة السيف والسلاح والجهاد؟؟ طبعاً لا.

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" (١).

ولو فرضنا جدلاً صحّة مقولة الرهبان الطاعنين بأن الإسلام انتشر قديماً بالسيف والسلاح والجهاد فقط، عن طريق جيوشه الجرارة فماذا يجيبنا هؤلاء على انتشاره في عشرات الدول والبلدان التي لم تدخلها جيوش المسلمين ولم تصلها قط كالصين وماليزيا واندونيسيا ونيجيريا والهند...؟؟؟

وللمصمّمين من هؤلاء الطاعنين على السؤال عن غايات الجهاد والهدف من تشريعه إن لم يكن لنشر الإسلام بالقوة، نقول: إن القتال في الإسلام ليس محبوباً ولا مطلوباً لذاته، وهو أمرٌ تكرهه النفوس وتستقله، قال تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ

(١) سورة التوبة: الآية ٣٢.

كُزُّهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا
وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ" (١).

ولئن كان القتال مما تكرهه النفوس، ولئن كان غير مطلوب لذاته، فقد شرع لفوائد
وحكم كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر الفائدتين التاليتين:

أولاً: الدفاع عن المظلومين والمستضعفين في الأرض من المسلمين. ولعلّ هذا واضح تمام
الوضوح في قوله تعالى " وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا" (٧٥)
الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
الظَّالِمِينَ فَاقْتُلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا" (٢).

"فقد أمر الله تعالى المسلمين أن يقاتلوا دفاعاً عن مُستضعفين مؤمنين كانوا بمكة
ولا يستطيعون أن يخرجوا منها. قال ابن عباس: كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ" (٣).

ثانياً: حماية الإسلام، ومنع فتنة المسلمين والاعتداء عليهم في دينهم. فالتاريخ والحاضر يخبراننا
أن أمة لا تستطيع أن تحفظ كرامتها وتصون عقيدتها وتحمي بلادها وأبناءها دون أن
تمتلك قوة تكفل لها ذلك. والجهاد في ديننا إنما يُمثَّلُ ويجسِّدُ هذه القوة، قال تعالى:

" وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كَلِمَةً

(١) سورة البقرة: الآية ٢١٦.

(٢) سورة النساء: الآيات ٧٥، ٧٦.

(٣) السيوطي [م. س.] ج ٢، ص ٥٩٣.

لِلَّهِ" (١) "عن نافع أنّ رجلاً أتى ابنَ عمر فقال: ... كان الإسلام قليلاً وكان الرجلُ يفتنُ في دينه إمّا قتلوه أو عدّبوه حتّى كثُر الإسلامُ فلم تكن فتنة" (٢).

ويُثبتُ صحّة ما ذهبنا إليه من سلميّة الدّعوة إلى الإسلام أنّ رسول الله ﷺ لمّا دخل مكّة فاتحاً على رأس جيشٍ يفوق العشرة آلافٍ من المقاتلين، عفا عن أهلها الذين ظلموه وعدّبوه وعدّبوا أصحابه وأخرجوهم من ديارهم بقوله: "أذهبوا فأتمّ الطلقاء" مع أنّ الغالبية العظمى من هؤلاء (الطلاقاء) كانوا على شركهم وكفرهم آنذاك.

إنّ سلميّة الدّعوة إلى الإسلام وكرهية القتال والحرض على دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة يشهد له الأمران التاليان:

أولاً: نهى النبي ﷺ عن قتل النساء والصبيان والشيوخ. روى الإمام مسلم عن ابن عمر قال: "وجدت امرأةً مقتولةً في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان" (٣). وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس قال: "كنا إذا استنفرنا نزلنا بظهر المدينة حتّى يخرج إلينا رسولُ الله ﷺ فيقول: انطلقوا باسم الله وفي سبيل الله تقاتلون أعداء الله، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلاً صغيراً ولا امرأة ولا تغلّوا" (٤).

إننا نذكر هذا الحديث الشريف، فيما يقابله على الطرف الآخر ما يزيد على خمسة عشر نصاً صريحاً في العهد القديم تبيح كلّها، بل توجبُ أحياناً، قتل النساء والأطفال والرجال الشيوخ من غير بني إسرائيل. ونذكر منها على سبيل المثال ما يلي:

١. "وقال له الربُّ عبّر في وسط المدينة في وسط أورشليم وسمِّ سمةً على جباه الرجال الذين يبنون ويتنهدون على كل الرجاسات المصنوعة في وسطها (٥) وقال لأولئك في سمعي

(١) سورة الأفال: الآية ٣٩

(٢) السيوطي [م. س. ج. ١، ص ٤٩٧.

(٣) صحيح الإمام مسلم [م. س. ج. ١، كتاب الجهاد والشير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب.

(٤) السيوطي [م. س. ج. ٢، ص ٤٩٣.

عبروا في المدينة وراءه واضربوا، لا تُشْفِقْ أعينكم ولا تعفوا (٦) الشيخ والشاب والعداء والطفل والنساء اقتلوا للهلاك. ولا تقربوا من إنسانٍ عليه السمة وابتدئوا من مقدسي فابتدأوا بالرجال الشيوخ الذين أمام البيت (٧) وقال لهم نجسوا البيت واملأوا النور قتلى اخرجوا فخرجوا وقُتِلُوا في المدينة" (١).

٢. "اذهبوا واضربوا سكانَ يابيش جلعادَ بحدِّ السيف مع النساء والأطفال (١١) وهذا ما تعلمونه تحرمون كلَّ ذكْرٍ وكلَّ امرأةٍ عرفت اضطجاع ذكر" (٢).

٣. "وتحطّم أطفالهم أمام عيونهم وتهبُّ بيوتهم وتفضخ نساؤهم" (٣).

٤. "تجازى السامرة لأيتها تمرّدت على إلهها، بالسيف يسقطون تحطّم أطفالهم والحوامل تُشوّ" (٤).

ثانياً: تميّزت حروب النبي ﷺ بخلوها من الدمويّة، والرغبة في الثأر والانتقام والعمل المقصود على إبادة الشعوب أو القرى أو المدن. كما تميّزت بقلّة عدد شهداء المسلمين وقلّة عدد قتلى المشركين في المعارك التي خاضوها ضد رسول الله ﷺ. وذلك على العكس تماماً من الحروب والمعارك التي ذكر الكتاب المقدس أن أنبياء وملوك بني إسرائيل قد خاضوها وأبادوا فيها الكثير من القبائل والمدن والقرى، وذلك، كما يزعمون، بأمر من الربّ (٥).

ونشير هنا إلى المجهود المضني الذي يستحقّ كلّ الثناء والتقدير الذي قام به الأستاذ الدكتور راغب السرجاني في دراسته التي عنون لها بـ "عدم دمويّة الحروب النبويّة" (٦)، وكان من خلاصة هذه الدراسة القيّمة ما يلي:

"لقد بلغ عدد شهداء المسلمين في كلّ معاركهم أيام رسول الله ﷺ، وذلك على مدار عشر سنواتٍ كاملةٍ، ٢٦٢ شهيداً، وبلغ عدد قتلى أعدائه ﷺ ١٠٢٢ قتيلاً. وقد

(١) حزقيال: ٩: ٤ - ٧.

(٢) القضاة: ٢١: ١٠ - ١١.

(٣) اشعيا: ١٣: ١٦.

(٤) هوشع: ١٣: ١٦.

(٥) للوقوف على تفاصيل هذه المعارك والإبادات انظر سفر المزامير.

(٦) السرجاني، راغب، عدم دموية الحروب النبوية، دراسة منشورة على الإنترنت في الموقع الإلكتروني للمركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته /

www.mercyprophet.org

حرصتُ في هذه الإحصائية على جمع كلِّ مَنْ قُتِلَ من الطرفين حتى ما تمَّ في حوادث فردية. وليس في حروب مواجهة، كما أنني حرصتُ على الجمع من الروايات الموثقة بصرف النظر عن الأعداد المذكورة، وذلك كي أتجنَّب المبالغات التي يقع فيها بعضُ المحققين بإيراد الروايات الضعيفة التي تحمل أرقاماً أقل، وذلك لتجميل نتائج الحروب النبوية! وبذلك بلغ العدد الإجمالي لقتلى الفريقين ١٢٨٤ قتيلاً فقط!!!

ولكي لا يتعلل أحدٌ بأن أعداد الجيوش آنذاك كانت قليلة ولذلك جاء عدد القتلى على هذا النحو، فإني قمتُ بإحصاء عدد الجيوش المشتركة في المعارك، ثم قمتُ بحساب نسبة القتلى بالنسبة إلى عدد الجيوش فوجدتُ ما أذهلني!! إنَّ نسبة الشهداء من المسلمين إلى الجيوش المسلمة تبلغ ١% فقط، بينما تبلغ نسبة القتلى من أعداء المسلمين بالنسبة إلى أعداد جيوشهم ٢%! وبذلك تكون النسبة المتوسطة لقتلى الفريقين هي ١.٥% فقط!.

إنَّ هذه النُسب الضئيلة في معارك كثيرة بلغت ٢٥ أو ٢٧ غزوة، و٣٨ سرية، أي أكثر من ٦٣ معركة، لمن أصدق الأدلة على عدم دموية الحروب في عهده ﷺ^(١).

ونضع بين يدي القارئ الكريم بعض الحقائق التاريخية التي تحفظها ذاكرة التاريخ والحاضر التي رواها "ريمون داغويليه" الذي كان واحداً من المقاتلين في الجيوش الصليبية التي احتلت القدس في الخامس عشر من شهر تموز عام ١٠٩٩م، والذي وثقت الكثير من المصادر التاريخية المسيحية روايته على أنها رواية شاهد عيان على دخول جيوش الصليبيين إلى القدس. وروايته هي التالية^(٢): [وشاهدنا أشياءً عجيبةً، إذا قطعت رؤوس عددٍ كبيرٍ من المسلمين، وقُتل غيرهم رميّاً بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج. وظلَّ بعضهم الآخر يُعذبون عدّة أيام، ثم أحرقوا في النار. وكنت ترى في الشوارع أكوامَ الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل. بيد

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) انظر:

أ. ديورانت ول، قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، المجلد الرابع من الجزء الرابع الباب ٢٣، الفصل الأول، الحروب الصليبية، ص ٢٥، طبعه الإدارة الثقافية بجامعة البول العريقة.

ب. آرمسترونج، الحرب المقدسة [م. س] ص ٢٣١، ٢٣٢ بصرف.

ج. الفراء، محمد علي، الإسلام والغرب مواجهة أم حوار، ص ٣١ - ٣٣ بصرف، ط ١، ٢٠٠٢، دار مجدلوي للنشر، الأردن.

د. زابورف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ص ١٢٢، ١٢٣.

هـ. جنشي، حسن، الحرب الصليبية الأولى، ص ١٧٩.

أنّ هذا كلّه لا يُعدُّ شيئاً بالمقارنة مع ما حصل في هيكل سليمان [يقصد المسجد الأقصى المبارك] حيث تُقام عادةً خدمة القدّاس. فماذا حصل هناك؟ أخشى إن انا أخبرتم بالحقيقة أن لا تصدقوها لذلك حسبي أن أقول لكم على الأقل إنه في هيكل سليمان [يقصد المسجد الأقصى المبارك] ورواقه غاص الرجال حتى الرُكَب وأعنته الخيل في الدماء. وقد كان حُكماً إلهياً عادلاً ورائعاً أن يتملئ هذا المكان بدماء الملحدّين، وهو الذي عانى طويلاً من تجديفاتهم وتديساتهم. لم تكن تلك المقتلَةُ مجردَ معركةٍ عاديةٍ من معارك الفتوحات، فقد هجم الصليبيون على مسلمي بيت المقدس وأعملوا في رقابهم السيف كأنهم ملائكةُ الانتقام في سفر الرؤيا. كان ذلك حُكماً أصدرة الربّ بذاته. وكان خلاصاً يُشبهه الخلاص الذي اجترحه الربّ في البحر الأحمر حين فتك بجيش المصريين عن بكرة أبيه. بل كان فصلاً عنيفاً وقاطعاً ما بين العدل والظلم لقد أضحّت الحملة الصليبية مجوّحاً حرباً مقدّسةً. والرحلة المقدّسة انتهت بمعركة الخير ضد الشر، أباد فيها جنود المسيح زهاء ٤٠ ألفاً من المسلمين في ظروف يومين..[.

إنّ مرض فقدانِ الذاكرةِ المؤقتِ عاد ليلَازمَ الرهبان الطاعنين في هذا الفصل من جديدٍ، فهم يكبرون ويضخّمون قضية الجهاد والسيف في الإسلام وينسون، بل يتناسون تماماً، قضية الحرب المقدّسة (أو الحرب العادلة) والسيف في المسيحية. "وكان القديس أوغوستينوس قد أجازَ الجهاد في سبيل الله، فتبعه البابا لاوون الرابع (٨٤٧ - ٨٥٥) فأكدّ الثواب لمن يسقط مدافعاً عن الكنيسة. وجاء يوحنا الثامن (٨٧٢ - ٨٨٢) فاعتبر المجاهدين شهداء. وأباح البابا نيقولاوس الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) حمل السلاح في وجه الكفّرة لكلّ من أخطأ ووقع تحت الحرم. ولم يعبأ الآباء الغربيون باجتهد باسيلوس الكبير وامتناعه عن مناولة المحاربين ثلاث سنواتٍ متتاليةٍ فحَضوا المؤمنين على حمل السلاح في وجه المسلمين. ومنح البابا الكسندروس الثاني الغفران لجميع المجاهدين في إسبانية وشجع غريغوريوس السابع في السنة ١٠٨٠ حملة غوي جوفروا على إسبانية. وحذا حذوه أوربانوس الثاني فحَض حجاج القبر المقدّس على استبدال الحج بالعمل المثمر لتحرير إسبانية من المسلمين وإعادة بنائها.

وهكذا فإنه عندما دعا الوفد البيزنطي الآباء إلى التعاون في سبيل الدفاع عن الكنيسة الجامعة في الشرق كانت فكرة الحرب المقدّسة قد ظهرت إلى حيّز الوجود في الغرب وكانت الكنيسة الغربية قد باركتها ونشطتها. فوقع نداء الشرق في نفس أوربانوس الكبيرة موقِعاً

جليلاً. وأطرق يفكر، فترث مواقف أسلافه أمام عينيه مرور البرق فصمم أن يقدم للمسيحية في الشرق أكثر بكثير مما طلب وفد اليكسيوس الفسيلفس^(١).

وقد سبق لنا في هذه الدراسة الوقوف طويلاً عند كيفية تشريع القديس أوغسطين للحرب المقدسة (الحرب العادلة) في المسيحية وتطوير توما الأكويني لها ووضعه للشروط الخاصة بها^(٢).

ونرى من المناسب في نهاية دحضنا لشبهة انتشار الإسلام عن طريق السيف والسلاح والجهاد، أن نسوق شهادةً لواحدٍ من أبرز الدارسين المسيحيين للإسلام، ألا وهو الدكتور غوستاف لوبون لنرى ماذا يقول عن انتشار الإسلام بالسيف والسلاح والجهاد ... لقد ضمنَ لوبون رأيه الصريح في هذا الموضوع في كتابه "حضارة العرب" حيث كانت خلاصة ذلك ما يلي:

"وسيرى القارىء، حين نبحثُ في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أنَّ القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن "الإسلام"، فقد ترك العربُ المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعضُ الأقوام النصرانية الإسلامَ واتخذوا العربية لغةً لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.

وقد أثبتَ التاريخُ أنَّ الأديان لا تُفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عربَ الأندلس فضّل هؤلاء القتلَ والطردَ عن آخرهم على ترك الإسلام ... لم ينتشر الإسلام بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوبُ التي قهرت العربُ مؤخرًا كالترك والمغول. وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العربُ فيها غيرَ عابري سبيل ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نَفْسٍ فيها، ولم يكن القرآن أقلَّ انتشاراً في الصين التي لم يفتح العربُ أيَّ جزءٍ منها قط"^(٣).

(١) رستم، أسد، [م.س.]، ص ٢٤٧، ٢٤٨.

(٢) انظر البحث الرابع من الفصل الأول من هذه الدراسة للوقوف على التفاصيل.

(٣) لوبون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعبيتر، عيسى الباي الحلبي، ص ١٢٥ - ١٢٩ بصرف، واختصار ط٢، ١٩٥٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

"وكانت أخلاق العرب في أدوار الإسلام الأولى أرقى كثيراً من أخلاق أم الأرض قاطبة، ولا سيما الأمم النصرانية، وكان عدلهم واعتدالهم وراقتهم وتسامحهم نحو الأمم المغلوبة، ووفائهم بعهودهم ونبيل طبائعهم مما يستوقف النظر ويناقض سلوك الأمم الأخرى، ولا سيما الأمم الأوروبية أيام الحروب الصليبية ... الحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً مثل دينهم"^(١).

- أما عن شبهة إجبار غير المسلمين على الدخول في الإسلام فتدحضها وترد عليها الحقائق التالية:

أولاً: قوله تعالى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"^(٢). وقد جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة ما يفسرها ويوضح المقصود منها والحكم الذي تدلُّ عليه ألا وهو عدم جواز إكراه وإجبار غير المسلمين على الدخول في الإسلام. "أخرج ابن اسحق وابن جرير عن ابن عباس في قوله "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" قال: نزلت في رجلٍ من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين، كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ ألا أستكرهها فإنها قد أياها إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك.

وأخرج عبد بن حميد عن عبد الله بن عبيدة "أن رجلاً من الأنصار من بني سالم ابن عوف كان له ابنان نصراناً قبل أن يُبعث النبي ﷺ، فقدموا المدينة في نفرٍ من أهل دينهم يحملون الطعام، فرأها أبوها فاتزعها وقال: والله لا أدعُهما حتى يُسلما، فأيا أن يُسلما، فاختصموا إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أيدخل بعضي النار وأنا أنظر؟ فأنزل الله "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ" الآية. فحلى سبيلهما"^(٣).

ثانياً: قوله تعالى: "فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ" (١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ"^(٤). فقد وُصِّحَتْ هذه الآية الكريمة وظيفَةَ الرسول ﷺ وهي دعوة الناس إلى الإيمان بالله

(١) المرجع السابق نفسه ص ٤٢٩، ٤٣٠، بصرف.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

(٣) السيوطي [م.س.]، ج ٣، ص ٢١.

(٤) سورة الفاشية: الأيات ٢١، ٢٢.

تعالى دون أي نوع من الإكراه أو الإجبار وقد جاء في تفسيره هذه الآية الكريمة ما يلي:

"أي فذكر يا محمد الناس بما أرسلت به إليهم" فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب" ولهذا قال "لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضَيِّطٍ"، قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما "لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُجْتَارٍ" أي لَسْتُ تَخْلُقُ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِهِمْ. وقال ابن زيد لَسْتُ بِالَّذِي تَكْرَهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ"^(١).

ثالثاً: مجيء عشرات الوفود من القبائل العربية وعلى رأسها ساداتها وزعمائها طواعية إلى المدينة المنورة لمقابلة الرسول ﷺ وإعلان إسلامهم في العام التاسع للهجرة والذي سُمي بسبب ذلك عام الوفود

رابعاً: استقبال النبي ﷺ لوفد نصارى نجران الذي "كان يتكوّن من أشرافهم وساداتهم وعلى رأسهم عبد المسيح وأبو الحارث بن علقمة، وقد دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وتلا عليهم القرآن فامتنعوا"^(٢). وقرروا البقاء على دينهم وصالحهم النبي ﷺ على أن يدفعوا الجزية وأرسل معهم أبا عبيدة عامر بن الجراح لتحصيلها.

خامساً: إن كان المسلمون قد أجبروا غيرهم على الدخول في الإسلام فماذا نعلل وجود عشرات الآلاف منهم يعيشون في بلاد المسلمين وبين ظهرانيهم في سلام وأمان منذ صدر الإسلام حتى يومنا هذا؟؟

سادساً: يدحض هذا الفرية كتاب رسول الله ﷺ لأهل نجران النصارى. وهذه مقتطفات من أبرز ما ورد فيه^(٣): "بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما كتب محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران - إذ كان عليهم حكمة - في كل ثمرة وفي كل صفراء وبيضاء وورقيق، ولنجران وحاشيتها جواز الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم وأنفسهم وأرضهم ومملتهم وغائبهم وشاهدتهم وعشيرتهم وبيعتهم وكل ما تحت أيديهم من قليل أو

(١) ابن كثير، [م. س.]، ج ٤، ص ٨٣٦.

(٢) صحيح البخاري [م. س.] كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، ص ١٠٩، ١١٠ بتصرف.

(٣) القاضي أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، ص ٨٥، ٨٦، ٨٧، بتصرف، ط ١، ١٩٢٧، المطبعة السلفية، القاهرة.

كثير، لا يُعَيَّرُ أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته ولا كاهن من كهانته وليس عليه دية. ولا دم جاهلية، ولا يخسرون ولا يعسرون ولا يبطأ أرضهم جيئش. ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين. ومن أكل رباً من ذي قيل فذمتي منه بريئة. ولا يؤخذ رجلٌ منهم بظلمٍ آخر وعلى ما في هذا الكتاب جوازُ الله وذمةُ محمد النبي رسول الله أبداً حتى يأتي الله بأمره، ما نصحوا وأصلحوا ما عليهم غير مُنفلتين بظلم. شهد أبو سفيان بن حرب وغيلان بن عمرو ومالك بن عوف من بني نصر والاقرع بن حابس الحنظلي والمغيرة بن شعبة. وكتب لهم هذا الكتاب عبدُ الله ابن أبي بكر".

سابعاً: ويدحض هذه الفرية كتابُ خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر الصديق لنصارى نجران بعد وفاة رسول الله ﷺ. وهذه مقتطفاتٌ من أبرز ما ورد فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما كتب به عبدُ الله أبو بكر خليفة محمد النبي رسول الله ﷺ لأهل نجران، أجارهم بجوار الله وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ على أنفسهم وأرضهم وملتهم وأموالهم وحاشيتهم وعبادتهم وغائبهم وشاهدهم وأساقفتهم ورهبانهم وبيعتهم، وكل ما تحت أيديهم من قليلٍ أو كثيرٍ. لا يُخسرون ولا يعسرون، ولا يُعَيَّرُ أسقف من أسقفيته ولا راهب من رهبانيته وفاءً لهم بكل ما كتب لهم محمد النبي ﷺ. وعلى ما في هذه الصحيفة جوازُ الله وذمةُ محمد النبي ﷺ أبداً. وعليهم النصح والإصلاح فيما عليهم من الحق. شهد المستورد بن عمرو أحد بني القين وعمرو مولى أبي بكر وراشد بن حذيفة والمغيرة وكتب" (1).

وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عهد ولايته كتاباً مشابهاً لهذا الكتاب لنصارى نجران.

ثامناً: ويبلغ التسامح مع غير المسلمين الذين يعيشون في كنف ديار الإسلام قِمتُهُ في موقفٍ لعمر بن الخطاب، رضي الله عنه، عندما مرَّ بعجوزٍ يهوديٍّ ضريٍ لا يقدِرُ على الكسب وجعل له من بيت المال سهماً. "مرَّ عمر، رضي الله عنه، بباب قومٍ وعليه

(1) المرجع السابق، ص ٨٧.

سائلٌ يسأل: شيخٌ كبيرٌ ضريرُ البصر، فضرب عضده من خلفه وقال: من أيِّ أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي. قال: فما الجأئك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسنة. قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيءٍ من المنزل. ثم أرسل إلى خازن بيت المال فقال: انظر هذا وضرباًءُ فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شببته ثم نخذله عند الهرم "إنما الصدقات للفقراء والمساكين" والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه" (1).

تاسعاً: وهذا جزءاً من كتاب سيف الله المسلول خالد بن الوليد، رضي الله عنه، للنصارى من أهل الحيرة وكان عددهم ستة آلاف رجلٍ آنذاك. ذكّر فيه رفضهم الدخول في الإسلام وطلبهم المصالحة على ما صالح عليه غيرهم من أهل الكتاب في إعطاء الجزية ثم قال: "... وإني دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضتُ عليهم الجزية أو الحرب فقالوا: لا حاجة لنا بحربك، ولكن صالحننا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب في إعطاء الجزية .. وشرطتُ عليهم أنْ عليهم عهد الله وميثاقه الذي أخذ على أهل التوراة والإنجيل: أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافرين على مسلم من العرب ولا من العجم. ولا يدلوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه الذي أخذتُ أشد ما أخذه على نبيٍّ من عهدٍ أو ميثاقٍ أو ذمةٍ ... وجعلتُ لهم أيما شيخٍ ضَعَفَ عن العمل أو أصابته آفةٌ من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدّقون عليه طرحتُ جزيتَهُ وعيّل من بيت مال المسلمين وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام. فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم" (2).

عاشراً: وحتى يكون آخر القول أحسنه في نهاية ردنا على شبهة وافية إجبار المسلمين لغيرهم على الدخول في الإسلام، فإننا نسوق ويكلّ فخر واعتزاز عهد الأمان الذي أعطاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، للنصارى من أهل القدس عندما أكرمهم الله تعالى بدخولها فاتحاً لها فتحاً سلمياً، ومؤمناً لهم على أرواحهم وأموالهم وممتلكاتهم ودور عبادتهم. "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم،

(1) المرجع السابق، نفسه، ص 151.

(2) المرجع السابق، نفسه، ص 172، بصرف.

وسقيها وبريئها وسائر ملتها؛ أنه لا تُسكن كائسهم ولا تُهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارُّ أحدٌ منهم، ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحبَّ من أهل إيلياء أن يسيرَ بنفسه وماله مع الروم ويخزيَّ بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا، عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم؛ ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يُؤخذُ منهم شيءٌ حتى يُحصَدَ حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهدُ الله وذمَّةُ رسوله وذمَّةُ الخلفاء وذمَّةُ المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهدَ على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبدُ الرحمن بن عوف، ومعاويةُ بن أبي سفيان، وكتب وحضَّر سنة خمس عشرة^(١).

لقد عُرفَت هذه الوثيقةُ وهذا العهد في التاريخ باسم العهدة العمرية، وهي كبيرٌ وخيرٌ شاهدٍ على تسامح المسلمين وقدرتهم على استيعاب الآخر والتعايش معه دون إكراهه أو إجباره على ترك دينه واعتناق دينهم.

إنَّ الرهبان الطاعنين لمطالبون أمام أنفسهم وضائرهم والتاريخ والحاضر بعقد مقارنة بين فعل الفاروق صاحب أقوى جيشٍ على الأرض آنذاك وبين فعل جيوش الصليبيين الذين دخلوا القدس وفعّلوا فيها الأفاعيل من الذبح والقتل وسفك الدماء، ليُعرفوا مَنْ هو الأرحم، ومن هو الأقدر على التسامح، ومن الأقدر على التعايش مع الآخر ...

- أما عن شبهة ارتباط الإسلام بالعنف والتهديد والتخويف والإرهاب فهي شبهة باطلةٌ مُتفاوتةٌ كدبتها الوقائع والحقائق التاريخية التي سبق إيرادها، ونحن نعلم تماماً أنّ هذه واحدةٌ من الاقتراءات التي صنعتها آلة الإعلام المسيحي الغربي قديماً وحديثاً لتخويف الناس من المسلمين وصدِّهم عن اعتناق الإسلام.

(١) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، ج ٣، ص ٦٠٩، ط ٢، ١٩٦٧، دار سويدان للنشر، بيروت.

- أمّا قديماً فقد دحضت هذه الفرية أخلاقُ المسلمين الأوائل الفاتحين الذين لم يكرهوا مسيحياً واحداً على الدخول في الإسلام، ولم يهتكوا عرضاً ولم يهدموا منزلاً، وكانت أخلاقهم من أكبر عوامل جذب غير المسلمين إلى الإسلام. وقد تقدّمت الأحاديثُ الدالّةُ على ذلك، ولكننا نجدُ من المفيد لإقامة الحجّة على هؤلاء الطاعنين تذكيرهم بوصايا قادة الجيوش المسلمة لجنودهم قبل خوض أيّة معركة، ومن ذلك وصيّة أبي بكر الصديق لجيش أسامة "يا أيها الناس، قفوا أوصكم بعشرٍ فاحفظوها عني: لا تخونوا ولا تغلوا، ولا تغدروا ولا تُثملوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلا لمأكلة؛ وسوف تمرونَ بأقوامٍ قد فرغوا أنفسهم في الصوامع؛ فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنيةٍ فيها ألوانُ الطعام؛ فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيءٍ فاذكروا اسم الله عليه ..."^(١)

إن كانت هذه الوصايا للجيش المُقاتِلِ وهو خارجٌ للحرب فمن السهل على كلِّ عاقلٍ أن يتصوّرَ كيف كانت الوصايا لبقية الناس في الأوضاع العادية التي كانت تسود المجتمعات الإسلامية آنذاك.

- أمّا في وقتنا الحاضر، فقد كان لمجمع الفقه الإسلامي الكلمة الفصلُ في الردّ على أولئك الطاعنين الذين يسمّون الإسلام بالعنف والإرهاب، غير فاصلين بينه وبين تصرفات بعض أبنائه الذين أساؤوا فهمه فأساؤوا له وللآخرين. لقد مايز علماء المجمع بين العنف والإرهاب من جهة وبين الجهاد وحقّ الدفاع عن النفس ومقاومة الاعتداء من جهةٍ أُخرى في كلام سهلٍ راقٍ مُقنع هذا نصّه^(٢):

أولاً: تحريمُ أعمال الإرهاب وأشكاله وممارساته جميعها، واعتبارها أعمالاً إجراميةً تدخلُ ضمن جريمة الحرابة وأينما وقعت وأينما كان مرتكبوها. ويُعدُّ إرهابياً كلٌّ من شارك في الأعمال الإرهابية مباشرةً، أو تسبباً، أو تمويلًا، أو دعماً، سواء كان فرداً أم جماعةً أم دولةً، وقد يكون الإرهابُ من دولةٍ أو دولٍ على دولٍ أُخرى.

(١) الطبري [م. س.] ص ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) قرار مجمع الفقه الإسلامي رقم ١٥٤ (١٧/٣) بشأن موقف الإسلام من الغلو والتطرف والإرهاب، منشورٌ في موقع المجمع الإلكتروني www.fiqhacademy.org.

ثانياً: التمييز بين جرائم الإرهاب وبين المقاومة المشروعة للاحتلال بالوسائل المقبولة شرعاً، لأنّ الهدف من المقاومة المشروعة إزالة الظلم واسترداد الحقوق المسلوبة، وهو حقٌّ مُعترفٌ به شرعاً وعقلاً وأقرته المواثيق الدولية.

ثالثاً: وجوب معالجة الأسباب المؤدية للإرهاب، وفي مقدّمتها الغلو والتطرّف والتعصّب والجهل بأحكام الشريعة الإسلامية، وإهدار حقوق الإنسان وحرّياته السياسيّة والفكريّة، والتي تؤدي إلى اختلال الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والسياسيّة.

رابعاً: التأكيد على أنّ الجهاد للدفاع عن العقيدة الإسلامية، وحماية الأوطان وتحريرها من الاحتلال الأجنبي ليس من الإرهاب في شيء، ما دام الجهادُ مُلتزماً فيه بأحكام الشريعة الإسلامية.

الشبهة الثالثة عشرة ودفعتها:

يستنبغ الحديث عن شبهة انتشار الإسلام بحدّ السيف وقوّة السلاح والجهاد شبهةً تدعّمها وتقوّي من وقعها في النفوس، ومضمون هذه الشبهة أنّ محمداً يقول: إنّ الله أمره أن يُقاتلَ كلَّ الناس فلا يتوقّف عن قتالهم إلا حين إعلانهم الدخول في الإسلام ونطقهم بالشهادتين. وإنّ الجنتة التي وعد بها محمدٌ أتباعه كانت وستبقى تحت ظلال السيوف!!!

- من الواضح تماماً أنّ هذه الشبهة قائمة على حديثين شريفيين، أولهما قوله ﷺ "أمرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول" وثانيهما قوله ﷺ "واعلموا أنّ الجنتة تحت ظلال السيوف". وهذان الحديثان صحيحان أخرجهما الإمام البخاري، رحمه الله تعالى رحمةً واسعة، في صحيحه. ومن الواضح أنّ كلمة "السيف" لها وقعٌ عظيمٌ في نفوس الرهبان الطاعنين وتأثيرٌ عليهم لا يعلمه إلا الله تعالى. وهم في إبرازهم لأحاديث "السيف والقتال والحرب" يتعمّون تماماً عن ورود هذه الألفاظ الثلاثة في كتابهم المقدس بعهديه القديم والجديد مرّاتٍ كثيرة، وهذا ما سنقوم بتوضيحه وتفصيل القول فيه، بعونه تعالى، بعد شرحنا لمضمون الحديثين الشريفين وحقيقة المراد بهما.

أما الحديث الأول فقد أخرجه الإمام البخاري، رحمه الله، في صحيحه "قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله)^(١). كما أخرجه الإمام مسلم، رحمه الله تعالى، في صحيحه قال رسول الله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بجهته، وحسابه على الله)^(٢).

ومن المستحيل عقلاً وشرعاً أن يقاتل رسول الله ﷺ الناس جميعاً، كما فهم الرهبان الطاعنون، لأنَّ هذا الفهم الأعوج يقتضي أن يُحارب النبي كلَّ الناس سوى المسلمين، وهذا مرفوض شرعاً حيث أنَّ أهل الكتاب من اليهود والنصارى لم يُطلب إليهم أبداً أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله.

فالمقصود بالناس في الحديث الشريف "بعض الناس" أو "طائفة من الناس" ألا وهم المشركون من غير أهل الكتاب. قال ابن حجر العسقلاني، رحمه الله، في توضيح معنى لفظ "الناس" الوارد في هذا الحديث الشريف "أن يكونَ من العام الذي أُريدَ به الخاص، فيكون المراد بالناس في قوله "أقاتل الناس" أي: المشركين من غير أهل الكتاب. ويدلُّ عليه رواية النسائي بلفظ "أمرت أن أقاتل المشركين". فإن قيل: إذا تمَّ هذا في أهل الجزية لم يتم في المعاهدين ولا فيمن منع الجزية، أجب بأن الممتنع في ترك المقاتلة رفعها لا تأخيرها مدّة كما في الهدنة، ومقاتلة من امتنع من أداء الجزية بدليل الآية"^(٣).

ويشهد لصحة تبعية المقصود من كلمة الناس الواردة في هذا الحديث لا تعميمه

قوله تعالى في سورة آل عمران "الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ"^(٤). فقد ورد في تفسير معنى "الناس" المتبسطون الذين حاولوا تثبيط هم المسلمين الذين خرجوا في طلب أبي سفيان في حراء الأسد، والمقصود بها نعيم بن مسعود

(١) صحيح البخاري [م. س] كتاب الإيمان، باب "فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة غلوا سيولهم".

(٢) صحيح مسلم [م. س] كتاب الإيمان، باب "الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله".

(٣) فتح الباري [م. س]، ج ١، ص ٩٧.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٧٣.

الأشجعي، أما (الناس) فالمقصود بها أبو سفيان وأصحابه، فإن قُلْتُ كيف قيل (الناس) إن كان نعيم هو المُبْطَ وحده؟ قلتُ: قيل ذلك لأنه من جنس الناس، كما يُقال: فلان يركب الخيل ويلبس البرودَ، وماله إلا فرسٌ واحدةٌ وبردٌ فردٌ^(١).

ثم إنّه لا يصحُّ أن يفهم من الحديث الشريف السابق أن كلمة "أقاتل الناس" تعني قتلهم لا، فمن معاني القتال ردُّ الأذى والاعتداء والظلم.

أما عن الحديث الثاني فقد أخرجه الإمام البخاري، رحمه الله، في صحيحه، "إنَّ رسولَ الله ﷺ في بعض أيامه التي لقيَ فيها انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس خطيباً قال: "أيُّها الناس لا تتمُّوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أنَّ الجَنَّةَ تحت ظلال السيوف. ثم قال: اللهم مُنزِلَ الكتابِ ومُجرِي السحابِ وهازِمَ الأحزابِ اهزمهم وانصرنا عليهم"^(٢).

هذا الحديث الشريف شارح نفسه بنفسه؛ فهو يُجسِّدُ غزوة الأحزاب (الخنديق) التي تداعت فيها الكثير من القبائل العربيَّة واليهوديَّة لهاجمة المسلمين في المدينة المنورة والقضاء عليهم واستئصالهم، في جيش فاق تعداده العشرة آلاف من المقاتلين. فهبَّ النبي ﷺ يستنضهم المسلمون للذود عن وجودهم وكيانهم المهدِّد آنذاك، ويدعوهم لحمل السلاح والسيوف للذود عن أنفسهم ويُبشِّروهم بأنَّ الجَنَّةَ تحت ظلال هذه السيوف. السيوف المرفوعة في وجه الظلم والبغي والمعتدي، لا السيوف المرفوعة للقتل والإكراه والاعتداء كما تخيَّل عقول الرهبان الطاعنين السَّقِيمة. ماذا كان الرهبانُ الطاعنون يتوقَّعون من رسول الله ﷺ أن يقول في هذا الموقف الرهيب الذي كان يهدِّدُ دينه وقومه؟؟ ماذا كان الرهبان الطاعنون يتوقَّعون من الرسول المُحاصرِ وقومه ونسائهم وذرائعهم؟؟ أكانوا يتوقَّعون منه أن يقول لأصحابه أغمدوا سيوفكم واخفضوا أصواتكم وأحنوا رؤوسكم واستعدُّوا للموت؟؟ أكانوا يتوقَّعون منه الاستسلام والفرار والنزول على حكم اليهود والقبائل العربيَّة الوثنيَّة المُشركة؟؟ حاشا لنبي أن يفعل ذلك، فكيف وهو سيِّدُ الأنبياء وسيِّدُ ولد آدم؟؟ حاشاه حاشاه، وكيف

(١) الزمخشري، [م.س.]، ج ١، ص ٤٤١، بتصرف واختصار.

(٢) صحيح البخاري [م.س.] كتاب الجهاد والشير، باب لا تمنوا لقاء العدو.

لا يقول سيّد الأنبياء ذلك وقد سبق أن وعدهم مراراً بأنّ الجنة والجنة وحدها جزاءً ومُسْتَقَرٌّ الشهداء والمجاهدين لتكون كلمة الله هي العليا؟!!

ولعمري لولا ذلك الوعد وصدور رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، في ذلك الموقف وتلك الغزوة لما وصل الإسلام إلى زماننا هذا خصوصاً إذا ما تذكّرنا أنّ حلفاء النبي ﷺ من يهود بني قريظة قد تآمروا مع الأحزاب ونقضوا عهدهم مع رسول الله ﷺ والمسلمين، وفتحوا أبوابهم على مصراعها لتكون بدايةً لجهة جنوبيّة يُغَيَّرُ منها المشركون على المسلمين.

ثمّ لماذا يستكثر الرهبان الطاعنون على رسول الله ﷺ أن يدعو المسلمين لمحل السيوف للدفاع عن وجودهم ويتعامون عن استخدام أنبياء وملوك العهد القديم للسيوف والإسراف في القتل والتقتيل وإبادة المدن والقرى؟! ولماذا يتعامون عن دعوة المسيح التي قال فيها "لا تظنّوا أنّي جئت لألقيّ سلاماً على الأرض، ما جئت لألقيّ سلاماً بل سيفاً، وإني جئت لأفرّق الإنسان ضدّ أبيه، والابنة ضدّ أمها، والكنّة ضدّ حمايتها، وأعداء الإنسان أهل بيته. من أحبّ أباً أو أمّاً أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحبّ ابناً أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعني فلا يستحقني. من وجد حياته يُضيئها، ومن أضاع حياته من أجلي يبجدها"^(١).

وماذا يقول الرهبان الطاعنون عندما تقرأ عليهم قول المسيح - عليه السلام - "جئت لألقيّ ناراً على الأرض فما أريد لو اضطرمتّ؟؟"^(٢) وماذا يقولون عندما تقرأ عليهم قول المسيح - عليه السلام - "أما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملاك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي؟؟"^(٣).

وماذا يقول الرهبان الطاعنون عندما تقرأ عليهم نصوص العهد القديم التي تُبجّح قتل الرجال والنساء والأطفال وتدمير القبائل وأهلها؟؟ ومن ذلك "حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها

(١) متى: ١٠: ٣٤ - ٣٩.

(٢) لوقا: ١٢: ٤٩.

(٣) لوقا: ١٩: ٢٧.

يكون لك للتسخير ويُستعبدُ لك. وإن لم تسالمك، بل عمَلتَ معك حرباً، فحاصرها. وإذا دفعها الربُّ إلهُك إلى يدك فاضرب جميعَ ذكورها بحدِّ السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكلُّ ما في المدينة، كلُّ غنيمتها، فتغتنمها لنفسك، وتاكلُ غنيمَةَ أعدائك التي أعطاك الربُّ إلهُك. هكذا تفعلُ بجميعِ المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مَدَن هؤُلاءِ الأُم هنا. وأما مَدَنُ هؤُلاءِ الشعوب التي يُعطيك الربُّ إلهُك نصيباً فلا تَسْتَبِقِ منها نسمةً ما، بل تُحْرِمُها تحريمًا: الحثيين والأُموريين والكنعانيين والفرزيين والحوثيين واليبوسيين، كما أمرَك الربُّ إلهُك، لكي لا يُعلِّمكم أن تعملوا حسبَ جميعِ أرجاسهم التي عملوا لآلهتهم فَتُخْطِئُوا إلى الربِّ إلهكم" (١).

وماذا يقول الرهبان الطاعنون عندما نُذكِّرهم بأن كتابهم المقدس في عهده القديم يحكي أنّ نبيّ الله داود قتل أربعين ألفاً من الفرسان الحاربيين في حربه ضد آرام؟ "وهرب آرام من أمام إسرائيل، وقتل داودُ من آرام سبع مئة مركبةٍ وأربعين ألف فارس، وضرب شوبك رئيس جيشه فمات هناك" (٢).

وأخيراً فإذا يقول الرهبان الطاعنون عندما نذكر أمامهم قول الكتاب المقدس في عهده القديم عن نبيّ الله داود في حربه ضدّ مدينة رية بني عمون "وأخْرَجَ الشعبَ الذي فيها وَوَضَعَهُمْ تحتِ مناشيرٍ ونواجِحِ حديدٍ وفؤوسِ حديدٍ وَأَمَرَهُمْ في أتونِ الأجرِّ، وهكذا صنعَ بجميعِ مدنِ بني عمون، ثم رجع داود وجميع الشعب إلى أورشليم" (٣).

ما لهؤلاء الرهبان الطاعنين يستخفون كل أنواع السيوف إلا سيف الإسلام يستقلونه؟ وما لهم يعترفون بمشروعية حمل السيوف للدفاع عن النفس تارةً ولإبادة المدن والقرى تارةً إلا سيف الإسلام يروونه للقتل والإكراه والإجبار؟؟؟.

(١) النشبية: ٢٠: ١٠ - ١٨.

(٢) صموئيل الثاني: ١٠: ١٨.

(٣) صموئيل الثاني: ١٢: ٣١.

النُّشْبَةُ الرَّابِعَةُ عَشْرَةَ وَدَفْعُهَا:

إِنَّ الْجَنَّةَ الَّتِي وَعَدَ بِهَا مُحَمَّدٌ أَتْبَاعَهُ وَأَصْحَابَهُ مَلِيئَةٌ بِالشَّهَوَاتِ وَالْمَلذَّاتِ الْحَسَنِيَّةِ وَالْمَادِيَّةِ وَالْجَنَسِيَّةِ فَقَطْ. وَقَدْ وَعَدَ مُحَمَّدٌ أَتْبَاعَهُ بِأَنَّ الْحَرَمَاتِ عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا، كَالخمرِ وَلبسِ الْحَرِيرِ وَالذَّهَبِ وَالزَّوْجِ مِنْ نِسَاءٍ كَثِيرَاتٍ، سَتَكُونُ مُبَاحَةً لَهُمْ وَمَتَوَفَّرَةً بِالْكَامِلِ فِي الْجَنَّةِ.

- من الطبيعي والمتوقَّع أن يقول الرهبان الطاعنون قولاً كهذا؛ فهم لم يُعِيبُوا أَنفُسَهُمْ فِي قِرَاءَةِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي شَكَّلَتْ بِمَجْمُوعِهَا التَّصَوُّرَ الصَّحِيحَ الْوَاضِحَ الدَّقِيقَ لِلْمَسْلَمِ عَنِ جَنَّةِ الْخُلْدِ وَالتَّعِيمِ. وَنَذَكَّرُهُمْ هُنَا بِأَنَّ الْجَنَّةَ كَمَا وَصَفَهَا لَنَا الشَّارِعُ لَا تَقْتَصِرُ عَلَى مَا تَوَهَّمَهُ عَقُولُهُمْ مِنَ اللَّذَاتِ، وَالْمَتَعِ الْمَادِيَّةِ فَقَطْ بَلْ إِنَّ فِيهَا مِنَ اللَّذَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ مَا يَفُوقُ كُلَّ شَيْءٍ يُسَمَّى مَادَّةً. فَفِيهَا نِهَآيَةُ الْغَايَاتِ مِنَ الطَّمَأْنِينَةِ الْقَلْبِيَّةِ وَالرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ وَالسَّكِينَةِ وَالرَّضَى الْمَتَحَقِّقَةَ بِرُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى، "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَآظِرَةٌ" ﴿٢٢﴾

إِلَى رَجِيهَا نَآظِرَةٌ" (١). وَهَلْ هُنَاكَ نَعِيمٌ أَلْذُّ وَأَكْبَرُ مِنْ هَذَا الْمَتَحَقِّقِ بِرُؤْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَفِي الْجَنَّةِ مَوَدَّةٌ وَوُدٌّ مُتَبَادَلٌ بَيْنَ أَهْلِهَا وَسَلَامٌ وَسَكِينَةٌ يَتَقَلَّبُ أَهْلُهَا فِي التَّعِيمِ. فَلَا خَوْفٌ وَلَا شَحْنَاءٌ وَلَا تَحَاسُدٌ وَلَا تَبَاغُضٌ وَلَا تَنَافُسٌ وَلَا "قِيلَ وَقَالَ" وَلَا لَغْوٌ وَلَا تَأْتِيَاءٌ. وَلِعَمْرِي مَا الَّذِي يَطْمَعُ فِيهِ الْإِنْسَانُ مِنْ حَيَاةٍ غَيْرِ هَذِهِ؟ ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ مِنَ أَلْوَانِ النَّعِيمِ الَّذِي خَتَبَاهُ اللَّهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مَا لَمْ تَرَهُ عَيْنٌ وَلَمْ تَسْمَعْهُ أذُنٌ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ مِنَ الْبَشَرِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذَخْرًا مِنْ بَلَاءٍ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ. ثُمَّ قَرَأَ " فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ " (٢) (٣).

(١) سورة القيامة: الآيات ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة السجدة: الآية ١٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين)

وتُذكر الرهبان الطاعنين، بمناسبة الحديث عن المتع المادية في الجنة من طعام وشرابٍ وخمرٍ ولبنٍ وعسلٍ، بأنَّ هذه الأطعمة والأشربة ولئن وُجدت في الجنة إلا أنها لا تشبه طعام وشراب أهل الدنيا في شيءٍ من طعمها وأثرها، يشهد لذلك قول ابن عباس، رضي الله عنهما، "ليس في الدنيا من الجنة شيءٌ إلا الأسماء"^(١)، فهو تشابهٌ في الأسماء والمعاني لا في الخصائص والكيفيات. قال ابن تيمية رحمة الله عليه: واليهود والنصارى والصابئون من المتفلسفة وغيرهم فإنهم ينكرون أن يكون في الجنة أكلٌ وشربٌ ولباسٌ وزواجٌ. ويمنعون وجودَ ما أُخبر به القرآن. والرُدُّ عليهم هو أنَّ ما ورد في القرآن الكريم من وصف ملذات الجنة، أنَّ حقيقتها ليست مُماثلة لما في الدنيا، بل بينها تباينٌ عظيمٌ من التشابه في الأسماء. فحنُّ نعلها إذا حُوطننا بتلك الأسماء من جهة القدرِ المشتركِ بينها ولكن لتلك الحقائقِ خاصيةً لا نُدرِكها في الدنيا، ولا سبيل إلى إدراكها لها لعدم إدراك عينها أو نظيرها من كلِّ وجهٍ، وتلك الحقائق على ما هي عليه^(٢).

ثمَّ من أين جاء الرهبان الطاعنون بعبارة وفكرة "أنَّ كلَّ محرِّمٍ على المسلمين في الدنيا سيكون مباحاً لهم في الجنة"؟؟ فهل تُباحُ السَّرقة في الجنة؟؟ وهل يُباحُ القتل؟؟ وهل يُباحُ التحاسد؟؟.

وفي الوقت الذي نرى فيه الرهبان الطاعنين يهاجمون تصوّر الإسلامي للجنة ويقصرون ذلك على الجانب الحسي المادي وينفون وجودَ مثل هذا الجانب في تصوّرهم المسيحي للجنة نرى الإنجيل يخرنا خلاف تصوّرهم تماماً، حيث أنَّ الإنجيل يذكر في مواضع متعدّدة تناول الطعام والشراب فيها. ويشهد ذلك ما يلي ممّا جاء على لسان المسيح عليه السلام:

١. (وأنا أجعلُ لكم كما جعل لي أبي ملكوتاً لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسيِّ تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر)^(٣).
٢. (الحقُّ أقولُ لكم إنِّي لا أشربُ بعدُ من يتّاج الكرمة إلى ذلك اليوم حيناً أشربه جديداً في ملكوت الله)^(٤).

(١) الطبري، جامع البيان (٧،م) ج ١ ص ١٣٥.

(٢) ابن تيمية، رسالة الإكليل، من مجموعة الرسائل الكبرى ٢: ١١.

(٣) لوقا: ٢٢: ٣٠.

(٤) مرقس: ١٤: ٢٥.

٣. (إذا صنعتَ عَدَاءَ أو عِشَاءَ فلا تدعُ أصدقاءَكَ ولا إخوانَكَ ولا أقباءَكَ ولا الجيرانَ، لئلا يَدْعوكَ هم أيضاً بالمقابل فتكون لك مكافأةٌ، بل إذا صنعتَ ضيافةً فادعُ المساكينَ الجُدعَ العِرَجَ العميَ، فيكون لك الطَّوبَى إذ ليس لهم حتى يكافؤكَ لأنك تكافأُ في قيامة الأبرارَ، فلما سمع هذا واحدٌ من المتكلمين قال له: طوبى لمن يأكل خبزاً في ملكوت الله)^(١).

ونحن نكتفي بإيراد ما سقناه من ردودٍ على شبهة الرهبان الطاعنين في اقتصار (جنة المسلمين) على الشهوات والجوانب الحسنية فقط، مُذكِّرين القارئ الكريم بأن المصادر المسيحية كافة لم تقدم لأتباعها حتى الساعة دليلاً يدرء وصف (الحسنية) عن الجنة حسب التصور المسيحي لها.

الشبهة الخامسة عشرة ودفعها:

كان محمدٌ رجلاً شهواتياً يعشق النساء. ولقد اتخذ لنفسه سبع زوجاتٍ في الوقت الذي حدّد لأتباعه عدد الزوجات المسموح به بأربع فقط، وهذا دليلٌ كبيرٌ على شهواتيته وانكبابه على الدنيا وملذاتها، مما يؤكّد استحالة كونه نبياً طالما كانت هذه أخلاقه.

- تُعتبر هذه الفرية من أكثر الافتراءات والمطاعن الرهبانية استفزازاً لمشاعر المسلمين قديماً وحديثاً. ولذلك نرى عدداً كبيراً من المؤلفات التي كتبها الأساتذة والعلماء والدعاة لدحضها والردّ عليها، وبيان زيفها. مع أنّ الكتاب المقدّس يخبرنا عن عددٍ كبيرٍ من أنبياء بني إسرائيل الذين اتخذوا لأنفسهم العديد من الزوجات، إلا أنّ الرهبان الطاعنين لا يرون بأساً إلا في تعدّد زوجات محمد ﷺ.

ولقد ارتأينا صياغة ردود علمائنا الأفاضل^(٢) على هذه الفرية على شكل نقاطٍ ليسهل العرض والنقاش.

(١) لوقا: ١٤: ١٢ - ١٥

(٢) انظر:

أ. مرسي [م. س.] ص ١٩٤-٥٠١ بصرف.

ب. الرومي [م. س.] ص ٣٢٨-٣٣١ بصرف

ج. الإسلام بين الحقيقة والادعاء [م. س.]، مبحث نساء الرسول.

د. حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين [م. س.] الشبهة ٥١ تعدد زوجات النبي. =

ونشير قبل استعراض هذه الردود إلى أنّ الله تعالى قد منح من الخصوصيات لأتبيائه ورسله ما لم يمنحه لغيرهم من البشر، ومن هذه الخصوصيات على سبيل المثال لا لحصر وجوب التهجّد والقيام بحقه ﷺ، ومواصلة الصيام، والزواج بأكثر من أربع زوجات. ولعلّ دافع الكثيرين من الطاعنين لإنكار ذلك هو إخضاعهم لما سبق ذكره لمقاييس الحياة المعاصرة في القرن الحادي والعشرين وهو أمرٌ من الخطأ بمكان!!.

إنّ العقل الغربي المعاصر يُشبهُ أن يكون للرجل زوجةً واحدةً تربطه بها علاقة شرعيةً وقانونيةً. كما يقبلُ هذا العقل أن يكون لهذا الرجل عشيقاتٍ عديداتٍ، ولكنّ هذا العقل الغربيّ المعاصر لا يقبل أن يكون للنبي محمد ﷺ زوجات عديدات!! عجباً لهؤلاء كيف يحكمون!!!.

ولعلّ بيان الحكمة من زواج رسول الله ﷺ من كلّ واحدة من أمّهات المؤمنين يكون خير طريق ليفهم من خلاله هؤلاء الطاعنون لماذا تزوّج محمد ﷺ تسع نساء.

١. حين بلغ رسول الله ﷺ الخامسة والعشرين ورغب في الزواج لم يبحث عن "البكر" التي تكون أحظى للقبول وأولى للباحثين عن مُجرّد المتعة. وإنما تزوّج امرأةً تكبره بحوالي خمسة عشر عاماً، ثم إنّها ليست بكراً بل هي ثيبٌ، ولها أولادٌ كبارٌ عمرٌ أحدهم يقرب من العشرين؛ تلكم هي السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، وفوق هذا كلّهُ فمشهورٌ أنها هي التي اختارته بعد ما لمست بنفسها- من خلال مباشرته لتجارته- من أمانته وعفته وطيب شأئله ﷺ.

وبعد زواجه منها دامت عشرته بها طيلة حياتها، ولم يتزوَّج عليها حتى مضت عن دنياه إلى رحاب الله. وقضى معها-رضي الله عنها- زهرة شبابه وكان له منها أولاده جميعاً إلّا

= هـ. الستار (م.س) المطلب الثالث، تعدد زوجات النبي ﷺ

و. عبد الرؤوف، حسام الدين صبري، الضياء المبين في الرد على المضللين، ج ١ شعبة تعدد زوجات النبي.

ز. الراسي، زيادة بن يحيى، البحث الصريح في أنّها هو البنين الصحيح، تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف، ص ١٢٥-١٣٠. بتصرف، ط ١، ٢٠٠٣، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

ح. هيكل، محمد حسين، حياة محمد، ص ٢٥٧-٢٦٥. بتصرف، من منشورات وزارة الثقافة الأردنية، عمان، ط ١، ٢٠٠٨.

إبراهيم الذي كانت أمه السيدة "مارية" القبطية. وقد بقي يذكرها بالخير ويعدُّ مآثرها والثناء عليها بعد وفاتها حتى أثار ذلك غيرة السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

٢. كان رحيل السيدة خديجة - رضي الله عنها - مثيراً لأحزانٍ كبرى في بيت النبي ﷺ وفي محيط الصحابة - رضوان الله عليهم - إشفاقاً عليه من الوحدة وافتقارٍ من يرعى شؤونه وشؤون أولاده، ثم رأوا فقدانه ﷺ عمه أبي طالب، نصيره وظهيره وسُمي العام الذي رحل فيه نصيراه خديجة وأبو طالب عام الحزن.

في هذا المناخ، مناخ الحزن والوحدة وافتقارٍ من يرعى شئون الرسول وشئون أولاده، تزوّج رسول الله ﷺ سودة بنت زمعة رضي الله عنها وأرضاها. وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ سودة هذه كانت زوجةً للسكران بن عمرو وتوفّي عنها زوجها بمكة فلما حلّت تزوجها الرسول ﷺ وكانت أول امرأة تزوجها ﷺ بعد خديجة.

وعجّب المجتمع المكي لهذا الزواج لأن "سودة" كانت كبيرة في السن لم تكن ذات جمالٍ ولا حسبٍ ولا تصلح أن تكون خلفاً لأم المؤمنين خديجة التي كانت عند زواج الرسول ﷺ بها جميلةً وضيئةً وحسبيّة تلمح إليها الأنظار، ولكنها - رضي الله عنها - كانت مؤمنةً هاجرت الهجرة الأولى مع من فروا بدينهم إلى الحبشة وقد قبل الرسول زواجها حمايةً لها وجبراً لحاظرها بعد وفاة زوجها إثر عودتها من الحبشة. وليس الزواج بها شعار شهوة للرسول ولكنه كان جبراً لحاظر امرأة مؤمنة خرجت مع زوجها من أهل الهجرة الأولى إلى الحبشة ولما عادا توفّي زوجها وتركها امرأة تحتاج هي وبنوها إلى من يرعاهم.

٣. بعد سودة - رضي الله عنها - تزوّج الحبيب المصطفى عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنها - وسنفرّد لزواجه بها - رضي الله عنها - مساحةً خاصةً في الصفحات القادمة بإذنه تعالى.

٤. أمّا عن حفصة بنت عمر بن الخطاب - رضي الله عنها - فقد تزوجها الحبيب المصطفى جبراً لحاظرها وإكراماً لها ولوالدها الفاروق - رضي الله عنه - وأرضاها. وذلك بعد أن توفّي عنها زوجها خنيس بن حذافة السهمي، وهو صحابيٌّ جليلٌ من أصحاب الهجرتين - إلى

الحبشة ثم إلى المدينة - ذلك بعد جراح أصابته في غزوة أحدٍ حيث فارق الحياة وأصبحت حفصة بنت عمر بن الخطاب أرملةً وهي شابةٌ.

وكان ترمُلها مئاز ألمٍ دائمٍ لأبيها عمر بن الخطاب الذي كان يُحزِنه أن يرى جمال ابنته وحيويَّتها تحبو يوماً بعد يومٍ. فعرض الزواج بها على أبي بكر الصديق الذي التزم الصمت، ومن بعده عثمان بن عفان، الذي رفض ذلك، حتى خطبها وتزوَّجها من هو خيرٌ منها ﷺ.

٥. تزوّج رسولُ الله ﷺ أمَّ سلمة بنت زاد الركب، وهي من المهاجرين الأوّلين إلى الحبشة وكان زوجها عبد الله بن عبد الأسد المخزومي أولَ مَنْ هاجرَ إلى المدينة من أصحاب محمد ﷺ. وقد جاءت إلى بيت النبي ﷺ كزوجةٍ بعد وفاة زينب بنت خزيمة الهلالية بزمنٍ غير قصير. وهي سليلَةٌ بيتِ كريمٍ، فأبوها أحدُ أجواد قريش المعروفين بلقب زاد الركب؛ إذ كان لا يرافقه أحدٌ في سفرٍ إلا كفاه زاده. وزوجها الذي مات عنها صحابيٌّ من بني مخزوم ابن عمّة المصطفى ﷺ وأخوه من الرضاعة. وكانت هي وزوجها من السابقين إلى الإسلام. وكانت هجرتها إلى المدينة معاً.

٦. تزوّج النبي ﷺ بعد ذلك زينب بنت جحش - رضي الله عنها - وسنّفردُ لها في الصفحات القادمة مساحةً خاصةً للحديث عن زواجها هذا، بإذنه تعالى.

٧. تزوّج النبي ﷺ بعد ذلك جويرة بنت الحارث الخزاعية، قد كانت - رضي الله عنها - ممّن وقع في الأسر بعد هزيمة بني المصطلق من اليهود، فكاتبها من وقعت في أسره (ثابت بن قيس) على مالٍ فلم يُعجبها ذلك، وذهبت إلى رسول الله ﷺ أملاً فيما هو خيرٌ من ذلك، فكان لها ما أملتُه حيثُ عرّضَ عليها الحبيبُ المصطفى أن يتضيَّ عنها المال الذي كاتبها عليه من أسرها من المسلمين وتزوَّجها ﷺ. فلما ذاع الخبرُ أطلق المسلمون كلَّ من وقع في أسره من بني المصطلق إكراماً لهذه المرأة الفاضلة واحتراماً للحبيب المصطفى الذي غدا أسرى بني المصطلق بمثابة أصداره، فكان أن دخلَ معظم هؤلاء الأسرى الطلقاء في الإسلام، فأبى خيرٍ وأبى شرفٍ كان أعظم لجويرية وقومها بما حدث؟

٨. تزوّج النبي ﷺ من صفية بنت حُيي التي وقعت في أسر (دحية الكلبي) بعد غزوة الخندق. فأعتقها من الأسر وحرَّرها. وقد أسلمت وحسُن إسلامها، رضي الله عنها. وأبى شرفٍ كان لصفية - رضي الله عنها - أعظم من دخولها بيت النبي عوضاً عن بقائها

في الأسر والنذل والهوان؟؟ خصوصاً إذا ما تذكّرنا أنها كانت بنتٌ واحدٍ من أشهر زعماء القبائل اليهودية وأكثرهم عداوةً لرسول الله ﷺ ألا وهو حيي بن أخطب.

٩. تزوّج النبي ﷺ رملة بنت أبي سفيان إقناذاً لها من محنةٍ خطيرةٍ وإخراجاً لها من ظرفٍ قاسٍ عزٌّ مثيلُهُ وعزٌّ مثيلُ رجلٍ أنقذها منه. فقد كانت زوجاً لعبيد الله بن جحش، وخرجاً معاً مهاجرينَ بإسلامهما في الهجرة الأولى إلى الحبشة، وكما هو معروفٌ فإنَّ الحبشة في عهد النجاشي كانت المهجر الآمنَ للفارينَ بدينهم من المسلمين، حتى يخلصوا من بطش المشركين بهم وعدوانهم عليهم. لقد تعرّضت رملةٌ - رضي الله عنها - لمحنةٍ قاسيةٍ لم يتعرّضَ لمثلها أحدٌ من هؤلاء المهاجرين الأوائل إلى الحبشة؛ ذلك أنّ زوجها عبيد الله بن جحش قد أعلنَ ارتداده عن الإسلام ودخوله في النصرانية. وما أصعب وأدقَّ حالَ امرأةٍ في محنةٍ مُضاعفةٍ! محتبها في زوجها الذي ارتدَّ وخانَ، ومحتبها السابقة مع أبيها الذي فارقتهُ مُعاضبةً إياه في مكة منذ دخلت في دين الله. وفوق هاتين المحنتين كانت محنةُ الاعتراق حيث لا أهل ولا وطن. ثم كانت محنة حملها بالوليدة التي كانت تنتظرها والتي رزقتُ بها من بعدُ وأسمتها "حبيبة".

لقد كانت خطبتهُ ﷺ لرملة (أم حبيبة) موقفاً يذكره التاريخ بكلِّ فخرٍ واعتزازٍ، يُعبّرُ بكلِّ وضوحٍ عن الجانب الإنسانيِّ البارز في شخصيته عليه الصلاة والسلام.

١٠. تزوّج النبي ﷺ ميمونة بنت الحارث الهلالية، وقد كانت آخرَ أمهات المؤمنين، رضوان الله عليهنَّ جميعاً. توفي عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامري؛ فانتهدت ولايتهُ أمرها إلى زوج أختها العباس الذي رزّجها رسول الله ﷺ؛ حيث بنى بها الرسولُ في "سرف" قُربَ التنعيم على مقربةٍ من مكة، حيث يكون بدء الإحرام للمُعتمرين من أهل مكة والمقيمين بها.

وقيل: إنه لما جاءها الخاطبُ بالبشرى قفزت من فوق بعيها وقالت: البعير وما عليه لرسول الله ﷺ. وقيل: إنها هي التي وهبت نفسها للنبي والتي نزل فيها قوله تعالى: "

وَأَمْرًا مُؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً
لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ^(١) " (.)

ويُستفاد مما سبق انتفاء فرية الشَّهواتية عن الحبيب المصطفى ﷺ. كيف لا؟ وهو الذي اشتهر بالعفة، والاستقامة والأمانة في قریش كلها حتى قبل أن يكون نبياً ﷺ. كما يُستفاد كذلك أنَّ كلَّ المبررات التي سيقت لزيجاته - عليه السلام - كانت منطقية معقولة مقبولة عادت بالخير على الزوجات اللواتي كان معظمهنَّ من الأراذل - رضي الله عنهنَّ - كما عادت بعض هذه الزيجات بالخير على أقوام زوجاته - رضوان الله عليهنَّ -

وإضافة لما سبق فقد قوت هذه الزيجات روابط رسول الله ﷺ بصفته رئيساً للدولة الإسلامية مع الكثير من القبائل العربية وغير العربية التي تشرفت بمصاهرته - عليه السلام - وكان في ذلك أيضاً تأليف قلوب هؤلاء للإسلام، وفي ذلك أيضاً تعليم لرجال هذه الأمة أن يعدلوا بين زوجاتهم وإعالة مَنْ لا مُعيلَ لها من النساء الضعيفات والأراذل.

وفي نهاية حديثنا عن الفوائد التي توضحَّت في تعداد وكثرة زوجاته عليه الصلاة والسلام، نرى الحاجة شديدة ومُلحَّة لتذكير الرهبان الطاعنين بنصوص الكتاب المقدَّس التي بين أيديهم والتي يُبجِّلونها ويُعظِّمونها، فهي أكبر شاهدٍ على اتخاذ رسل بني إسرائيل وأنبيائهم وملوكهم لزوجاتٍ عديداتٍ وسراري أكثر عدداً. ومن الشواهد على ذلك ما يلي:

أولاً: "وأحبَّ الملك سليمانُ نساءً غريبةً كثيرةً مع بنت فرعون: موآبياتٍ وعمونياتٍ وأدومياتٍ وصيدونياتٍ وحثياتٍ من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل: "لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنهم يُبيلون قلوبكم وراء آلهتهم". فالتصق سليمانُ بهؤلاء بالحبِّ. وكانت له سبع مئة من النساء السَّيِّدات، وثلاث مئة من السراري، فأملت نساؤه قلبه"^(٢).

(١) سورة الأحزاب: الآية ٥٠.

(٢) سفر الملوك الأول: ١١: ٣ - ١.

ثانياً: "وأحبّ رجلاً مَعَكَ بنتُ أبشالومَ أكثرَ من جميع نساءه وسراريه، لأنه اتَّخَذَ ثَماني عشرة امرأةً وستينَ سُرِيَّةً، وَوَلَدَ ثمانيةَ وعشرينَ ابناً وستينَ ابنةً"^(١).

ثالثاً: واخذ داود أيضاً سَراري ونساءً من أورشليم بعد مجيئه من حبرون، فَوَلَدَ أيضاً لداود بنون وبناتٌ"^(٢).

رابعاً: كان للملك داود (على ذمة العهد القديم) العديد من السَّراري، كان من أبرزهن (ميكال ابنة شاول وأبيجال أرملة نابال وأخينوعيم الزرعيلية ومعكة ابنة تلماي ملك جشور وأيطال وعجلة وحجيث وبشع أرملة أوريا الحثي وأيشج الشونمية)^(٣).

النُّشْبَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةَ وَدَفْعُهَا:

مِمَّا يُبَيِّنُ شَهَوَاتِيَّةَ مُحَمَّدٍ وَعَشْقَهُ لِلنِّسَاءِ أَنَّهُ لَمَّا رَأَى زَوْجَةَ ابْنِهِ بِالتَّبَنِيِّ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ، وَكَانَ اسْمُهَا زَيْنَبُ، أَعْجَبَتْهُ وَأَثَّرَ فِيهِ جَمَالُهَا وَحُسْنُهَا. وَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ وَأَخَذَ يَقُولُ (سُبْحَانَ مُقَلَّبِ الْقُلُوبِ). ثُمَّ أَمَرَ زَوْجَهَا زَيْدًا بِتَطْلِيْقِهَا وَقَامَ مُحَمَّدٌ بِالزَّوْجِ مِنْهَا، حَتَّى أَنْ الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ قَدْ ذَكَرَ رَغْبَةَ مُحَمَّدٍ بِهَذِهِ الزَّوْجَةِ فَقَالَ: (وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا أَلَّهُ مَبْدِيهِ وَتُخْفِي)^(٤). وَقَدْ سَجَّلَتْ كِتَابُ التَّفْسِيرِ لِنَدَى الْمُسْلِمِينَ هَذِهِ الْوَاقِعَةَ وَأَثْبَتَهَا.

- من الواضح تماماً أنّ الرهبان الطاعنين يقرأون نصوص وآيات القرآن. ومن الواضح كذلك أنهم لا يفهمونها ولا يدركون مقاصدها ولا حتى التفسير الصحيح لها. وهم إن أرادوا تفسيرها وفهم مقصودها فإنّما يرجعون إلى تفسيراتٍ شاذّةٍ تقوم على رواياتٍ ضعيفةٍ لئلا يجدون فيها ما يُنفي صدورهم ويحقق مرادهم.

(١) أخبار الأيام الثاني: ١١: ٢١.

(٢) صموئيل الثاني: ٨: ١٣.

(٣) انظر سفر صموئيل الأول ١٨: ٢٠ - ٢٧ و٢٥: ٤٢ و٢٥: ٤٣ وسفر صموئيل الثاني: ٣: ٢ - ٥ و١١: ٢٧ وسفر الملوك الأول ١: ١ - ٤.

(٤) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

وهذا تماماً ما قاموا به عندما بنوا هذه التهمة والشبهة المتهالكة. وحتى لا يطول الكلام فمن المستحسن أن تأتي بالآيات القرآنية الكريمة التي ذكروها في هذه الشبهة، وأن تأتي بعد ذلك بتفسيرها الصحيح المعتمد. وهذه الآيات هي قوله تعالى في سور الأحزاب: " وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا " (١)

وخلاصة تفسير ما ورد في هذه الآيات الكريمة ما يلي (٢):

إن زَيْنَب بنت جحش هي ابنة أمة بنت عبد المطلب عمّة رسول الله ﷺ، وقد زُوِّجَتْ بعينه وعنايته، وأنها كانت، لذلك، منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى وإنه كان يعرفها ويعرف أي ذات مفاتن أم ليست كذلك قبل أن تتزوج زيدا. وإنه شهدها في نموّها تجبو من

(١) سورة الأحزاب: الآيات ٣٧ - ٤٠.

(٢) انظر:

أ. هيكل [م. س.] ص ٢٦٢ - ٢٦٥ بصرف واختصار.

ب. الخالسي [م. س.] ٦٦٨، ٦٦٩.

ج. ابن كثير [م. س.] ج ٣، ص ٤٩٩، ٥٠٠، بصرف.

د. القرطبي [م. س.] ج ١٤، ص ١٩٠ - ١٩٣، بصرف.

هـ. مرسي [م. س.] ص ٥١١ - ٥١٧، بصرف.

و. حقائق الإسلام [م. س.] الشبهة ٥١ تعدد زوجات النبي، بصرف.

الطفولة إلى الصبا وإلى الشباب، وهو الذي خطبها لزيد مولاه. إذا عرفنا ذلك كله تداعت أمام ناظرينا كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه مرَّ بيت زيد ولم يكن فيه، فرأى زينب فبهره حسنُها وقال: سبحانُ مقلِّبِ القلوب! أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالسُّتار الذي على غرفة زينب، فألفاها في قميصها ممدَّة فانقلب قلبه فجأةً ونسي سودة وعائشة وحفصة وزينب بنت خزيمة وأم سلمة وخديجة! ولو أنَّ شيئاً من حبِّها علق بقلبه لخطبها لنفسه بدل أن يخطبها لزيد... إنَّ محمداً ﷺ خطب ابنة عمته زينب لزيد؛ فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون أخته وهي قرشيَّة هاشميَّة، وهي فوق ذلك ابنة عمه الرسول، تحت عبدِ رُقٍّ اشترته خديجة ثم أعتقه محمد ﷺ، ورأى في ذلك على زينب عاراً كبيراً. وكان ذلك عاراً عند العرب كبيراً؛ فلم تكن بناتُ الأشراف الشريفات ليتزوجن من موالٍ وإن اغتبقوا. لكنَّ محمداً يريد أن تزول مثل هذه الاعترافات القائمة في النفوس على العصبيَّة وحدها، وأن يُدرك الناس جميعاً أن لا فضل لعربيٍّ على أعجميٍّ إلا بالتقوى. ولما أصرَّ محمدٌ ﷺ على أن تقبل زينب وأخوها عبد الله بن جحش زيدا زوجاً لها نزل قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا" (١).

لم يبق أمام عبد الله واخته زينب بعد نزول هذه الآية إلا الإذعان؛ فقالا: رضينا يا رسول الله. وبني زيد بزینب بعد أن ساق النبي إليها عنه مهرها. فلمَّا سارت زينب إلى زوجها لم يَسَلَسْ له قيادها ولا لأنَّ إباؤها، بل جعلت تؤذي زيدا وتضجر عليه بنسبها وبأنها لم يَجِرِ عليها رُقٍّ. واشتكى زيدٌ إلى النبي غيرَ مرة من سوء معاملتها إياه، واستأذنه غيرَ مرة في تطلقها، فكان النبي يجيبه: "أمسك عليك زوجك واتق الله". لكن زيدا لم يُطق معاشرَةَ زينب وإباها عليه طويلاً فطلَّقها.

وكانَّ الشارع الحكيم قد أراد أن يُبطلَ ما كانت تدبُّ به العرب من التصاق الأُدعياء بالبيوت واتصالمهم بأنسابها، ومن إعطاء الدعيِّ جميع حقوق الابن، ومن إجرائهم عليه

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.

أحكامه حتى في الميراث وحرمة النسب فنزل قوله تعالى: "وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ^٤

ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ^٥ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ"^(١) ومعنى

هذا أنه يجوز للمدعي أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمن ادّعاه. ويجوز للمتبني أن يتزوج ممن كانت زوجاً لمتبناه. ولكن كيف السبيل إلى تنفيذ هذا؟ ومن من العرب يستطيعه وينقض به

تقاليد الأجيال السالفة جميعاً؟ إن محمداً ﷺ نفسه، على قوة عزيمته وعميق إدراكه لحكمة الله في أمره، قد وجد في نفسه الغضاضة في تنفيذ هذا الحكم بأن يتزوج زينب بعد تطليق زيد إياها. ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس في خرقه لهذه العادة القديمة المتأصلة في نفوس

العرب؛ وذلك ما يريدته تعالى في قوله: "وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى

النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ"^(٢) ... لكن محمداً كان القدوة في كل ما أمر الله به وما

ألقى عليه أن يبلغه للناس؛ فلا يخشى ما يقول الناس في تزوجه من زوجة زيد مولاه، فخشية الناس ليست شيئاً إلى جانب خشية الله بتنفيذ أمره، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما

أبطل الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني، والادعاء، وفي ذلك قوله تعالى: "فَلَمَّا

قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي

أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا"^(٣).

هذه رواية التاريخ الصحيح في أمر زينب بنت جحش وزواج محمد ﷺ منها. فهي

ابنة عمته يراها ويعرف مبلغ جمالها قبل أن تتزوج زيدا، وهو الذي خطبها لزيد، رضي الله عنه وعنهما.

ونختم توضيحنا لقصة زواجه ﷺ من زينب بنت جحش - رضي الله عنها - بالتذكير

أن الروايات التي استند عليها الرهبان الطاعنون في تفسيرهم للآيات القرآنية الكريمة التي

(١) سورة الأحزاب: الآية ٤.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٧.

ذكرت هذه القصة إنما هي روايات ضعيفة مردودة لا تصلح للاحتجاج بها بحالٍ من الأحوال، حتى ولو كثر في بعض كتب التفسير. وقد علق الإمام القرطبي - رحمه الله - بعد تفسيره للآيات الكريمة السابقة بالقول: "هذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المُفسرين والعلماء الراسخين، كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم. فأما ما زُوِيَ أن النبي ﷺ هو زينب امرأة زيد وزيما أطلق بعض المُجانٍ لفظ "عشق" فهذا إنما صدر عن جاهلٍ بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مُستخفٍّ بجرمته"^(١). ولعل قول القرطبي هذا لا يقع بعيداً عن تعليق ابن كثير - رحمه الله - على الآيات السابقة نفسها بقوله "ذكر ابن أبي حاتم والطبري ها هنا آثاراً عن بعض السلف - رضي الله عنهم - أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها"^(٢).

النَّهْيَةُ السَّابِعَةُ عَشْرَةَ وَدَفْعُهَا:

كان محمدٌ يمارسُ أعمالاً تتلُّ على شذوذه وبعده عن أخلاق الأنبياء الحميدة، والدليل على ذلك زواجه من الطفلة عائشة، التي كانت تبلغ من العمر تسع سنواتٍ فقط.

- تُعتبرُ هذه الفرية والشبهةُ أقبَح وأقذر ما أثاره الطاعنون حول شخصه الكريم ﷺ. وكانت هذه الشبهةُ قد تصدرت في وقتٍ غير بعيدٍ من الأعوام الماضية عناوين بعض الصحف والمواقع الإلكترونية، فمن قائلٍ (الرسول محمد يُعاشر طفلةً) إلى قائلٍ (نبيٌّ يتزوَّج فتاةً صغيرةً السنِّ) إلى قائلٍ (محمدٌ كان يتحرَّشُ بالأطفال) إلى قائلٍ (محمدٌ يمارس شذوذه مع طفلةٍ في السادسة)، حاشاه ﷺ.

وقد أُطلِّعنا الكثيرُ من التساوسة، عبر شاشات محطات التلفزة الفضائية، يناقشون هذا الموضوع بتوسُّع مقصودٍ في أكثر من حلقتين وثلاثٍ، من حلقات البرامج المتلفزة!!

(١) القرطبي [م.س.]، ج١٤، ص ١٩١.

(٢) ابن كثير [م.س.]، ج٣، ص ٤٩٩.

ما من شك أنّ السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنها - كانت من أكبر وأكثر الشخصيات التي تعرّضت للهجوم والنشهير في تاريخ الإسلام كلّهُ. ولكنّ الذي نراه في هذه الشبهة شيءٌ مختلفٌ تماماً؛ حيث نرى الرهبان الطّاعنين يُنصّبون أنفسهم محامين للدفاع عن حقوقها التي هضمها محمد ﷺ حين حرّمها من طفولتها، كما يزعمون، واتّخذها زوجةً له. كيف لا والرهبان الطّاعنون هؤلاء يعرفون مصلحة السيدة عائشة - رضي الله عنها - أكثر من نفسها ويعلمون الذي يناسبها أكثر من أيها وأمّها وإخوانها وأقاربها وعشيرتها الأقربين كلّهم!!!

ونشيرُ قبيل البدء في الردّ على هذه الشبهة وتفنيدها إلى الجهود المباركة الطيبة التي بذلها علماء الأمة وأساتذتنا وزملاؤنا من طلبة العلم الشرعي في الذبّ عن عائشة - رضي الله عنها - وعن حبيبتنا المصطفى ﷺ وتصديهم المبارك لتوضيح مشروعية هذا الزواج وفوائده وآثاره^(١).

حينما توفّيت السيدة خديجة زوجة النبي ﷺ، مكّث الحبيبُ فترةً من الزمن عاكفاً عن الزواج. ولكنّ حاجة البيت كانت تدعو لوجود امرأةٍ لتربية الأولاد الذين أنجبهم ﷺ من السيدة خديجة، فقد أنجب منها كلّ أولاده عدا إبراهيم. فأقبلت عليه خولة بنت حكيم تعرّض عليه أن يتزوج، فسألها الحبيب ﷺ أيّ النساء تقصد ... حتّى أمت الخاطبة زواجه ﷺ من السيدة سودة بنت زمعة رضي الله عنها وبعدها بفترة كان زواجه من عائشة بنت أبي بكر الصديق.

وقبل أن يتقدم لها النبي ﷺ كانت السيدة عائشة مخطوبةً لجبير بن مطعم بن عدّي، وهذا يعني أنّها وإن كانت بنت تسع سنين إلّا أنّها كانت تصلح للزواج وقتها من حيث

(١) انظر:

أ. عبد الرؤوف [م. س.]، ج ١، شبهة الرسول بعاشر طفلة.

ب. مرسي [م. س.]، ص ٥٠٤ - ٥١٠، بصرف واختصار.

ج. حقائق الإسلام [م. س.]، الرد على شبهة تعدّد زوجات النبي، بصرف واختصار.

د. الهواري، محمد عبد العزيز، شبهة زواج النبي ﷺ من عائشة وهي صغيرة السنّ. مقالة منشورة بتاريخ ٢٧/٣/٢٠٠٨م على موقع لواء الشريعة الإلكتروني www.shareah.com.

هـ. زقاني [م. س.] ١٥٥ - ١٥٧، بصرف، حرف الفاء، شبهة الرسول كان يحترس بالأطفال، ردّ الشيخ السيد وفا على تصريحات القس جيري فايز التي ذكر فيها أنّ الرسول ﷺ كان يحترس بالأطفال.

البنية، علماً بأن ساكي البلاد الحارة يمتون أسرع ويبلغون أسرع من ساكي البلاد الباردة. ولأنها لو لم تكن كذلك لما قامت حولة بن حكيم - رضي الله عنها - بخطبتها لرسولنا الكريم.

لقد نقل لنا التاريخ حوادث كثيرة ثبتت من خلالها أن زواج الرجل بمن هي أصغر منه شيئاً، حتى ولو بفارق كبير، أمرٌ مألوف. ومن ذلك ما يلي:

١. تثبت الموسوعة الكاثوليكية أن مريم أم الرب يسوع، بحسب إيمان الرهبان الطاعنين، كانت مخطوبة ليوسف النجار، وكان عمرها اثنتي عشرة سنة وكانت حاملاً بيسوع آنذاك، وكان عمر يوسف النجار تسعاً وثمانين سنة، أي أنه يكبرها بنحو سبع وسبعين سنة ... وهذا الكلام موثق في الموسوعة الكاثوليكية. ويستطيع القارئ الكريم أن يرجع لهذين الموقعين ليتأكد من صحة نقلنا لهذه المعلومة:

- <http://www.newadvent.org/cathen/08504a.htm>

"a respectable man to espouse Mary, then twelve to fourteen years of age, Joseph, who was at the time nirety years old".

- <http://www.cin.org/users/james/files/key2mary.htm>

"Virgin Mary Delivers jesus Pbih@ the age of 12".

وهنا نتساءل: هل كانت مريم، أم الرب يسوع بحسب إيمانهم، طفلة أم امرأة لما كانت حُبلى بيسوع ومخطوبة ليوسف النجار؟!

٢. زواج جد النبي ﷺ عبد المطلب وزواج ابنه عبد الله، حيث ثبت أن آمنه بن وهب أم رسول الله ﷺ كانت في حجر عمها أهيب بن عبد مناف بن زهرة وأن عبد المطلب بن هاشم جاء بابنه عبد الله بن عبد المطلب أبي رسول الله ﷺ فتزوج عبد الله آمنه بن وهب وتزوج عبد المطلب هالة بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة وهي أم حمزة بن عبد المطلب في مجلس واحد، وكان قريب السن من رسول الله ﷺ وأخاه من

الرضاعة. إذاً فقد تزوّج عبد المطلب فتاةً وابنه تزوّج أخرى في مثل عمرها وهي ابنة عمها^(١).

٣. تزوّج عمر الخطاب ابنة عليّ بن أبي طالب (أم كلثوم)، علماً بأنه كان أكبر سنّاً من أبيها في ذلك الوقت. بل وعرض الفاروق عمر بن الخطاب على أبي بكر أن يتزوج ابنته السيدة حفصة وكانت شابةً في ريعان شبابها بعد وفاة زوجها.

كلنا يعلم أنّ الآباء والأجداد من عصورٍ مُتقاربة كانوا يتزوّجون مبكراً أي في أعمارٍ مُبكرة ذلك لأن أجسامهم كانت تختلف كثيراً عن أجسامنا من حيث الحجم، وأجدادهم كانوا أضخم منهم جسماً. ومعروف أنّ الإنسان كلما مرت به العصورُ تقدّم، أي تضاعل حجمه. فلم العجبُ إذاً إذا كانت جدّاتنا وأمهاتنا يتزوجن وهنّ بناتُ الإحدى عشرة سنةً أن تزوج السيدة عائشة قبل أكثر من ألف وأربعمائة سنةً وهي ابنة تسع سنين؟؟

لما تزوّج رسولنا الكريم ﷺ السيدة عائشة لم يُنجب منها، وكانت البكر الوحيد التي تزوّجها ﷺ من بين زوجاته. وكان من فوائد زواجه عليه السلام بزوجةٍ صغيرة السنّ أنّ النساء بحاجةٍ إلى من يعلمهنّ خاصةً إذا كان الأمر ذا مشقةٍ أن يتناولَ بين رجلٍ وامرأة، فكانت أمّ المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - من قامت بهذا الدورِ فهي فتاةٌ صغيرة في السنّ، يسهل عليها الحفظُ والفهم والتلقّي، وأيضاً لا تتحرّج النساءُ منها. وقد كانت أكثر النساءِ روايةً للحديث عنه ﷺ، وحتى بعد وفاته ظلّت تُعلّم النساءُ أمور دينهم، وكانت وقتها ابنة الثامنة عشرة من عمرها رضي الله عنها.

وللمدافعين عن حقوق هذه الطفلة عائشة، رضي الله عنها، من الرهبان الطاعنين تقول: إنّ قرّضنا جدلاً أن الرسول ﷺ تزوّج عائشة وهي صغيرةٌ رغماً عنها وبالإجبار لها ولوالديها، فإنّ الله تعالى أمرَ رسوله الكريم ﷺ في فترةٍ لاحقةٍ بأن يُخيّر نساءه بين أن يفارقهنّ فيذهبن إلى غيره ممّن يحصلُ لهنّ عنده الحياةُ الدنيا وزينتها وبين الصبر على ما عنده ﷺ من الفقر وضيق الحال، فلماذا لم تختار مفارقتة لو كانت مُجبرةً على الزواج منه؟؟

(١) الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله أبو عبد الله، المُستدرَك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ج٣، ص ٢١٢، ط١، ١٩٩٠، دار الكتب العلمية، بيروت.

ولمّا بدأ النبي ﷺ بتخيير زوجاته بدأ بعائشة - رضي الله عنها - وأرضاهما، قالت عائشة: "لما أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه، بدأ بي، فقال: إني ذاكرك لكَ امرأ، فلا عليك أن تعجلي حتى تستأمرني أبويك، قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفرقه، قالت: ثم قال: إن الله جلّ ثناؤه قال: "يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها" إلى "أجرًا عظيمًا" قالت: فقلت: ففي أيّ هذا أستأمرُ أبوي؟ فإني أريدُ الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم فعل أزواج النبي مثل ما فعلت" (1).

إنّ زواج النبي ﷺ بالسيدة عائشة - رضي الله عنها - شاهدٌ حيٌّ على الزواج الناجح الذي لا يمتعه فارقُ العمر، والذي نرى فيه بكلّ جلاءٍ ووضوح تأثير الزوج المسلم في شخصيّة واهتمامات وتوجّهات الزوجة المسلمة، فقد كانت عائشة لما أراد الحبيب ﷺ الزواج بها تلعّب في أرجوحةٍ هي وصواحب لها، ولمّا مات عنها ﷺ بعد تسع سنواتٍ من مكوثه عندها كانت خيرَ من يُعلّم المسلمين ويقيّمهم في دين الله تعالى، وروت عنه ما يزيدُ على الألفي حديث، واحتلت المرتبة الثانية فمن روى أكثر عن النبي ﷺ.

لقد صنع رسولُ الله ﷺ من عائشة مدرسةً قائمةً بذاتها تُعلّم وتؤسّس وتقوم بنشر الدين الإسلامي وتفتّيه الناس بأحكامه، فكانت في نتاجها العلمي الشرعي ومُخرجاته أفضلَ مئة مرّة من الكثير من المعاهد والكتليات الشرعية في القرن الحادي والعشرين. قال فيها الإمام الزهري: "لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع أمّات المؤمنين، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل". وقال فيها عطاء بن أبي رباح: "كانت عائشة أفتة الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة". وقال فيها أبو موسى الأشعري: "ما أشكل علينا أمرٌ فسألنا عنه عائشة، إلا وجدنا عندها فيه علماً" وقال فيها مسروق: "رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكبر يسألونها عن الفرائض". وقال فيها عروة بن الزبير: "ما رأيت أحداً أعلم بفقهِ ولا طبّاً ولا بشعرٍ من عائشة" (2).

(1) صحيح البخاري [م. س.]، كاب التفسير، باب (وإن كنتن تردن الله ورسوله....)، ج ٨، ص ٦٠٩، ٦١٠.

(2) مرسي [م. س.]، ص ٥٠٧ فلا عن "الإجابة لإيراد ما استدرسته عائشة على الصلابة" للزركشي.

ولو كان زواج النبي ﷺ من عائشة التي تصغره سنّاً خارجاً عن المألوف أو مَطْعناً أو مُسْتَمْسَكاً عليه أو قادحاً في سلوكه لكان مشركو قريش الذين يترصّون به أولى الناس بمهاجمته لفعله هذا، وتقليب الناس عليه، ولصنعوا له الفضائح ولحاكوا حوله إشاعات الشهوانية والاعتداء على الصغار وسوء السلوك والتصرف. لكنّ أيّاً من هذا لم يكن. لماذا؟ لأنّ ذلك كان الزواج عرفاً سائداً معمولاً به بين الناس في ذلك الزمان.

لقد كان من الجدير بالرهبان الطاعنين أن يأخذوا بعين الاعتبار أنّ مقاييس القرن العشرين والحادي والعشرين تختلف تماماً عن مقاييس القرون الوسطى وأن يأخذوا بعين الاعتبار اختلاف العصور والبيئات والطبائع والقوانين والأعراف والتقاليد واختلاف البنى الجسدية والنفسية، قبل أن يقولوا في رسول ﷺ ما قالوا.

ثمّ أين هم الرهبان الطاعنون من الدفاع عن حقوق عشرات الأطفال الذين اعتدى عليهم رهبان وقساوسة الكنائس في الغرب المسيحي؟؟ ألا فيلدرؤوا، إن استطاعوا، عن أبناء وبنات زمانهم هذا عوضاً عن الانشغال بزواج تمّ قبل ما يزيد على الألف وثلاثمائة عام، وليقدّموا للعالم المسيحي الغربيّ حلولاً لمشكلاته التي يتخبّط فيها بدلاً من الاشتغال بزواج محمد ﷺ في بيئة وعصرٍ ودينٍ لا شأن لهم به من قريبٍ ولا من بعيدٍ. ولنتقف قليلاً مع قارئنا الكريم عند صفحاتٍ قليلةٍ من ملفّ الكنيسة الغربية والشذوذ والاعتداء على الأطفال، ليعلم كلٌّ من غابت عنه الحقائق من هم الذين يتحرّشون بالأطفال ويأرسون الشذوذ.

أولاً: حمل البابا بنديكتوس السادس عشر بقوة مساء الأربعاء في واشنطن على الإباحية والعنف اللذين يُفسدان أخلاق المجتمع الأمريكي. بعدما أقرّ الثلاثاء بشعور الكنيسة الكاثوليكية بـ "الحزبي" جراء فضائح الكهنة الضالعين في اعتداءاتٍ وتحرشاتٍ جنسيةٍ بأطفالٍ في الولايات المتحدة. وبعد الصلاة مع الأساقفة الأمريكيين في مركز "الجبل بلا دنس" الوطني في واشنطن تطرّق البابا إلى الفضيحة الكبيرة حول ضلوع كهنةٍ في اعتداءاتٍ وتحرشاتٍ جنسيةٍ على أطفال كُشِف عنها في عام ٢٠٠٢م معتبراً أنّها "مصدر حزبي" و"الأم كبيرة" للكنيسة جمعاء. وأقرّ بأنّ القضية "أديرت بطريقة سيّئة" ودعا إلى "التعاطف مع الضحايا والاهتمام بهم" (١).

(١) جريدة الرأي الأردنية، بتاريخ ١٨/٤/٢٠٠٨م.

ثانياً: بُثَّتْ شبكتنا BBC البريطانية، وقناة "راي ٢" الإيطالية مؤخراً عدداً من الحلقات التلفزيونية، تناولت ممارسات بعض القساوسة والكرادلة والبطاركة داخل الكنائس، وكشفت النقاب عن آلاف الشكاوى التي وردت إلى "مجمع العقيدة والإيمان" بالفاتيكان. وفي سياق متصل كشفت مجلة "بانوراما" الإيطالية أنه بسبب تلك الممارسات الأخلاقية أُحيلَ مئآت الكرادلة والقساوسة إلى المحاكمات القضائية، التي بلغت أكثر من عشر محاكمات منذ عام ٢٠٠١م.

وأضاف التحقيق الذي نُشرَ يوم الجمعة ١ يونيو ٢٠٠٧م في مجلة "بانوراما" حول حالات الاعتداء على الأطفال من قِبَلِ رجال الدين: "رغم الشكاوى الكثيرة إلى "مجمع عقيدة الإيمان"، التي تجاوز عددها بضعة آلاف، إلا أنَّ الهيئة المذكورة التي كان يرأسها (البابا الحالي) (بنديكست السادس عشر) أخفت تلك الحقائق وتسترَّتْ عليها، فلم تتم إحالة أكثر من عددٍ هزيل من المُتهمين إلى القضاء"^(١).

"ونشر التحقيق رسالةً ظَلَّتْ قيدَ الكتمان مَهْمُورَةً بتوقيع الكاردينال "جوزف راتسنغر" (بابا الفاتيكان الحالي) موجهةً إلى كافة الهيئات الكنسية في العالم "ضرورة إبقاء هذه القضية ضمن الأسرار البابوية". وحسب التحقيق المذكور فإن رسالة "راتسنغر" المؤرَّخة في ٢٠٠١/٥/١٧م لا علاقة لها البتة بالشريط، الذي أنتجته وبثته محطة BBC حول حالات الاعتداءات الجنسية على الأطفال من جانب الكنيسة، والذي أعادت بثه لأول مرة القناة الثانية بالتلفزيون الإيطالي مساء الجمعة ١ يونيو ٢٠٠٧م.

ويتضمَّنُ التحقيقُ لائحةً بالفُضَاة الكَنَسِيِّين المُكَلِّفِينَ بمعالجة قضايا الاعتداء الجنسي، وقائمةً بالمؤسسات الإيطالية التي تستقبلُ الكهنة الذين يرتكبون هذه الجرائم لإعادة تأهيلهم.

وقد انتقد الفاتيكان بشدة بثَّ قناة (راي ٢) الحكومية الإيطالية للشريط الوثائقي الذي أنتجته هيئة الإذاعة البريطانية BBC ووصف الناطقُ باسم الفاتيكان الأب "فيدريكو لومباردي"، في حديثٍ لراديو الفاتيكان ... الشريط الوثائقي بأنه "سرد أحداثاً درامية ضمن إطارٍ مغلوطنٍ ومنحازٍ"^(٢).

(١) مجلة المجتمع، العدد ١٧٥٧، بتاريخ ٢٣/٦/٢٠٠٧م.

(٢) مجلة المجتمع، العدد ١٧٥٧، بتاريخ ٢٣/٦/٢٠٠٧م.

ثالثاً: حثُّ الواعظُ الشخصيَّ للبابا بنيدكتوس السادس عشر، رئيس الكنيسة الكاثوليكية العالمية على إعلان يومِ الصوم والتوبة عن الجرائم الجنسية التي استهدفت أطفالاً على أيدي رجال دين كاثوليك. وقد جاءت الدعوة في عظمة قبل عيد الميلاد استمع إليها الخبرُ الأعظم ومسؤولون في الكنيسة الكاثوليكية. يُذكرُ أنَّ الكنيسة تعرّضت لهزة بسبب سلسلة من الفضائح تتعلق بإساءاتٍ جنسية للأطفال في السنوات الأخيرة، خاصةً في أمريكا الشمالية وإيرلندا.

والواعظ البابوي الأب رانيرو كاتالاميسا، هو الوحيد المخول بتوجيه العظة للبابا. وفي عظته للبابا، قال الأب كاتالاميسا إنه يتعيّن أن تُعلنَ الكنيسة يوماً للصوم والاعتكاف، للتعبير بشكلٍ علنيٍّ عن التوبة أمام الله والتضامن مع الضحايا.

وقال إنّ الوقت قد جاء لنصرخ أمام الله من أجل الفضيحة التي آلمت بالأخوة الصغار.

ولم يصدر ردُّ فعلٍ عامٍّ من البابا، ولكنه قال مؤخراً إنه يتعيّن على الكنيسة اتخاذ كافة الخطوات اللازمة للحيلولة دون وقوع المزيد من حالات الاعتداء الجنسي على الأطفال من جانب القساوسة⁽¹⁾.

رابعاً: حكمت هيئةٌ محلفين في ولاية كاليفورنيا الأمريكية يوم الأربعاء بدفع ما يقرب من مليوني دولار لشقيقتين تعرّضا لانتهاكاتٍ جنسيةٍ من قِبَلِ قسٍّ كاثوليكي منذ ربع قرن.

والحكم ضد أبرشية أوكلاند الكاثوليكية هو الثاني الذي يصدر في الأسابيع القليلة الماضية في منطقة سان فرانسيسكو اعتماداً على إجراء تشريعيٍّ أقرته كاليفورنيا يرفع مؤقتاً قانون التقادم عن مطالب التعويضات ضد القساوسة.

وفي القضية الأخيرة قال روبرت تانشر "٣٤ عاماً" وشقيقه توم "٣٣ عاماً": إنّ القسّ روبرت بونسيرولي أساء معاملتهم عندما كانا طفلين يخدمان في الكنيسة في انثيوك

(1) مجلة العرب الإلكترونية بتاريخ ٢٠٠٦/١٢/١٦م على موقعها www.arabmag.blogpost.com

شرق سان فرانسيسكو. وقال محامي الأخوين تاتشر: إنَّ الكنيسة كانت تعرفُ أنّ بونسيرولي يُسيء معاملته الأطفال ولكنها لم تُحرِّك ساكناً.

وقال الأب مارك ويزر المتحدِّثُ باسم أبرشيته أوكلاند: "قطعاً يستحق روبرت وتوم تاتشر مقابلاً شديداً لما تحمَّلاه".

وقال: إنَّ المسؤولين في كنيسة أوكلاند يمتننون التوصل إلى تسوية في ٤٠ أو ٥٠ قضية انتهاكاتٍ قام بها قساوسة. وطالب محام عن الأخوين تاتشر هيئة المحلفين يوم الثلاثاء بتعويض قيمته ٢٧ مليون دولار. واستُبعد بونيسرلي من صفوف القساوسة وهو يعيش في فلوريدا.

وفي قضية أخرى الشهر الماضي قضت هيئة محلفين بدفع ٤٣٧ ألف دولار مقابل أضرار لحقت بضحية تعرَّض لانتهاكاتٍ جنسية قام بها قس آخر في سبعينات القرن الماضي بعد الكشف عن أن أبرشيته كبرى الأساقفة في سان فرانسيسكو كانت على علم بالانتهاك.

وقالت دراسةٌ تمَّت بتكليف من الكنيسة نُشرت العام الماضي إنَّ ما يقرب من ١١ ألف شخص اتَّهموا قساوسةً بانتهاكاتٍ جنسية ضدَّ الأطفال منذ عام ١٩٥٠م إلى عام ٢٠٠٢م^(١).

خامساً: وصل بابا الفاتيكان إلى سيدني استعداداً للمشاركة في الأيام العالمية الثالثة والعشرين للشباب، وسط مطالباتٍ بضرورة أن يُقدم اعتذاراً رسمياً عن الفضائح الجنسية التي هزت الكنيسة الكاثوليكية في أستراليا. وتزامن ذلك مع مطالبة تجمع يُعرفُ باسم "ضحايا الاعتداءات الجنسية في الكنائس" بضرورة أن يقدم بنديكتُ السادس عشر اعتذاراً رسمياً إلى الضحايا وذوهم لما تعرَّضوا له من اعتداءاتٍ جنسية على يد رجال دين ينتمون للكنيسة الكاثوليكية في البلاد. وكان البابا أعرب - في تصريحٍ إعلاميٍّ على متن الطائرة التي أقلَّته إلى أستراليا - عن عزمه الأسف لما

(١) جريدة "الرأي" الأردنية، بتاريخ ١٥/٤/٢٠٠٥م.

تعرّض له بعض الأشخاص على يد أشخاص ينتمون للكنيسة، وهو ما اعتبره تجمّع أسر وذوي الضحايا أقلّ بكثير مما تطالب به^(١).

سادساً: كشف تقرير جديد أنّ أكثر من مائة كاهن في الكنيسة الكاثوليكية في "دبلن" على الأقل متورطون خلال الـ ٦٦ عاماً الأخيرة بالاعتداء الجنسيّ على أكثر من ٣٥٠ طفلاً.

وقال تقرير أصدرته مطرانيّة دبلن: إنّ أكثر من مائة كاهنٍ تورّطوا منذ عام ١٩٤٠م في سوء معاملة الأيتام والاعتداء الجنسي على الأطفال، وهذا ما وصّف بأنه أخطر اعتراف في الكنيسة الكاثوليكية بدبلن حتى اليوم. وقدمت المطرانيّة التقرير للجنة التحقيق القضائيّة.

ويقول رئيس الأساقفة ديموند مارتن، في تصريح لـ "الغارديان" البريطانية، إنّ الكنيسة ستبيع ممتلكاتها لكي تدفع تعويضاتٍ مُعتبراً أنّ هذه الخطوة هي تضحية من الكنيسة تكفيراً عن أخطاء الماضي. وأشار إلى أنّ ما جرى خلال السنوات الماضية في هذه الكنيسة كان صعباً جداً بالنسبة له مشيراً إلى أنّ معظم الكهنة لم يتورّطوا في هذه الأعمال. وقد تمّ الكشف عن قضية مشابهة في أبرشية بوسطن منذ ٣ سنوات. وأشار مارتن، الذي يرأس المطرانية منذ عام ٢٠٠٣م، إلى أنّ إجراءات تم اتخاذها ضدّ اثنين وثلاثين كاهناً في دبلن، وتمّت مراجعة ملفات شخصية لـ ٢٨٠٠ كاهن بين عامي ١٩٤٠م و٢٠٠٦م وتمّ الادّعاء على واحدٍ وتسعين كاهناً فيما تحول الشكوك حول أحد عشر كاهناً. وأشارت "الغارديان" إلى أنّ إيرلندا، البلد الكاثوليكي، اهتزت بعد الفضائح الجنسية في الكنيسة خلال العقد المنصرم حيث تورّط الكهنة في سوء معاملة الأيتام والاعتداء الجنسي على الأطفال. وفي أواخر العام الماضي كشف تحقيق أجريّ على نطاق ضيق في مقاطعة ويكسفورد وجود أكثر من مائة ادّعاءٍ بالتحرش ضد واحدٍ وعشرين راهباً^(٢).

سابعاً: اعترف القس تيد هاجارد مستشار البيت الأبيض، وأحد أشهر الزعماء المسيحيين الإنجيليين الأمريكيين بممارسته الشذوذ الجنسيّ، وهو الاتهام الذي أنكره مسبقاً،

(١) قناة الجزيرة الفضائية بتاريخ ١٣/٧/٢٠٠٨م، على موقعها الإلكتروني www.aljazeera.net.

(٢) قناة العربية الأخبارية، في موقعها الإلكتروني www.alarabiya.net.

وتسبب في تنحيته عن منصبه كرعيّم للاتحاد الوطني للإنجيليين والذي يبلغ عدد أتباعه نحو ٣٠ مليون أمريكي. وقال هاجارد في خطابٍ تلاه القسّ "الاري ستوكستيل" الذي خلفه في قيادة كنيسة "الحياة الجديدة" بولاية كولورادو يوم الأحد ٢٠٠٦/١١/١٥م أمام ثمانية آلاف شخص: "أنا مُخادِعٌ وكاذِبٌ".

وقد ظلّ القسّ البارز المعروف بمعارضته العلنية البارزة لزواج الشواذ ينفى الاتهاماتِ المنسوبةَ إليه من تعاطي المخدرات وممارسته الشذوذ الجنسيّ مع المدلّك الخاصّ به مايك جونز، إلا أنّ ذلك لم يمنع هيئة المراقبين التابعة للكنيسة من القول: "لقد أثبتت تحقيقاتنا وتصريحات القس هاجارد أنه متورطٌ لا محالة في ممارسة الشذوذ".

الفضيحة تَهَجَّرَتْ عندما صرّح جونز (٤٩ عاماً) بأنه مارس الجنس مع القس هاجارد، مقابل أجرٍ ماليّ كلّ شهر تقريباً، خلال السنوات الثلاث الماضية، وأنها كانا يتعاطيان المخدرات قبيل اقترافهما الفحشاء!. وأوضح جونز أنه أقدم على الإعلان عن العلاقة مع هاجارد، إثر التصويت الذي جرى مؤخراً في ولاية كولورادو وسبع ولايات أخرى، حول منع الزواج المثلي أو السماح به. وقال: "لقد أعاظني أن ألقني شخصٌ بالمواعظ ضد زواج المثليين (خلال الجدل الإعلاني الذي سبق عملية التصويت)، ثم يذهب ليجارس المثليّة من خلف الستار"^(١).

ثامناً: اعترف الفاتيكان بصحّة تقارير صحيفةٍ تحدّثت عن انتهاكاتٍ أخلاقيةٍ في صفوف الكنيسة، وقالت إنّ قساوسةً ورجالَ دينٍ كباراً أرغموا رهاباتٍ على ممارسة الجنس معهم. وتعرّضت بعضُ الرهابات للاغتصاب وأجبرت أخريات على الإجماع.

وقال الفاتيكان في بيان له إنّ القضية محدودةٌ ومتعلّقةٌ بمنطقةٍ جغرافيةٍ محدودة، لكنه لم يشير إلى هذه المنطقة الجغرافية، وكانت التقارير أكّدت أن هذه الانتهاكات موجودةٌ في ثلاثة وعشرين بلداً من بينها الولايات المتحدة الأمريكية والبرازيل والفلبين والهند وإيرلندا وإيطاليا نفسها. وقد أعدت التقرير الذي تحدّث عن حالاتٍ مُحدّدةٍ بالأسماء وحالاتٍ تورّط أصحابها

^(١) للاستماع للاعتراف كاملاً (افصح ملف Ted Haggard's Downfall على موقع video.google.com وقراءة التفاصيل مكتوبة راجع موقع www.islamonline.net بتاريخ ٢٠٠٦/١١/٦م. تقرير محمد حامد.

راهبةً وطبيبةً تُدعى ماروا أودونوهو، وقدمت الراهبة تقريرها إلى رئيس مجمع الفاتيكان للأوامر
الدينية الكاردينال مارتنز سومالو في فبراير / شباط عام ١٩٩٥م.

وقد أمر الكاردينال آنذاك بإنشاء فريقٍ عمليٍّ من المجمع لدراسة المشكلة مع
أودونوهو والتي كانت تعمل مُنسقةً الإيدز في منظمة (كافود) وهي منظمة دينية تابعة لطائفة
الروم الكاثوليك تتخذ من لندن مقراً لها.

وأشارت أودونوهو إلى أدلةٍ واضحةٍ على اتهاماتها، وقالت إنه في إحدى الحالات
أجبرَ قسيسٌ راهبةً على الإجماع مما أدى إلى موتها، ثم قام بنفسه بعمل قذاسٍ لها.

وبشأن أفريقيا قال تقريرها إنَّ الراهبات لا يستطعن هناك رفض أوامر القساوسة
بهذا الشأن، وأكدت أنَّ عدداً من القساوسة هناك مارسوا الجنس مع الراهبات خوفاً من
إصابتهم بالإيدز إذا "مارسوه مع العاهرات". وتزعمُ الراهبات على تناول حبوبٍ لمنع الحمل،
لكنها قالت: إنَّ مؤسسةً دينيةً اكتشفت وجودَ عشرين حالةٍ حملٍ دُفَعَة واحدةٍ بين راهباتها
العاملات هناك.

وأشار التقريرُ إلى أنَّ الأسقف المحليَّ لإحدى المناطق طرد رئيسةً ديرٍ عندما
اشتكت له من أنَّ تسعاً وعشرين راهبةً من راهبات الدير حُبلى بعد أن أُزغِنَ على ممارسة
الجنس مع القساوسة^(١).

تاسعاً: وفي نهاية حديثنا عن هذا الموضوع فإننا نحيلُ القارى الكريم إلى عدد مجلة التايم
الأمريكية المنشور بتاريخ ٢٠٠٢/٥/١م ليقرأ فيه الملف المؤلّم الطويل الذي نشرته
الكاتبة جوانا ماكجيري، والذي جاء فيه:

بعدما كثرت وتزايدت الاتهاماتُ بالاعتداءات الجنسية التي يرتكبها الرهبانُ
الكاثوليك وبعد التسترُ الرسمي عليها، طالب الرومان الكاثوليك الغاضبون قادتهم ورؤساءهم
بإصلاح الدين المسيحي [يقصد المسيحيين]. فالصدمة هي أنَّ حالاتٍ كثيرةً من هذا القبيل

(١) قناة الجزيرة الفضائية، بتاريخ ٢٠٠١/٣/٢١م في موقعها الإلكتروني www.aljazeera.net.

انتشرت كفيروس قاتلٍ في نظر الرأي العام. فالأمر لم يعد يقتصر على بوسطن بل تعدّاه إلى لوس أنجلوس وسانت لويس ومينوسوتا وفيلادلفيا وبالم بيتش وفلوريدا وواشنطن وبورتلاند وماين وبرايديج بورت وكنتيكت. والمربّع في كل هذه الحالات ليس تقرّدها بهذه القضية بل في الشّبهِ المرعِبِ بينها. فقد تنوعت وتعددت الاتهامات الموجهة للربان الكاثوليك بالاعتداء الجنسي على الأطفال واتهامات للكنيسة التستر عليها سواء القضايا التي تورّط فيها الأب دان أوليفر أو روكو أو بریت.

الشبهة الثامنة عشرة ودفعها:

لَمَّا عجز الرهبان الطاعنون وكلُّ مَنْ شايَعهم عن الإتيان ولو بجزءٍ من كتابٍ يصلح لأن يُعارض القرآن الكريم، ولَمَّا سَلَّم الكثيرون من خبراء اللغة وقد النصوص الأدبية ومن فلاسفة الغرب المسيحيين الغربيين بأنّ هذا القرآن لا يمكن أن يكون من وضع محمد ﷺ فقد نسبوا مصدرَ هذا القرآن إلى الجنّ والشياطين. وزعموا أنّ الشيطان هو الذي كان يوحى إلى محمدٍ هذا الكتاب ليُفَسِدَ على الناس دينهم ويصدّهم عن الدخول في المسيحية.

ولم يعجز هؤلاء الطاعنون عن إيجاد مُستندٍ لإثبات صحّة ادّعائهم، فاحتجّوا بقصّة الغرائق التي ساقها المفسّر الطبري في (جامع البيان) كسببٍ لنزول قوله تعالى: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " (١).

وقد ساق الطبري رواياتٍ متعدّدة لقصّة الغرائق، تعدّدت فيها الأسماء والأحداث، كما أنّه ساق هذه القصّة كذلك في (تاريخ الأمم والملوك). ويمكننا بعد قراءة كلّ ما

(١) سورة الحج: الآية ٥٢.

كتبه في (جامع البيان وفي تاريخ الأمم والملوك) أن نستخلص مُختصراً مفيداً للقصة، حتى تقوم بعد ذلك بمناقشتها سنداً وامتناً. وتالياً ملخصها^(١):

إنَّ رسول الله قد آلمه انفضاضُ قومه عنه وصدودهم عن دعوته، وكان من شدة حُبِّه لهم، أحرص الناس على هدايتهم لدين الله، فتمتَّى أن يأتيه من الله ما يقربُ بينه وبينهم. وفي يومٍ جاءه "الأسود بن المطلب" و"الوليد بن المغيرة" و"أمية بن خلف" و"العاص بن وائل"، وهم من زعماء قريش وأسيادها وقالوا له: يا محمدُ هلمَّ فلنعبُد ما تعبدُ، وتعبُد ما عبدنا فنشتركُ نحنُ وأنتُ في الأمر. يا محمدُ إنَّنا يجالسك الفقراءُ والمساكينُ وضعفاءُ الناس فلو ذكركَ آلهتنا بخيرٍ لجالسناك، فإنَّ الناس يأتونك من الآفاق.

وقال أبو الوليد وكان كبيرهم: قد عرفنا أنَّ الله يُحيي ويميت، وهو الذي يخلق ويرزق، ولكنَّ آلهتنا تلك تشفعُ لنا عنده، فإنَّ جعلتَ لها نصيباً فنحن معك.

وهكذا كانوا يعرضون على الرسول صفةً، أن يؤمنوا بالله وبالرسالة، مقابل أن يظلوا على توشلهم بالأصنام. فجاء ردُّ الرسول عليهم وحياً في سورة "الكافرون"، حيث يقول

في جوابهم: " قُلْ يَتَّبِعُوا آلَ الْكُفْرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ " (١).

على أنَّ الرسول بقي يراوده الأمل في أن يراهم مُصدِّقين له وكان يقول في نفسه: ليتَه ينزلُ في ذلك أمرٌ يقربنا من قريش.

وذات يومٍ وبينما كان رسول الله يتلو القرآن عند الكعبة ويقرأ سورة "النجم" فلما بلغ قوله تعالى: " أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ " (٢). أجرى

(١) للوقوف على تفاصيل القصة كاملة انظر الطبري، جامع البيان [م.س.]، ج ١٧، ص ١٣١ - ١٣٣. والغرائق جمع غريق وهو طائر أيضا من الطيور التي تمشي قرب الماء. وكثي بذلك الشاب الأبيض الناعم، وكان المشركون يزعمون أنَّ الأصنام تقربهم من الله وتشفع لهم فشبهت بالطيور التي تملو وترقع.

(٢) سورة الكافرون: الآيات ١-٣.

(٣) سورة النجم: الآيات ١٩، ٢٠.

الشیطانُ على لسانه الجملتين التاليتين: "تلك الغرائق العُلى، منها الشفاعة ترتجى). وفي رواية أخرى (منها الشفاعة تُرتضى).

فلما سمِعَ كفارُ قريشٍ ذلك فرحوا وسرَّهم وأعجبهم ما ذُكر به ألهمهم، وقرأَ محمدٌ ما بعدها من آياتٍ، ولمَّا بلغ آيةَ السجدة فيها وختم السورة، سجدَ هو ومن حضرَ من المسلمين والمشركين إلا الوليد بن المغيرة لكبرٍ في سنه، فأخذه بيده من البطحاء فسجدَ عليها.

وقرَّح المشركون، وارتفعت نداءاتهم يقولون: لقد ذكر محمدٌ ألهمتنا بخبر. ولمَّا كان كلُّ حيٍّ من العرب له وثنه، وكانت له تلبيته الخاصة حول الكعبة، أصبحت تلبية اللات والعزى ومناة هي كما أجزاها الشيطان (أرايم اللات والعزى، ومناة الثالثة الكبرى، تلك الغرائق العلى، منها الشفاعة تُرتجى).

وانتشر نبأ هذه المصالحة وعمَّ بين الناس، وهلَّلت قريشٌ في الزَّكبان أنَّ التقاربَ قد حدثَ بينها وبين رسول الله في مكة. حتى بلغ خبرُ السجدة المهاجرين في الحبشة من أصحاب رسول الله، وقيل لهم أسلمت قريشٌ، ففرَّ رجال منهم العودة إلى مكة.

فلمَّا أمسى أتاه جبريلُ، عليه السلام، فعرضَ عليه السورة، فلمَّا بلغ الجملتين اللتين ألقى بهما الشيطانُ عليه قال جبريلُ: ما جئتُك بهاتين!! لقد تلوَّت على الناس ما لم آتِكَ به من الله عزَّ وجلَّ، وقلتَ ما لم يُقلْ لك، فقال رسولُ الله: افتريتُ على الله وقلتُ ما لم يُقلْ، فأوحى الله إليه " وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِئَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبْنَيْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا " (١).

فما زال رسول الله مغموماً مكروباً، يلوم نفسه أنه اقترى على الله الكذب، [وحاشاه أن يفعل ذلك] حتى نزلت عليه الآية الكريمة: " وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

(١) سورة الإسراء: الآيات ٧٣، ٧٤.

رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانَ فِي أَمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١). تعزّيه وتهوّن عليه الأمر، وتبلغه أنّ ذلك أمرٌ شاع في الأنبياء قبله، فلم يكن قبله نبيٌّ ولا رسولٌ تمّى كما تمّى، ولا أحبّ كما أحبّ، إلا والشيطان قد ألقى في أمنيته، وأجرى على لسانه آياتٍ مثلها، فنسخ الله ما ألقى الشيطان ثم أحكم آياته. فذهب عن رسول الله الحزن.

وقالت قريش: ندّم محمدٌ على ما ذكر من منزلة آلهتنا عند الله فغير ذلك وجاء بغيره، فزادوا شراً على ما كانوا عليه ...

لا شك أنّ هذه القصة من الخطورة بمكان، وقد وجب التصدي لها وتفنيدها وخصها سنداً ومنتناً. ولا يكفي لصحة الاحتجاج بها مجرد ورودها في تفسير الطبري - يرحمه الله - ففي تفسيره الكثير الكثير من الروايات التي ردّها العلماء ولم يقبلوا الاحتجاج بها وذلك لوجود علةٍ أو ضعفٍ أو انقطاعٍ أو إرسالٍ في أسانيدنا.

ومن الممكن حصر أسباب ردّ قصة الغرائق فيما يلي^(٢):

أولاً: مخالفتها الصريحة الواضحة لنصوص القرآن الكريم، التالية:

(١) سورة الحج: الآية ٥٢.

(٢) انظر:

أ. الألباني، محمد ناصر المنين، نصب الجانيق لنسف قصة الغرائق ص ٢٤ - ٢٦ بصرف واختصار، ط ١، ١٩٥٢، المكتب الإسلامي، دمشق.

ب. الخالدي [م. س.]، ص ٦٦٤ - ٦٦٦ بصرف.

ج. مرسي [م. س.]، ص ٢٠ - ٢٥ بصرف.

د. الشريف، عبد الرحيم، إقتراء ورد: مصدر القرآن الكريم هي الشياطين، بحث منشور في موقع شبكة الحقيقة الإسلامية بتاريخ ٢٠٠٧/١/١٣

على الموقع الإلكتروني للشبكة www.trutheye.com.

هـ. الأزهرى، إساعيل شعبان، قصة الغرائق في الميزان، بحث منشور في موقع الشبكة الإسلامية بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢ على الموقع الإلكتروني

للشبكة www.islamweb.net.

و. حقائق الإسلام [م. س.] الشبهة ٦٢، الشيطان يوحى إلى محمد ﷺ والردّ عليها.

١. قال تعالى في سورة الحاقة: "وَلَوْ نَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ

﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ" (١).

٢. وفي سورة يونس: "قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ

اتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ

عَظِيمٍ" (٢).

٣. وفي سورة الإسراء: "وَلِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ

لِيُفْتَرِيَٰ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حَافِلًا" (٣). فكلمة "كاد" تعيد أن

الأمر لم يحصل.

٤. وفيها قوله: "وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا" (٤).

فكلمة "لولا" تعيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره فدل على أن ذلك الركون لم يحصل.

٥. وفي سورة الفرقان: "كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ" (٥).

٦. وفي سورة الشعراء نض قاطع ينفي ذلك بتاتا: "وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٦١﴾

وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ" (٦).

ثانياً: مخالفتها للعقل السليم الذي يفهم الإسلام فهماً صحيحاً. وتوضيح ذلك ما يلي:

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٤ - ٤٦.

(٢) سورة يونس: الآية: ١٥.

(٣) سورة الإسراء: الآية ٧٣.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٧٤.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٣٢.

(٦) سورة الشعراء: الآيات ٢١٠، ٢١١.

١. إن النبي ﷺ لم يحترم الأصنام في الجاهلية، ولم يُعرف عنه أنه تقرب إلى صنم قط، وقد كسر النبي ﷺ في فتح مكة ثلاثمائة وستين صنماً، فكيف يوقرُها وهو رسولٌ من الله سبحانه وتعالى؟ وكيف يتركه رَبُّهُ سبحانه وتعالى يسجد للأصنام بحسب هذه القصة الموضوعة؟! فهو مَنْ يأمرُ ﷺ بطمس الأصنام، وتغيير معالمها!!
٢. لو جَوَزْنَا ذلك لارتفع الأمان عن شرعه، ولجَوَزْنَا في كلِّ الشرائع أن تكون كذلك.
٣. ليس من المعقول أن يعترف النبيُّ بشفاعة الغرائق وهو يدعو إلى عبادة الله تعالى ويحارب الأصنام. ولو كان الشيطان له سلطانٌ عليه لدرجة أنه يُملِي عليه ويحركُ لسانه بالكفر، لكان ألعبه له، ليس في هذه القصة فقط، بل في غيرها أيضاً. والنبيُّ معصومٌ من الشياطين بداهةً.
٤. إن الاعتراف بشفاعة الأصنام كفرٌ مُخرِجٌ من المِلَّة!!

ثالثاً: قصة الغرائق مردودةٌ ومطعونٌ في سندها عند المحدثين والحقّقين.

وبيان ذلك أننا لو ألقينا النظر على روايات هذه القصة، لأفيناها كلها مُرسلةً، باستثناء حديث ابن عباس، ولكنَّ طرقه كلها واهيةٌ شديدة الضعف، لا تتجبرُ بها تلك المراسيلُ. فيبقى النظر في هذه المراسيل، وهي كما علمنا سبعةً، صحَّ إسنادُ أربعةٍ منها، وهي مرسلُ سعيد بن جبير، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وأبي العالية، ومرسل قتادة، وهي مراسيلُ يرُدُّ عليها أحدُ الاحتمالين السابقين، لأنهم من طبقةٍ واحدةٍ: وفاة سعيد بن جبير سنة (٩٥ هـ) وإبي بكر بن عبد الرحمن سنة (٩٤ هـ)، وأبي العالية - واسمه رفيع مصغراً لسنة (٩٠ هـ) وقتادة سنة بضع عشرة ومائة. والأول كوفي، والثاني مدني، والأخيران بصرّيان. فحائزٌ أن يكون مصدرُهم الذي اخذوا منه هذه القصة ورووها عنه، واحداً لا غير، وهو مجهول. وحائزٌ أن يكون جمعاً، ولكنهم ضعفاءٌ جميعاً، فمع هذه الاحتمالات لا يمكن أن تطمئنَّ النفس لقبول حديثهم هذا، لا سيّما في مثل هذا الحدّث العظيم الذي يمسُّ المقام الكريم، فلا جرم تتابع العلماء على إنكارها، بل التنديد بطلانها، ولا وجه لذلك من جهة الرواية إلا ما ذُكر. قال الفخر الرازي في تفسيره (١٩٣/٦): "روي عن محمد بن اسحق بن حُزَيْمَةَ أنه سُئِلَ عن هذه القصة؟ فقال: "هذه من وضع الزنادقة"، ووصف فيه كتاباً. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي: "هذه القصة غيرُ ثابتةٍ من جهة النقل" ثم أخذ يتكلّم في أنّ رواة هذه القصة مطعون فيهم. وأيضاً: فقد روى البخاري في "صحيحه" أنّ النبي ﷺ

قرأ سورة (النجم) وسَجَدَ وسَجَدَ فيها المسلمون والمشركون، والأنس والجن، وليس فيه حديث الغرائق، وزُوي هذا الحديث من طرق كثيرة، وليس فيها البتة حديث الغرائق. وقد تبع هؤلاء جماعة من الأمة العلماء رحمهم الله تعالى^(١).

وفي نهاية ردنا على شبهة الشيطان كمصدر للقرآن وأنه قد يلقي على لسان محمد ﷺ ما شاء فقد يواجهننا سؤالٌ لمعتري يقول فيه: "إن كان ما ذكرتم صحيحاً فكيف تفسرون قول القرآن: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ عَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ" () فهذه الآية واضحة في الدلالة على قدرة الشيطان على أن يُملي للمحمد والأنبياء من قبله!!!

والرد على هذا السؤال سهلٌ ليسوز لكل من أراد الفهم الصحيح لها؛ ففيها يخبر الله رسوله ﷺ أن كل رسولٍ ونبيٍّ قبله كان يتمنى ويرجو ويأمل أن يؤمن به قومه ويصدقوه، وكان يندلجهم في دعوتهم، ولكن الشيطان كان يحاول تفتيسه، ولذلك كان يلقي في أمنيته، ويُرِيه أنها مستحيلة، وأن قومه لن يؤمنوا به، فلا يتعب نفسه معهم. وكان الله يتدارك رسوله برحمته، ويمس عليه بالأمل، وبذلك كان ينسخ ما يلقي الشيطان من وساوس، ويحكم آياته، ويُتيقن الرسول على ثقته وأمله وجهوده في الدعوة....

(١) وأسأؤهم على ترتيب وقيامهم ما يلي:

١. أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي توفي سنة (٥٤٢)، في تفسيره "أحكام القرآن".
 ٢. القاضي عياض بن موسى بن عياض (٥٤٤) في كتابه "الشفاء في حقوق المصطفى".
 ٣. فخر الدين محمد بن عمر بن الحسن الرازي (٦٠٦) في تفسيره "مفاتيح الغيب" (١٩٣/٦ - ١٩٧).
 ٤. محمد بن أحمد الأضاري أبو عبد الله القرطبي في "أحكام القرآن" (٨٠/١٢ - ٨٤).
 ٥. محمد بن يوسف بن علي الكرمانلي، من شُرّاح "البخاري" (٧٨٦)، وقد قل كلامه في ذلك الحافظ بن حجر في "الفتح" (٤٩٨/٨).
 ٦. محمود بن أحمد بدر الدين العيني (٨٥٥) في "عمدة القاري". (٤٧/٩).
 ٧. محمد بن علي بن محمد الجنيني الشوكاني (١٢٥٠) في "فتح القدير". (٢٤٧/٣ - ٢٤٨).
 ٨. السيد محمود أبو الفضل شهاب الدين الألويسي (١٢٧٠) في "روح المعاني" (١٦٠/١٧ - ١٦٩).
 ٩. صديق حسن خان أبو الطيب (١٣٠٧) في تفسير "فتح البيان".
- (٢) سورة الحج: الآية ٥٢.

النَّشْبَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَةَ وَدَفْعُهَا

إِنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ، يَزْعُمُ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ. كَمَا يَزْعُمُ أَنَّ الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِمْ اتَّفَقُوا عَلَى مَحُوِّ اسْمِ (مُحَمَّدٍ) مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ! فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَتَّفَقَ الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ فِي شَرْقِ الْعَالَمِ وَغَرِبِهِ وَشِمَالِهِ وَجَنُوبِهِ عَلَى مَحُوِّ اسْمِ (مُحَمَّدٍ) مِنَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ، وَهُوَ غَيْرُ مَذْكُورٍ فِيهِ أَصْلًا؟؟

- تتركب هذه الشبهة من جزأين:

أولها: القطع بعدم ورود نص كتابي يذكر اسم محمد أو نبوته.

ثانيها: اتهام القرآن لأهل الكتاب بالتواطؤ والتآمر لمحو اسم محمد من الكتاب المقدس.

- أما عن الرد على الجزء الثاني من هذه الفرية، فهو أن أساسها مبني على فهم فاسد؛ وهو أن المسلمين يعتقدون أن اسم النبي ﷺ الصريح، وهو محمد بالعربية، مذكور في التوراة والإنجيل" وهذا لم يقله عالم من علماء المسلمين ولا أخبر الله سبحانه به في كتابه عنهم، ولا رسوله ولا بكلمتهم به يوماً من الدهر، ولا قاله أحد من الصحابة ولا الأئمة بعدهم، ولا علماء التفسير، ولا المعتنون بأخبار الأمم وتواريخهم.

وإن قُدِّرَ أنه قاله بعض عوام المسلمين يقصد به نصر الرسول فقد قيل: يضرُّ الصديق الجاهل أكثر مما يضرُّ العدو العاقل. وإنما أتى هؤلاء من قلة فهم القرآن، وظنوا أن قوله تعالى: " الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ " [الأعراف: ١٧٥]، دل على الاسم الخاص بالعربية في التوراة والإنجيل المخصوصين وأن ذلك لم يوجد البتة ... فالرب سبحانه: إنما أخبر عن كون رسوله مكتوباً عندهم، أي الإخبار عنه وصفته ومخرجه ونعته، ولم يخبر بأن صريح اسمه العربي مذكور عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا أبلغ من ذكره بمجرد اسمه، فإن الاشتراك قد يقع في الاسم فلا يحصل التعريف والتمييز، ولا يشاء أحد يسمى بهذا الاسم أن يدعي أنه هو إلا فعل، إذ الحوالة إنما وقعت على مجرد الاسم، وهذا لا يحصل به بيان ولا تعريف ولا هدى، بخلاف ذكره بنعته وصفته وعلاماته ودعوته وصفة أمته ووقت مخرجه ونحو ذلك، فإن هذا يعينه ويميزه ويحصر نوعه في شخصه^(١).

(١) ابن القيم [م.س.]، ص ٩٠، ٩١ بصرف واختصار.

- أما عن الردّ على الجزء الأول من هذه الشبهة وهو القطع بعدم ورود نصّ كتابي يذكر نبوة محمد ﷺ فقد بحثَ علماءنا المهتمون بدراسة اليهودية والمسيحية هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً يتمُّ عن اطلاعهم على الكتاب المقدّس ودراساتهم له، وكانوا ولا يزالون يضعون بين كلِّ فترة وفترة كتاباً يتناول هذا الموضوع. ولعلّ معظم عناوين أبحاثهم المتعلقة به قد حملت عنوان (المبشّرات) أو (البشارات) أو (التباشير). وهم يقصدون بها نصوص الكتاب المقدّس التي تحدّثت عن أوصاف ونبوة سيّدنا محمد ﷺ.

- ولعلّ أفع كتبهم وأكثرها دقّة، حسب تقييّننا المتواضع، خمسة هي:
1. الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، لشيخ الإسلام ابن تيمية، يرحمه الله، ويكاد هذا الكتاب يكون العمدة في هذا الموضوع؛ حيث نهلّ اللاحقون لابن تيمية من صفحاته خيراً كثيراً وبالذات تلميذه ابن القيم. وقد شرح ابن تيمية في هذا الكتاب اثنتين وعشرين بشارةً من بشارات الكتاب المقدّس بنبوة محمد ﷺ.
 2. هداية الحيارى لأجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية.
 3. إظهار الحق، لرحمت الله الهندي.
 4. محمّد في الكتاب المقدّس، لعبد الأحد داود، والذي كان يُسمّى سابقاً دايفيد بنجامين كلداني، والذي كان أباً روحياً وقسيساً لطائفة الكلدانيين.
 5. تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ، للدكتور نصر الله عبد الرحمن أبو طالب. وهذا الكتاب جهدٌ علميٌّ ضخمٌ جمع فيه المؤلّف خلاصة جهود السابقين في هذا الموضوع وناقشها قبل بعضها واستبعد بعضها الآخر لضعف في دلالتها، كما قال، ثم أضاف عليها بشاراتٍ جديدةً هامةً، مؤكّداً أنّ كلّ ما ضمّنه في كتابه هذا إنّما هو دلالة قاطعة لبشارات الكتاب المقدّس على الإسلام يستحيل تفسيرها بغير ذلك.

لقد رصدنا في هذه الدراسة الكتب الخمسة السابقة رسداً متأنياً، وقمنا بتحليل أبرز مضامينها المتعلقة بالبشارات الدالة على أوصافه ونبوته ﷺ. وكان من نتائج ذلك، أنّ نصوص الكتاب المقدّس التي استدلّ بها علماءنا قديماً وحديثاً متشابهة جداً بل تكاد تكون هي عينها التي استدلّ بها كل منهم. وكذا كان حال التفسير والتوجيه الذي قدّمه كلٌّ منهم لهذه النصوص، ولكن مع فروق قليلة غير هامة.

وقد تفاوتت أعداد هذه البشارات عند علمائنا حتى زادت عن الخمسين عند بعضهم، مع ذكركم لترجمات وتفصيلات كثيرة قد يُشكلُ على الكثيرين فهمها.

ولتسهيل الأمر وتوطئته على القارئ الكريم، فإننا سنسوقُ أبرزَ وأهمِّ هذه البشارات مع شرحٍ مُختصرٍ لها^(١):

أولاً: "جاء الربُّ من سيناءَ وأشرقَ من سَعيرٍ وتلاًلاً من جبل فاران"^(٢). وهذه البشارة متضمنةُ النبوات الثلاث: نبوةُ موسى، ونبوةُ عيسى، ونبوةُ محمدٍ ﷺ؛ فمجئته من "سيناء" وهو الجبل الذي كلَّم اللهُ عليه موسى وبثَّه عليه، إخبارٌ عن نبوته. وتجليه من ساعير هو مظهرُ المسيح من بيت المقدس، و"ساعير" قريةٌ معروفةٌ هناك إلى اليوم، وهذه بشارةُ بنبوةِ المسيح. و"فاران" هي مكة. وشبهه سبحانه نبوةُ موسى بمجيءِ الصباح، ونبوةُ المسيح بعدها بإشراقه وضياؤه، ونبوةُ خاتم الأنبياء بعدها باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الآفاق. وقد وقع الأمرُ كما أخبرَ به؛ فإنَّ الله سبحانه صدَّعَ بنبوةِ موسى ليلَ الكفر فأضاءَ فجرةَ بنبوته، وزادَ الضياءَ والإشراقَ بنبوةِ المسيح، وكَمَلَ الضياءَ واستعلنَ بنبوةِ محمدٍ صلوات الله وسلامه عليهم.

وذكرَ هذه النبوات الثلاث التي اشتملت عليها هذه البشارةُ نظيرُ ذكرها في أول

سورة " () . فَذَكَرَ

أمكنةَ هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها و"والتَّيْنِ وَالرَّيْثُونِ" المرادُ بهما منبتُهما وأرضُهما وهي الأرضُ المقدَّسةُ التي هي مظهرُ المسيح، و"وَطُورِ سَيْنِينَ" الجبل الذي كلَّم اللهُ عليه موسى فهو مظهرُ نبوته، و"وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ" مكة، حرمُ الله وأمنه التي هي مظهرُ نبوةِ محمدٍ

^١ انظر:

أ. ابن تيمية [م.س] ص ٢٦٦ - ٣٠٢.

ب. ابن القيم [م.س] ص ١٠٩ - ١١٧، ١٤٧ - ١٥٧، ١٧٤ - ١٨٤.

ج. الهندي [م.س] ص ٥١٩ - ٥٤٥

د. داود، عبد الأحد، محمد في الكتاب المقدس، ترجمة فهمي شتا، ص ٣٠ - ٣٥، ٥٤ - ٥٤.

هـ. أبو طالب، نصر الله عبد الرحمن، تبشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ، ص ٢٥٠، ٢٥١، ٢٧٣، ٢٧٤، ٣١٥، ٣١٦.

٣٧١، ٣٧٢، ط ٢، كتاب منشور في موقع موسوعة الإنجاز العلمي في القرآن والسنة www.55a.net

(٢) سفر التثنية: ٣٣: ٢

(٣) سورة التين: الآيات ١ - ٣.

صلوات الله عليه وسلامه عليهم. فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة، سواءً قالت اليهود: "فاران" هي أرض الشام وليست أرض الحجاز أم لم تقل. وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم، فعندهم في التوراة: إن إسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران. هكذا نطقت التوراة، ولفظها "وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر"^(١).

ولا يشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل إسماعيل، فقد تَصَمَّت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد إسماعيل، وتضمنت انتشار أمته وأتباعه حتى يملأوا السهل والجبل. ولم يبق بعد هذا شبهة أصلاً في أن هذه هي نبوة محمد ﷺ التي نزلت بفاران على أشرف ولد إسماعيل حتى ملأت الأرض ضياءً ونوراً وملأ أتباعه السهل والجبل. وهنا نسأل منكري ذلك والمكابرين: أي نبوة خرجت من الشام فاستعلت استعلاء ضياء الشمس، وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها!؟

ثانياً: "هو ذا عبدي الذي أعضده مختاري الذي سررت به نفسي، وضعت روجي عليه، فيخرج الحق للأمم، لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع في الشارع صوته، قسبة مرضوضة لا يتصف وفتيلة خامدة لا يطفئ، إلى الأمان يخرج الحق، لا يكل ولا ينكسر حتى يضع الحق في الأرض وتنتظر الجزائر شريعته. وهكذا يقول خالق السماوات وناشرها، باسط الأرض وتناجها معطي الشعب عليها نسمة والساكين فيها روحاً، أنا الرب قد دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهداً تفتح للشعب ونوراً للأمم، لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة"^(٢).

"هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخير بها، قبل أن تثبت أعلنكم بها، غتوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض، أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها. لترقع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، لتترنم سكان سالف، من رؤوس الجبال ليهتفوا، ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر. الرب كالجبار يخرج، كرجل

(١) التكوين: ٢١: ٢١.

(٢) إشعيا: ٤٢: ١ - ٧.

حُرُوبٍ يُنْهَضُ غَيْرَتَهُ، يَهْتَفُ وَيَصْرُخُ وَيَقْوَى عَلَى أَعْدَائِهِ"^(١). "يَجْزَى خِزْيَا الْمُتَكَلِّمِينَ عَلَى الْمُنْحَوَاتِ الْقَاتِلِينَ لِلْمَسْبُوكَاتِ انْتِنَ آهْتِنَا ..."^(٢).

هذا حديثٌ يَبَيِّنُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ الْمُخْتَارِ الَّذِي سَيُرْسَلُ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ ... الَّذِي تَنْتَظِرُ الْأُمَّةَ شَرِيعَتَهُ وَالنُّورَ الَّذِي مَعَهُ وَالَّذِي مِنْ خِلَالِهِ سَلِمَ عَهْدَ اللَّهِ مَعَ أُمَّةٍ الْأَرْضِ.

مُؤَيَّدٌ بِاللَّهِ مَحْفُوظٌ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ يَأْتِي بِشَرِيعَةٍ وَتَسْبِيحَةٍ جَدِيدَةٍ ... يَفْتَحُ بِهَا عَيْنَ الْعَمِيِّ مِنَ بَيْنِ الظُّلُمَاتِ، وَيُخْرِجُ بِهَا النَّاسَ مِنْ حَبْسِ الدُّنْيَا، إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. فَتَبَدُّدُ الظُّلُمَاتِ فِي أَرْضِ الْبَرِيَّةِ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ (الْحِجَازَ وَالْجَزِيرَةَ الْعَرَبِيَّةَ) ... فَيَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيُسَبِّحُونَهُ وَيَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ بِذِكْرِهِ مِنْ فَوْقِ الْجِبَالِ (بِمَا فِيهَا جِبَلٌ سَلَعٌ فِي الْمَدِينَةِ) ... وَيَقَاتِلُونَ أَعْدَاءَهُمْ فَيُنْصَرُونَ عَلَيْهِمْ ...

مَا تَمَثَّلَتْ هَذِهِ النُّبُوَّةُ إِلَّا بِظُهُورِ الْإِسْلَامِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَيْثُ سَكَنَ أَبْنَاءُ إِسْمَاعِيلَ الَّذِينَ قَامُوا بِنَشْرِهِ بَيْنَ أُمَّةٍ الْأَرْضِ ... فَتَقَلُّوهُا مِنْ جُورِ الْأَدْيَانِ إِلَى عَدْلِ الْإِسْلَامِ وَمِنْ ضَيْقِ الدُّنْيَا إِلَى سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ... وَأَخْرَجُوا الْحَقَّ وَالْإِيمَانَ الَّذِي طَالَمَا كَانَ مُسْتَضْعَفًا وَمُطَارَدًا إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ وَالْعَزَّةِ ... وَكَانَ الْمُصْطَفَى الْمُخْتَارَ، ﷺ، قَدْ لَقَّبَ فِي الْقُرْآنِ مَرَارًا بِعَبْدِ اللَّهِ، وَهُوَ الَّذِي تَعَمَّدَ اللَّهُ بِحَفْظِهِ وَعَصَمْتِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَيَّدَهُ بِنَصْرِهِ، وَوَهَبَهُ خُلُقًا عَظِيمًا وَجَعَلَهُ إِمَامًا فِي مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ.

هَذِهِ النُّبُوَّةُ لَا تَنْطَبِقُ عَلَى كُورَشِ الْفَارِسِيِّ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ، وَإِنْ كَانَتْ إِصْحَاحَاتٌ تَالِيَةٌ تَتَحَدَّثُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ شَخْصِيَّةِ كُورَشٍ، إِلَّا أَنَّ الْمَشْهُورَ عَنْهُ وَثَبْتَهُ وَعَدَمَ إِيْمَانِهِ، فَكَيْفَ يُنْسَبُ إِلَى الْمُرْسَلِينَ؟ وَكُورَشٌ لَمْ يَنْشُرِ النُّورَ وَلَا الْهُدَى فِي أَرْضِ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَلَا أَصْبَحَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِهِ فِي هَذِهِ الدِّيَارِ مُؤْمِنِينَ، وَلَا تَنْطَبِقُ هَذِهِ النُّبُوَّةُ مِنْ أَيِّ نَاحِيَةٍ عَلَى الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، خِلَافًا لِزَعْمِ الْمَسِيحِيِّينَ ... هَذَا إِضَافَةٌ إِلَى نَسْبَةِ الْعَبُودِيَّةِ إِلَى هَذَا الرَّسُولِ، وَهُمْ يَزْعَمُونَ أَنَّهُ هُوَ اللَّهُ أَوْ أَنَّهُ ابْنُ الْمَسَاوِي لَهْ فِي الْجَوْهَرِ وَالْمَقَامِ ... وَيَكْفِي، فَوْقَ أَنَّ هَذِهِ النُّبُوَّةَ لَمْ تَتَحَقَّقْ إِلَّا عَلَى يَدَيْ رَسُولِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، يَكْفِي بِهَا تِلْكَ الْإِشَارَةُ الْوَاضِحَةُ إِلَى مَوْطِنِ ظُهُورِ

(١) إِنْشِيَاءً: ٤٢: ٩ - ١٣

(٢) إِنْشِيَاءً: ٤٢: ١٧

المختار وأنها الديار التي سكنها قي دار ... وقي دار هو ثاني أبناء إسماعيل كما تذكر التوراة. وقد أورد المؤرخون اسمه ضمن أسماء أجداد قبيلة قريش التي سكنت مكة، والتي ظهر منها رسول الله محمد ﷺ والسؤال - الذي ليس له إلا جوابٌ واحدٌ - هو متى تبددت الظلمات في الحجاز؟ ومتى آمنَ أبناء إسماعيل بالله وتركوا عبادة الأصنام إلا عند مجيء رسول الله محمد ﷺ؟ هذا في الوقت الذي أعلن فيه المسيح، عليه السلام، عن خصوصية دعوته لبني إسرائيل، وأن هدفها تبشيرهم بقرّب مجيء مملكة الله حتى يستقبلوها برضى وإيمان.

ثم، مَنْ غيرُ رسول الإسلام محمد ﷺ مؤهَّلٌ لهذه الصفات..؟ هو المختار (مختاري) أو المصطفى والمصطفى من أسمائه وألقابه المشهورة ... هو الذي أعلن منذ اللحظة الأولى في دعوته أنه رسولٌ لكلِّ الأمم (فيخرج الحق والعدل للأمم) .. ولم يكن ذلك لأيّ نبي قبله بما فيهم عيسى، عليه السلام، الذي نُقلت عنه الأناجيل الحالية إعلانه أنّ دعوته خاصةٌ ببني إسرائيل ... وهو صاحبُ اللقب "عبد الله" في الوحي ... ولم يشتهر أحدٌ بهذا اللقب أو يُعرف به - وإن كان الجميع عبيد الله - إلا رسولُ الإسلام محمد ﷺ. وهو النبي الذي اشتهر بأخلاقه وكمال أدبه وإن كانت أخلاقهم جميعها لعالية ... وأثبتت الشناء على أخلاقه في مواضع متعددة من القرآن الكريم لتكون شاهداً لنبوته في حياته وبعد مماته. ويكفي هنا تذكيرُ القارئ الكريم

بقوله تعالى " وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ " (١). فما كان يرفعُ صوته في الأسواق والطرق ... كان يبني ولا يهدم ... كان يفرح ويشجع على الخير حتى وإن كان ضئيلاً بل يأمرُ بالخير وعمله حتى لو كانت القيامةُ بادئةً كما في أمره بمواصلة الغرس حتى لو قامت القيامة ... ولم يأس في دعوته ولم يكلّ حتى انتصر الدينُ الذي جاء به وأقام دولته التي حكمت جزيرة العرب كاملةً في حياته ... ومن بعد موته انتشر الدينُ خارج الجزيرة وبلغ الأمصار التي كانت تنتظرُ شريعته ... "لا يكلّ ولا ينكسر حتى يصعّ الحق في الأرض وتنتظرُ الجزائر شريعته".

ثالثاً: ١. "فقال لها [لهاجر] ملائكة الرب: ارجعي إلى مولائكِ واخضعي تحت يديها. وقال لها ملائكة الرب: تكثيراً أكثر نسلِك فلا يُعدُّ من الكثرة وقال لها ملائكة الرب: ها أنت حُبلى فتلدن ابناً وتدعين اسمه إسماعيل" (٢).

(١) سورة القلم، الآية ٤

(٢) التكوين: ١٦: ٩ - ١٣.

٢. "وأما إسماعيلُ فقد سَمِعْتُ لكَ فيه، ها أنا أباركه وأثمُّرُه وأكثُرُه كثيراً جداً، إني عشر رئيساً يلدُ، وأجعله أُمَّةً كبيرةً"^(١).

٣. "قومي احملِي الغلامَ [أي إسماعيلَ] وشُدِّي يَدَكَ به لأنِّي سأجعله أُمَّةً عظيمةً"^(٢).

٤. ونادى ملائكةُ الربِّ إبراهيمَ ثانيةً من السماء، وقال بذاتِي أقسمتُ يقول الربُّ لِي من أجل أنَّكَ فعلتَ هذا الأمرَ ولم تُمسكْ ابنتَكَ وحيدَكَ بأبراركَ مباركةً وأكثُرَ نسلِكَ تكثيراً كنجومِ السماءِ وكالرمْلِ الذي على شاطئِ البحرِ، ويرثُ نسلُكَ بابَ أعدائه ويتبارك في نسلِكَ جميعُ أمِّ الأرضِ"^(٣).

تتأكَّد هذه البشارة لإبراهيم في مباركة ذريته في مواضع متعددة كما نرى ... ثلاث مراتٍ منها خاصَّةً بنسل إسماعيل وأخرى بنسله عامَّة ... تتكرر الثلاث الأولى مؤكدة بأنَّ أبناء إسماعيل سيكثرُون، ويبارك اللهُ فيهم حتى يكونوا أُمَّةً عظيمةً وكبيرةً ... ومعلومٌ بدهياً أنَّ أبناء إسماعيل لم يكونوا سوى قبائلٍ قليلةٍ متناحرةٍ بينها بالجزيرة العربية، وبعد غالبيتها الأصنام ... وقد أهملَ ذَكَرَ العرب على مدى التاريخ، وأصبحوا موضعَ احتقارٍ من اليهود من أبناء يعقوب وإسحاق ومن الأمِّ الأخرى ... فهم الأُمَّة الوثنيَّة الجاهلة، ولم يتحقق لأبناء إسماعيل ذَكَرٌ ولم يصيروا أُمَّةً عظيمةً غالبيةً على أعدائها إلا بظهور رسولِ اللهِ محمد ﷺ بينهم ... فلما ظهر بينهم رسولُ اللهِ أظهرهم اللهُ بفضله على سائرِ الأممِ فحكوا بالإسلام معظمَ المعمور من الأرض في الزمن الماضي، من أطراف الصين حتى إسبانيا وتوالت بعد دولة الرسول ﷺ دولُ الأمويين والعباسيين وغيرهم وهم من أبناء إسماعيل مباشرةً ... واستمرَّ الحكم الإسلامي بعد ذلك في حكم العثمانيين، وهم إن لم يكونوا عرباً إسماعيليين فقد حكموا مُنَّسبين لرسولِ اللهِ ﷺ فكأنَّهم ولاةٌ عنه في أُمَّةٍ عظيمةٍ، راسخةً في الأرض - وإن ضعفت أحياناً - زعيمها ومؤسَّسها رسولُ اللهِ ﷺ.

ولولا أنَّ الإسلام حق ... وأنَّ رسولَ اللهِ ﷺ حقٌّ، لما بُنِيَ إبراهيم عليه السلام بظهور أبناء إسماعيل أُمَّةً عظيمةً وكبيرةً ... فما كان اللهُ عز وجلَ لِيُبَشِّرَ إبراهيم بضلالِ أبنائه ولكن بهدایتهم وكثرتهم على الحق والهدى.

(١) التكوين: ١٧: ٢٠.

(٢) التكوين: ٢١: ١٨.

(٣) التكوين: ٢٢: ١٥ - ١٨.

رابعاً: "أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فيه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطلبه"^(١)، وأما النبي الذي يطغي فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه أن يتكلم به، أو الذي يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبي"^(٢).

هذا النص مما لا يمكن لأحدٍ منهم جرده وإنكاره ولكن لأهل الكتاب فيه أربعة طرق: أحدها: حملهُ على المسيح وهذه طريقة النصارى. وأما اليهود فلهم فيه ثلاثة طرق:

أحدها: أنه على حذف أداة الاستفهام، والتقدير: أقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم؟ أي لا أفعل هذا، فهو استفهام إنكارٍ حُذِفَتْ منه أداة الاستفهام.

الثاني: أنه خبرٌ ووعده، ولكن المراد به شمويل النبي [صموئيل]، فإنه من بني إسرائيل، والبشارة إنما وقعت بنبي من إخوتهم، وإخوة القوم هم بنو أبيهم، وهم بنو إسرائيل.

الثالث: أنه نبي يبعثه الله في آخر الزمان يقيم به ملك اليهود ويعلو به شأنهم وهم ينتظرون إلى الآن.

والذي نراه نحن أنها بشارة صريحة في النبي العربي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ لا تحتمل غيره. فإنها إنما وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل لا من بني إسرائيل أنفسهم. والمسيح من بني إسرائيل، فلو كان المراد بها هو المسيح لقال: أقيم لهم نبياً من أنفسهم، كما قال تعالى: "لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ"^(٣).

وإخوة بني إسرائيل هم بنو إسماعيل، ولا يُعَقَلُ في لغة أمة من الأمم أن بني إسرائيل هم إخوة بني إسرائيل، كما أن إخوة زيد لا يدخل فيهم زيد نفسه. وأيضاً فإنه قال:

(١) وفي ترجمة البروتستانت (فاكون أنا المنتقم)، وفي بعض الترجمات الكاثوليكية الأخرى (فإني أحاسبه).

(٢) التثنية: ١٨: ١٨ - ٢٠.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٦٤.

"نبياً مثلك" وهذا يُدُلُّ على أنه صاحبُ شريعةٍ عامّةٍ مثل موسى وهذا يُبطلُ حمّله على شمويل [صموئيل] من هذا الوجه أيضاً، ويُبطلُ حمّله على يوشع من أربعة أوجه: أحدها: أنه من بني إسرائيل لا من إخوتهم.

الثاني: أنه لم يكن مثل موسى، وفي التوراة: "ولم يقم بعدُ نبيٌّ في إسرائيلٍ مثل موسى. الذي عرفه الربُّ وجهاً لوجه. وفي جميع الآيات والعجائب التي أرسله الربُّ ليعملها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبده وكلّ أرضه"^(١).

الثالث: أن يوشع نبيٌّ في زمن موسى، وهذا الوعدُ إنما هو بنبيٍّ يقمّه الله بعد موسى.

وبهذه الوجوه الثلاثة يبطلُ حمّله على هارون، مع أنّ هارون توفّي قبل موسى، وبتأه الله مع موسى في حياته.

الرابع: إن في هذه البشارة أنه ينزلُ عليه كتاباً يظهر للناس من فيه، وهذا لم يكن لأحدٍ بعد موسى غير النبي ﷺ، وهذا من علامات نبوته التي أخبر بها الأنبياء المتقدمون.

خامساً: "ترنمي أيتها العاقرة التي لم تلد، أشيدي بالترنم أيتها التي لم تتمخص، لأنّ بني المستوحشة أكثر من بني ذات البعل قال الربُّ. أوسعي مكان خيمتك ولتنبسط شفق مساكك. لا تمسكي أطيلي أطنابك وشددي أوتادك، لأنك تمتدين إلى اليمين وإلى اليسار ويرث نسلك أماً ويعمر مدناً خربة، لا تخافي لأنك لا تخزيين"^(٢).

لا يستقيم المعنى هنا إلاّ بأن يكون الخطاب موجّهاً إلى مدينة مكة لا القدس ... فإن مكة هي مدينة هاجر وإسماعيل .. وبنو المستوحشة التي تركها بعلمها هم بنو هاجر وإسماعيل ... وقد وُصف إسماعيل، عليه السلام، في التوراة المعاصرة بأنه وحشيّ (مستوحش). وقد ظلّت مكة محجورةً موحشةً من الوحي، عاقراً لا تلد أنبياء كمدينة القدس ... فجاءتها البشرية هنا بأنّ أبناءها سيكترون ... وهو ما ينسجم مع البشارات السابقة

(١) النشئة: ٣٤: ١٠، ١١.

(٢) اشعياء: ٥٤: ١ - ٤

والعديدة حول إكثار أبناء هاجر، وما ينسجم مع واقع الناس في الماضي والحاضر ... فسيكثر أبناء إسماعيل كما بُشِّرَ بذلك من قبل وسمتدُّ دولتهم وأمتهم إلى ما حولهم من البلاد والمدن فيعمرونها ويقومون دولةً عالميةً تنضوي تحتها الأمم (ويرث نسلكُ أماً) ... وهو ما تم فعلاً على أيدي أبناء إسماعيل فقط، ولم يتم مثله على أيدي أبناء ذات البعل سارة عليها السلام.

فهذا تبشيراً واضحاً بالإسلام ودولته ... إذ لم يتحقق لأبناء إسماعيل (أبناء هاجر / أبناء مكة) ذِكْرٌ ولا تاريخٌ إلا بمجيء الإسلام.

سادساً: البشارات الواردة في إنجيل يوحنا بـ (البارقليط أو الفارقليط) أو (المُعزّي)، وهي التالية:

١. "بهذا كلمتكم وأنا عندكم، وأما المُعزّي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يُعلّمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم ..." (١).
٢. "وأنا أطلب من الآب فيعطيك معزياً آخر ليحكّث معكم إلى الأبد .." (٢).
٣. "لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعزّي ولكن إن ذهبْتُ أرسله لكم، ومتى جاء ذلك يبيّث العالم علي خطيئة وعلى بر وعلى دينونة" (٣).
٤. "ومتى جاء المُعزّي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب يبيثق فهو يشهد لي وتشهدون أتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء" (٤).
٥. "إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلّم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلّم به ويخبركم بأمر آتية، ذلك يمجدني، لأنه يأخذ مما لي ويخبركم" (٥).

ونبّه قبل الشروع في تفسير المعاني المقصودة من النصوص السابقة من إنجيل يوحنا إلى أمرين هامّين:

(١) يوحنا: ١٤: ٢٥، ٢٦.

(٢) يوحنا: ١٤: ١٦.

(٣) يوحنا: ١٦: ٧، ٨.

(٤) يوحنا: ١٥: ٢٦، ٢٧.

(٥) يوحنا: ١٦: ١٢ - ١٤.

الأمر الأول: إنَّ هناك خلافاً شديداً قد وقع بين العلماء المسلمين وعلماء أهل الكتاب من المسيحيين في ترجمة كلمة (Paraclytos) اليونانية إلى اللغة العربية، ففي حين ترجمها المسيحيون المعاصرون إلى لفظ (المعزّي) تَمَسَّك العلماء المسلمون بترجمتها إلى (الفارقليط أو البارقليط)^(١)، وقد احتجَّ العلماء المسلمون بأمرين، أولهما أنَّ كلمة المعزّي هي ترجمة لكلمة (Paracalon) التي لم ترد في الإنجيل اليوناني وليست ترجمة لكلمة (Paraclytos) التي وردت بحرفيّتها في الإنجيل اليوناني. وثاني الأمرين اللذين احتجَّ بهما العلماء المسلمون هو وجود لفظ (الفارقليط) في الأناجيل القديمة التي كانت مُستعملة أيام الإمام الماوردي على سبيل المثال وهو متوفّي في عام (٤٥٠ للهجرة)، وقد أوردته في "أعلام النبوة". كما كان هذا اللفظ موجوداً في الأناجيل التي كانت مُستعملة أيام شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو متوفّي في عام (٧٢٨ للهجرة)، وقد أوردتها عدّة مراتٍ في "الجواب الصحيح لمن بَدَّل دين المسيح".

الأمر الثاني: لا يُنكر علماء المسيحيين هذه البشارة، ولكنهم يستدلّون بها استدلالاً، نراه خاطئاً، على المسيح، عليه السلام، تارةً وعلى الروح القدس تارةً أخرى. بينما يستدلُّ بها العلماء المسلمون على سيّدنا محمد ﷺ.

ولكي لا نخوض في تفاصيل الترجمات، والالتهامات بصحّة الاستدلالات أو خطأها فيما يتعلّق بـ (البارقليط) أو (المعزّي)، فإنّنا نرى أنّ الحلَّ المناسب لهذه المشكلة هو إيراد وتحليل مواصفات هذا (البارقليط) أو (المعزّي) كما وردت في إنجيل يوحنا لئلا نرى على أيّ نبيٍّ أو شخصٍ تدلُّ، وذلك على النحو الآتي:

١. إنّ استخدام كلمة روح الحقّ في النصوص السابقة لا تدلُّ على الروح القدس، وذلك لما يلي:

(١) للتوسع، انظر:

أ. الهندي [م. س.]، ص ٥٤٩، ٥٥٠، ٥٥١.

ب. داود [م. س.]، ص ٢١٦ - ٢١٨.

أ. إنَّ يوحنا نفسه الذي وردت البشارات السابقة في إنجيله قد عبَّر عن معنى النبيِّ الصادق بكلمة (روح الحق) كما عبَّر عن معنى النبيِّ الكاذبِ بكلمة (روح الضلال)، وقد ورد ذلك في رسالته الأولى، الإصحاح الرابع عند تحذيره من اتباع الأنبياء الكذبة فقال: "أيها الأحبة لا تصدقوا كلَّ روح، بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله؟ لأنَّ أنبياءَ كذبةٍ كثيرين قد خرجوا إلى العالم، بهذا تعرفون روح الله"^(١). وقال: "من هذا نعرفُ روح الحق وروح الضلال"^(٢). وواضحٌ أنَّ يوحنا يتحدث هنا عن النبيِّ الحق الذي بشرَ به المسيح، عليه السلام، وتمييزه عن الأنبياء الكذبة الذين حذَّرَ منهم المسيح عليه السلام ... ولا معنى للحديث عن تمييز روح القدس عن الأنبياء الكذبة فليس ذلك ما يريد.

ب. إنَّ الروح التي زعموا أنها زارت جماعة منهم لم تمكثْ معهم إلى الأبد، ولم تُبيِّن للعالم ضلالَ عقيدته عن الله وعن المسيح وعن الخطيئة والبرِّ ويوم الدينونة، ولا تنطبق بقيَّة الصفات أعلاه عليها، ثمَّ كيف وهم يؤلِّهونها والذي بشرَ به المسيح، عليه السلام، من بعده يُوصفُ بأنه لا ينطقُ من ذات نفسه بل بما يُوحى إليه، ثمَّ إنها لم تُسمَّ هنا بروح القدس بل سُمِّيَتْ روح الحق.

٢. إنَّ محمداً ﷺ هو الذي جاء بعد عيسى، عليه السلام، فمَجِّدُهُ والأنبياءُ ودفع عنهم افتراءات اليهود بأنَّ منهم مَنْ عبدَ الأصنام أو ارتكبَ الفواحش أو سرقَ أو سكر ... ودفع افتراءات اليهود عن المسيح وعن أمته عليهما السلام.

٣. إنَّ محمداً ﷺ هو الذي جاء بعد عيسى، عليه السلام، ويبيِّن للناس أوجهَ البرِّ وأنذرهم يومَ الدينونة، وأخبر أنَّ تعاليمه للناس هي الأخيرة من عند الله تعالى وبالتالي فهي أبديةٌ ولن تتغيَّر، ولن تُنسخَ.

٤. إنَّ محمداً ﷺ هو النبيُّ الذي جاء بعد عيسى، عليه السلام، أمميًّا لا يقرأ بل يتلقَى الوحيَ سَماعاً ويقول للناس إنَّه لا ينطقُ عن نفسه بل عن وحيِّ يوحى من الله تعالى.

٥. إنَّ محمداً ﷺ هو النبيُّ الذي جاء بعد عيسى، عليه السلام، وأخبر الناس بأحداثٍ قادمةٍ ستقعُّ، ونبؤاتٍ ستتحقِّق وقد وقعتُ وتحققت.

وترك لرأي القارئ الكريم أن يختارَ ويقرَّر مَنْ هو الذي تنطبق عليه الأوصاف السابقة أمحمدٌ هو أم الروح الحق؟؟؟ كما ترك لرأيه كذلك أن يتفكَّر فيما سُقناه من بشارات

(١) رسالة يوحنا الرسولي: ٤: ١، ٢.

(٢) رسالة يوحنا الرسولي: ٤: ٦.

بنبوتته، عليه السلام، في الكتاب المقدس ليقرّر بنفسه أوردَ ذِكْرَهُ، عليه السلام، في الكتاب المقدس أم لا؟؟.

النُّشْبَةُ العَشْرُونَ ودْفُعُهَا

إن كَانَ قَرَأَنُ مُحَمَّدٍ مَوْحَىٰ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ كَمَا يَزْعُمُ، فَكَيْفَ نُسُوخُ وِجُودِ النَّسْخِ فِيهِ؟ كَيْفَ يَقُولُ اللَّهُ قَوْلًا ثُمَّ يَرْجِعُ عَنْهُ وَيَنْسُخُهُ بِقَوْلٍ آخَرَ؟؟ وَإِنْ كَانَ اللَّهُ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَكَيْفَ يَنْسِبُ إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ أَقْوَالَ ثُمَّ يَزْعُمُ أَنَّهُ غَيَّرَهَا فِيهَا بَعْدَ؟

- إنَّ الَّذِي دَفَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْبَانَ الطَّاعِنِينَ لِنَحْتِ هَذِهِ الشُّبْهِةِ أَمْرَانِ اثْنَانِ: أَمَّا الْأَوَّلُ فَهُوَ تَصَوُّرُهُمْ أَنَّ النَّسْخَ يُجَوِّزُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى الْبَدَاءَ؛ بِمَعْنَى أَنَّهُ يَأْمُرُ بِأَمْرٍ ثُمَّ يَعُودُ عَنْهُ لِحِكْمَةٍ بَدَتْ لَهُ وَظَهَرَتْ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ خَافِيَةً عَلَيْهِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ عَلَوًّا كَبِيرًا. أَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي فَهُوَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الطَّاعِنِينَ يَتَوَهَّمُونَ أَنَّ النَّسْخَ لَمْ يَرِدْ فِي كِتَابِهِمُ الْمُقَدَّسِ، وَهَذَا أَمْرٌ غَيْرٌ صَحِيحٌ فَقَدْ وَرَدَتْ فِي الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ آيَاتٌ نَاسِخَةٌ لِلْعَدِيدِ مِنَ الْأَحْكَامِ فِي الْعَهْدَيْنِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ، وَهُوَ مَا سَنَذَكُرُ شَوَاهِدَهُ فِي نَهَايَةِ تَقْنِيدِنَا لِهَذِهِ الشُّبْهِةِ وَرَدُّنَا عَلَيْهَا.

وتقرّر بادئ ذي بدءٍ أنّ القرآن الكريم ذكر النسخ في عدّة آيات نذكر منها قوله تعالى: "مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْ مِثْلَهَا" (١). ومنها قوله تعالى: "وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

يُنزِلُ" (٢). وقد لخص الزرقاني، يرحمه الله، الحكم الإلهية في النسخ، فقال: "إنّ الله تعالى حين نسخ بعض أحكامه ببعض، ما ظهر له أمرٌ كان خافياً عليه وما نشأ له رأيٌ جديدٌ، كان يفقده من قبل، وإثباتاً كان سبحانه يعلم الناسخ والمنسوخ أولاً من قبل أن يشرعها لعباده، بل من قبل أن يخلق الخلق، ويبدأ السماء والأرض؛ إلا أنه - جلّت حكمته - علّم أنّ الحكم الأول المنسوخ منوطٌ بحكمة، أو مصلحةٍ تنتهي في وقتٍ معلوم. وعلّم بجانب هذا أنّ الناسخ

(١) سورة البقرة: الآية ١٠٦.

(٢) سورة النحل: الآية ١٠١.

يجيء في هذا الوقت المعلوم منوطاً بحكمة، ومصلة أخرى. ولا ريب أن الحكم، والمصالح تختلف باختلاف الناس، وتتجدد بتجدد ظروفهم، وأحوالهم، وأن الأحكام، وحكمها، والعباد، ومصالحهم، والنواسخ، والمنسوخات كانت كلها معلومة له من قبل، ظاهرة لديه لم يخف شيئا منها عليه. والجديد في النسخ إنما هو إظهاره تعالى ما علم لعباده لا ظهور ذلك له^(١).

وقد ذكر صاحب "هدى الفرقان" كلاماً قريباً من كلام الزرقاني السابق في ردّه على إمكانية تجويز النسخ للبداء على الله تعالى فقال: "إن نسخ الله تعالى لحكم من أحكامه، أساسه حكمة ظاهرة، ومعلومة لله تعالى، ويستحيل أن تخفى عليه. وغاية الأمر أن الله تعالى عندما ينسخ حكماً بحدك آخر، فإن الحكم الناسخ يأتي بحكمة غير الحكمة التي أتى بها الحكم الأول المنسوخ. وعلى اعتبار أن هناك مصلحة جديدة للعباد اقتضتها عملية النسخ، وجاء بها الحكم الناسخ. فمصلحة العباد تتجدد بتجدد الأزمان، وتختلف باختلاف الأشخاص، والأحوال. ولذا فإن النسخ يعني أن هناك مصلحة جديدة فيأتي الله بحكم جديد يتضمنها، وينسخ به الحكم السابق الذي يتضمن المصلحة السابقة. والله تعالى أحاط بكل شيء علماً، فلا يستلزم النسخ إذن الجهل، أو العتب على الله تعالى"^(٢).

ولربما يعترض مُعترض فيقول: إن النسخ يقتضي اجتماع الضدين، وهذا مُحال وتوضيح ذلك: أن الله إذا أمر بحكم فيعني هذا أنه حسن، ومرغوب فيه، وإذا نهى عنه فيعني هذا أنه خبيث، وغير مرغوب فيه، ولذا فالأمر بالشيء، والنهي عنه معناه اجتماع الصفات المتضادة في الحكم الواحد، أو الفعل الواحد الذي تعلق به الأمر، والنهي.

وهذا الاعتراض مردود بما يلي:

"إن الحسن، والقبح ليست من صفات الفعل الذاتي حتى تكون ثابتة فيها لا تتغير؛ بل هي تابعة لتعلق أمر الله، ونهية بالفعل. وعلى هذا يكون الفعل حسناً، ومرغوباً فيه ما دام مأموراً به من الله تعالى، وكذلك يكون هذا الفعل نفسه قبيحاً، وغير مرغوب فيه عند الله تعالى ما دام منهيّاً عنه منه تعالى. والقائلون بالحسن، والقبح العقليين هم المعتزلة، وهم يعترفون أن الحسن، والقبح يختلفان باختلاف الأشخاص، والأحوال، والأوقات. وهذا

(١) الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ج ٢، ص ٧٨، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) عناية، غازي، هدى الفرقان في علوم القرآن، ج ٢، ص ١٨٧، ط ١، ١٩٩٦، عالم الكتب للنشر والتوزيع، بيروت.

التأصيل ينتفي اجتماع الصدين؛ لأن الوقت الذي يكون فيه الفعل حسناً غير الوقت الذي يكون فيه ذلك الفعل قبيحاً، فلم يجمع الحسن، والقبح في فعل واحد، وفي وقت واحد^(١).

لقد كان من الجدير بالرهبان الطاعين الاطلاع على الحكم الرثانية في النسخ والتاسها وفهمها عوضاً عن تقديمها في ثوب المنقصة والطعن فيها. وإنما إذ نقول ما نقول فسنقف بهؤلاء على أبرز ما ورد في كتابهم المقدس من الناسخ والمنسوخ الذي أنكروه ورفضوا الاعتراف بوجوده فيه.

شواهد الناسخ والمنسوخ في الكتاب المقدس

نكتفي تحت هذا العنوان بإيراد بعض الشواهد من الكتاب المقدس التي تثبت وقوع النسخ فيه^(٢) وهي التالية:

أولاً: الفرض بصدق شهادة المسيح ابن مريم عليه السلام، ودليله: "أجاب يسوع: وإن كنتُ أشهدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ"^(٣). ثُمَّ نُسِخَ هذا الفرض بصدق شهادة المسيح ابن مريم عليه السلام وأنها الآن ليست حقاً. ودليله ما يلي: "إن كنتُ أشهدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقًّا"^(٤).

ثانياً: السماح بالزواج من أختين في نفس الوقت ليعقوب، عليه السلام. ودليله أن يعقوب قد تزوج الأختين "ليئة وراحيل"^(٥) ثُمَّ جَاءَ نَسْخُ السَّمْحِ بِالزَّوْجِ مِنَ الْأَخْتَيْنِ، ودليل ذلك: "وَلَا تَأْخُذْ امْرَأَةٌ عَلَى أُخْتَيْهَا لِلضَّرِّ لِتُكْشِفَ عَوْرَتَهَا مَعَهَا فِي حَيَاتِهَا"^(٦).

(١) المرجع السابق نفسه ص ١٨٨، ١٨٩.

(٢) للتوسع انظر: بحث الدكتور حبيب عبد الملك بن حبيب "الناسخ والمنسوخ بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم" المنشور على موقع شبكة ابن مريم الإسلامية، www.ebnmaryam.com، ضمن سلسلة مؤلفاته في مقارنة الأديان. وقد ذكر في هذا البحث ما يزيد على الثلاثين شاهداً على وقوع النسخ في الكتاب المقدس.

(٣) يوحنا: ٨: ١٤

(٤) يوحنا: ٥: ٣١

(٥) انظر سفر التكوين: ٢٩: ٢٣ - ٣٠

(٦) اللاويين: ١٨: ١٨

ثالثاً: السماح بالزواج من العمّة لعمرام أبي موسى عليه السلام. ودليلاً: أثبت سفر الخروج إباحة الزواج بالعمّة: "وَأَخَذَ عَمْرَامُ يُوكَابَدَ عَمَّتَهُ زَوْجَةً لَهُ فَقَوْلَتْ لَهُ هَارُونَ وَمُوسَى. وَكَانَتْ سِنُو حَيَاةِ عَمْرَامَ مِئَةً وَسَبْعاً وَثَلَاثِينَ سَنَةً"^(١). ثم جاء نسخ السماح بالزواج من العمّة، ودليل ذلك: "عَوْرَةَ أُخْتِ أَيْبِكَ لَا تَكْشِفُ. إِنَّهَا قَرِيْبَةٌ أَيْبِكَ"^(٢).

رابعاً: إباحة الحلف بالله. ودليلاً: "الرَّبُّ إِلَهَكَ تَتَّبِعِي وَإِلَآهَ تَعْبُدُ وَإِسْمِي تَخْلُفُ"^(٣). ثم جاء نسخ إباحة الحلف بالله، ودليلاً ما يلي: "أَيْضاً سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقَدَمَاءِ: لَا تَخْتِثْ بَلْ أَوْفِ لِلرَّبِّ أَقْسَامَكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: لَا تَخْلِفُوا الْبَيْتَةَ لَا بِالسَّمَاءِ لِأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللَّهِ وَلَا بِالْأَرْضِ لِأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ وَلَا بِأُورُشَلِيمَ لِأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ. وَلَا تَخْلُفْ بِرَأْسِكَ لِأَنَّكَ لَا تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةَ وَاحِدَةٍ بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ. بَلْ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ لَا لَا. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الشَّرِّيرِ"^(٤).

خامساً: جاء الأمر بالقصاص في شريعة التوراة. ودليل ذلك: "وإن حصلت أذية تُعطي نفساً بنفس وسيفاً بعين وسيفاً بسيفٍ ويداً بيدٍ ورجلاً برجلٍ وكيّاً بكيٍّ وجُرحاً بجُرحٍ ورضاً برضاً"^(٥). ثم جاء الإنجيل ونسخ القصاص. ودليل ذلك على لسان المسيح عليه السلام: "سمعتم أنه قيلَ عَيْنٌ بِعَيْنٍ وَسِنٌّ بِسِنٍّ، وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ لَا تَقَاوَمُوا الشَّرَّ بَلْ مَنْ لَطَمَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَحَوِّلْ لَهُ الْآخَرَ أَيْضاً، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَخَاصِمَكَ وَيَأْخُذْ ثَوْبَكَ فَاتْرِكْ لَهُ الرِّدَاءَ"^(٦).

سادساً: إباحة أكل كلِّ حيوانات الأرض. ودليلاً، "كلُّ دَابَّةٍ حَيَّةٍ تَكُونُ لَكُمْ طَعَاماً كَالْعُشْبِ الْأَخْضَرِ دَفَعْتُ إِلَيْكُمْ الْجَمِيعَ"^(٧). ثم جاء الأمر بنسخ ذلك، بتحريم أكل بعضها كالخنزير على سبيل المثال، ودليل ذلك ما يلي: "والخنزير لأنه يشقُّ ظلفاً ويقسمه

(١) الخروج: ٦: ٢٠.

(٢) اللاويين: ١٨: ١٢.

(٣) التثنية: ٦: ١٣.

(٤) متى: ٥: ٣٣ - ٣٧.

(٥) الخروج: ٢١: ٢٣ - ٢٥.

(٦) متى: ٥: ٣٨ - ٤٠.

(٧) التكوين: ٩: ٣.

ظلفين لكنه لا يجتر، فهو نجس لكم، من لحمها لا تأكلوا، وجثتها لا تلمسوا، إنها نجسة لكم" (١).

سابعاً: قالت التوراة بفرض الختان على كل الذكور، "وقال الله لإبراهيم: وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك في أجيالهم. هذا هو عهدي الذي تحفظونه بي وبني وبنيتكم وبين نسلك من بعدك. يُختن منكم كل ذكر فمختنون في لحم غزليكم فيكون علامة عهد بي وبني وبنيتكم. ابن ثمانية أيام يُختن منكم كل ذكر في أجيالكم: وليد البنت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك. يُختن ختاناً وليد بنتك والمبتاع بفضتكم فيكون عهدي في لحمكم عهداً أبدياً" (٢).

وقد اختن يوحنا المعمدان، "وفي اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا. فقالت أمه: لا بل يُسمى يوحنا" (٣).

وكذلك اختن المسيح ابن مريم عليه السلام: "ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي يسوع كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في البطن" (٤).

ثم قال الإنجيل بنسخ فرض الختان حيث ألغاه بولس في رسالته إلى أهل غلاطية: "ها أنا بولس أقول لكم: إنه إن اختلفتم لا ينفعكم المسيح شيئاً! لكن أشهد أيضاً لكل إنسان مختن أنه ملتزم أن يعمل بكل التاموس. قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تبترون بالتاموس. سقطتم من النعمة" (٥).

ثامناً: تحدت إنجيل متى عن أن رسالة المسيح، عليه السلام، كانت موجهة لبني إسرائيل فقط. ودليل ذلك "وقال لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (٦).

(١) اللاويين: ١١: ٧، ٨.

(٢) التكوين: ١٧: ٩ - ١٣.

(٣) لوقا: ١: ٥٩، ٦٠.

(٤) لوقا: ٢: ٢١.

(٥) رسالة بولس الخامس إلى غلاطية: ٢ - ٤.

(٦) متى: ١٥: ٢٤.

ثم جاء إنجيل مرقس ليقرّر بأنّ المسيح لم يُرسل لبني إسرائيل فقط، بل للعالم كلّه. ودليل ذلك "وقال لهم: إذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل"^(١).

تاسعاً: سمحت التوراة بالزواج من الأخت، فقد ذكرت أنّ إبراهيم، عليه السلام، قد تزوج أخته سارة من أبيه: "وَبِالْحَقِيقَةِ أَيْضاً هِيَ أُخْتِي ابْنَةُ أَبِي غَيْرَ أَنَّهَا لَيْسَتْ ابْنَةُ أُمِّي فَصَارَتْ لِي زَوْجَةً"^(٢).

ثمّ جاء الأمر بنسخ السماح بالزواج من الأخت، ودليل ذلك: "مَلْعُونٌ كُلُّ مَنْ يَصَاحُجُ أُخْتَهُ ابْنَةَ أُمِّهِ أَوْ ابْنَةَ أَبِيهِ. وَيَقُولُ جَمِيعَ الشَّعْبِ: آمِينَ"^(٣).

عاشراً: أباحت التوراة الطلاق "إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ امْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا فَإِنْ لَمْ تَحْذِ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لِأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلَاقٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدَيْهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ..."^(٤).

ثمّ جاء الإنجيل بنسخ الطلاق وتحريمه، ودليل ذلك ما يلي: "فَالَّذِي جَمَعَهُ اللَّهُ لَا يُفَرِّقُهُ إِنْسَانٌ. قَالُوا لَهُ فَلِمَذَا أَوْصَى مُوسَى أَنْ يُعْطَى كِتَابَ طَلَاقٍ فَتُطَلَّقَ؟ قَالَ لَهُمْ: إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أُذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلَكِنْ مِنَ الْبَدَءِ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ امْرَأَتَهُ إِلَّا بِسَبَبِ الزَّانَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي وَالَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي"^(٥).

حادي عشر: جاءت التوراة بحكم تقديس يوم السبت وتعظيمه وتخصيصه للعبادة، لأنّه اليوم الذي استراح فيه الربّ بعد إتمامه لخلق السموات والأرض كما ذكرت التوراة "فَأَكْمَلَتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَكُلَّ جُنْدِهَا، وَفَرَغَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ، فَاسْتَرَحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي

(١) مرقس: ١٦: ١٥

(٢) التكوين: ٢٠: ١٢

(٣) التثنية: ٢٧: ٢٢

(٤) التثنية: ٢٤: ١

(٥) متى: ١٩: ٦ - ٩.

عَمَلٍ، وبارك الله اليوم السابع وقدّسه لأنه فيه استراخ من جميع عمله الذي
عَمِلَ اللهُ خالِقاً^(١).

ثمَّ جاء الإنجيلُ لينسخَ تقديسَ السبت ويستبدلَهُ بتقديسٍ وتعظيمٍ يوم الأحد وجعله
للعِبادة. حيث يذكر الإنجيلُ أنَّ السبب في ذلك راجعٌ لكون الأحد الذي قام فيه المسيحُ
من قبره بعد الصَّلْب ولكونه كذلك اليوم الذي كان فيه الرسل (تلاميذ المسيح) يجتمعون
للعِبادة أيام الكنيسة الأولى. وهنا نشيرُ إلى أنَّ لفظ الأحد لم يُذكر في الإنجيل ولكن الذي
ذَكَر هو الإشارة إليه بـ "اليوم الأول من الأسبوع"^(٢). كما جاء التعبيرُ عنه في رؤيا يوحنا بـ
"يوم الرب"^(٣).

يُعتبرُ ما سبق إيرادَه من شواهدٍ أدلَّة قاطعةً على ورود الناسخ والمنسوخ في كتاب
الرهبان الطّاعنين المُقدَّس. ولكن يبدو أنَّ هؤلاء لا يقرؤون كتابهم حقَّ القراءة. وهذا صحیح؛
فهم مُشغولون بقراءة كتابنا العزيز في محاولةٍ يائسةٍ منهم لإثبات بشريته ووقوع التناقض
والاختلاف فيه، فعجباً لهم، فعجباً!!!

الشبهة الحادية والعشرون ودفعها

إنَّ القرآن الذي جاء به محمدٌ مليءٌ بالتناقضات. وفيه آياتٌ تعارضُ وتناقضُ في
مضمونها آياتٍ أخريات. ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

الآية	الآية التي تعارضها وتناقضها
لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ	وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ
لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ	مَا تَسْخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ	يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ

(١) التكوين: ٢: ١ - ٣.

(٢) انظر:

أ. لوقا: ٢٤: ١ - ٧.

ب. أعمال الرسل: ٢٠: ٧.

(٣) رؤيا يوحنا: ١: ١٠.

- بما لا شك فيه أن هذه الشبهة مُلتصقةٌ تمام الالتصاق بما سبقها من شبهة الناسخ والمنسوخ. وقد حرصنا على إيرادها وذكر المُرَاد منها، والله أعلم بمراده، وذلك توضيحاً للقارئ الكريم، لئلا يقع في قلبه ما يرجوا الرهبانُ الطَّاعنون أن يقع، وإنَّا لموردوها مع توثيقها وتخريجها، حيث حرص الرهبان على إيرادها دون توثيق كما حرصوا على اقتطاعها وإخراجها من السياق الذي وردت فيه ليُوهموا الناس بوقوع التعارض والتناقض فيها.

أما الآية الأولى فقد وردت في سياق قوله تعالى: "أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (١).

ومعنى قوله تعالى "لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ" "أي أن هذا الوعد بالبُشْرَى لعباد الله الصالحين في الدنيا والآخرة لا يبدل ولا يخلف ولا يُغَيَّر، بل هو مُثَبَّتٌ لا محالة، ذلك هو الفوز العظيم. فلا تبديل لأقوال الله تعالى ولا إخلاف لمواعيده سبحانه، كقوله تعالى: "مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ"، وذلك إشارةً إلى كونهم من المُبَشَّرِينَ في الدارين فلا خُلْفٌ لوعده سبحانه" (٢).

وقيل في تفسيرها كذلك: لا تبديل لأخباره أي لا ينسخها بشيء ولا تكون إلا كما قال (٣).

أما قوله تعالى "وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" (٤). فهو يتحدَّثُ

(١) سورة يونس، الآيات ٦٢ - ٦٤.

(٢) انظر: ابن كثير [م.] ج ٢، ص ٤٣٩، الزمخشري [م.] ج ٢، ص ٣٥٧، بصرف.

(٣) القرطبي [م.] ج ٧ - ٨، ص ٣٥٩.

(٤) سورة النحل، الآية ١٠١.

عن الناسخ والمنسوخ، والذي تقدّم القول فيه، ونُشيرُ هنا إلى أنّ "النسخ لا يكون إلا في الأحكام، أما العقائد فلا بُدَّ لها حقائقٌ صحيحةٌ لا تقبلُ التغييرَ والتبديلَ فبدهيَّ ألا يتعلّق بها نسخ ... ولا نسخٌ لمدلولات الأخبار المُخضّة لأنّ نسخها يُؤدّي إلى كذب الشارع في أحد خبريه الناسخ والمنسوخ، وهو مُحالٌ عقلاً ونقلًا"^(١). وإنّه من الواضح تماماً أنّ الآية الأولى كانت تتحدث عن إخبار الله أنّ وعدَ عباده المصلحين بالبشرى والتثبيت في الدنيا والآخرة وهو إخبارٌ لا يُخلّف ولا يطاله النسخُ.

أما قوله تعالى: " وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ

لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا"^(٢) فيعني أنه "لا مُعَيَّرٌ ولا مُحَرَّفٌ ولا مُبَدَّلٌ لكلمات الله تعالى ولا يُقدِرُ أحدٌ على تبديلها وتغييرها، إنّما يُقدِرُ على ذلك هو وحده " وإذًا بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ"^(٣).

وقال القرطبي: قيلَ هو مِن تمامِ قِصَّةِ أصحابِ الكهف: أي اتَّبَعَ القرآنُ فلا مُبَدِّلَ لكلماتِ الله ولا خُلِّفَ فيما أُخبرَ به من قِصَّةِ أصحابِ الكهف^(٤). وقال الطبري: لا مُعَيَّرٌ لما أوعِدَ بكلماته التي أنزلها عليك أهلَ معاصيه والعاملين بخلاف هذا الكتاب الذي أوحيناه إليك"^(٥).

ونُشيرُ هنا إلى أنّ بعض التفسيرات المعاصرة لـ (كلماته) أو (كلمات الله) قد جاءت بمعنى سنن الله وقوانينه في الكون. وعلى ذلك يكون معنى (كلمات الله) أو (كلماته) "آيات الله تعالى في الكون والسنن والقوانين التي وضعها الله له فهي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل"^(٦).

(١) الزرقاني [م.س.]، ص ١٠٧، ١٠٨ بتصرف.

(٢) سورة الكهف، الآية ٢٧

(٣) انظر: ابن كثير [م.س.] ج ٣، ص ٨٤ والزمخشري [م.س.] ج ٢، ص ٧١٦.

(٤) القرطبي [م.س.] المجلد ٥، ج ٩ - ١٠، ص ٣٨٩.

(٥) الطبري، جامع البيان [م.س.] ج ١٥، ص ١٥٤.

(٦) انظر كتاب (كشف كذب اللهم حول الإسلام العظيم) المنشور بتاريخ ١٤٢٥/٤/٥ هـ في موقع ملتقى أهل الحديث www.ahlalhadith.com من غير اسم مؤلف.

ومن المعاصرين من فسرها بـ "قضاء الله الذي يقضيه في شؤون الكائنات" (١). ولا تعارض بين الآية السابقة من سورة الكهف (لا مبدل لكلماته) وبين قوله تعالى في سورة البقرة " مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (٢) لأن الآية الأولى تقول باستحالة أن يقدر أحد على تغيير أو تبديل أو تحريف كلام الله، بينما الثانية تتحدث عن النسخ والمنسوخ في القرآن، والذي هو من اختصاص الله تعالى وحده ولا يقدر على نسخه أو تبديله أحد سواه. وأنه لا يكون إلا ليحكم وفوائده سبق لنا ذكرها وتعدادها في ردنا على الشبهة السابقة.

أما قوله تعالى: " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ " (٣)، فلا ندري كيف فهم الرهبان الطاعنون تعارضه وتناقضه مع قول الله تعالى: " يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ " (٤)

فالآية الأولى صريحة في الدلالة على حفظ الله تعالى للقرآن الكريم من التغيير والتحريف والتبديل، والآية الثانية تتحدث عن النسخ والمنسوخ في القرآن والذي هو من اختصاص الله تعالى وحده، بل وهي تدل على أن النسخ الذي يحدثه الله تعالى لبعض آياته في القرآن الكريم معلومٌ مقدّرٌ عنده في اللوح المحفوظ (أم الكتاب) قبل خلقه تعالى للخلق.

قال قتادة وابن زيد وسعيد جبير: يمحو الله ما يشاء من الفرائض والنوافل فينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، ومجلة النسخ والمنسوخ عنده في أم الكتاب (٥).

وإن كان الرهبان الطاعنون يتوهمون ويرعمون وجود تناقضات وتحريفات في القرآن الكريم فإنهم مطالبون بالإجابة عن السؤالين التاليين:

(١) المرجع السابق نفسه.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٠٦.
(٣) سورة الحجر، الآية ٩.
(٤) سورة الرعد، الآية ٣٩.
(٥) القرطبي [م. س.] المجلد ٩ - ١٠، ص ٣٣١.

السؤال الأول: كيف نوفق بين نسخ الإنجيل لكثير من أحكام وتشريعات التوراة وبين قول المسيح عليه السلام "لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإنني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض، لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل"⁽¹⁾؟

فإن الذي نراه أن النسخ الذي أحدثه الإنجيل على الكثير من أحكام وتشريعات التوراة إنما هو نقض وتبديل وتغيير وليس تكميلاً!!.

السؤال الثاني: ما تعليق الرهبان الطاعين، يا ترى، على نشر الهيئة الكهنوتية في الكنيسة الكاثوليكية لوثيقة "هبة الكتاب المقدس"، التي ذكرت أن بعض أجزاء الكتاب المقدس غير صحيحة وأن علينا ألا نتوقع العثور على كلام علمي دقيق وإحكام تاريخي بالغ الدقة أو تام في الكتاب المقدس!!

"أوردت صحيفة "التايمز" البريطانية، في عددها الصادر الأربعاء ٢٠٠٥/١٠/٥، أن الأساقفة ذكروا في وثيقتهم المسماة "هبة الكتاب المقدس"، "يجب علينا ألا نتوقع العثور على كلام علمي دقيق وإحكام تاريخي بالغ الدقة أو تام في الكتاب المقدس".

ويتزامن تقديم هذه الوثيقة مع النهوض المستمر لليمين المسيحي وخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية. ويطلب بعض المسيحيين التأويل الحرفي لقصة الخلق في سفر التكوين التي يتم تعليمها مع نظرية النشوء والتطور لـ "داروين"، معتقدين أنها نظرية جديرة بالتصديق حول كيفية نشوء العالم. وفصول سفر التكوين الـ ١١ التي تروي قصتين متناقضتين حول الخلق، هي من بين القصص التي يصرُّ الأساقفة الكاثوليك على أنها لا يمكن أن تكون "تاريخية".

وتضيف الصحيفة إن الوثيقة تسرد موقف الكنيسة الكاثوليكية منذ القرن السابع عشر عندما أدانت غاليليو واعتبرته "مُهزطاً" لسخريته من اعتقاد كان سائداً آنذاك حول

(1) متى: ٥: ١٧، ١٨.

الوحي الإلهي للكتاب المقدس، وذلك بدفاعه عن وجهة نظر كوبرنيكوس حول النظام الشمسي.

ويرى الأساقفة أنّ الاطلاع على الكتاب المقدس يجب أن يكون في ضوء معرفة أنه - أي الكتاب المقدس - كلمة الله التي تم التعبير عنها في لغة بشرية.

ويقولون إنّ الكنيسة يجب أن تقدّم الكتاب المقدس عبر طرق مناسبة للزمن المتغير وطرق ذكية للناس الذي يعيشون في هذا العصر.

ويتابعون: "الكتاب المقدس فيه فقراتٌ صحيحةٌ تتحدّث عن تخلص الإنسان ... لكن يجب علينا ألا نتوقع دقةً كاملةً في الكتاب المقدس في مسائلٍ دنيويةٍ أخرى".

وفي نفس السياق، يرفض الأساقفة في وثيقتهم نبوءات سفر الرؤيا، آخر كتاب في الإنجيل المسيحي، والذي يصف كتابه قيامة المسيح وموت البهيمه. ويعلّق الأساقفة: إنّ هذه اللغة الرمزية يجب أن تحترم لما هي عليه ولكن ليس لكي يتم تأويلها بشكلٍ حرفيٍّ، كما يجب ألا نتوقع اكتشاف تفاصيل في هذا الكتاب حول نهاية العالم".

وتتخّم صحيفة "التايمز" أن الأساقفة يذكرون في وثيقتهم أيضاً أنّ الناس يتطلّعون اليوم نحو الأشياء القابلة للتصديق والصحيحة والتي تكون جديرة بالاهتمام⁽¹⁾!!!
النشئة الثانية والعشرون ودفعها

هاجم الرهبان الطاعنون عقيدة المسلمين في موضوع الجبر والاختيار، وكانوا في هجوم هذا فريقين اثنين:

أما الفريق الأول: فقال بأن المسلمين جبريون يعتقدون بعدم حرّية الإرادة البشرية ويفرضون قسراً على التصرفات البشرية بسبب المعرفة الإلهية المسبقة

(1) قناة الحرية الإخبارية، ٢٠٠٥/١٠/٥، في موقعها الإلكتروني www.alarabiya.net

وبسبب النظام الإلهي، وهم يعتقدون بأن لكل إنسان قدره المكتوب على جبينه.

وأما الفريق الثاني: فوجه نقداً للإسلام في هذه القضية بحجة أن محمداً نفسه كان غير حاسم في الإجابة عن سؤال (هل الإنسان حرٌّ أم مُجبرٌ في تصرفاته؟) وأنّ القرآن نفسه فيه آياتٌ تتحدّث عن الجبر وأخرى تتحدّث عن الاختيار، وأنّ علماء الإسلام لم يتفقوا على رأيٍ واحدٍ في هذه المسألة.

- أمّا عن عدم اتفاق علماء المسلمين على رأيٍ واحدٍ في هذه المسألة فهو كلامٌ باطلٌ مردودٌ. لأنّ الذين كانوا يقولون بأنّ الإنسان مجبورٌ في أفعاله وأنّه لا خيار ولا قدرة له وأنّه كالريشة في مهبّ الريح، فهؤلاء نفرٌ قليلٌ ظهرُوا في التاريخ الإسلامي ثم ماتوا ومات معهم مُعتقدهم وكان من هؤلاء الجعد بن درهم والجهنم بن صفوان، وبعض المعتزلة. أمّا بقية علماء الإسلام من أهل السنة والجماعة فمتفقون على أن الإنسان، فيما هو محاسبٌ عليه ومُجازى به في الدنيا والآخرة، مُخيّرٌ قد أعطاه الله عقلاً وأعطاه مشيئةً وإرادةً يتصرّف بها، فإن فعل الخير نال الثواب والأجر من الله تعالى، وإذا فعل الشرّ استحقّ العقاب من الله تعالى. ولا شك أنّ أهل السنة والجماعة هم السواد الأعظم والأغلبية الساحقة من أبناء الإسلام. ولما كانت هذه الدراسة غير مختصة بدراسة موضوع الجبر والاختيار فإننا سنكتفي، لردّ شبهة الرهبان ومطعنهم في الموضوع، بإيراد إيجازٍ يُلخّص موقفَ ومُعتدّ أهل السنة والجماعة في موضوع الجبر والاختيار، على النحو التالي⁽¹⁾:

- أ. لا خالقٌ غيرُ الله، فأفعال العباد التي صاروا بها مُطيعين وعصاة، يخلقها الله تعالى، فالخلق سبحانه منفردٌ بخلق المخلوقات.
- ب. أفعال الناس كلّها لا تقعُ بغير مشيئة الله وقدرته، فالأدلة كلّها تدلُّ على عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأشياء والأفعال.

(1) الخطيب، محمد أحمد، الفرق الإسلامية، ص ٧١، ٧٢، بتصرف واختصار، ط ١، ١٩٩٦، منشورات جامعة القدس المفتوحة، الأردن.

ج. والإنسان، مع ذلك، غير مجبورٍ على أفعاله وأقواله، وأنها ليست لا إراديةً، وأن أفعال الإنسان، وإن كان الله هو الذي خلقها، إلا أن الإنسان هو الذي فعلها حقيقةً، وأنه اختارها وأرادها حقيقةً، وأن نسبة أفعاله إليه نسبة حقيقةً وليست مجازاً، ولنا بما أن البشر فاعلون لأفعالهم حقيقةً، فإنهم يستوجبون عليها المدح أو الذم.

وباختصارٍ فإن أفعال الناس لا يخلقها الناس، بل هي من خلق الله تعالى، وفعل الإنسان وكسبه.

د. كون الله سبحانه وتعالى خالقاً لأفعال العباد، لا يعني أن فعل العبد هو نفس فعل الله، ففعل العبد يخلقه الله، ويفعله العبد، ويكسب آثاره العبد، سواء كانت هذه الآثار والنتائج، نفعاً أو ضرراً.

وقد بين الله تعالى أنه قد خلق كل شيء، قال تعالى: "اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ" (١).

وقال تعالى: "كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ" (٢). إن الله سبحانه وتعالى قد خص الإنسان بطبيعة خاصة، فقد خلق له قدرة وإرادة حرةً مختارة، تختار ما تريد من الأفعال دون إكراه ولا إجبار، وهذا واضح في قوله تعالى: "وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ" (٣) وفي قوله عز وجل " إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا" (٤) وفي قوله تعالى: "وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا

فَأَلَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا" (٥). وبناءً على ذلك فالإنسان يشاء ويريد ويفعل ويعمل ويصنع ويكسب، والله عز وجل بعد أن منح الإنسان الحرية والاختيار سهل له السبيل إلى ما يختار أيًا كان اختياره، فلا يحملة عليه كرهاً ولا يجبره، ولكنه يسهل له سلوك ما يختار من سبيل. وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: " * فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَانْتَفَى

(١) سورة الرعد، الآية ١٦.

(٢) سورة النساء، الآية ٧٨.

(٣) سورة البلد، الآية ١٠.

(٤) الإنسان، الآية ٣.

(٥) سورة الشمس، الأيتان ٧، ٨.

﴿٥﴾ وَصَدَقَ بِالْحَسَنِ ﴿٦﴾ فَسَيَسِّرُهُ لِّلْعَسْرَى ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ﴿٨﴾

وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِ ﴿٩﴾ فَسَيَسِّرُهُ لِّلْعَسْرَى ﴿١٠﴾ ويقول تعالى: " فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ " (١١).

وأمثال هذه الآيات كثير جداً في القرآن، ويلاحظ في الآيات كلها أن العبد هو الذي يبدأ باختيار السبيل الأقوم، فتكون حينئذ هداية الله بفتح باب الخير له، أو باختياره طريق الشر ويتبع ذلك الإضلال من الله لمن بادر الضلال.

وخلاصة القول، إنَّ الجبر لا يكون مُطلقاً، وإنَّ الاختيار، لا يجوز أن يكون مُطلقاً، بل الحقُّ التوسطُ بين هذين الرأيين، وذلك أن أفعال الإنسان ليست اختيارية تماماً ولا اضطرارية تماماً.

- أما بالنسبة لردنا على الرهبان الطاعنين الذين يتهمون الإسلام بالجبرية فنقول^(١):
أولاً: إن الله الذي خلق الكون وقَدَّرَ سُنَّتَهُ وأجرى حوادثه وفق تلك السنن التي قَدَّرَهَا، عالمٌ به وبحوادثه قبل وقوعها، وهو الذي خلق الإنسان، وخلق له إرادة حُرَّةً وهو عالمٌ به وما سيختار. وعلمُ الله هذا السابق لوقوع الحوادث، ومن جملتها أفعال البشر، لا يقتضي حَمَلِ الناس وإكراههم على تنفيذ مُقْتَضَى عليه. ولنضرب مثلاً من البشر أنفسهم على سبيل التقريب - ولله المثل الأعلى - فلو أن مُعلِّماً عرف من مجرى حياة تلاميذه خلال السنة كلها: صفاتهم، عاداتهم، ومواهبهم، لتمكَّنَ قبل الامتحان من أن يعرف إلى حدِّ كبيرِ الناجح والراسب، فهل نجاح أيِّ طالبٍ أو رسوبه كما قال المعلم، كان إجبارياً لأنَّ المعلم علم بذلك؟

ثانياً: إذا كان ما يجري في الكون من حوادث، وما يفعله البشر كذلك من أفعالٍ ضمن مشيئة الله وتحقيقاً لقوانين أو خِطَطٍ أو سُنَنِ قَدَّرَهَا لها، فلا ينتج عن ذلك وقوف الإنسان

(١) سورة الليل، الآيات ٥ - ١٠

(٢) سورة الصف، الآية ٥.

(٣) الخطيب [م.س.]، ص ٧٦، ٧٧، بصرف واختصار.

أماها موقف الموافق لها والراضي عنها كلها، لأنَّ من تلك التقديرات الإلهية: إرادة الإنسان، ومن الأوامر الإلهية الموجهة إلى الإنسان، أن يتولى تغيير أحوال وأوضاع واقعة أي (مُقدَّرِه).

فالقرآن الكريم يأمر الإنسان بمحاربة الكفر والظلم ... ومعنى ذلك أنَّ بعض ما يجري في الكون من الأقدار نفسها ينبغي مكافئته، وهذه المحاربة نفسها من القدر، فقد جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في عهد خلافته قاصداً دخول الشام، فوجد الطاعون منتشراً فيها، فلم يدخل، فقال أبو عبيدة رضي الله عنه: أتفرُّ من قدرِ الله؟! قال: أفرُّ من قديرٍ إلى قدرِ الله؟! وهكذا يخطئ مَنْ يظنُّ أنَّ الإسلام يطلب من الإنسان أن يقبل الواقع مُطلقاً وأياً كان ذلك الواقع، وتسقط حجَّة مَنْ يقول كذلك بقبول الواقع، لأنه قدرٌ إلهي، فَمِنَ القَدْرِ ما أُمِرْنَا أن نقاومه بقَدْرِ مثله، فَعَمَلْنَا جزءً من القَدْرِ.

ثالثاً: القولُ بالجبر منافٍ للشرائع ودعوة الرسل والثواب والعقاب، فلو صحَّ الجبرُ لبطلت الشرائع، وبطل الأمر والنهي، ويلزم من بطلان ذلك بطلانُ الثواب والعقاب.

أما بالنسبة لاعتراض الرهبان الطاعنين على ذكر القرآن للجبر في آياتٍ والاختيار في آياتٍ أخرى، فنقول: "لو أنَّ القرآن الكريم صرَّح بأنَّ الإنسان مسلوبُ الاختيار دائماً لما كان هناك معنى للمسؤولية، ولو سقطت المسؤولية لسقطَ الجزاءُ على الأعمال، فلا يكون هناك فرقٌ بين المحسنِ والمسيءِ.. ولو صرَّح بأنَّ له الاختيار المطلق في أفعاله، حتى أنَّه يقدرُ على كلِّ ما يريد، لكان في هذا ما يُشبهه أن يكونَ مُشاركةً لله في خلقه ... فوقف القرآن فيها عند هذا الحدِّ، وعبرَ عنها بآياتٍ، تدلُّ في مجموعها على أنَّ للإنسان اختياراً بمقدار ما يُصَحِّحُ مسؤوليته، لا اختياراً مُطلقاً يجعله يخرج عن حدوده البشرية، ولا جبراً مُطلقاً يسلب عنه المسؤولية"⁽¹⁾.

(1) الفرائي، علي مصطفى، تاريخ الفرق الإسلامية، ص ٣٧، ٣٨، بصرف، ط ٢، ١٩٨٥، مكتبة الانجلو، القاهرة.

النَّسْبَةُ الثَّلَاثَةُ وَالْعَشْرُونَ وَدَفْعُهَا

في مواصلة منه لنهج الضَّغْطِ والتضييق على غير المسلمين الذين يسكنون في البلاد الإسلامية شرَّعَ مُحَمَّدٌ مَبْدَأَ الْجَزِيَّةِ عِقَاباً لِكُلِّ مَنْ رَفَضَ اعْتِنَاقَ الْإِسْلَامِ مِنَ الْيَهُودِ وَالْمَسِيحِيِّينَ!!

- يبدو أنَّ الرهبان الطَّاعِنِينَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ؛ فَتَارَةً يَقُولُونَ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَجْبَرَ الْيَهُودَ وَالْمَسِيحِيِّينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى اعْتِنَاقِ الْإِسْلَامِ بِالْقُوَّةِ وَالْإِكْرَاهِ. وَتَارَةً يَقُولُونَ: إِنَّهُ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمُ الْجَزِيَّةَ عِقَاباً لَهُمْ لِأَنَّهُمْ رَفَضُوا الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ!!

ومن الواضح تماماً مدى التناقض بين هاتين الفريقتين، وقد تقدّم سابقاً الرُّدُّ على أولاهما، ونذكر تالياً الرُّدَّ على أخراهما:

إنَّ الَّذِي فَرَضَ الْجَزِيَّةَ هُوَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَقَدْ جَاءَ الْأَمْرُ بِهَا فِي سُورَةِ التَّوْبَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: " قَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجَزِيَّةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ " (١).

وتكاد تفاسير القرآن الكريم التي رجعنا إليها تُجْمَعُ عَلَى أَنَّ مَعْنَى " وَهُمْ صَاغِرُونَ " أَي أَدْلَاءٌ مَقْهُورُونَ خَاضِعُونَ لِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ. وَلَيْسَ هُنَاكَ مَجَالٌ لِتَقْدِيمِ تَفْسِيرٍ جَدِيدٍ يُخَالِفُ التَّفَاسِيرَ السَّابِقَةَ مِنْ أَجْلِ التَّقَرُّبِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ وَتَطْيِيبِ خَاطِرِهِمْ بِتَفْسِيرٍ أَكْثَرَ لِيُؤْتَى بِرِضْوَانِهِمْ عَنْهُ وَيَقْبَلُونَ بِهِ، لِأَنَّ تَفْسِيرًا كَهَذَا سَيَكُونُ مُنَافِيًا لِلْحِكْمَةِ الَّتِي لِأَجْلِهَا شَرَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْجَزِيَّةَ عَلَى أَهْلِ الْكِتَابِ. وَهَنَا نَلْحِظُ اخْتِلَافًا بَيْنَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ حَوْلَ تَعْلِيلِ دَفْعِ أَهْلِ الْكِتَابِ لِلْجَزِيَّةِ عَلَى النُّحُوِّ التَّالِي:

(١) سورة التوبة، الآية ٢٩.

١. يرى صاحب الأحكام السلطانية^(١)، أنه يجب على وليّ الأمر المسلم أن يضع الجزية على رقاب مَنْ دَخَلَ فِي الذِّمَّةِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لِيَقْرَأُوا بِهَا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ، وَيَلْتَزِمَ لَهُمْ بِبَدْلِهَا حَقَّانَ: أَحَدُهُمَا الْكُفُّ عَنْهُمْ، وَالثَّانِي: الْحَمَايَةُ لَهُمْ لِيَكُونُوا بِالْكَفِّ آمِنِينَ وَبِالْحَمَايَةِ مَحْرُوسِينَ.
٢. يرى الإمام الشافعي أنها "وجبت بدلاً عن الدم وسكنى النار"^(٢). أي بدلاً عن عصمة دمايتهم من القتل وبدلاً عن سُكْنَاهُمْ لِدَارِ الْإِسْلَامِ.
٣. يرى المالكية أنها وجبت بدلاً عن القتل بسبب الكُفْرِ^(٣).

والذي نختاره ممّا سبق ذكره وإيراده قولَ الشافعي - رحمه الله تعالى - وهو منسجمٌ مع الآية الكريمة الواردة في الموضوع (وهم صاغرون)، "فَالصَّوَابُ فِي الْآيَةِ أَنَّ الصَّغَارَ هُوَ التَّرَاهُمَ لِحُرْيَانِ أَحْكَامِ الْمِلَّةِ عَلَيْهِمْ وَإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ، فَإِنَّ التَّرَاهِمَ ذَلِكَ هُوَ الصَّغَارُ"^(٤).

ولا يُجَانِبُ الصَّوَابُ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ الْإِسْلَامَ أَجْبَرَ أَهْلَ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ فِي دِيَارِهِ عَلَى دَفْعِ الْجِزْيَةِ مُقَابِلَ تَأْمِينِهِمْ لِسُكْنِهِمْ بِأَمَانٍ وَحَمَايَتِهِ لَهُمْ وَمَنْعِ أَيِّ إِنْسَانٍ مِنَ التَّعَرُّضِ لَهُمْ أَوْ الْإِسَاءَةِ لَهُمْ، وَمُقَابِلَ مَاذَا؟ مُقَابِلَ مُرَدِّ مَالِيٍّ صَغِيرٍ جَدًّا "قَدْرَهُ الشَّافِعِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ، بِأَرْبَعَةِ دَنَانِيرٍ فِي السَّنَةِ عَلَى الْكُتَابِيِّ الْغَنِيِّ وَبِدِينَارٍ وَاحِدٍ فَقَطْ فِي السَّنَةِ عَلَى الْفَقِيرِ الْمُعْتَمَلِ مِنْهُمْ، وَقَدْرَهُ أَصْحَابُ مَالِكٍ بِأَرْبَعَةِ دَنَانِيرٍ عَلَى أَهْلِ الذَّهَبِ لَا يَزَادُ عَلَيْهَا. فَإِنْ كَانَ مِنْهُمْ ضَعِيفٌ خُفِّفَ عَنْهُ بِقَدْرِ مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ الْمُسْلِمُ"^(٥). وذلك راجعٌ لعدم تحديدها مقدارها شرعاً.

وقد تقدّم معنا أنّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، وضع الجزية عن فقيرٍ من أهل الكتاب لا يقدر على دفعها وأتته أعطاه من صدقات بيت المال. ويُفهم من هذا أنّ الجزية تسقطُ عمن عجزَ عن دفعها من أهل الكتاب، "وَلَا يَكْلَفُ أَغْنِيَاءُ أَهْلِ الْكِتَابِ دَفْعَهَا عَنْ فُقَرَائِهِمْ"^(٦). ومن المفيد هنا التنبيه على أنّ الإسلام لم يفرض الجزية على كلّ فئات أهل الكتاب "فَالَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ أَنَّ الْجِزْيَةَ تُؤَخَذُ مِنَ الرِّجَالِ الْمُقَاتِلِينَ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: "قَاتِلُوا الَّذِينَ" إِلَى قَوْلِهِ - "حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ" فيقتضي ذلك وجوبها على مَنْ يُقَاتِلُ. وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ

(١) الموردي، أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ص ١٨٢، ١٨٣، ط ١، ١٩٨٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، أحكام أهل الذمة، ج ١، ص ١١٨، ط ١، ١٩٩٧، دار ابن حزم، بيروت.

(٣) القرطبي [م. س.]، ج ٨، ص ١١٣.

(٤) ابن قيم الجوزية [م. س.]، ص ١٢١.

(٥) ابن قيم الجوزية [م. س.]، ص ١٢٣.

(٦) القرطبي [م. س.]، ج ٨، ص ١١٥.

ليس على العبد وإن كان مقاتلاً؛ لأنه لا مال له. وهذا إجماعٌ من العلماء على أن الجزية إنما تُوضَعُ على جماجم الرجال الأحرار البالغين، وهم الذين يُقاتلون دون النساء والذرية والعبيد والمجانين المغلوبين على عقولهم والشيخ الفاني^(١).

كما أنه من المفيد التنبيه هنا إلى أن أهل الجزية إذا دفعوها فإنه لا يجوز أن يُؤخَذَ بعدها شيءٌ من ثمارهم ولا تجارتهم ولا زروعهم.

ولعلَّ قصرَ دفع الجزية على الرجال القادرين على القتال وحمل السلاح يعود لرغبة الشارع الحكيم في إشعار هذه الفئة من أهل الكتاب بهيبة السلطان المسلم وباستمرارية خضوع هذه الفئة لأحكامه وسلطاته. ولو كان المقصود من الجزية، كما يزعم الرهبان الطاعنون، الإمعان في إهانة وإذلال أهل الكتاب واستمرارية الضغط عليهم لقرص الإسلام الجزية عليهم جميعاً رجالاً ونساءً وأولاداً وبناتٍ وشيوخاً ... ولفرض عليهم أداء مبالغ مالية ضخمة ترهقهم في الدَّفْع والسَّداد وتجبرهم على الهجرة إلى ديارٍ غير ديار الإسلام. ثم لماذا يتجاهل ويتناسى الرهبان الطاعنون حقَّ الحكومات والتَّول في فرض رسومٍ ومطالبٍ ماليةٍ على رعاياها دون استثناء، فالرعايا المسلمون يدفعون الزكاة والرعايا غير المسلمين يدفعون الجزية.

ولعلَّ مقارنةً سريعةً بين الجزية والزكاة لكفيلةً بتذكيرنا بأنَّ قيمة الجزية التي يدفعها غير المسلم مرّةً في السنّة لهي أقلُّ بكثيرٍ من قيمة الزكاة التي يدفعها المسلم في السنّة، ويكون (الذي) مُتمتعاً مقابل ذلك بالأمان والطمأنينة على نفسه وأهله وبيته وذريته، وممارساً لعقائده وشعائره في دور عبادته وفي بيته بسقفٍ من الحرّية لم تعرف البشرية مثيلاً له في غير ظلِّ الإسلام. إننا نقول هذا الكلام ونحن نرى ما نراه من ظلم واضطهادٍ وأذىٍ يلحق بالمسلمين الذين يعيشون في ديار الحضارة المسيحية الغربية من منع للحجاب في بعض تلك الدول، ومن منع لمآذن المساجد في بعضها الآخر، ومن حملاتٍ تشهيريّةٍ يتعرّضون لها وهم الحبيب المصطفى ﷺ، هذا إضافةً لما تمارسه دول وحكومات الغرب (المُتخَصِّص) بحقهم من تمييزٍ في المعاملات وفي الوظائف العامّة، لا لشيءٍ إلا لأبّهم مُسلمون لا يدينون دينَ الدولة المسيحية التي يعيشون في كنفها سواءً في أوروبا أو في أمريكا.

(١) المرجع السابق نفسه، ج ٨، ص ١١٢.

ينزع الرهبان من كلمة (الجزية) ومن كلمة (صاغرون) وهم يتعاملون تماماً عمّا تمارسه حكومات بلادهم من إذلال وقهر لشعوب العالم الإسلامي صباح مساء حتى جعلتهم صاغرين حتى وهم في عقر دارهم!! ينزعجون من دينار ذهب كان المسيحي يدفعه للدولة الإسلامية مرّة واحدة في السنة ويتناسون المبالغ الضخمة والشروط والكفالات المالية المُرهِقَة التي يدفعها المسلم عندما يسعى للحصول على تأشيرة زيارة أو عمل في بلاد الغرب المسيحي!!!.

بقي أن نضع بين أيدي القارئ الكريم معلومة مفادها أنّ مفهوم (الجزية) غير جديد على الرهبان الطّاعنين فهم يعرفونه حقّ المعرفة؛ إذ وَرَدَ في كتابهم المقدّس بعهديه القديم والجديد. فنحنُ نقرأ في العهد الجديد أنّ بولس الرسول قد حثّ أتباعه على دفعها وعدم التعرّض للسلطان، وكذلك فعلَ المسيح، عليه السلام، عن محاولة اليهود لإيقاع الفتنة بينه وبين حكومة القيصر الروماني آنذاك. والدليل ما يلي:

أولاً: "فاعطوا الجميع حقوقهم: الجزية لمن له الجزية، الجباية لمن له الجباية. والخوف لمن له الخوف. والإكرام لمن له الإكرام"^(١).

ثانياً: "أيجوزُ لنا أن نُعطيَ جزيةً لقيصر أم لا؟ فشعرَ بمكرهم وقال لهم: لماذا تُجْرُوني؟ أروني ديناراً. لمن الصورةُ والكتابة؟" فأجابوا وقالوا: "لقيصر" فقال لهم: "أعطوا إذاً ما لقيصر لقيصر وما لله لله" قلم يقدرُوا أن يسكوه بكلمةً قُدَّامَ الشَّعبِ، وتعجبوا من جوابه وسكتوا"^(٢).

وقد وَرَدَ في العهد القديم أنّ يعقوب، عليه السلام، قد أخذَ الجزية، كما وردَ أنّ يوسف عليه السلام قد دفعها والدليل على ما يلي:

أولاً: "وكان لما تشدّد إسرائيلُ أنه وضع الكنعانيين تحت الجزية ولم يطردهم طرداً"^(٣).

(١) رومية: ١٣: ٧

(٢) لوقا: ٢٠: ٢٢ - ٢٦

(٣) التثنية: ١: ٢٨

ثانياً: "فعمز الأموريون على السّكني في جبل حارس في أيلون وفي شعلبيم. وقويت يد بيت يوسف فكانوا تحت الجزية"⁽¹⁾.

النُّشْبَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعَشْرُونَ وَدَفْعُهَا

إنَّ القرآنَ الذي جاء به محمدٌ لا يَتَّفِقُ مع العقلِ في الكثيرِ من أحكامه وتشريعاته. وقد قام محمدٌ بفرضِ نصوصِ كتابه هذا على أتباعه، وأوجبَ عليهم الالتزامَ بما جاء فيه وتنفيذه دونَ أن يسمحَ لهم بالتفكيرِ في مضامينه أو مناقشتها.

ولا زال التزامُ المسلمين بهذا الكتابِ عائقاً أمامَ تقدّمهم العلميِّ وتطوّرهم، حتى عصرنا هذا.

- إنَّ هذه التَّهْمَةَ والفِرْيَةَ ساقطةٌ من عدّةِ وجوه، هي التالية:

أولاً: إنَّ القرآنَ الكريمَ في إقامته لأدلةِ وجودِ الخالقِ سبحانه وتعالى، أمرَ الإنسانَ أوّلَ ما أمره بإعمالِ النظرِ العقليِّ في خلقِ الكونِ وموجوداته وما فيه من مخلوقاتٍ ليكونَ ذلكَ سبيلاً للاهتداءِ إلى وجودِ الله تعالى، ومن ثمَّ ليكونَ سبيلاً للاهتداءِ إلى وحدانيةِ الله عزَّ وجلَّ.

كما أنّ منهجَ القرآنِ في إثباتِ كلِّ قضايا الإيمانِ وأركانه يدعو العقلَ البشريَّ إلى النظرِ والتأمّلِ في مظاهرِ عظمةِ الله، عن طريقِ التفكيرِ في كونه الواسعِ. والإنسانُ بحكمِ تفكيره القاصرِ لا يبدؤُ له من الاستعانةِ بما ذكره القرآنُ الكريمُ عن تلكِ القضايا. ومن خلالِ النظرِ في الكونِ والنفْسِ الإنسانيّةِ تتبيّنُ أنه لا بُدَّ لكلِّ حادثٍ من مُحدثٍ واستحالةِ أن يتمَّ

هذا الخلقُ بلا خالقٍ، قال الله تعالى: " أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ "

أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ "

(1) التّضاء: ١، ٣٥، ٣٦.

(2) سورة الطّور، الآيات ٣٥، ٣٦.

ثانياً: إن معرفة الله تعالى يجب أن تكون معرفة يقينية لا تحصل بالتقليد. قال تعالى: " فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " (١). ولذلك رفض القرآن الكريم التقليد في العقيدة وعده مانعاً للعقل البشري من التفكير. وأتى الله تعالى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ويدرون ما هو غير حسنٍ "فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ" (٢). كما ندد القرآن الكريم بالمتقليد الذين لا يفكرون إلا بقول غيرهم " وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ " (٣).

ثالثاً: إن القرآن الكريم هو مصدر العقلانية المؤمنة، والباعث عليها، والداعي لاستخدام العقل والتفكير والتدبر في آيات الله المنظورة والمسطورة جميعاً ... وآيات القرآن التي تحض على العقل والتعقل تبلغ تسعاً وأربعين آية ... والآيات التي تتحدث عن "اللب" - بمعنى عقل وجوهر الإنسان - هي ست عشرة آية. كما يتحدث القرآن عن "النهي" - بمعنى العقل - في آيتين ... وعن الفكر والتفكير في ثمانية عشر موضعاً ... وعن الفقه والتفقه - بمعنى العقل والتعقل - في عشرين موضعاً ... وعن "التدبر" في أربعة آيات ... وعن "الاعتبار" في سبع آيات ... وعن "الحكمة" في تسع عشرة آية .. وعن "القلب" كأداة للفقه والعقل - في مائة واثنين وثلاثين موضعاً ... ناهيك عن آيات العلم والتعلم والعلماء التي تبلغ في القرآن أكثر من ثمانمائة آية ... فالقرآن الكريم هو الداعي للتعقل والتدبر والتفقه والتعلم ... والعقل الإنساني هو أداة فقه الشرع، وشرط ومناط التدبّر بهذا الشرع الإلهي ... ولذلك لا أنثر للشرع بدون العقل، كما

(١) سورة محمد، الآية ١٩.

(٢) سورة الزمر، الأيتان ١٧، ١٨.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٧٠.

أنه لا غنى للعقل عن الشرع، وخاصةً فيما لا يستقلُّ العقلُ بإدراكه من أمورِ الغيب،
وأحكام الدين^(١).

رابعاً: أمّا بالنسبة لعلاقة القرآن بالعلم فنذكرُ الرهبان الطاعين بما يلي:
١. تميّز الإسلام بكونه الدين الوحيد الذي جعل طلب العلم فريضةً على أتباعه. وقد كان أولُ
ما نزل من آيات القرآن الكريم قوله تعالى: "

" ()

٢. ومما يدلُّ على مكانة العلم في الإسلام، أن الله تعالى أقسم به وبأدواته في القرآن الكريم،
فقال الله تعالى: "ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ"^(٢). فقد ابتدأت السورة بأحد الأحرف
المستعملة في الكتابة، ثم أقسم الله تعالى بالقلم الذي تُكتبُ به العلوم والمعارف، وفي
هذا تنبيهٌ من الله تعالى للخلق على ما أنعمَ به عليهم من تعليم الكتابة التي تُنال بها
العلوم. ثم أقسم الله تعالى بما يسطره الناس أي ما يكتبونه، وهذا قسَمٌ بالعلم، وفي
ذلك كله دلالةٌ على منزلة العلم وأهله^(٤).

٣. الأمر بالاستزادة من العلم، فقد أمر الله تعالى نبيّه محمداً ﷺ، بطلب المزيد من العلم بقوله
تعالى: "وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا"^(٣). وإذا كان هذا الأمر للنبي ﷺ وهو ذو منزلةٍ
عاليةٍ علماً وفضلاً وكرامةً فإن المسلمين مدعوون لذلك لأنَّ خطاب النبي خطابٌ
لأُمَّته^(٦).

(١) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين [م. س.]. الرد على الشبهة رقم ٦٣ حول تناقض القرآن مع العقل.

(٢) سورة العلق، الآيات ١ - ٥.

(٣) سورة القلم، الآية ١.

(٤) الصوا، علي، وآخرون [م. س.] ص ٣٦.

(٥) سورة طه، الآية ١١٤.

(٦) الصوا، علي، وآخرون، العلوم الإسلامية، ص ٣٦، ط٣، منشورات وزارة التربية والتعليم، الأردن.

٤. أكد القرآن الكريم على أن العلم سببٌ مباشرٌ لرفعة العلماء وأنه بالعلم يعلو قدرُ الإنسان وتعلو منزلته، قال تعالى: " يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ " (١).

ولا نأتي بجديد ولا نذيع سراً إذا قلنا: إن القرآن الكريم قد قرّر الكثير من الحقائق العلمية التي لم يقدر العلم على إثبات صحتها إلا مؤخراً^(٢). إن الرهبان الطاعنين لمطالبون أن يأتونا ولو بمثالٍ واحدٍ من القرآن الكريم يناقض حقيقةً علميةً ثابتةً.

وبعد أن طويينا صفحة الحديث عن منزلة العقل والعلم في القرآن الكريم نرى من المناسب أن نفتح الصفحة ذاتها في الكتاب المقدس لنرى مدى انسجامه مع العقل وتوافقه مع العلم ولنرى موقع العلماء من سطوره.

أولاً: يذكر العهد القديم من الكتاب المقدس أن الحية هي التي أغرت المرأة (حواء عليها السلام) لتأكل من الشجرة التي أوصى الرب آدم وحواء ألا يأكلا منها، فكانت النتيجة أن غضب الله على الحية ولعنها وكتب عليها أن تسعى على بطنها زاحفةً وأن تأكل التراب طيلة حياتها!! وكذلك فقد حكم على المرأة عقاباً لها التعب والوجع عند الحمل وعند الولادة!!! "فقال الرب إله الحية لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية، على بطنك تسعين وتراباً تأكلين كل أيام حياتك ... وقال للمرأة تكثيراً أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولاداً"^(٣).

ثانياً: يذكر العهد القديم من الكتاب المقدس أن فترة النفاس التي تقضيها المرأة بعد الولادة لتظهر تكون أربعين يوماً إن كان مولودها ذكراً. بينما تمتد هذه الفترة لتكون ثمانين يوماً إن كان مولودها أُنثى!! "إذا حبلت امرأة وولدت ذكراً تكون نجسه سبعة أيام ... ثم

(١) سورة المجادلة، الآية ١١.

(٢) انظر كتاب موريس بوكاي (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم).

(٣) التكوين: ٣: ١٤ - ١٦.

ثُمَّ ثَلَاثَةٌ وَثَلَاثِينَ يَوْمًا فِي دَمِ تَطْهِيرِهَا ... وَإِنْ وُلِدَتْ أَثَى تَكُونُ نَجَسَةً أَسْبُوعِينَ ...
ثُمَّ ثَمِّمُ سِتَّةَ وَسِتِّينَ يَوْمًا فِي دَمِ تَطْهِيرِهَا"^(١).

ثالثاً: تتجلى تناقضات العهد القديم مع العقل في أبرز صورها في سفر التكوين، والذي هو أول أسفار التوراة؛ ففي هذا السفر تبرز لدينا روايتان متناقضتان عن قضية الخلق وترتيب خلق المخلوقات في كلِّ واحدٍ من أيام الأسبوع، كما يبرز لدينا تناقض واضح في الروايتين اللتين ذكرتا موضوع الطوفان حيث أن إحداها تذكر أن سبب الطوفان هو ماء المطر، بينما تذكر الرواية الأخرى أن سبب الطوفان مزدوج؛ أي من ماء المطر ومن ينابيع الأرض. وبينما تذكر رواية أن مدة الطوفان أربعون يوماً تذكر نصوص أخرى أن مدة الطوفان كانت مائة وخمسين يوماً"^(٢).

ومما يجدر ذكره هنا أن كبار رهبان وعلماء المسيحية قد تصدوا للدفاع عن وجود التناقضات والأمر المناهية للعقل في الكتاب المقدس بقولهم: إن ذلك يعود لضعف عقول الناس وعدم فهمهم له. وفي هذا يقول القديس أوغسطين "فعندما ألتقي في هذه الكتب بدعوى تبدو مناقضة للحقيقة فإنني عندئذ لا أشك في أن نصّ نسختي لا يحتوي على خطأ أو أن المترجم لم يترجم النص الأصلي بشكل صحيح أو أن مقدرتي على الفهم تُسهم بالضعف"^(٣).

رابعاً: المسيحيون متفقون على أن المسيح، عليه السلام، هو الذي ألهم كُتَّابَ الأناجيل الأربعة (متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا) التيام بكتابتها، ويُفهم من ذلك ويكَلِّ تأكيد، استحالة وجود تناقض أو تعارض بينها وبين بعضها البعض، وذلك لأنها إلهام من المسيح الرب. وهنا نذكر الرهبان الطاعنين في القرآن الكريم والزاعمين وجود التناقض بين آياته ووجود التعارض بينه وبين العقل بما يلي^(٤):

(١) اللاويين: ١٢: ١ - ٥.

(٢) بوكاي موريس، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص ٤٤ فما فوق بصرف، ط١، ١٩٧٨، دار الكندي، لبنان.

(٣) المرجع السابق نفسه ص ٤٨.

(٤) بوكاي [م. س] ص ٩٤، ٩٥.

١. إنَّ الفصح^(١) في الأناجيل الثلاثة مختلفٌ زمنياً مع عشاء المسيح الأخير مع الرسل، عنه في الإنجيل الرابع، فبينما يضعُ يوحنا العشاء السريَّ "قبل عيد الفصح" يضعه الثلاثة الآخرون أثناء الفصح نفسه. ويُستنتجُ من هذا اختلافٌ صريحٌ مع الحقيقة. ولا يمكن قبول هذه الواقعة بسبب وضع عيد الفصح المُعيَّن بالنسبة إليه. وعندما نعلم أهمية الفصح في الطقوس الدينية اليهودية وأهمية عشاء المسيح الوداعي مع تلاميذه، فكيف يتصوَّرُ أن تُنقذ الذاكرةُ مركز أحدهما بالنسبة إلى الآخر في الرواية المنقولة فيما بعد من الإنجيليين!!

٢. تختلف روايات "الآلام"^(٢) بصورة عامَّة فيما بين الإنجيليين وبخاصَّة بين الأناجيل الثلاثة الأوائل وإنجيل يوحنا. ويشغل العشاء الأخير للمسيح والآلام في إنجيل يوحنا حيزاً كبيراً يكاد يكون ضعفَ الحيزِ الذي عند مرقس ولوقا. وطولُ نصِّه أكبرُ من الذي عند متى بمرة ونصف المُرَّة. هذا ويروي يوحنا أيضاً خطاباً طويلاً جداً من المسيح إلى تلاميذه، يملأ من إنجيله أربعة فصولٍ أعطى فيه تلاميذه الذين يودعهم آخر توجيهاته، ووصيته الروحيَّة، بينما لا نجدُ لذلك أيَّ أثرٍ في الأناجيل الأخرى. بل على العكس فإنَّ متى ولوقا ومرقس، يروون صلاة المسيح في حديقة الزيتون التي لا يتكلَّمُ عنها يوحنا أبداً!!

٣. إنَّ الحدث الأهم الذي يصدِّم قارئ قصَّة الآلام في إنجيل يوحنا، هو أنه لا يتعرَّضُ لأيِّ ذكرٍ لتأسيس سر "الإفخارستيا"^(٣) خلال عشاء المسيح الأخير مع الرسل!!

وما من مسيحي لا يعرف صورة "العشاء السري"؛ حيث كان المسيح يجلسُ للمرَّة الأخيرة، إلى المائدة وسط الرسل. وقد أبرَزَ أعظمُ الرِّسامين في هذا الاجتماع الأخير وبالقرب من عيسى يوحنا الذي جرت العادةُ على اعتباره كاتب الإنجيل المعروف باسمه.

ويوحنا الرسول، مهما كان مُدهشاً هذا للكثيرين، ليس مُعتبراً في نظر أكثرية الاختصاصيين كاتبَ الإنجيل الرابع الذي لم يذكر تأسيس الإفخارستيا. وهذا التقديس للنخب وللخمر اللذين يستحيلان جسد المسيح ودمه هو العمل الطقسيُّ الأساسيُّ للمسيحيَّة، يتكلم عنه الإنجيليون الثلاثة الآخرون كما ذكرنا آنفاً وإن كان عباراتٍ مُختلفة. أمَّا يوحنا فلا يذكر عنه أيَّة كلمة!!

(١) الفصح: اسم عبريٌّ معناه عبور، وهو أول الأعياد السنوية الثلاثة، وهو يعرف أيضاً بعيد الفطير.

(٢) إشارة إلى آلام المسيح ابتداءً من ألمه في بُستان جشيانى وانتهاءً بموته على الصليب كما يعتقد المسيحيون.

(٣) الإفخارستيا أو سر التناول أو العشاء الرباني، هو أحد الأسرار السبعة المقدَّسة في الكنيسة الكاثوليكية، وهو تذكير بالعشاء الذي تناوله المسيح بصحبة تلاميذه عشية آلامه.

٤. إنَّ يوحنا هو الإنجيلي الوحيد الذي نقل في نهاية عشاء المسيح السريِّ وقبلَ توقيفه واقعة الأحاديث الختامية مع الرسل التي خُتِمَتْ بخطابٍ طويلٍ جداً خُصَّصَ له أربعة فصولٍ من إنجيله، لا نجدُ أيَّةَ صلةٍ بها في الأناجيل الأخرى. ومع ذلك فإنَّ هذه الفصول تعالج عند يوحنا مسائلَ أوليَّةٍ في رؤى المستقبل ذات أهمية أساسية معروضة بأسلوبٍ فخمٍ وإطارٍ عظيمٍ يميّزُ بها هذا المشهد الوداعي بين المعلم وتلاميذه.

وكيف يمكننا تفسيرُ انعدام الوجود المطلق لرواية الوداع المؤثِّرة التي تحتوي وصية المسيح الروحية لدى متى ومرقس ولوقا؟

٥. لم يذكر يوحنا ومتى قصَّة صعودِ عيسى، عليه السلام، إلى السماء وجلوسه عن يمين أبيه، بينما ذكرها كلُّ من مرقس ولوقا!!.

٦. كيف يمكنُ التوفيق بين اعتزاز المسيح، عليه السلام، بطرس وثقته العالية به وترشيحه ليكون رأساً للكنيسة، وأمره له ببنائها حين قال "أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيسة، وقوات الجحيم لن تقدر عليها، وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات"^(١).

نقول كيف نوفق بين هذا القول للمسيح، عليه السلام، وبين توبيخ المسيح لبطرس لما حاول أن يُبعده عن طريق الصَّلب وقوله له: "إذهب عني يا شيطان"^(٢)!! هذا عدا عن إخبار المسيح، عليه السلام، أنَّ بطرس سيُنكره ثلاث مرَّاتٍ ويحلِّفُ بأنَّه لا يعرفه^(٣).

٧. لماذا نُعلِّقُ فقدان النسخ الأصلية للأناجيل الأربعة؟ وماذا نُعلِّقُ الخلافَ حول اللغة التي كُتِبَ بها كلُّ منها؟ وماذا نُعلِّقُ عدمَ معرفة المترجم الحقيقي لكلِّ واحدٍ منها؟ وماذا نُعلِّقُ الاختلافات التي بين الأناجيل في ذكر نسب المسيح، عليه السلام؟؟؟

- أمَّا بالنسبة لاثِّم الرهبان الطاعنين القرآن الكريم بأنَّه السبب الذي يعوق التطوُّر والتقدُّم العلمي للمسلمين، فقد كان حريّاً هؤلاء أن يتذكروا أنَّ النهضة العلمية والتطوُّر الذي

(١) متى ١٦: ١٨، ١٩.

(٢) متى ١٦: ٢٣.

(٣) انظر متى: ٢٦

عَرَفَتْهُ القارةُ الأوروبية لم يَثْمُ إلا بعد أن أزاحت الكنيسة عن طريقها وعزتها عن التدخّل في كل نواحي الحياة.

وكان حزيّاً بهم أن يراجعوا صفحات تاريخهم الملطّخة بدماء العلماء الأبرياء الذين لم يكن لهم ذنبٌ سوى أنّهم وضعوا نظرياتٍ علميّةً هامّةً خالفت في مضمونها بعضَ كلمات الكتاب المقدّس، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ وشهيرةٌ، ومنها:

أولاً: قامت مجموعةٌ من رهبان الكنيسة المسيحية في عام ٤١٥ للميلاد بقتل "هيباثيا" ابنة "نيون السكندريّ" الذي كان مُديراً لمكتبة الإسكندرية. وقد كانت "هيباثيا" آخرَ أكبرِ عالمة رياضياتٍ وفلسفةٍ في مدرسة الاسكندرية آنذاك. وقد تمّت عملية القتل بناءً على توجيهاتٍ وأوامرٍ من أسقف الإسكندرية "سيريل" الذي جعلته الكنيسة البابوية قديساً فيما بعد!!! "وبعد إعدامها بلا محاكمة، قام الجنّة بسحب جثتها داخل الكاتدرائية وتولّى الرهبانُ تقطيع جسدِها. وكانت حُجّةُ المسيحيين في النيل منها أنها كانت مُدرّسةً رياضياتٍ بارعةً وتمثّلُ تهديداً ضد انتشار المسيحية بسبب تعليمها العلوم وفلسفة الأفلاطونية الجديدة. ويمثّلُ مقتلها نقطة تحولٍ كبرى إذا غادر العديدُ من العلماء مدينة الإسكندرية مُجهّين إلى الهند أو فارس ولم تعد الإسكندرية تمثل مركز الإشعاع العلميّ في العصر القديم"^(١).

ثانياً: جاء العالمُ "كوبر نيكوس" بنظريته التي تقول بأنّ الشمس هي مركز الكون وليس الأرض، وإنّ الأرض والكواكب الأخرى تدور حول الشمس بسرعة. فإذا نظرنا إلى السماء فتصوّرنا أنّ الأجرام السماوية تتحرك، فما ذلك إلا نتيجةً لدوران الأرض في الاتجاه المعاكس. وظلّت نظرية "كوبر نيكوس" ناقصةً، ولكنّ عالم الفيزياء الألماني "يوهانز كيبلر" تمكّن من توفير الأدلة الحاسوبية على صحتها، ثم قام الفلكي "جاليليو جاليلي"، بإجراء اختبارٍ علميٍّ تجريبيٍّ لتلك "الفرضية" عن طريق رصد الكواكب "بالتليسكوب". "وقد لاقت نظرية "كوبر نيكوس" معارضةً شديدةً من قِبَلِ رجال الكنيسة، لأنّ فيها، كما يقولون، مخالفةٌ لما جاء في الكتب المقدسة، ومن ذلك ما كتبه "فروماندوس"، وهو أحد رجال الدين، في مقالته التي سمّاها "أرسطارخس" حيثُ

(١) ريبوني، إنريكو، الإلحاد وأسبابه "الصفحة السوداء للكنيسة" ترجمة د. زينب عبد العزيز، ص ٦٩، ط١، ٢٠٠٤، دار الكتاب العربي، مصر.

بدأ أول صفحة منها بلعنة "كوبرنيكوس" ثم أعلن "أن التنزيل يقاوم" كوبرنيكوس وأُصغره^(١).

ومن أجل أن يُبرهنَ على فساد نظرية "كوبرنيكوس" وأنها ضربٌ من ضروب الكفر والإلحاد، رجع إلى النصوص المقدّسة التي تتحدّث عن شروق الشمس وغروبها وثبات الأرض، حيث استندَ على نصّ من التوراة جاء فيه، أنّ الأرض ثابتةٌ إلى الأبد، "ما الفائدة للإنسان من كلِّ تبعه الذي يتبعه تحت الشمس، دورٌ يمضي ودورٌ يجيء، والأرض قائمةٌ إلى الأبد، والشمس تشرق والشمسُ تغرب وتسرّع إلى موضعها حيث تُشرق"^(٢).

ثالثاً: جاء العالم "جيوردانو برونو" بفرضية علمية وصفَ من خلالها الكون بأنه "لا نهائي" كما تَصمّنت فرضيته معلوماتٍ أخرى منها على سبيل المثال (أنّ هنالك أشكالاً من الحياة خارج الكرة الأرضية) ممّا أثار غضبَ رجال الكنيسة الذين كانوا يعتقدون بأن الأرض مُبسّطةٌ، وبناءً على ذلك فقد وُجّهت الكنيسةُ تهمة (الهرطقة) إلى "جيوردانو برونو" وقامت بحاكمته لمدةٍ قاربت الثماني سنوات "تمّ خلالها اتزاع الاعترافات من "برونو" عن طريق التعذيب وحُكِمَ على "جيوردانو برونو" بالموت لأنه "مُتعمّنتٌ مُصرٌّ على هرطقته" ... وكان قد جاهد ليشرح أنّ أفكاره ليست خطأً، دون جدوى. وتم حرقه حياً في "كامبو دي فيوري" وقد كُفّمه قبل أن يأخذه إلى المخرقة لتفادي أن تتسبّب عباراته في قلقلة معتقدات الجمهور الذي حضر لمشاهدة المخرقة. وقد تمّ إضفاءُ رُتبةٍ "كبير علماء الكنيسة" عام ١٩٣٠م على "الكاردينال بللارمين" الذي تولّى إدانة "برونو" رسمياً...^(٣).

رابعاً: كما ذكرنا في النقطة الثانية أنّ العالم (جاليليو جاليلي)، وهو أحد علماء الفلك الأكثر شهرةً في تاريخ إيطاليا قد تمكّن من إجراء اختباراتٍ علميةٍ تجريبيةٍ أثبت من خلالها صحّة نظرية "كوبرنيكوس"، وذلك عن طريق رصده للكواكب باستخدام "التليسكوب". وأثبت دوران الأرض حول الشمس على خلاف الاعتقاد الكنسي القائم على أنّ الأرض ثابتةٌ لا تتحرك، وأنها مركز الكون، كما استطاع

(١) وايت، أندرويكسون، بين العلم والدين، ترجمة إسماعيل مظهر، ص ٧٣، ط ١، ١٩٣٠، دار الصور، مصر.

(٢) سفر الجامعة : ١ : ٣ - ٥.

(٣) ريبوني [م. س.] ص ١٠٠.

هذا العالمُ الفدُ المُبدِعُ أن يُثبتَ أن هنالك كواكبَ سيارَةَ تدور حولها، وأن عددها يزيد عن سبعة كواكب على خلاف الاعتقاد الكنسيّ السائد آنذاك والذي كان يحصرها في سبعة كواكب فقط. فثارت ثائرة الكنيسة وأعلنت هرطقةً وكفرَ والحادَ هذا العالمُ مُستندةً إلى أن أقواله تخالف ما ورد في الكتاب المقدس. وتم تحويل (جاليليو) إلى محكمة التفتيش في روما.

"وأجبرته لجنة المحكمة على الرجوع في رأيه بأن عرضت عليه أولاً وسائل التعذيب المستخدمة إذا ما أصرَّ على رأيه ... وكانت أعمالُ "جاليليو" قد أُدبنت ووضعت في كشف المنوعات منذ عام ١٦١٦م^(١). وقد أمضى بقية حياته معتقلاً في منزله إذ أن شهرته العالمية قد سمحت له بتفادي العواقب الوخيمة، فكانت عملية اعتقاله في منزله هي الوسيلة الوحيدة لتفادي عمليات التعذيب الرسمية التي تمارسها اللجنة .."^(٢) خصوصاً بعد أن صدر الحكم عن محكمة التفتيش بسجنه وتعذيبه بشدَّة مما اضطرَّه للتراجع عن نظرياته العملية التي أثبت العلم صحتها تماماً [وأعلن أمام البابا "أربان الثامن" تراجعه وتوبته عمّا قاله. وقال في إعلانه هذا: "أنا غاليليو، وفي السبعين من عمري، سجينٌ جاثٌ على ركبتيّ، وبحضور فخامتِك، وأمامي الكتاب المقدس، الذي أؤمنه الآن بيدي أُعلنُ أنّي لا أشايح، بل ألعنُ وأحتقر خطأ القول وهرطقة الاعتقاد بأن الأرض تدور"^(٣).

ولربّما يسألُ سائلٌ عن الدافع الذي كان يُؤدّي بالكنيسة ورجالها إلى فعل ما فعلوه بعلماء من أمثال (جاليليو وهيباثيا) وآخرين؟؟ والجواب على ذلك: أن رجال الكنيسة كانوا يعتقدون بأن الكتاب المقدس يتضمنُ كلَّ أنواع العلوم التي يحتاجها الناس، سواءً أكانت علوم دينٍ أو علوم دُنيا "وأنَّ أساس كلِّ علمٍ، عندهم، هو الكتاب المقدس وتقاليدُ الكنيسة وأنَّ الله لم يقصُرْ تعليمنا بالوحي على الهداية إلى اللّٰهين فقط بل علّمنا بالوحي كلَّ ما أراد أن نعلّمه من الكون، فالكتاب المقدس يحتوي من المعرفة على المقدار الذي قُدِّر للبشر أن ينالوه، فجميع ما جاء في الكتب السماوية من وصف السماء والأرض، وما فيها، وتاريخ الأمم بما يجب تسليّمه مها

(١) قامت اللجنة الخاصة بالحكم على الفكر التابعة للكنيسة بإصدار (الإنديكس) أو قائمة الكتب التي تُمنع نشرها وتداولها وكان من ضمنها كتب (كور

نيكوس) و(جاليليو).

(٢) ريبوني [م. س.] ص ١٠٣.

(٣) وايت [م. س.] ص ٧٩، ٨٠.

عارضَ العقلَ أو خالفَ شاهدَ الحسِّ، فعلى الناس أن يُؤمّنوا به أولاً، ثم يجتهدوا ثانياً في حمل أنفسهم على فهمه" (١).

ولأنّ الأوروبيين أعلمُ بشؤون بلادهم وأعلمُ بتاريخهم وأخبرُ بالجراحات والأذى الذي سبّته لهم الكنيسةُ فقد رفضت أكبرُ جامعةٍ إيطاليةٍ استقبالَ بابا الفاتيكان بنديكثوس السادس عشر عندما همّ بزيارتها وتعرّضت شخصيتهُ للاستهزاء والسخرية، فما كان منه إلا أن تراجع عن زيارته لهذه الجامعة، وهي جامعة (الأسابينتسا) جامعة روما الأولى.

"وكلُّ ما استطاع البابا أن يفعله هو التراجع عن زيارة الجامعة، وسط سُخريةٍ وتهكُّمٍ أهل العلم التجريبيّ والفيزياء والأجيال الجديدة من الطلبة. حيث قال رئيس قسم الفيزياء في جامعة روما الأولى "جان كارلو رووكو"، وهو القسم الذي تزعم أساتذته وطلبته الاحتجاجات على الزيارة المُلغاة لبابا الفاتيكان، في حديثٍ مع قناة "سكاي تي جي ٢٤" الإخبارية الإيطالية: "تاريخ الصراع بين الفيزياء والكنيسة قديمٌ جداً ولا يزال قائماً حتى الآن" ... وأضاف: "لا نريد العودة إلى تاريخ وجغرافية الكنيسة ... لقد تجاوزنا القرون الوسطى حيث كانت الكنيسة تفرض تاريخاً وجغرافيةً مغلوطين عن تاريخ الكون وشكل الكرة الأرضية" (٢).

"وفي خضمّ الجدل الدائر حول الزيارة المُلغاة لبابا الفاتيكان لجامعة روما الأولى (لاسايننتسا) بمناسبة افتتاح السنة الأكاديمية، قالت وزيرة التجارة الخارجية والسياسات الأوروبية "إيما بونينو": "لا أحد يريد أن يُكتم البابا أو يمنع من الكلام ... إنّ ما نشهده يومياً يدعو للقلق، فالوحيد الذي يتكلّم صباح مساء هو البابا وأتباعه بالخزعبلات الكاثوليكية"، وأضافت: "أيُّ شخصٍ يُفكّر بشكلٍ مختلفٍ، أو يتولّى المسؤولية استجابةً لحاجات المواطنين الإيطاليين من أيّ دين كانوا، يجد نفسه في نهاية المطاف بلا صوتٍ، إنّ البابا يريد من الأصوات الأخرى أن تنخرس".

وكان الفاتيكان قد حاول عبثاً دحض الشائعات التي سرت حول إلغاء الزيارة، وأكّدت الدائرة الصحافية للفاتيكان أنّ البابا بنديكث السادس عشر سيزور جامعة روما

(١) عبده، محمد، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ص ٢٧، ط٣، ١٣٤١ هـ، مطبعة المنار، مصر.

(٢) مجلة المجتمع، العدد ١٧٨٨، بتاريخ ٢٠٠٨/٢/٩.

الأولى (لاساينتسا) يوم الخميس ١٧ كانون الثاني ٢٠٠٨م، وقال الأب "تشيرو بينيديتيني" نائب مدير الدائرة الصحفية: "سيقوم البابا بالزيارة وليس هناك أي تغيير سيطراً عليها".

وقد أعلن الفاتيكان إلغاء زيارة البابا إلى حرم جامعة روما الأولى، وأصدرت الباز الصحافية في الفاتيكان بياناً رسمياً جاء فيه: نظراً للوقائع التي شهدتها الأيام الماضية فيما يتعلق بزيارة الأب الأقدس إلى جامعة روما الأولى للدراسات (لاساينتسا) بدعوة من رئيسها فقد اغتبر أنّ من الملائم إرجاء الزيارة" وختم بالقول: "وسيقوم الأب الأقدس بإرسال كلمته على أية حال"^(١).

ونشير هنا إلى أن إلغاء زيارة البابا إلى جامعة روما الأولى بعد إصدار أكثر من ستين استاذاً في الجامعة نفسها نداءً اعتبروا فيه زيارة رأس الفاتيكان إلى جامعة علمية أمراً "غير لائق"، بينما أعلن تجمع طلابي واسع النطاق في الجامعة أسبوعاً لـ "مناهضة الإكليروس".

"وكان من ردود أفعال الكنيسة ما أطلق عليها رئيس أساقفة روما الكاردينال "كاميللو رويني" دعوة لكل المؤمنين لحضور "صلاة الملاك" الأحد ٢٠ كانون الثاني ٢٠٠٨م في ساحة كنيسة القديس بطرس، لإظهار تلاحمهم وتأييدهم للبابا "بنديكست السادس عشر". وقال في بيان صادرٍ عن الكاردينال: إنه "تابع خطوة بخطوة بالتعاون مع أعضاء وهيئات الكرسي الرسولي الأحداث المؤسسة التي أرغمت الأب الأقدس على إلغاء زيارته لجامعة روما الأولى، والتي دُعي إليها منذ وقت طويل" ... وتابع: "وفي هذه الظروف المخزنة والمؤثرة على المدينة بأكملها، نُعبرُ كنيسة روما عن قربها من أسقفها البابا وترفع صوتها مُعلنَةً حُبها وتقديرها وامتنانها له وملكانته التي تحتل قلوب سكانها..

وكان الرد سريعاً وحاسماً من أساتذة وطلبة الجامعة على حملة الفاتيكان ضدهم: لم نحرق أحداً. ونسبة الغلط إلى المخالفين وإلى حدّ الهرطقة وما يترتب عليها أمرٌ معروفٌ ومعهودٌ في تاريخ الكنيسة"^(٢).

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) المرجع السابق نفسه.

وفي ختام ردنا على فرية وشبهة عدم اتفاق القرآن مع العقل، ندكرّ الرهبان الطاعنين بقول الراهب مارتن لوثر مؤسس المذهب البروتستانتى: أنت لا تستطيع أن تقبل كلاً من الإنجيل والعقل، فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر ... "إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التي كشف لنا الله عنها في كلمته أمام العقل مستحيلة تماماً ومنافية للمعقول وزائفة. فإذا كيف يعتقد ذلك الأحق الصغير الماكر^(١) أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يُعطينا جسده لناكله ودمه لنشره في العشاء الأخير؟ ... أو أن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء وولدت ثم غدا رجلاً يتعذب ثم يموت ميتة مُججلة على الصليب؟ ... إن العقل هو أكبر عدو للإيمان"^(٢).

النُشْهُةُ الخَامِسَةُ والعشرون ودفعها

يزعمُ محمدٌ أن الله يصلي عليه!! وكيف لعقلٍ أن يتخيّل قيامَ الربِّ بأداء الصلاة على واحدٍ من الذين خلقهم؟؟

- إنَّ نما توهّمته عقولُ الرهبان الطّاعنين أنّ الله تعالى يُصلي على محمدٍ ﷺ بهيئة الصلاة المعروفة الظّاهرة في صلوات المسلمين!!.

وفي هذا التوهّم دلالة واضحة على ضحالة فهمهم للإسلام وسوء تصوّرهم له. وتوضيح صلاة الله تعالى على حبيبه المصطفى هو التالي:

وردت صلاة الله تعالى على رسولنا الكريم ﷺ في قوله تعالى: " إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا"^(١). وينقل لنا الإمام البخاري، رحمه الله تعالى، في صحيحه تفسير ذلك، فيقول:

(١) يقصد اليايا

(٢) ديورانت، [م. س.].، الكتاب الثالث والعشرين، ص ٥٦ بتصرف.

(٣) سورة الأحزاب، الآية ٥٦.

"قال أبو العالية: صلاة الله ثاؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة: الدعاء. قال ابن عباس: يُصلُّون: يُرْكُون. أي يدعون له بالبركة"^(١).

هذا عن تفسير معنى صلاة الله على النبي ﷺ. أما عن معنى صلاة المؤمنين على النبي ﷺ فيوضحها الحديث الشريف التالي: روى البخاري عن سعيد بن يحيى قال: حَدَّثَنَا أَبِي حَدَّثَنَا مِسْعَرٌ عَنِ الْحَكَمِ عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ كَعْبِ بْنِ عَجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَا السَّلَامُ عَلَيْكَ فَقَدْ عَرَفْنَا، فَكَيْفَ الصَّلَاةُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: قَوْلُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ"^(٢).

النُّبُهَةُ السَّادِسَةُ وَالْعَشْرُونَ وَدَفْعُهَا

كان محمدٌ يُغَيِّرُ خِطَطَهُ حَسَبَ الظُّرُوفِ الَّتِي يُوجَدُ فِيهَا. فعندما كان ضعيفاً في مكة قَدَّمَ الإسلام على أنه دينٌ عربيٌّ، ولَمَّا اشْتَدَّ عَوْدُهُ وَقَوِيَ جَيْشُهُ بَعْدَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ جَعَلَ مُحَمَّدٌ الْإِسْلَامَ دِينًا عَالَمِيًّا.

- تشتمل هذه الفريضة على مَطْعِينِ هَامِيَيْنِ خَطِيرَيْنِ؛ أولهما: مطعُنٌ في أخلاق الرسول الكريم ﷺ واتِّهَامِهِ بِالْمَصْلَحِيَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ إِلَى وَجُودِ الْمَبْدَأِ. وثانيهما: مطعُنٌ في الإسلام، وذلك بوصفه رسالةً خاصَّةً بالعرب وحدهم.

وهذا الكلام مُتَهَلِّكٌ وساقطٌ من عدَّة وجوه أبرزها ما يلي:
١. لن تُجَارِي أولئك الذين يقولون بالتدرُّج في إعلان الإسلام على عالميته فهذا الأمر قد صرَّحت به الكثير من الآيات المكيَّة التي نزلت قبل الهجرة إلى المدينة (واشتداد عود مُحَمَّدٍ عَلَى حَدِّ قَوْلِ الرَّهْبَانِ الطَّاعِنِينَ) ومن هذه الآيات على سبيل المثال لا الحصر.

" تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا " (١).

(١) صحيح البخاري [م. س.]، كتاب التفسير، باب "إن الله وملائكته يصلون على النبي ...".

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) سورة الفرقان، الآية ١.

" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ " (١).

" هَذَا بَلَّغٌ لِّلنَّاسِ " (٢).

وفهم من هذه الآيات أنَّ القرآن الكريم كان واضحاً وصريحاً في الإعلان عن عالمية الدعوة التي يقدّمها للبشرية وأنها ليست خاصةً بقوم ولا بأهل بلدٍ مُعَيَّنَةٍ.

٢. ليس من الصواب الاستدلال على أن محمداً بعث للعرب فقط بدليل أنه كان يتحدّث اللّغة العربيّة، فإنّ الحكمة من إرسال الرسل عموماً بالسنّة أقوامهم ليكون ذلك أبلغ في الفهم بينه وبينهم، حتّى تقوم الحجّة ويحصل البلاغُ وحتّى يكون ذلك أدعى إلى فهم غيرهم.

٣. "لو صحّ أن تقول: إنّ كَوْنَ القرآن عربياً وتحدّث محمدٍ بالعربية دليلٌ على أنه مرسلٌ للعرب فقط وأنّ رسالته خاصّةٌ بهم، لَلزَمَ من ذلك بأنّ المسيحيين مخطؤون في اتّباعهم لأحكام التوراة لأنّها نزلت بغير لسانهم!" (٣).

٤. "ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول دعوته العربيّة بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أنّ مكّة بلدٌ توغّلت في الرّوح القبليّة، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يُعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أنّ القيام بالدعوة في مكّة لا بدّ أن يكون له أثرٌ خاصّ، لِمَا لهذا البلد من مركزٍ دينيٍّ خطيرٍ، فجلبّها إلى حظيرة الإسلام لا بدّ وأن يكون له وقعٌ كبيرٌ على بقية القبائل ... على أنّ هذا لا يعني أنّ رسالة الإسلام كانت في أوارها الأولى محدودةً بقريش، لأنّ الإسلام كما يتجلّى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوةً أولى لتحقيق رسالته العالمية، والواقع أنّ كثيراً من الآيات المكيّة كانت تنصّ على أنّ القرآن "وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

لِّلْعَالَمِينَ" (٤) الأمر الذي يدل على أنّ فكرة الدعوة العالمية كانت قائّمة منذ هذا الوقت المبكّر" (٥).

(١) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية ٥٢.

(٣) الروي [م]، ص [١]، ج ١، ص ٣١٦.

(٤) سورة القلم، الآية ٥٢.

(٥) العمري [م]، ص [١]، ج ١، ص ١٤٣، هُلا عن "دراسة في السيرة" ص ٢٢ لعهاد الدين خليل.

٥. إن الدعوة التي جاءت خاصةً بقوم بعينهم ليست دعوة الإسلام، بل هي دعوة المسيح،

عليه السلام، ويشهد لذلك قوله تعالى: "وَلِذَٰلِكَ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي

رَسُولُ اللَّهِ" (١) كما يشهد لذلك قول المسيح، عليه السلام، "لم أرسل إلا إلى خراف

بيت إسرائيل الضالَّة" (٢). ولكن الذين جاؤوا من بعده أحدثوا أمراً غير هذا، وارتأوا

نشر دعوة المسيح خارج حدود بني إسرائيل فأصبحت الآية "اذهبوا إلى العالم أجمع

واكرزوا بالإنجيل للخليفة كلها" (٣).

ويمكننا من خلال ذلك أن نقول وبكل صراحة: إن المسيح، عليه السلام، قدّم

دعوته في ثوبٍ خاصٍ ببني إسرائيل. ولما اشتدّ عودُ دعوته وكثُرَ عددُ أتباعها والمتعاطفين معها

جعل منها هؤلاء ديناً عالمياً.

ولزبنا يسأل سائلٌ فيقول: لماذا جاهد محمدٌ في المدينة بالقتال والسيف، ولم يفعل

ذلك في مكة؟ أليس هذا تغييراً للخطط وافتقاراً للمبدأ؟؟ والرّد على هذا السؤال سهلٌ

وميسورٌ ولا يختلف عما ذكرناه في النقاط الخمس السابقة؛ فتغييرُ الخططِ يجب أن يفهم في

إطار الحكمة الإلهية في التدبُّح في التشريع، حيث كان من الطبيعي أن يتصرّف الرسول ﷺ

في العهد المكيّ وتحت ضغط المشركين على خلاف تصرّفه في العهد المدنيّ، الذي تأسست فيه

الدولة الإسلامية وبرز فيه المجتمع المسلم بكلّ ما يشتمل عليه من معاملاتٍ وتصرفاتٍ وعمليات

تفاعل اجتماعي وسياسي وثقافي وأخلاقيّ.

كانت تلك أبرز الشبهات والمطاعن والافتراءات التي أثارها الرهبان الكنيسة الغربية

حول الإسلام ونبوة الحبيب المصطفى ﷺ. وحقائق الأمر أنّ المطاعن والشبهات أكثر من

ذلك عدداً، ولكن اختيارنا وقّع على أبرزها وأخطرها، وذلك لما لها من شهرة وتداول عبر

العصور والأزمنة، ولما لبعضها من تأثير في نفوس بعض العوام من المسلمين. مع التذكير بأنّ

هذه الشبهات قد أثارها الرهبان الكاثوليك وغيرهم من البروتستانت والآرثوذكس.

(١) سورة الصف، الآية ٦.

(٢) متى: ١٥: ٢٤

(٣) مرقس: ١٦: ١٥.

وَكُنَّا قَدْ عَمَدْنَا إِلَى دَمَجِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ وَذَلِكَ لِتَقَارِبِهَا وَتَدَاخُلِهَا فِي الْمَضْمُونِ وَالْمَحْتَوَى.
وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ نَكُونَ قَدْ وَفَّقَنَا فِي عَرْضِهَا وَقُدِّمْنَا فِي نَقْضِهَا، مُبْدِينَ الْإِسْتِعْدَادَ
الْكَامِلَ لِقَبُولِ كُلِّ إِضَافَةٍ قَدْ تَطَرَّقَ عَلَيْهَا أَوْ تَلَحُّقٍ بِهَا، فَنَهَايَةَ هَذَا الْبَحْثِ وَهَذِهِ الدِّرَاسَةَ لَا تَعْنِي
أَبْدَاءَ تَوْفِّقُنَا عَنِ الدِّرَاسَةِ وَالْبَحْثِ.

وختاماً، نذكر القاريء الكريم، إن رغب في الاستزادة، بالرجوع إلى ما خطه
علمائنا الأفاضل قديماً وحديثاً، جزاهم الله خيراً، في كتبهم ومؤلفاتهم وبالذات تلك التي
أوردناها في المبحث الأخير من هذه الدراسة.

الخاتمة

خلصت هذه الدراسة المتواضعة إلى مجموعة من النتائج كان من أبرزها ما يلي:

أولاً: إن نشأة الاستشراق كانت دينية الدافع، وكانت الكنيسة الكاثوليكية ورهبانها المحرك والداعم له، وذلك في واحدٍ من فصول حربها المعلنة ضد الإسلام والمسلمين؛ تلكم هي الحرب الإعلامية التضليلية التي اختارتها الكنيسة ولجأ إليها رجالها بعد العجز المبين لهم ولجيوشهم الصليبية أمام الآلة العسكرية الإسلامية في العصور الوسطى. ثانياً: كانت البداية الحقيقية للاستشراق على المستوى الفردي في الغرب على يد الراهب الكاثوليكي الفرنسي جريردي أولياك الذي اشخَب لاحقاً حبراً أعظم لكنيسة روما وحمل لقب سلفستر الثاني في العام ٩٩٩م. كان هذا الراهب أول المشتغلين بعلم الشرق.

ثالثاً: كانت البداية الرسمية للاستشراق في المجمع الكنسي المتعقد في فيينا بين عامي ١٣١١ و١٣١٢ للميلاد والذي نصّ قانونه رقم (١١) على تدريس اللغات الشرقية في أكبر خمس جامعاتٍ أوروبية آنذاك، كما نصّ على تخصيص مدرّسين كاثوليكين لكل واحدةٍ من هذه الجامعات الكبرى ليقوما بتدريس اللغة العربية.

رابعاً: يُعتبر بطرس المجلّ رئيس ديركلوني أول من وضع ترجمة لاتينية للقرآن وكلف بذلك فريق عملٍ مكوناً من الراهبين روبرت الكيتوني ومساعدته هرمان دلماتا، وقد تقصّد فيها التشويه والتحريف والمغالطة. ولعلّ ما نراه فاجعةً وطامةً كبرى فيما يتعلق بهذه الترجمة، إضافةً لمضمونها وأهدافها، هو أنها ظلّت طوال خمسة قرون الأكثر استعمالاً وعليها تقوم أقدم ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات الإيطالية والألمانية والهولندية. ولم تجر إزاحة ترجمة القرآن اللاتينية لروبرت الكيتوني بسبب ترجمة الإيطالي لودفيكو مزانثي إزاحةً نهائيةً إلا في عام ١٦٩٨م إذ كانت هذه أفضل وأكثر دقةً بما لا يُقاس.

خامساً: اتّخذ الاستشراق الديني لنفسه ثياباً وقنواتٍ جديدةً يصل من خلالها إلى الذهنية الغربية ليكرّس من خلالها الصورة المؤلمة السابقة التي رسمها عن الإسلام والرسول الكريم ﷺ. وقد تطلب الواقع المعاصر وجود هذه القنوات الجديدة بعد أن ضعفت سلطان الكنيسة في النفوس، وبعد أن تحرّز الغرب من مركزها وسلطانها واتخذ

العلمانية درياً وحيداً للنهضة والتقدم. وهذه القنوات كثيرةٌ متعدّدة أبرزها قناتان؛
أولاهما القناة الأكاديمية الجامعية وثانيها قناة وسائل الاتصال والإعلام.
سادساً: كان الاستشراق وبكل مدلولاته ومضامينه مهنّة ملوّثة، لأنها قامت من بدايتها على
قلب الحقائق وتشويه الوقائع واستخدام كلّ وسيلة ممكنة لمحاربة القرآن الكريم
والحبيب المصطفى ﷺ وللقضاء على كلّ ما جاء به هذا الإسلام العظيم.
ثامناً: إنّ الجهود المسيحية المتعلّقة بالتأليف الجدليّ اللاهوتيّ الطاعن في الإسلام ونبوّته ﷺ،
التي بدأت في العصور الوسطى توالى واستمرّت حتى وصلت يومنا هذا مع
زياداتٍ عليها تتعلّق بالمضمون والشكل ووسائل الاتصال.
تاسعاً: حظيت الأندلس بنصيب الأسد من كتابات العلماء المسلمين الذين جادلوا النصارى
وأفحمهم وردّوا على تساؤلاتهم أو شبهاتهم وأباطيلهم. وهذا لا يعني انحصار الجهود
في الأرض الأندلسية وحدها، فقد نهضت الشام هي الأخرى لتأخذ نصيبها من
هذه الجهود، كذلك نهض علماء أرض الحجاز وأرض الكنانة ليقوموا بواجبهم في هذا
الموضوع. ولكنّ الأندلس تبقى صاحبة الأسبقية والألمعية في هذا الشأن، وذلك
راجعٌ لوقوعها على الحدود المباشرة مع القارة الأوروبية المسيحية، كما أنّه راجعٌ إلى
ترؤس الكنيسة الإسبانية ورهبانها للحرب العقديّة والفكرية ضدّ الإسلام وذلك
بعد وقوع إسبانيا في ظلّ الفتح الإسلاميّ آنذاك.
عاشراً: عاشت الأندلس سنواتٍ طويلةً من الجدل الدينيّ بين المسلمين وغيرهم من أصحاب
الأديان السهاوية، وبالذات أتباع الكنيسة الكاثوليكية من الرهبان والقساوسة الذين
أخذوا على عاقبتهم إعلان الحرب العقديّة والفكرية ضدّ الإسلام، وذلك من خلال
ما خطّوه في أديرتهم من مؤلفاتٍ كثيرة العدد اشتركت كلّها في قاسمٍ واحدٍ هو
تكذيب كلّ ما جاء به محمدٌ من القرآن والعقائد والشرائع. وكانت مؤلفات الرهبان
هذه، في كثيرٍ من الأحيان، تُكتَب في الخفاء وتُحفظ في الأديرة أو مكتبات
الكنائس في ظلّ الحرية الكبيرة التي منحتها الدولة الإسلامية لغير المسلمين آنذاك.
حادي عشر: لا مجال للشكّ في تقدّم الإسلام في الغرب وتراجع المسيحيّة الكاثوليكية التي
يزداد على مدار الساعة عددُ المعتنقين من أبنائها للإسلام ازدياداً كبيراً متنمياً،
ولعلّ هذا الازدياد يُعتبرُ المفتاح الرئيسيّ لفهمنا لما سبق من تعليقاتٍ وحملاتٍ
ومحارباتٍ يتعرّض لها الإسلام بين الحين والآخر، نعم لقد عاد الإسلام ليتألق من
جديدٍ وليكون سبباً في إثارة قلقهم ومخاوفهم، هذه المخاوف التي عبّر عنها الكاردينال

"جان لوي توران" مسؤول الفاتيكان المعنيّ بشؤون العلاقات مع الأديان الأخرى حين قال: إنّ العالم مهووس بالإسلام ... لا نريد أن يتنامى الانطباع بأنّ الأديان ذات وضعٍ طبقيّ، أو أنّ هناك ديناً أفضل من آخر ... إن الإسلام مهمٌ للغاية، ولكن هناك أيضاً دياناتٌ آسيويةٌ عظيمةٌ أخرى، والإسلام دين واحدٌ... بالفعل إن الناس مهووسون بالإسلام.

المراجع

أولاً: المراجع باللغة العربية

١. أحمد ديدات ومايكل هارت، محمد ﷺ أعظم عظماء العالم، ترجمة علي الجوهري، ط ١، ٢٠٠٠، مكتبة القرآن، القاهرة.
٢. آرمسترونج، كارين، الحرب المقدسة، الحملات الصليبية وأثرها على العالم اليوم، ترجمة سامي العكهي، ط ١، ٢٠٠٤، دار الكتاب العربي.
٣. آرمسترونج، كارين، سيرة النبي محمد، ترجمة فاطمة نصر ومحمد عناني، ط ١، ١٩٨٩، دار الكتاب العربي، القاهرة.
٤. الآرو، عبد الرزاق عبد المجيد، مصادر النصرانية دراسةً ونقداً، ج ٢، ط ١، ٢٠٠٧، دار التوحيد للنشر، الرياض.
٥. آل معمر، عبد العزيز بن حمد، منحة القريب المجيب في الردّ على عبادة الصليب، ط ١، ١٩٧٨، دار هيف للنشر، الطائف.
٦. الألباني، محمد ناصر الدين، نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق ط ١، ١٩٥٢، المكتب الإسلامي، دمشق.
٧. الألويسي، نعان بن محمود، الجواب الفسيح لما لفقّه عبد المسيح، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، ط ١، ١٩٩٢، دار الجيل، بيروت.
٨. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، دون رقم طبعة، ٢٠٠٤، دار الحديث، القاهرة.
٩. بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، ط ١، ١٩٨٤، دار العلم للملايين، بيروت.
١٠. البهي محمد، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ط ٣، مكتبة وهبة.
١١. بوكاي موريس، التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ترجمة نخبة من الدعاة، ط ١، ١٩٧٨، دار الكندي، لبنان.
١٢. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، الجامع، تحقيق عادل مرشد، ط ١، ٢٠٠١، دار الأعلام، الأردن.
١٣. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، الجواب الصحيح لمن بَدل دين المسيح، تحقيق وتقديم محمد حسن إسماعيل، ط ١، ٢٠٠٣، المكتبة العلمية، بيروت.

١٤. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق الأستاذ / الدكتور محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
١٥. الجبري، عبد المتعال، السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، ط ١، ١٩٨٨، مكتبة وهبة، مصر.
١٦. الجزيري عبد الرحمن، أدلة اليقين في الردّ على كتاب ميزان الحقّ وغيره من مطاعن المبشرين المسيحيين في الإسلام، ط ١، ١٩٣٤، مطبعة الإرشاد، مصر.
١٧. الجليند، محمد السيّد، الاستشراق والتبشير قراءة تاريخيّة موجزة، ط ١، ١٩٩١، دار قباء، القاهرة.
١٨. جورافسكي، إليكسي، الإسلام والمسيحية من التنافس والتصادم إلى الحوار والتفاهم، ترجمة خلف محمد الجراد، ط ١، ٢٠٠٥، دار الفكر، بيروت.
١٩. الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله أبو عبد الله، المُستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، ١٩٩٠، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٠. حبشي، حسن، الحرب الصليبيّة الأولى، ط ١، ١٩٥٨، دار الفكر العربي، القاهرة.
٢١. حبيب عبد الملك بن حبيب، الناسخ والمنسوخ بين الكتاب المقدّس والقرآن الكريم، بحث منشور في موقع شبكة ابن مريم الإسلامية، النسخة الإلكترونية.
٢٢. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، المقدمة ط ١، ٢٠٠٧، دار القلم، دمشق.
٢٣. الخزرجي، أحمد بن عبد الصمد، مقام الصلبان، تحقيق وتقديم عبد الحميد الشرفي ط ١، ١٩٧٥، من منشورات الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس.
٢٤. الخطيب، محمد أحمد، الفرق الإسلامية، ط ١، ١٩٩٦، منشورات جامعة القدس المفتوحة، الأردن.
٢٥. الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل، سنن الدارمي، تحقيق د. مصطفى البغا، ط ١، ١٩٩١، دار القلم، دمشق.
٢٦. داود، عبد الأحد، محمد في الكتاب المقدّس، ترجمة فهمي شتاء، من منشورات رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ١٩٨٥، قطر.
٢٧. ديورانت، ول، قصّة الحضارة، الكتاب الخامس، ترجمة عبد الحميد يونس، طبعة الإدارة الثقافية وجامعة الدول العربيّة.

٢٨. الراسي، زيادة بن يحيى، البحث الصريح في أيما هو الدين الصحيح، تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف، ط١، ٢٠٠٣، منشورات الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
٢٩. رستم، أسد، كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى، ج١، بتصرف، مطبعة دار الفنون، تاريخ النشر مجهول.
٣٠. الرومي، سليمان بن عبد الله بن صالح، دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية ط١، ٢٠٠٧، مكتبة الرشد، الرياض.
٣١. ريبوني، إنريكو، الإلحاد وأسبابه "الصفحة السوداء للكنيسة" ترجمة د. زينب عبد العزيز، ط١، ٢٠٠٤، دار الكتاب العربي، مصر.
٣٢. زاريف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، ط١، ١٩٦٨، دار التقدّم، موسكو.
٣٣. الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٤. الزعبي، سلافة فاروق، صورة العرب في الإعلام الأمريكي، ط١، ٢٠٠٦، دار ورد للنشر والتوزيع، الأردن.
٣٥. زقزوق، محمود حمدي، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري بلا تاريخ نشر ولا رقم طبعة، دار المعارف، القاهرة.
٣٦. زقزوق، محمود حمدي، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين، من منشورات المجلس الأعلى للشؤون الإسلامي. النسخة الإلكترونية.
٣٧. الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط١، ١٩٨٦، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣٨. زناقي، أنور محمود، معجم اقتراءات الغرب على الإسلام والردّ عليها، النسخة الإلكترونية.
٣٩. السجستاني، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تحقيق عادل مرشد وسليم عامر، ط١، ٢٠٠٣، دار الأعلام، عمان.
٤٠. سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، ط١، ١٩٨١، من منشورات مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت.
٤١. السقار، منقذ بن محمود، شبهات النصارى حول الإسلام، بحث منشور في صفحة المؤلف في موقع صيد الفوائد الإلكتروني.

٤٢. سودرن، ريتشارد، صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة رضوان السيّد، بتصرف ط ١، ١٩٨٤، من منشورات معهد الإنماء العربي، لبنان.
٤٣. السيوطي، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين، الدر المنثور في التفسير المأثور، ط ١، ١٩٨٣، دار الفكر، بيروت.
٤٤. الشرفاوي، محمد عبد الله، رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها. ط ١، ١٩٨٦، مكتبة دار الصّحوة، القاهرة.
٤٥. الصّوا، علي محمد وآخرون، العلوم الإسلامية، ط ٣، منشورات وزارة التربية والتعليم، الأردن.
٤٦. أبو طالب، نصر الله عبد الرحمن، تبشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله محمد ﷺ، ط ٢، كتاب منشور على موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة
www.55a.net
٤٧. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، ط ٢، ١٩٦٧، دار سويدان للنشر، بيروت.
٤٨. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، جامع البيان في تفسير القرآن، ط ١، دار المعرفة، بيروت.
٤٩. العبادي، زياد سليم، بحث غير منشور بعنوان (خبر بحيرا الراهب في ميزان النقد الحديث).
٥٠. عبد الرؤوف، حسام الدين صبري، الضياء المين في الرد على المضللين، ج ١ شبهة تعدد زوجات النبي، النسخة الإلكترونية.
٥١. عبد العزيز زينب، محاصرة وإبادة، موقف الغرب من الإسلام، ط ١، ١٩٩٣، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.
٥٢. عبد المحسن، عبد الرازي محمد، الغارة التنصيرية على أصالة القرآن الكريم، بحث من بحوث ندوة العناية بالقرآن الكريم وعلومه المنشورة في موقع المفكرة الدعوية الإلكتروني.
٥٣. عبده، محمد، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ط ٣، ١٣٤١ هـ، مطبعة المنار، مصر.
٥٤. عربي، محمد ياسين، الاستشراق وتغريب العقل التاريخي العربي، ط ١، ١٩٩١، من منشورات المجلس القومي للثقافة العربية.

٥٥. العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دون رقم طبعة، ٢٠٠٤، دار الحديث، القاهرة.
٥٦. عسكر، عبد الله بن إبراهيم، الجدل الديني في الأندلس، دراسة مطولة نشرها قسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض بتاريخ ٢٣/٣/٢٠٠٨.
٥٧. عقيقي، نجيب، المستشرقون، الجزء ١٢، ط ٣، ١٩٦٤، دار المعارف، القاهرة.
٥٨. عمارة، محمد، الفاتيكان والإسلام، أهي حماقة أم عداء له تاريخ، ٢٩، ط ١، ٢٠٠٧، مكتبة الشروق الدولية، مصر.
٥٩. عمارة، محمد، في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، ط ٢، ٢٠٠٧، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة.
٦٠. العمري، آرم ضياء، السيرة النبوية الصحيحة، ط ٧، ٢٠٠٧، مكتبة العبيكان، الرياض.
٦١. عناية، غازي، هُدى الفرقان في علوم القرآن، ج ٢، ط ١، ١٩٩٦، عالم الكتب للنشر والتوزيع، بيروت.
٦٢. عودة، علي بن محمد، العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيه محمد، بحث منشور في موقع نصره رسول الله، النسخة الإلكترونية.
٦٣. عوض، إبراهيم، عصمة القرآن وجماليات المبشرين، ط ١، ٢٠٠٥، مكتبة الزهراء، القاهرة، النسخة الإلكترونية.
٦٤. عوض، إبراهيم، مصدر القرآن دراسة لشبهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي، ط ٨، ١٩٩٧، مكتبة الزهراء، القاهرة، النسخة الإلكترونية.
٦٥. الغرابي، علي مصطفى، تاريخ الفرق الإسلامية، ط ٢، ١٩٨٥، مكتبة الانجلو، القاهرة.
٦٦. الفراء، محمد علي، الإسلام والغرب مواجهة أم حوار، ط ١، ٢٠٠٢، دار مجدلاوي للنشر، الأردن.
٦٧. فوك، يوهان، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم، ط ١، ١٩٩٦، دار قتيبة، دمشق.
٦٨. القاضي أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، كتاب الخراج، ط ١، ١٩٢٧، المطبعة السلفية، القاهرة.

٦٩. القرافي، أحمد بن أدريس، الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة، تقديم وتحقيق وتعليق الدكتور بكر زكي عوض، ص ٤٧، ط ١، ١٩٨٦، الناشر [المحقق]، القاهرة.
٧٠. القرآن الكريم.
٧١. القزويني، أبو عبد الله محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، المكتبة العلمية، بيروت.
٧٢. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، أحكام أهل الذمة، ط ١، ١٩٩٧، دار ابن حزم، بيروت.
٧٣. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، تحقيق عصام الحرساني، ط ١، ١٩٩٤، المكتبة الثقافية، بيروت.
٧٤. الكتاب المقدس، ط ٨، ١٩٦٩، منشورات دار المشرق، بيروت.
٧٥. الكتاب المقدس، دون رقم طبعة، ١٩٦٠، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
٧٦. ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ط ١، ١٩٨٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٧٧. كوزنلن، جوتفرايد، مازق المسيحية والعلماية في أوروبا، تجربة المانية، ط ١، ١٩٩٩، دار نهضة مصر، القاهرة.
٧٨. لويون، غوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، عيسى البايي الحلبي، واختصار ط ٢، ١٩٥٦، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.
٧٩. لويس، برنارد، الاستشراق بين دعائه ومعارضيه، ترجمة هاشم صالح، ط ٢، ٢٠٠٠، دار الساقي، بيروت.
٨٠. الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ١٨٣، ط ١، ١٩٨٥، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨١. المحص، عبد الجواد، أباطيل الخصوم حول القصص القرآني عرض ومناقشة، ط ١، ٢٠٠٠، الدار المصرية، مصر.
٨٢. مرسي، أكرم حسن، ردّ الشهام عن خير الأنام محمد عليه الصلاة والسلام، النسخة الإلكترونية.
٨٣. مسير، محمد سيد أحمد، المدخل لدراسة الأديان، ط ١، ٢٠٠١، دار الندى، مصر.

٨٤. مطبقاني، مازن بن صلاح، الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي، ط١، ١٩٩٥ من منشورات مؤسسة الملك فهد الوطنية.
٨٥. المطعني، عبد العظيم إبراهيم، الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، ط١، ١٩٨٧، دار الوفاء السعودية.
٨٦. الملا، جاسم ناصر عبد الرزاق، الإسلام والغرب دراسات في نقد الاستشراق، ط١، ٢٠٠٤، دار المناهج، عمان.
٨٧. النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، دون رقم طبعة ودون سنة طبع، طبعة مكتبة الإيمان، مصر.
٨٨. هاشمان، لودفيغ، المسيحية ضد الإسلام حوار انتهى إلى الاخفاق، ترجمة محمد جديد، ط٢، ٢٠٠٥، قدمس للنشر، سوريا.
٨٩. الهندي، محمد رحمت الله الكيرانوي، إظهار الحق، ط١، ١٩٨٣، طبعة إدارة إحياء التراث الإسلامي، الدوحة، قطر.
٩٠. هيكل، محمد حسين، حياة محمد، من منشورات وزارة الثقافة الأردنية، ط١، ٢٠٠٨، عمان.
٩١. وايت، أندرو ديكسون، بين العلم والدين، ترجمة إساعيل مظهر، ط١، ١٩٣٠، دار العصور، مصر.

ثانياً: مراجع شبكة الإنترنت

- . إساعيل شعبان الأزهرى، قصة الغرائق في الميزان، بحث منشور في موقع الشبكة الإسلامية الإلكتروني www.islamweb.net بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢.
- . الحسن السّرات، عرض كتاب "الإنترنت والدين" لجان فرانسوا ماير، مقالة منشورة في موقع www.aljazeera.net.

راغب السرجاني، عدم دموية الحروب النبوية، دراسة منشورة في موقع المركز العالمي للتعريف بالرسول ﷺ ونصرته www.mercyprophet.org.
زينب عبد العزيز، أفيقوا أيها المسلمون، مقالة منشورة في موقعها الإلكتروني www.dr-abdelaziz.com.
زينب عبد العزيز، مقالة بعنوان (ردّ الفاتيكان على خطاب آل ١٣٨ مقالة تحليلية) منشورة في موقع وكالة الأخبار الإسلامية (نبأ) www.islamicnews.net بتاريخ ٢٠٠٧/١٢/١٠.

عبد الرحيم الشريف، افتراء وردّ: مصدر القرآن الكريم هي الشياطين، بحث منشور في موقع شبكة الحقيقة الإسلامية الإلكتروني www.trutheye.com بتاريخ ٢٠٠٧/١/١٣.

عبد الله أبو حفص النقي، هل القرآن هو كلام محمد؟ مقالة منشورة في موقع www.maktoblog.com بتاريخ ٢٠٠٨/١١/٢٧.

عصام بن أحمد، هل مارس رشدي الجنس مع ملكة بريطانيا؟ مقالة منشورة في موقع www.dedaatwordpress.com.

عقيل عبد الله الإزريقي، تكريم الغرب لرشدي مكافأة له أم احتقار للمسلمين؟ مقالة منشورة في موقع شبكة النبأ المعلوماتية www.annabaa.org بتاريخ ٢٠٠٧/٦/٢٥.

علي بن محمد عودة، العدوان الفكري الغربي على الإسلام وعلى نبيّه محمّد، دراسة منشورة في موقع نصره رسول الله www.nosra.islammemo.com.

مازن المطبقاني، حقيقة نهاية الاستشراق. دراسة منشورة في الموقع الإلكتروني لمركز المدينة المنورة لدراسات وبحوث الاستشراق www.madinacenter.com.

مجمع الفقه الإسلامي، القرار رقم ١٥٤ (١٧٧/٣) بشأن موقف الإسلام من الغلوّ والطرّف والإرهاب. منشور في الموقع الإلكتروني للمجمع www.fiahacademy.org.

مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا، بيان من مجمع فقهاء الشريعة بأمريكا ردّاً على اتهامات البابا، البيان منشور في موقع المجمع www.amjaonline.com.

. محمد حمادي الفقير التمساني، تاريخ حركة ترجمة معاني القرآن الكريم من قِبَل
المستشرقين ودوافعها وخطرها. دراسة منشورة في موقع شبكة التفسير
والدراسات القرآنية www.tafsir.org.

. محمد عبد العزيز الهواري، شبهة زواج النبي ﷺ من عائشة وهي صغيرة السن،
مقالة منشورة في موقع www.shareah.com بتاريخ ٢٧/٣/٢٠٠٨.
ناديا سعد، أحمد ديدات فارس الدعوة وقاهر المنصرين. دراسة منشورة في موقع
www.bnyaan.net وموقع www.defensearab.com.
. يوسف عبد الرحمن، الردّ على شبهة أنّ النبيّ تلقى القرآن عن ورقة بن نوفل،
مقالة منشورة في موقع www.alhakeah.com بتاريخ ٢٤/٦/٢٠٠٨.